

مجلة الفكر والفن المعاصر

لقلعة

العدد (١٣٩) يونية ١٩٩٤

هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزي زكي بطرس

التاريخ
يتفكر
من
جنوب
أفريقيا

نحن
وإسرائيل
التحدي
والمستقبل



جورج قنواتي : الراهب الفيلسوف الإسلامي

يونسكو : الضحك يواجه الموت

الْقَاهِرَة

مجلة الفكر والفن المعاصر

شهرية تصدر يوم ١٥ من كل شهر. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب



دوريات إسكندرية



العدد (١٣٩) يونية ١٩٩٤

الثمن فى مصر : جنيهان

رئيس مجلس الإدارة

سمير سرحان

رئيس التحرير

غالى شكرى

مدير التحرير

عبد جبير

المستشار الفنى

حلمى التونى

السكرتارية الفنية

التحرير

مهدي محمد مصطفى

التنفيذ

صبرى عبد الواحد

مادلين أيسوب فرج

المحررون

فتحى عبد الله

السماح عبد الله

العراق - ١٥٠٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ دينار - قطر ١٠ ريال - البحرين ١,٥٠٠ دينار - سوريا ٧٥ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٢٥٠ دينار - السعودية ٢٠ ريال - السودان ٤٧٠٠ ق - تونس ٤ دينار - الجزائر ٢٨ دينار - المغرب ٤٠ درهما - اليمن ١٠٠ ريال - ليبيا ١٦٠ دينار - الإمارات ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥٠٠ ريال - غزة والضفة والقدس ٢٥٠ سنتا - لندن ٤٠٠ بنس - الولايات المتحدة دولاران.

الاشتراكات فى مصر :

عن سنة (١٢ عددا) ٢٤ جنيه مصرى شاملا البريد.

الاشتراكات من الخارج [عن سنة ١٢ عددا] :

● البلاد العربية: افراد ٣٠ دولار، ميثاق ٥٢ دولار شاملة مصاريف البريد.

● أمريكا وأوروبا: افراد ٤٨ دولار، ميثاق ٧٠ دولار شاملة مصاريف البريد.

العنوان: مجلة القاهرة - جمهورية مصر العربية - القاهرة -

١١١٧ كورنيش النيل - فاكس ٧٥٤٢١٣ ت/ ٥٧٨٩٤٥٥

المادة المنشورة مكتوبة خصيصا للمجلة، وتعتبر عن آراء اصحابها

ولا ترد فى حالة عدم النشر. المراسلات باسم رئيس التحرير.

المراجعات	٥
الفصل في الغايات	٧٢
المراجعات	١٤١
الإيقاعات والروائح	١٩٥

من المقرر نحو ميثاق ضد التطبيع الثقافي

الشخصى عليه من أكبر مجموعة من المثقفين في جميع أنحاء البلاد والمتنمين إلى مختلف الاتجاهات والأجيال .

● وفي غياب مؤتمر عام للمثقفين يجب عرضه والتوقيع عليه من الهيئات الثقافية الأهلية المختلفة كلجنة الدفاع عن الثقافة القومية والأنثوية واتحاد الكتاب ونقابة الصحفيين والنقابات الفنية الأخرى والجمعيات الثقافية في العاصمة والأقاليم والمؤسسات الثقافية في جميع الأحزاب إن وجدت ونوادي أعضاء هيئة التدريس في الجامعات ، وأية هيئات أخرى لها أية صلة بالثقافة .

● ولابد من تبني لجنة مصفرة تتابع الخروج على هذا الميثاق بعد إعلانه حتى يكون للرأي العام الثقافي موقف عملي محدد إزاء أية واقعة يخرج فيها أحدهم على الإجماع .

إن هذا المشروع مبادرة تضاف إلى مبادرات سابقة كانت تكثف بالتدريج والإدانة والتعميم ، بينما نرجو للمشروع الجديد أن يتحول إلى مؤسسة للضمير الثقافي .

وعرب فقط ، وتتخذ صفة الحوار العربي الإسرائيلي .

٤ - رفض الإدلاء بأية تصريحات ، أو إجراء مقابلات مع الإعلام الإسرائيلي .

٥ - رفض نشر وتوزيع أعمال المبدعين المصريين داخل إسرائيل .

٦ - عدم المساهمة في مهرجانات سينمائية أو مسرحية أو فنية داخل إسرائيل ، وكذلك رفض إقامة معارض تشكيلية لفنانين مصريين داخل إسرائيل .

إننا نتوقع المزيد من محاولات التطبيع الثقافي يقوم بها العدو معنا ، وطرق وأشكال عديدة ، تتفرع عن الخطوط العريضة آنفة الذكر . لذلك فإن وعيداً وضماناً ستظل جميعاً بوصفنا الحساسة في معرفة جادة الصواب ضد التطبيع ، والحفاظ على موقفنا العادل الإنساني المعبر عن مصالح شعبنا .

قام بكتابة وتوقيع هذا «الميثاق» فريق من المثقفين المصريين . وهو إذا كان يعبر فعلاً عن ضمير الرأي العام الثقافي في مصر ، فإن «القاهرة» وهي تتبناه نصاً وروحاً ، تورد فيما يلي مجموعة من الملاحظات استكمالاً للعناية والتأثير والمشروعية حتى تتحول الكلمات إلى قيم معيارية يقاس بها فكر وسلوك المثقفين :

● يجب اعتبار هذا الميثاق مجرد مشروع للميثاق بعد التوقيع

منذ توقيع اتفاقية غزة أريحا في الشهر المنصرم ، والعدو الإسرائيلي يكلف محاولاته للتطبيع مع الكتاب والمثقفين والمبدعين المصريين ، بمختلف تياراتهم وتلاويهم الفكرية .

ونحن الكتاب والمثقفين والمبدعين المصريين ، نعلن عن إصرارنا على رفض كل أشكال التطبيع والتعامل مع إسرائيل ، انطلاقاً من عصرية هذه الدولة الإستيطانية ، وعصرية ثقافتها ، ودورها التاريخي في إشعال حروب الإبادة ضد شعوبنا العربية .

إن إسرائيل ما زالت تصر على أن حدود دولتها تبدأ من النيل وتنتهي إلى الفرات ، وهي ما زالت تحتل الجيوب اللبنانية ، ومرفعات الجولان السورية ، وتقمع انتفاضة الشعب الفلسطيني بوحشية ، وتصر على أن القدس عاصمة أبدية لها .

ونحن الكتاب والمثقفين والمبدعين المصريين ، استناداً إلى وعيدنا بمصالحنا القومية ، واستناداً إلى ضماناتنا الأخلاقية ، نعلن عن ميثاق شرف فيما بيننا ، نرفض من خلاله كل أشكال التعامل الثقافي مع الكيان الصهيوني وخصوصاً غير الأشكال التالية :

١ - رفض التقاء كل ذي حيوية ثقافية بصفته إسرائيلياً داخل مصر أو خارجها أو في إسرائيل .

٢ - رفض الحضور والمشاركة في مؤتمرات أو ندوات في إسرائيل .

٣ - رفض المشاركة في مؤتمرات أو حوارات عالمية يحضرها إسرائيليون

غداً



مهايط فلسطيني يولاه إسرائيليا في غزة

المواجحات

نحن وإسرائيل التحدى والمستقبل

٨ تزييف التاريخ - عصور في فوضى، رفعت السيد. ٤١ رباعية الحرب والحياة
في الشرق الأوسط، احمد عبدالله. ٤٢ تساؤلات على هامش المستقبل، بدر
الرفاعي. ٤٣ صورة إسرائيل ومستقبلها لدى الشباب الجامعي
المصري، محسن خضر. ٤٤ حيرة عربي.. حيرة يهودي، مصطفى الحسين.
٤٥ نظرة الأدب الصهيوني إلى العربي الفلسطيني، احمد عمر شاهين. ٤٦
القصة.. والتطبيع، محمد محمود عبد الرازق. ٤٧ إشاعة الوهم - نجيب
محفوظ في الدراسات الإسرائيلية، عرفة عبده علي. ٤٨ سينما الهالك -
تأصيل المنهجية المعرفية في التعامل مع السينما الصهيونية، احمد عثمان.

نحن و إسرائيل



التحدى والمستقبل





ق لقد صممت الفكر العربي طويلاً عن إعمال النظر في التجميع الإسرائيلي وما يجري فيه. صحيح أن الساحة لم تخل من محاولة هنا، أو أخرى هناك. ولكن ظل الطابع الغائب هو الصمت والتجاهل، وتحول العقل العربي خلال ما يقرب من ربع القرن إلى نوع من الاستكانة لهذه المجهلة، مطمئناً إلى مسلمة فكرية زائفة، عازفاً حتى عن محاولة التيقن من مدى صدقها. وظل الأمر كذلك حتى قارعة يونيو ١٩٦٧ التي كان ينبغي أن تجرف فيما جرفته. وقد جرفت الكثير. ذلك الزيف الفكري الذي عاشه العقل العربي طويلاً ولكن ما حدث لم يكن على هذه الصورة تماماً، لقد اهتزت المسلمات الفكرية العتيقة، وكان امتزازها عتيقاً حقاً، ولكنها لم تسقط تماماً، ولم تتساو ولم تجث جذورها. لعله هول المفاجأة وبشاعتها، ولعلها الطمأنينة التي طالت لصحة هذا الفكر الزائف، أو لعل الأمر راجع إلى ما لهذا الفكر من جذور عميقة متعددة تضرب في أعماقنا إلى بعيد،^(١).

وعلى النقيض من ذلك كان الفكر الصهيوني يسمى سبياً حديثاً ويكل السبل إلى امتلاك زمام الفكر العالمي والتسيطرة عليه، بله، وتلجيمه إن لزم الأمر. ولا ينكر إلا مكابر أنهم قد قطعوا في سبيل ذلك أشواطاً مكنتهم في أضعف الأحوال من إضفاء المشروعية والشرعية على نهجهم وتوجههم.

يرتكز جوهر الفكر الصهيوني على مبدأ أن اليهود جميعاً كيان واحد متجانس

تزييف التاريخ عصر في فوضى

رقعت السيد

عيسى وياحظ مسمري

نحن وإسرائيل .. التحدى والمستقبل

إلا عودة لأرض الأجداد وأرض المعابد، وأن تلك العودة ما هي إلا تحرير لأرض إسرائيل التاريخية من أيدي المعتصنين.

٢- بيسر عملية الاندماج بين يهود التجمع في إسرائيل بالتركيز على فكرة الامتداد التاريخي، فامتداد التاريخ يعنى وحدة أصحاب هذا التاريخ نفسيا واجتماعيا وحضاريا.

٣- يمتد ذلك إلى ما أبعد من التجمع في إسرائيل، إذ يمثل دعوة ليهود العالم للهجرة إلى إسرائيل، وإبراز وحدة اليهود في كافة أنحاء العالم، واكتساب تضامن من لم أو لن يهاجر إلى إسرائيل للانضمام إلى التجمع الإسرائيلي.

من الركيزة الثانية تتمتع أهمية العسوية القصوى لتجذير التاريخ الإسرائيلي فنجد أن جهد جل المفكرين اليهود اتجه إلى تأسيس الوجود الإسرائيلي بفلسطين كإطار عام يندرج في ثلثيه إبراز الدور الإسرائيلي خاصة واليهودي بعامة في أحداث الشرق القديم.

وتزخر المكتبات ودور النشر في كل أرجاء العالم بهذا النمط من كتب التاريخ اليهودي بالرؤية أو الطبخة الصهيونية، وما نذكره هنا لا يخلو إلا الأمثلة البسيطة للدلالة على تلك الركيزة أو عامود المتلصق في هيكل الفكر الصهيوني، مثل سيسيل روث وكتابه الذي يحمل اسم «تاريخ اليهود»^(٤)، وللمؤرخ الإسرائيلي هوراد موللي ساخار في كتابه «مسار التاريخ لليهودي الحديث»^(٥) الذي يركز فيه على التفوق العقلي اليهودي، وأن أهم

معدن في الزمان والمكان، يقول ليونارد فاين في كتابه المنشور عام ١٩٦٧م، تحت عنوان «السياسة في إسرائيل»^(٦) إن مفهوم اليهودي في حد ذاته يثير إحساسا لا يمكن تلافيه بالقرابة المشتركة والتاريخ المشترك،

ويذكر ليفين وهو عضو بالكنيست عن حزب أجودات إسرائيل في عام ١٩٧٠، «إننا لنما شعبا كباقي الشعوب، ولنما ديننا ككل الأديان، إننا شعب خاص، شعب الله، شعب التوراة»^(٧). ولذا يحرص الفكر الصهيوني على إثبات أن اليهود يتسمون بخصائص تميزهم عن غيرهم مهما باعدت بينهم المسافات، وأهم تلك الخصائص تفوقهم العقلي على سواهم من الأغيار، وتبذل هذا الاتجاه إلى التسليم بحق دولة إسرائيل - كدولة لليهود - في الحديث باسم اليهود في العالم كله وهو الركن الأول أو المسألة الأولى في الفكر الصهيوني المعاصر، أما الركن الثاني أو المسألة الثانية فتتمثل في ارتكاز هذا الفكر على ادعاء الانتماء إلى تاريخ قديم يضرب بجذوره في أصمق الحضارات القديمة، هذا إن لم يدع أنه صانع تلك الحضارات، ولا يوجد ضيقوني واحد لا يخضع على التمتع بهذا التاريخ أو اصطلاحه إن لزم الأمر أوتزييه إغالا في الادعاء. وتتملك أهمية الركن الثاني أو المسألة الثانية للفكر الصهيوني في مردودها الذي ينحصر في:

١- تبرير الاستعمار الاستيطاني لفلسطين بدعوى أن هجرة اليهود ما هي

الصفات التي تميز العقلية اليهودية عن غيرها، هي الرغبة في الإبداع، وصياغة الأفكار الجديدة، والوقوف في وجه الأفكار القديمة، وتروى فابس روز مارين^(٨) التي تركز في كتابها «الانصرار اليهود في صراع البقاء» على أن اليهودية دين وقومية. ويلتفتش^(٩) في كتابه الذي يحمل عنوان «فلسطين، ويذكر فيه «إن عراقا الصهيونية، إنما تعود إلى زمان هدم الهيكل، ووقوع الشعب اليهودي في أسر تيودن نصن إلا أن من أهم من تعرض لهم في هذا المجال وأخطرهم على الإطلاق إيمانويل فلايكوفسكي الذي عكف على وضع موسوعة من أخطر الموسوعات التاريخية، تلك الموسوعة التي كرس فلايكوفسكي كل غرضه لإنجازها تحت اسم «عصر في فوضى»^(١٠) الذي يركز على إعادة ترتيب وقائع وأحداث وتاريخ منطقة الشرق القديم، في هذا العمل تجاوز فلايكوفسكي مجرد التركيز على دور اليهود الحضاري وتعداه إلى إعادة ترتيب أحداث التاريخ من جديد من خلال ادعائه أن هناك خطأ في تزامن الحضارات القديمة وخطأ في الأسماء والمستعنيات أدى إلى خلط في تزامن وتزامن الحضارات القديمة، وأن هذا الخلط نجم عن سمنة عام مكررة في التاريخ التقليدي المصري كما هو معروف لنا الآن.

إن، فالعمل الذي نعرض له في هذا المقال يدخل في إطار الأعمال التاريخية الصهيونية التي تهدف إلى إعادة تركيب

التاريخ القديم وصياغة تفسير جديد لأحداثه، ولكنه عمل يتفوق على كل الأعمال الصهيونية التي أنتجت داخل هذا الإطار، فهو لم يتوقف عند حد إعادة تفسير التاريخ ولكنه قلب الموازين التاريخية رأساً على عقب وقدم لنا تاريخاً جديداً للتشرق القديم نالت فيه الدولة اليهودية الأولى النصيب الأعظم.

مؤلف الكتاب عالم طبيعة يهودى روسى ولد فى روسيا عام ١٨٩٥ ودرس فى جامعة موسكو وجامعات برلين وفيينا وأندبره. وله نشاط علمى متميز ومن أبرزه اشتراكه مع ألبرت أينشتاين فى تحرير مجلة الجامعة العبرية التى تعمل اسم «المخطوطة الجامعية» Scripta Universtatist.

والى كانت من الركائز العلمية التى قامت عليها الجامعة العبرية بالقدس. وقد هاجر إلى أمريكا عام ١٩٣٩م وعاش بها إلى أن مات عام ١٩٨٠.

يبدأ إيمانويل درة أجزاء الموسوعة والذي يحمل عنوانها الرئيسى «عصور فى فوضى» بتساؤل مهم وهو أنه مع التسليم بوجود الدولة اليهودية الأولى ووجود الدولة الفرعونية، ووجود حدود مشتركة وجوار جغرافى، إلا أن كل الوثائق والسجلات والتسجيلات الفرعونية قد خلت تماماً من أى ذكر لوجود الدولة اليهودية فى أى حقبة من أحقاب التاريخ الفرعونى إلا من مرة واحدة ذكر فيها اسم إسرائيل على تابوت مريناج، فكيف يتأتى ذلك مع التسليم بأن التاريخ الفرعونى لم يفلت ذكر تفصيلات أقل من ذلك أهمية ؟

ويقوم العمل بأكماله على افتراضين، الافتراض الأول هو أن هناك فجوة زمنية تصل إلى ستمائة عام اختفت من التاريخ اليهودى وتكررت فى تاريخ مصر، وأنه ترتب على سقوط ستة قرون من التاريخ

اليهودى وتكرارها فى التاريخ المصرى اختلاف الزمان الصحيح لكل الحضارات القديمة حيث تصبح البابلية - التى أرخ لها قياساً على تاريخ مصر - معاصرة لحضارات أخرى غير تلك التى عاصرتها بالفعل، وقس على ذلك كل أحداث التاريخ القديم والحضارات القديمة وأن الشك يحيط بكل الأحداث والشخصيات والأسماء، وأن ذلك الخلل يستوجب إعادة تركيب التاريخ القديم بطريقة صحيحة ووضع كل الأحداث والحضارات والأشخاص فى أزمنتها الصحيحة. والافتراض الثانى يقوم على تفسير الأحداث التاريخية الكبرى والتغيرات المفاجئة فى مسار الأحداث إلى عوامل وحوادث طبيعية ضخمة مثل تغيرات كونية وكوارث طبيعية أدت إلى تلك التغيرات، وهو كعالم طبيعة يقدم عرضاً شيقاً لتلك الكوارث الطبيعية، والأحداث الكونية، استخدم فيه كل إمكانيات العلمية لإثبات وقوعها.

أسس فلايكوفسكى نظريته فى إعادة بناء وترتيب وتزمين أحداث الشرق القديم فى الفترة التاريخية الممتدة من الخروج حتى غزو الإسكندر الأكبر لمنطقة الشرق القديم، وهى فترة تغطى اثني عشر قرناً من تاريخ الشرق الأدنى القديم، وظل ينقب فى شئون الكون والطبيعة بحثاً عن كوارث طبيعية وكونية (٩) تكون قد وقعت خلال تلك الفترة، كذلك الزلازل والهزات الأرضية والبراكين التى من الممكن أن تكون قد أثرت وغيرت من مسار الأحداث فى الشرق، بل فى العالم كله، كما جمع مادته العلمية من البيولوجيا (١٠) وعصور ما قبل التاريخ والوثائق التاريخية والآثار التى تشير إلى وقوع كوارث كونية وآثارها التى ترتبت عليها فى تفسير مجرى الأحداث التاريخية، مع إعادة دراسة أحداث التاريخ القديم على ضوء التاريخ الطبيعى.

أول ما يخرج به فلايكوفسكى من إعادة دراسة التاريخ على ضوء الكوارث الكونية هو أن حادثة خروج بنى إسرائيل من مصر واكبت كارثة كونية وقعت بفعل حادث طبيعى كونى، وهو ارتطام ذبل أحد المذنبات السيارية بالكرة الأرضية، وأن البلياء العشر التى سبقت الخروج ووقعت آثارها على مصر - كما يذكر التاريخ والكتب السماوية - لم تكن إلا من آثار ارتطام ذبل المذنب بالأرض، وحتى انشفاق البحر ومرور بنى إسرائيل لم يك إلا نتيجة للمواصف الكونية الضارية التى تبعت ارتطام ذبل المذنب بالأرض، وأن انطباقه (أى البحر) بعد ذلك على جيش الفرعون لم يك إلا بسبب ارتداد موجة الجزر العاتية التى سببتها العواصف.

يذكر المؤلف أنه عشر على الدليل الذى وليجت صدق نظريته فى التاريخ القديم لكل الحضارات النابذة من الأمريكيتين إلى آسيا الصغرى والكبرى وحتى منطقة الشرق القديم وأن الإرث الثقافي لتلك الحضارات فى مختلف أرجاء العالم تضمن حكايات وقصصاً عن أحداث جسيمة مرت بها الأرض دام فيها الليل نوالى طويلة فى بعض مناطق الأرض، كما دام فيها النهار أياماً طويلة فى بعضها الآخر. أما حجته الحظى فهى القراءة الصحيحة لبردية آبى. أور الفرعونية التى يذكر أنها سجل حقيقى لوقائع الكوارث المتتالية التى وقعت بمصر والى سبقت الخروج، كما يرى أن التفسير التقليدى السائد بين علماء الآثار من أن البردية لا تعدو كونها مجموعة من الحكم الفلسفية الفرعونية القديمة ما هو إلا قراءة خاطئة تبعد بها عن الواقع الذى كتبت فيه وأن قراءتها يجب أن تتم على ضوء نظريته، وأنها بذلك القراءة الصحيحة تنطبق وقائعها تماماً على الواقع الناجم عن حدوث الكوارث

المذكورة، وأنها - أى اليردية - تمثل الشاهد المصرى الوحيد على صدق نظريته .

هذا التفسير الطبيعى لحادثة خروج بنى إسرائيل والأحداث المعجزة التى سبقته، وواكبته، وتبعته، وإلى عرفت اصطلاحاً باسم الصنريات العشر (بلاء الظلام - بلاء حصول ماء النيل إلى لون الدم - بلاء الحشرات والقمل - بلاء الجراد الخ) يخرج بكل هذه الوقائع من دائرة الدين التى نعزوها إلى معجزات إلهية، إلى دائرة الكوارث التكنية التى تعود إلى أحداث الطبيعة، فالخروج لا يمثل معجزة إلهية، والصنريات العشر لا تمثل معجزات موسى إنما هى أحداث طبيعية سببتها كارثة اصطدام ذيل المذنب بالكرة الأرضية. وبذلك نجد أن فلايكوفسكى يخضع الدين لعلم الطبيعى، ويسعى إلى تفسير ماورد بالكتب السماوية والوثائق التاريخية والآثار القديمة على ضوء العلوم والأحداث التكنية وعلم الطبيعة. وهو لا يعنى بالضرورة أن الدين ضد العلم ولكنه يحاول تفسير الدين بالعلم، مع دس ما يمكن دسه لتجذير وتأسيس وتوسيع الهامش الخارجى الإسرائيلى.

من المسائل التاريخية المهمة التى يعيد فلايكوفسكى صياغتها على ضوء الكارثة التكنية المذكورة، مسألة غزو الهكسوس لمصر، وتحديد هويتهم وجنسهم، فقد ترتب على الكارثة التكنية التى تعرضت لها كل الشعوب فى آن واحد، حدوث الآثار المنحصرة نفسها بأرض شبه الجزيرة العربية، وقد نجم عن ذلك حدوث موجات مد عاتية من البحر الأحمر أغرقت الأرض بمن عليها، وتسببت العواصف التكنية والظلام والزلازل والبراكين فى هلاك عدد كبير من قبائل شبه الجزيرة مما دفع بالباقيين منهم إلى هجر شبه الجزيرة والفرار منها

بالانفعاخ إلى الشمال الغربى بحثاً عن أرض أكثر أمناً بانتاج فلسطين ومصر، دون أن يدور بخلداهم أن الكارثة كونية شملت كل البلاد، وبذلك انقضت جحافلهم الهاربة من شبه الجزيرة بانتاج مصر فى الوقت الذى كان فيه بنو إسرائيل قد عبروا البحر وأصبحوا فى سبيلهم. ويذكر أن الشعبين قد تقابلا فى احتكاكات وتحركات جانبية متعددة نتت فيها بنو إسرائيل جحافل أهل شبه الجزيرة بأقصد الصفات كما تذكر التوراة لأنهم كانوا يهاجمون الجماعات الشاردة من بنى إسرائيل والأفراد المتعبدى فى ذيل قافلة الخروج ويذهبون منهم أقواتهم الضئيلة حتى مرت القبائل الفارغة من شبه الجزيرة ونحلت مصر.

بذلك يذكر فلايكوفسكى أن الهكسوس هم العمالقة العرب أو العماليق أو أمو فى القرعونىة أو أمية فى العربية القادمون من شبه الجزيرة وأنهم هم من أذلوا الشعب المصرى سوء العذاب، وهدموا كل مؤسسات الدولة ومعالها الجضرانية وأتلفوا كل وثائقها المكتوبة، وأن عاصمتهم أوراريس لم تكن فى شمال مصر كما تذكر المصادر الأخرى ولكنها كانت فى سيناء وتصدىداً فى مدينة العريش.



إينشتاين

تتمد مسألة الهكسوس إلى ما هو أبعد من ذلك، فبعد توصل فلايكوفسكى إلى أدلة حاول أن يثبت من خلالها أن تحرير مصر من الهكسوس لم يتم إلا بمساعدة قوية وفعالة من شاول أول ملك يهودى بعد عصر الحكماء فى دولة بنى إسرائيل، وأن قوات يهودية كانت على رأس القوات المصرية المحاصرة لمدينة أوراريس، وأن القوات المشتركة من مصر وإسرائيل هى التى قصنت على عاصمة العماليق وطاردوا فلولهم حتى أجلوهم عن مصر وتخوم فلسطين، وأن ذلك كان عام ١٥٨٠ ق. م ويعزو فلايكوفسكى ظاهرة العداة للسامية وتأسيسها إلى العماليق الذين مثلوا بأجسام الجرحى والمسجون وقطعوا أطرافهم، وكانوا على درجة كبيرة من الفطافة والقسوة فى نواح كشجرة أخرى، وخطفوا النساء والأطفال وأسرهم والمدن ودمروا الآثار والأعمال الفنية التى نجت من الزلازل وجردوا مصر من ثرواتها وكوزها كما كانوا يهولون ويحقرون المشاعر الدينية للمصريين، وأتلفوا كل لغائف اليردى كما عذبوا الأسرى فى معسكراتهم بوحشية فاقت كل حد.

ويذكر أن بداية تكون مشاعر العداة لليهود لم تظهر تاريخياً إلا بعد ما ذكره ما نيلى - المؤرخ اليهودى المصرى - من أن اليهود سلالة منحصرة عن العماليق المتوحشين. وأن الإسرائيليين عانوا أشد المعاناة بسبب تشويه حقائق التاريخ وحسموا آلام إدراجهم فى سلالات العماليق، وأن ذلك العقاب التاريخى لم يبدأ إلا بعد أن أطلق ما نيلى أحكامه الخاطئة، ويذكر أن العداة للسامية قد تغذى بعد ذلك عن روافد كثيرة أخرى.

من المسائل للتاريخية المهمة الأخرى التى عالها فلايكوفسكى، وفقاً لنظريته، مسألة ملكة سبأ الواردة فى الكتب المقدسة فاستناداً إلى فكرة اختفاء ستة قرون من

تاريخ اليهود وتكرارها في التناخ
المصري يضع فترة حكم داود ومليمان
في القرن السادس عشر قبل الميلاد وليس
في القرن العاشر قبل الميلاد حسب
المعروف تاريخياً، وفي ظل هذا التعديل
التاريخي يضع أحداث ملكة سبأ وزيارتها
لمليمان في القرن السادس عشر قبل
الميلاد وهو يرى أن تعدد شخصية ملكة
سبأ بأنها ملكة عربية جنوبية من سبأ، هو
تعدد خطأ وأن ملكة سبأ ما هي إلا ملكة
مصرية مشهورة هي حتشبسوت وقد
قامت بترتيب رحلاتها من طيبة عاصمة
مصر في الجنوب إلى أورشليم عاصمة
سليمان من طريق البحر الأحمر، وأن كل
الجداريات في معبد حتشبسوت القصي
بالدير البحري قد تمت قراءتها وتفسيرها
على أنها رحلة إلى سواحل الصومال
أوما يسمى بلاد بونت، التي تغطي
الأرض المقدسة، وأن القراءة الصحيحة
لجداريات معبد الدير البحري تظهر
بجلاء أن الرحلة كانت إلى أرض
فلسطين إلى أورشليم، كما نفى أن تكون
ملكة سبأ من العيشة وأن ذلك الخطأ إنما
حدث بسبب أن ملكة مصر كانت تسمى
ملكة مصر والعيشة في ذلك الوقت كما
ذكر المؤرخ جوزيفوس فلافيوس، وأن
هناك تشابهاً واضحاً بين اسم ملكة سبأ
وهو «ما كيداء» كما ورد في المصادر
العيشية وبين لقب حتشبسوت وهو
«ما كيداء» الذي يعنى مقطعه الأخير
على اسم الإله المصري رع، كما كانت
حتشبسوت تصور دائماً في الآثار
المصرية القديمة مع طائر، وهذا يوافق
قصة الهمد الواردة في قصص الهجادة
والتي يرى أنها انتقلت إلى التراث العربي
وظهرت في القرآن الكريم، وأن الأرض
المقدسة الوارد ذكرها في آثار حتشبسوت
هي فلسطين، وأن معبد حتشبسوت (الدير
البحري) الذي شيده بعد عودتها من
رحلتها إلى أورشليم جاء صورة من هيكل
سليمان بعد أن أعجبها الهيكل وأخذ بملكها

قامرت معماريها المصريين بإنشاء
نسخة منه في طيبة، وأن هذا المعبد كان
بداية طغرة وثورة في فن العمارة
المصرية القديم، ومن أبرز ملامح ذلك
الأعمدة المربعة التي تختلف عن
الأعمدة التقليدية المصرية المستديرة،
وأن الأثر الأجنبي واضح في تكوين
المعبد ليس من اللوحى الفنية فقط ولكن
من اللوحى الدينية حيث برزت عناصر
جديدة لم تكن موجودة من قبل وطقوس
لم تكن تمارس من قبل، مع استحداث
وظيفة الكاهن الأعظم على رأس اثنين
عشر كاهناً كما هو ممارس في هيكل
سليمان، وأن الاثنى عشر كاهناً يمثلون
عدد الأسباط اليهود وأن كل الهدايا التي
عادت بها حتشبسوت من رحلتها
والصورة على جدار معبد الدير البحري
والتي تنسب إلى بلاد بونت الصومالية
من قرد ووحيد وأقزام ويخرو وجووانات
غريبة لم تكن إلا بعض الهدايا والطراف
التي أهداها لها سليمان الملك العظيم الذي
كانت تأتيه الهدايا والطراف من كافة
أركان الأرض ومن كل الممالك طلباً لنيل
رضاه.

كل هذه الأدلة وغيرها كثير يسوقها
فلايكرافسكي ليثبت أن الملكة التي زارت
سليمان هي حتشبسوت ملكة مصر
والعيشة وليست ملكة الجنوب ما كيداء أو
بقيس في المصادر العربية. هناك ثلاثة
فصول أخرى تتناول رسائل تل العمارنة
الفرعونية المكتشفة في بني حسن ويعود
قراءتها من جديد على ضوء النظرية
نفسها، ويظهر من خلال القراءة الجديدة
والأشواحة وبين آخر طوفان الأثرة الخائفة
عشرة الفرعونية والتي تنتهى في أواخر
عهد اخناتون ومن تلاء على عرش
مصر.

ومن الموضوعات المهمة الأخرى
التي يشير بها الكاتب والمربطة أصلاً
بهذه الكتاب، تغيير الوضع الحضارى
لبنى إسرائيل في التاريخ القديم وذلك

بإعطاء الاسرائيليين القدامى دوراً حضارياً
أكبر مما نسب إليهم، ويتضح ذلك من
خلال عدة جوانب من أهمها بالطبع
نسب المعجزات الحضارية الكنعانية إلى
بنى إسرائيل، وإعطائهم دوراً أكبر في
مسألة التأثير الحضارى على شعوب
الشرق الأدنى القديم وعلى رأسهم شعب
مصر.

من المعروف أن الكنعانيين هم
السكان الأصليون لفلسطين قبل خروج
بنى إسرائيل من مصر ونزوحهم إلى
فلسطين المعروفة في الشؤرة بأرض
كنعان. والمسألة الكنعانية تعد من أهم
المسائل التي شغلت أنبياء بنى إسرائيل
والعركات الدينية الإصلاحية والتي
كانت تركت على تحذير الإسرائيليين من
الوقوع تحت تأثير العوامل المتقلبة
الدينية والحضارية والاجتماعية الكنعانية،
ولكن المؤلف ينهى وجود هذا التأثير
الكنعاني ويحاول أن يثبت أن التأثير
الإسرائيلى كان هو الأعلى والأرجح على
كل شعوب الشرق الأدنى القديم، خاصة
مصر.

من هدف فلايكرافسكي الواضح في
كل أعماله هو تأسيس الوجود الإسرائيلى
في فلسطين وفرض جغرافية سياسية
جديدة بقوة السلاح تستند إلى ركائز
تاريخية يوسع فيها هامش تاريخ بنى
إسرائيل في المنطقة بتخصيم الدور
الإسرائيلى وبيان تأثيره على الحضارات
القديمة حتى تظهر إسرائيل ليس فقط
كقوة حديثة في الشرق الأوسط ولكن
بتأصيلها وإظهارها كقوة سياسية
وحضارية قديمة في منطقة الشرق
الأدنى القديم، مع إثبات الحقوق
التاريخية والدينية المترتبة على هذا
التأصيل.

نظرية فلايكرافسكي تعتمد على عامل
طبيعى في المقام الأول وتفسر التاريخ
القديم وأحداثه بل تعيد صياغته وتزمنه
على أساس من التاريخ الطبيعي ■

تهميش:

- ١- فنزى حنفى، الإسرائيليون من هم؟ ، أكتوبر ١٩٧٧ ص ٣.
- ٢- فاين ل.ج.، السياسة فى إسرائيل، بوسطن ١٩٦٧م.
- ٣- شهادات يهودية، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز التخطيط ١٩٧٦/١/٢٧.

- ٤- روث سوبيل، مختصر تاريخ الشعب اليهودى، مكتبة الشرق والغرب ١٩٦٩.
- ٥- ساخار مسمار التاريخ اليهودى الحديث، دلتا، ١٩٦٣، صفحات ٣٩٤ - ٤٤٨.
- ٦- تروود فايساروز مارين، انتصار اليهود فى صراع البقاء، المكتبة الفلسفية ١٩٤٩م.
- ٧- بلسو فيشيل، فلسطين، دار فيكتور جول ١٩٣٤م.

- ٨- ايمانويل فلايكوفسكى، عصور فى فروضى، ترجمة رفعت السيد على، دار الصباح، تحت الطبع.
- ٩- ارجع إلى «عوامل فى تصادم» ، للؤلف نفسه ترجمة رفعت السيد على.
- ١٠- ارجع إلى «ثورة الأرض» ، للؤلف نفسه.



ق (١) الحرب والدولة

إن تناول موضوع الحرب والحياة في الشرق الأوسط إنما يفترض التطرق إلى أربعة مفاهيم: الدولة، والمجتمع، والديمقراطية، والحرب. وهذا المفهوم الأخير - الحرب ذاتها - هو المفهوم المفصلي، الذي تحدد علاقاته بالمفاهيم الثلاثة الأخرى مضمون العملية التفاعلية التي نحاول دراستها وفهمها. وقبل أن نركز على الجانب الخاص بعلاقة الحرب بالديمقراطية دعنا نحدد الطريق بشيء من التأمل الخاص بالجانبين الآخرين من التفاعل، أي علاقة الدولة بالحرب وعلاقة المجتمع بالحرب، والإطار الذي يحتوي هذا التفاعل هو الشرق الأوسط الذي يمثل تشكيلا جغرافيا سياسيا في التكوين، يحتويه هذا التفاعل بقدر ما يحتوي هو التفاعل.

لقد ارتبطت الدولة الوطنية الحديثة في الشرق الأوسط ارتباطا حميما بالحرب من حيث نشأتها، وتعميدها، وتضعيفها، وإخضاعها لغيرها. والمقصود هنا الحرب بمختلف أنواعها: العالمية، والإقليمية، والأهلية، بما في ذلك الحرب الباردة وحروب الاستقلال. لقد أصبحت أجزاء الإمبراطورية العثمانية في آسيا العربية دولا وطنية تحت الانتداب الأوروبي في أعقاب الحرب العالمية الأولى. أما أفريقيا العربية فقد اتضحت أيضا قسما متميزا بين مكوناتها المختلفة. وولدت دولة جديدة هي الأردن. كما اكتملت تكوين دولة جديدة أخرى هي المملكة العربية

رباعية الحرب والحياة في الشرق الأوسط

أحمد عبد الله

نحن وإسرائيل .. التحدى والمستقبل

أعدتها: الاستعمار العالمي، والصهيونية، والطابور الخامس. ويعد عقود من الكلام الزنآن والحرب الجادة معا، لم يتحقق أى من الأهداف المعلنة والمضمّنة فى أيديولوجية إسباغ الشرعية، لكن الدولة القمعية التى ارتبطت بها بقيت قائمة. حيث أصبحت النظم العسكرية هى الأصل لا الاستثناء. وحتى الآن ما زال جميع رؤساء دول إفريقيا العربية - باستثناء المغرب - رجالا عسكريين.

إلا أنه بينما كانت الحرب عاملا مهما فى تكوين وتدعيم الدول الوطنية الحديثة فى الشرق الأوسط، فهي - على العكس - لم تكن عاملا فى القضاء عليها أو على وجودها القانونى. فقد عرفت الدول العربية ظاهرة اختفاء الدولة المستقلة مرتين فى التاريخ الحديث: مرة فى حدث الوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨، ومرة فى حدث الوحدة الليبية الأحدث عام ١٩٦٠. وفى المرتين اختفت الدولة المستقلة طوعا لا حريا، أى أن ظاهرة الإلحاق بالقوة تعد غير معروفة بالنسبة للدول العربية، ولهذا كان الغزو العراقي للكويت، وضمتها بالقوة حدثا غير مسبوق، مما يفسر جزئيا انتهاءه بالفشل.

ومع ذلك فإن تفكك بنيان الدولة الوطنية من خلال الحرب الأهلية بعد ظاهرة مألوفة، وممتددة فى منطقة الشرق الأوسط. وهو ما تعرضت له دول مثل لبنان والسودان وعمان واليمن والعراق. ولا حاجة بنا لذكر النموذج الفج للصومال!

قوات أوروبية على أراضيها لفترة، ثم أخيرا «إسرائيل» التى نشأت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ونشأتها ارتسام «الحرب»، ذاتها كعلامة مميزة للشرق الأوسط!

وإذا ما كانت أغلب دول الشرق الأوسط فى صورتها الحديثة مدينة للحرب كأساس لنشأتها، فهي مدينة لها أكثر كأساس لتدعيم بنيانها. ففي حالات كثيرة كان تماسك الدولة نتاجا للحرب، سواء السابقة أو الحاصلة أو اللاحقة، لقد تحول محاربو جبهات التحرير إلى حكام فى الجزائر واليمن الجنوبي. وكانت المادة الأولى فى البضاعة التى قدمها هؤلاء الحكام إلى شعوبهم هي «الدول» التى لعبوها فى حرب التحرير ذاتها. وقد بقى هؤلاء المحاربون القدامى على مقاعد الحكم بصورة احتكارية لزمّن يناهز الثلاثين عاما فى حالة الجزائر وربع القرن فى حالة اليمن الجنوبي أى حتى توحد اليمن جنوبا وشمالا. وبالنسبة لهم، كما بالنسبة لغيرهم من حكام دول المنطقة، كان هدف الحفاظ على تماسك الدولة مبررا لوسيلة القمع الصريح.. وللمفارقة كانت الدولة الأقل قمعاً، ألا وهي لبنان، هي الأقل تماسكا!

أما أدوات الحكم غير المرتبطة بالقمع فقد كانت مع ذلك مرتبطة بالحرب. فالأيديولوجية المسيغة للشرعية السياسية بالنسبة لأغلب أنظمة المنطقة، والتى عبرت عنها أفكار القومية العربية والوحدة العربية وتحرير فلسطين كانت تجلوى - ضمنا وعلا - فكرة الحرب ضد

المسعدية فى أعقاب نوع من الحرب الأهلية فى شبه الجزيرة العربية. أما مصر فقد أعطيت استقلا اسميا. وقد تحول مركز الإمبراطورية العثمانية إلى دولة تركية وطنية.. وقد مثلت الحرب العالمية الثانية خلفية استكمال هذه العملية كلها من خلال استكمال وإعلان استقلال الدول الوطنية، وبخاصة فى إطار التقسيم النهائى لسورية الكبرى.

وقد مثلت حروب الاستقلال أو التحرر الوطنى مرحلة ثالثة من مراحل التوسع فى إقامة الدول الوطنية فى الشرق الأوسط. حيث أضافت إليها الجزائر المستقلة ومجموعة دول الخليج المستقلة. وبعد جولة ١٩٦٧ من الحروب العربية الإسرائيلية نشأ اليمن الجنوبي كدولة مستقلة بجانب اليمن الشمالى الذى مثل جيها مستقلا دائما. أما بعد جولة ١٩٧٣ من الحروب العربية الإسرائيلية فقد نشأت دولة عربية مستقلة جديدة هي جيبوتي التى مثلت على صغرهما موضع اللصاحم بين الشرق الأوسط والقرن الإفريقى.

أما دول الشرق الأوسط غير العربية فقد ارتبط بنيانها كذلك بالحرب: تركيا من حيث نشأتها كدولة وطنية حديثة بعد الحرب العالمية الأولى وما ارتبط بذلك من صياغة سياسية ثقافية لمجتمعها القومى، ثم ما تم بعد الحرب العالمية الثانية من ربط نهائى لها بالتحالف الأطلسى، وإيران من حيث مسارها المضطرب إبان وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية بما شمله ذلك من وجود

وتوضيحا لصورة وتطابق العلاقة الحميمة بين دول الشرق الأوسط وبين مسألة الحرب قد تفيد الإشارة إلى أنه من بين الثنتين وعشرين دولة عربية مستقلة لا توجد إلا واحدة هي تونس لم تضطر لتحريك قواتها للمشاركة في حرب أو أخرى أهلية أو إقليمية.. وبإضافة الدول الثلاث غير العربية (تركيا - إيران - إسرائيل) بسجلها المعروف في الحروب يصبح المجموع أربعاً وعشرين دولة «محاربة» من بين خمس وعشرين دولة يتكون منها الإقليم. وهي الصورة التي سيؤكدنا انضمام إرتريا لنادى المحاربين وهي بعد في الزى العسكري!

(٢) الحرب والمجتمع

أصبح المجتمع في الشرق الأوسط - بالجمعية لكن بامتياز - تومئاً للدولة في العلاقة الحميمة مع مسألة الحرب: فإسرائيل تنصهر العالم كله في أحوالها على «مجتمع كثيف العرب»، وتنتشر في مجتمع إيران رؤية تفسيرية حول دورها الإقليمي والدولي، أما كانت تجليات هذا الدور فيما بين تصدير القوات إلى عمان في ظل الشاه وتصدير الثورة إلى أكثر من مكان في ظل الدولة الإسلامية، أما تركيا فليست بحاجة لإثبات صلتها بالحرب على مستوى مجتمعتها وجيشها مما، سواء بشأن دور الجيش في حياتها كدولة وكمجتمع، أو بشأن لجوء بعض قوى المعارضة فيها للعنف المسلح، أو بشأن الإلحاق القسري لمجموعة قومية متميزة، هي الأكراد الذين فرض عليهم أن يكونوا جزءاً من المجتمع التركي وما يتضمنه ذلك من مراوحات حربية بين الجيش التركي والمقاومين الأكراد.

أما الأكثر من عشرين مجتمعا عربيا الذي تمثل الأغلبية في الشرق الأوسط فهي تتمثل في الخطاب الجري لقادتها المدنيين والعسكريين، وهؤلاء هم أولئك

في أكثر دول المنطقة. لقد غطى الخطاب الحربي كل مجتمعات المنطقة من أقصاها إلى أقصاها. فأفراد المجتمعات الخليجية كانوا - على الأقل حتى عهد قريب - يتحدثون عن تحرير فلسطين بامقار نفسه الذي تصدت به أبناء مجتمعات دول المواجهة. وحينما تغيرت النظرة لفلسطين في الخليج حديثا كان على الصحافة الخليجية أن تجد موضوعا آخر غير موضوع فلسطين لتعاضد به صفحاتها الفسيحة. وقد وجدت ضالتها بالفعل في موضوع حربي آخر أقرب للدار هو موضوع حرب الخليج نفسها وما نجم عنها من آثار. لقد حلت «القضية الخليجية» محل «القضية الفلسطينية»، وكلاهما مرتبط بموضوع الحرب.

لقد أصبحت الحرب - من أجل قضية عادلة - هي القاسم المشترك بين الدولة والمجتمع في الشرق الأوسط. وقد غطت على قضايا أخرى رفعت راياتها أيضا: التنمية، للتقدم، الحرية، العدل، الوحدة... الخ. فقد أصبحت الحرب التي اصطلح على تسميتها باسم «القضية الوطنية» أو «القومية» هي الإطار الجامع لتفاصيل الحياة اليومية والقضية التي تسبق أي قضية أخرى. وكما قال جمال



جمال عبد الناصر

عبد الناصر بعد حرب ١٩٦٧: «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة». لقد أصبحت التعبئة من أجل الحرب مسألة مفروغ منها، سواء في ذلك تعبئة البشر أم تعبئة الأشياء. فالاقتصاد، والمجتمع، والسياسية، والثقافة كان عليها جميعا أن تكون مجالات في خدمة المعركة. وهو ما تم بالفعل على اتساع الرقعة فيما بين تصنيع الأسلحة، وتوسيع الكليات العسكرية، وتوزيع القوى العاملة لخدمة المجهود الحربي، وتعليم التلاميذ من خلال مقررات دراسية تخدم التثنية الحربية، إلى نشر الأغاني الوطنية والأشاد الحربية، وعلى جانبي الصراع العربي الإسرائيلي أصبح الصراع نفسه هو محور الحياة اليومية في مجتمعي الطرفين المتصارعين. وبذا لم يبعد عن هذا الصراع من مجتمعات منطقة الشرق الأوسط سوى إيران وتركيا، لكنه على أي حال لم يكن اجتماعيا تاما. وإن في إلا سنوات قلائل حتى انجرّ هذان الطرفان أيضا إلى صراع آخر هو صراع الخليج الذي التصق بهما أكثر. بينما حاول العراق بالخطاب الدعائي وبصراخ سكود إحداث التداخل بين صراعي المنطقة.

وبرغم ذلك فإن تطابق موقف المجتمع مع غايات ووسائل الدولة في الشرق الأوسط لم يكن كاملا، إلا من الناحية الظاهرية. فريما بدأ الخطاب الحربي للطرفين متطابقا بقدر ما كان زائعا. لكن المشاركة الحربية بين المجتمع والدولة كانت علاقة متضمنة لتوترات غير متجلية دائما. فمثلا كان لدول المنطقة ارتباط مختلف الدرجات بمسألة - الحرب - تضمن تهدة خطابها الحربي الزاعق من خلال السياسات الخارجية - اتصالات الكواليس الدبلوماسية - كان لمجتمعات المنطقة أيضا طرائقها الخاصة في الارتباط

بالمسألة وإن لم تفرض طرائقها على دولها. ففي تمثها للحرب ولإدارة دولها للحرب كانت مجتمعات المنطقة متنوعة التوجهات والدرجات، سواء فيما بين مجتمع وأخر أو داخل كل مجتمع على حدة، فرغم أن مجتمعات الوفرة في الخليج ومجتمعات الندرة في دول المواجهة العربية قد تعدت بلغة واحدة إزاء الصراع، إلا أن خلافاً بين الطرفين كان كامناً تحت السطح، وفي داخل مجتمعات الندرة والمواجهة وجدت اتجاهات متفاخرة إزاء الصراع ونمت عبر الزمن. وقد قمت الخلافات في العادة في ظل «أجواء» المعركة، حتى سلحت الفرصة لإعلانها في ظل «أصنام» المعركة. أي بعد جولات فعلية من الحرب الحقيقية بما تخفضت عنه من نتائج حملت القوالب وتعدت المحرمات.

فالمجتمعات كالدول يتنازعها دوماً طرفان: السياسة المثالية والسياسة العملية، أو عيش العلم ومعايشة الحقيقة. ومجتمعات الشرق الأوسط كانت حبل بالأجعة المخططة التي لم يتيسر لها الميلاد إلا في أعقاب موت الجنود في الحروب الفعلية. فبعد حرب ١٩٦٧ أصبح ممكناً في إسرائيل اعتبار قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، والذي على أساسه نشأت الدولة نفسها، اعتباره منقضيًا حيث تجاوزه الزمن. أو بالأحرى نتائج الحرب - بل واعتبار الأمم المتحدة نفسها محلاً للتجاوز الكامل واليسير. وأضحى من اليسير كذلك أن تتسع رقعة ذلك القطاع من المجتمع الإسرائيلي الذي يشهد تأسيس إسرائيل الكبرى ويشيد أسسها بجدية. وفي المجتمعات العربية من ناحية أخرى. وبخاصة داخل الدولة كمؤسسة. بذرت بذور التصالح مع إسرائيل اعتباراً من قبول قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ومن صياغة منظمة التحرير الفلسطينية لشعار إنشاء الدولة

الديمقراطية العلمانية على أرض فلسطين. لكنه في الوقت نفسه وجد رد فعل آخر للزيمية العسكرية تمت صياغته رسوماً في اللائحة الثلاثة لمؤتمر قمة الخرطوم (لا صلح - لا اعتراف - لا تفاوض) كما تمت صياغته شعبياً في مظاهرات الشوارع التي عرفتها مصر ودول عربية أخرى.

وبعد حرب ١٩٧٣ أصبح من الممكن أكثر الحديث عن المصالحة القطبية وبدأت الاتصالات السياسية التي دشنت استخدام تعبير «عملية السلام». وكان لذلك أيضاً رد فعله المضاد الذي احتوى في مقداره على حادثة اغتيال رائد العملية نفسها الرئيس المصري أنور السادات.

ومن مظاهر التذرع أيضاً في مواقف دول ومجتمعات المنطقة إزاء صراعاتها ما عرفته صراعات الخليج. ففي سياق حرب الخليج الأولى أو الطويلة بين العراق (وحلفائها العرب) وإيران (والعالماتين معها من للعرب أيضاً) أصبح المواطنون الخليجيون المنتمين للمذهب الشيعي محل شك - بل وأحياناً اضطهاد - من قبل سلطات الدولة وأفراد



حافظ الأسد

المجتمع. لكنه في سياق حرب الخليج الثانية أو القصيرة أعيد الاعتبار لهؤلاء المواطنين بل وإيران نفسها. والمفارقة فقد بدأت عملية إعادة الاعتبار على يد العراق نفسه قبل أن تبدأها دول ومجتمعات الخليج الأخرى. وبعد هذه الحرب الأخيرة أيضاً بدأت أصوات الاعتراض المحرمة تنصع عن نفسها. فكان الصديق عن الحقوق الكاملة للأكراد، والديمقراطية لكل العراقيين، وحقوق المرأة السعودية، والديمقراطية للرجل الكويتي وللمرأة الكويتية... الخ. لقد انطلقت عملية للتنوع المجتمعي في مواجهة احتكار الدولة، وذلك من خلال اندلاع الحرب ومسايرها وتناجها. وهو ما يقودنا للحديث عن العلاقة الحرجة بين الحرب والديمقراطية.

(٣) الحرب والديمقراطية

يبدو من ظاهر الأمور أن «الديمقراطية» و «الحرب» مصطلحان متناقضان منذ البداية، وربما بدأ أيضاً أن «الديمقراطية» والشرق الأوسط، مصطلحان متناقضان أيضاً لكنه من غير اللازم أن يكون ذلك مدعاة للتشاؤم. فقد بدأت بالفعل في بلدان الشرق الأوسط عملية طويلة من التحول التدريجي إلى الديمقراطية تخطت معوقات وتراجعات على طريق غير مهد أصلاً.

إن عبارة عبد الناصر الشهيرة «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» تلخص أمر العلاقة بين الحرب والديمقراطية حيث تفرض الحرب منطقها المتمحور حول الإزالة السلطوية للأمر وعدم تشييد الانتباه في وقت الحرب. لكنه للمفارقة فقد كان عبد الناصر ينطق بهذه الكلمات بينما يقوم في الوقت نفسه بتقديم أكثر أوراق اعتماده ليبرالية، ألا وهو برنامج ٣٠ مارس ١٩٦٨ الذي طرحه في أعقاب المظاهرات الطلابية العمالية

فى فبراير ١٩٦٨ . وعلى أى حال فإن عبارة "صوت المعركة" على لسانه وعلى لسان خليفته أنور السادات قد تعرضت للفقد اللاذع على لسان الشاعر الشعبى أحمد فؤاد نجم بمصاحبة أغانى الشيخ إمام:

أنور.. ألو يا همبكة

لا صوت يعلو فوق صوت المعركة..

سلام يا ود عشان المعركة

وكمان سلام للست ميمى معركة..

هرشت مخرى فى فين المعركة؟!

إن من الصعب حقا أن نرى الحرب والديمقراطية متعاقبتين كالأحباء. لكن بينهما نوع من الرابطة الخفى، رباط دى صفائر معدة حقا.

إن الحروب تشهر وتشعل وتضاهى وتصدع وتعجل وتؤجل وتهدأ وتنتهى. إنها تتقدم على مراحل. وبالتوازي مع هذه المراحل تتواجد مراحل من التحول إلى الديمقراطية أو التحول عن الديمقراطية. لقد حاول البروفيسور تيلور الإجابة عن سؤال "كيف تبدأ الحروب؟" فى كتابه الذى حمل هذا الاسم (لندن - ١٩٧٩). ومن الممكن أن نطرح سؤالاً موزوناً: كيف تبدأ الديمقراطية فى ظل الحرب؟

وفى الشرق الأوسط كما فى غيره فإن امتياز الإجابة عن السؤال غالبا ما يكون فى يد مسدورى الدولة الذين يتحولون إلى مخزجى مسرح، يوزعون الأدوار بما فى ذلك دور السديكور الديمقراطى لترويضهم الحربية. هذا فى حالة ما إذا كان ذلك معينا لهم على تهيئة مجتمعاتهم للحرب. إن للمسات الديمقراطية هنا لا تسيء إلى صورتهم أو قدرتهم الفعلية فى تهيئة الفاتحين من أجل المجهود الحربى. أما الملامح الأساسية لنهاكلم الاستبدادية فتبقى واضحة بل ومبررة بضرورات الحرب.

وفى الأمر خليط طريف. فقبل حرب ١٩٦٧ مباشرة كان عبد الناصر يضفى لمسة أكثر ديمقراطية على تنظيمه السياسى الاتحاد الاشتراكى العربى، لكنه كان فى الوقت نفسه يقوم بقمع حركة الإخوان المسلمين، وقبل حرب ١٩٧٣ أرسل أنور السادات قوات الأمن المركزى لاقتحام جامعتى القاهرة وعين شمس وإنهاء اعتصام الطلاب بالقوة، بينما بعد ذلك بأشهر وقبل حرب أكتوبر بأيام أمر بالإفراج عن الطلاب المعتقلين وإعادة الصحافيين المعزولين لتعاطفهم مع الطلبة، وبدوره كان صدام حسين قبيل حرب الخليج الثانية يناقش داخل طاقم حكمه مسألة إدخال التعددية السياسية فى العراق، بينما كان يقوم فى الوقت نفسه بإمطار مواطنيه الأكراد بالأسلحة الكيميائية. وخارج العالم العربى لكن داخل إقليم الشرق الأوسط نفسه كانت إسرائيل تقدم نموذجاً آخر للتناقض بين نظامها الديمقراطى وفضتها القمعية ضد الانتفاضة الفلسطينية، مما حصر نظامها نفسه فى حدود أشبه بالديمقراطية "الأثنية الإثنية" (العرقية).

إن ما يهم عملية التحول الديمقراطى فى علاقاتها بالحرب ليس هو الكيفية



أنور السادات

التي تبدأ بها الحروب بقدر ما هو الكيفية التي تنتهى بها الحروب. وسواء انتهت بالنصر أم بالهزيمة فإن هناك إمكانية للتحول إلى الديمقراطية. لكن مضمون التحول يتوقف على الحالة. فالأنظمة المستنصرية تكون أعصابها أكثر هدوما وتقبلا للتحول الديمقراطى، بشرط أن تبقى المبادرة فى يدها وألا تنحصر من حلاوة انتصارها. لقد قام الرئيس السادات فى أعقاب حرب ١٩٧٣ بإعادة نظام التعدد الحزبى فى مصر، لكنه حدد نفسه عدد الأحزاب المسموح لها بالتواجد، وثبت حزبه الخاص فى السلطة. وفى أعقاب انتفاضة يناير ١٩٧٧ قام بقمع حزب اليسار الذى كان واحدا من ثلاثة أحزاب فقط سمح لها بالعمل.

أما الأنظمة المهزومة فى الحروب فهى على العكس تنجس للتحول الديمقراطى مرغمة وتحت الضغط الشعبى. وبينما قد ترى هذه الأنظمة أن شيئا من التحول الديمقراطى يعد شيئا من التعريض عن هزيمتها والتهذبة لشعبها، إلا أن الأولوية لديها تظل لعملية استرداد الهزيمة نفسها، أى بتعجير عبدالناصر بإزالة آثار العدوان، وتعجير صدام حسين مواجهة العدوان الثلاثى. ومع الاتجاه لاستدراك الهزيمة تكمن خميرة الارتداد عن التحول الديمقراطى نفسه إلا إذا استمر الضغط الشعبى كافيا. ففى حالة عبد الناصر والسادات استلزم الأمر فيما بين ١٩٦٧ و١٩٧٣ أربع انتفاضات طلابية مدعومة بضغوط أخرى من دوائر الصفوة والقواعد الجماهيرية لى تنطلق عملية التحول الديمقراطى. وفى حالة صدام حسين استلزم الأمر هذا اللطاف الهائل من الحرب الدولية والحرب الأهلية لى يبدأ فى ١٩٩١ نطق صغير من الإصلاح فى النظام السياسى. وسواء فى حالة النصر أم فى حالة الهزيمة فإن الإجماع

الوطني يساعد على إقرار التعددية من حيث إنه يدعم تسامح النظام السياسي تجاه الاختلافات الثانوية مادام الاتفاق بقى على القضية الأساسية. لقد ساعد الإجماع الوطني عملية استعادة الحياة الديمقراطية في المغرب في أعقاب المسيرة الخضراء إلى الصحراء برغم ما تخضع عن ذلك من حرب طويلة. كما ساعد الإجماع الوطني حول حرب أكتوبر عملية التحول الديمقراطي في مصر برغم الاختلاف بعد ذلك حول طريقة استثمار نتائج الحرب.

لكن الإجماع الوطني سلاح ذو حدين. فهو قد يخلق الاختلاف بين الفرقاء السياسيين لدرجة تجعل من التعددية نفسها صورة سطحية. أو أن توترات الاختلاف والتي يخفف منها وجود إجماع وطني قد تعادلت التراكم وتفرض التصادم حول القضايا الأخرى غير القضية محل الإجماع الوطني. حيث تقدم المغرب ومصر هذا أيضا مثالين بارزين بما عرفنا من انتفاضات خبز-أى اختلاف حول القضية الاجتماعية. رغم تحقق الإجماع حول القضية الوطنية. أما صدام حسين فقد افتقد الإجماع حول غزوه للكويت سواء على المستوى العراقي أم على المستوى العربي، وهو ما حاول إيجاده من خلال حربه لإسرائيل بالصواريخ. لكن هذا كان قليلا ومأخرا لتحقيق المطلوب. ولم يحظ صدام بقدر من التعاطف إلا حين أصبح في موقف الدفاع حين تعرضت بلاده للدمار الغربي. أما التعددية التجريبية التي لجأ لإنقاذها بعد الحرب فجاءت نتيجة للمنضبط الشديد لا للإجماع الوطني أو التوافق على الصعيد الشعبي.

ومقابل التوافق على الصعيد الشعبي يوجد التوافق على الصعيد السلطوي، أى داخل صفوف الصفوة الحاكمة. وهو

توافق يفيد إدارة الحرب بأكثر مما يفيد التحول الديمقراطي. فهو يساعد على اتخاذ القرارات في سر وإعمالها بفعالية سواء لأغراض الحرب أو لغيرها. وهو يفيد في البلدان التي توجد بها بنية أساسية لاشتعال الحروب الأهلية. وفي بلدان أخرى تتخذ صراعات السلطة صبغة دعوية شبيهة بالحرب الأهلية أعلى السلم، كما كان الحال في اليمن الجنوبي والشمالي وسوريا والعراق. حيث يصبح صعود حكام أقوياء ذرى أيد باطشة مثل حافظ الأسد وصدام حسين هو الصورة العنيفة لضمان وجود توافق داخل السلطة بالقوة.

وقد عرفت مصر صورة أقل عفا في إطار صراع السلطة بين عبد الناصر والمجموعة العسكرية للمشير عبد الحكيم عامر، وهو الصراع الذي كلف مصر ثلثا قادها في صراعها الأكبر مع إسرائيل بل وكلف العرب جميعا ثلثا قادها في صراعاتهم لإنجاز مختلف القطاعات الوردية. لقد أنهى المشير المصري المهزوم حياته بيده بتناول السم. أما اللواء العراقي المنتصر في أعقاب حرب الخليج الأولى مع إيران «عدنان خير الله» فقد أنهيت حياته أيضا على يد قائده وقريبه



أحمد فؤاد نجم

صدام حسين نفسه الذي تلقى التعازي إثر «حادثة الطائفة»!

لقد كان استمرار صراع السلطة في مصر بعد موت عبد الناصر بين السادات ومنافسيه الناصريين مساعدا على نمو التعددية. فالأجندة المتصارعة في قمة السلطة تحتاج دعائم في قاعدة المجتمع، بشرط أن تحكم فيها. وفي المجتمعات التي يسودها الاستبداد الهيكلي برغم نشأة الليبرالية الجديدة فيها، يكن من السهل عادة على أجندة السلطة للتلاعب بأجندة المجتمع، السياسية أو الاجتماعية أو غيرها. وإذا كانت الخلافات الأيديولوجية بين مختلف الأجندة في القمة وفي القاعدة حادة بالدرجة الكافية، فإن نمو التعددية يصبح أمرا جديا ومعركة حامية الوطني.

(4) الحرب وما وراء الديمقراطية

لقد وقعت الدولة في الشرق الأوسط ضحية لما روجت له بنفسها من أيديولوجية فقد قدمت أطروحاتها الأيديولوجية في أكثر صورها مثالية وصرامة وقامت بتعبئة جماهيرها حولها في خطوط مستقيمة. ولذا كان من الطبيعي أن يتعرض طرح خطوط الدراج والمرونة للمقاومة. فبينما كان من السهل نسبيا تفكيك ما تم من ترتيب على مستوى القمة (مثلا استخدام السادات لأداة الدولة الناصرية نفسها لتغيير المسار الناصري) كان من الصعب لجم القوى التي أطلقت في القاعدة.

لقد تعرضت أيديولوجية الدولة في الشرق الأوسط للمصاعب من قبل خصومها، لكن أكثر منافعها جاءت من طرف القوى التي جلدتها بنفسها فتحرلت إلى أكبر داعية لأيديولوجيتها. وهكذا جاء مسار المتاعب في الشرق الأوسط. ففي تركيا احتاجت الأيديولوجية العلمانية للحماية الدائمة من قبل القوات المسلحة.

وفى إيران تمت حماية أيديولوجية التحديث فى ظل الشاه بالوسائل القمعية للعصور المظلمة، ثم أدت الأيديولوجية الإسلامية إلى مخاصمة إيران لكثيرين من جيرانها الأفريين والأبعدين بل ومحاربة بعضهم، حتى ما إذا طرح فيها خط أيديولوجى جديد يسمى «الواقعية» تعرض للمتابع من قبل جنود الثورة الإسلامية. أما الأيديولوجية الصهيونية فى إسرائيل فقد غذت الحلم المستحيل لبداء إسرائيل الكبرى وأذى جعل السلام مستحيلًا بالنسبة لإسرائيل الصغرى. وعلى مستوى الأغلبية العربية فى الشرق الأوسط لم تتمكن أيديولوجية القومية العربية من تحقيق أى من أحلامها، بل على العكس ولدت نوصًا من محاربي «الكمايكاى» اليابانيين الذين أدمجوا المسجد والانتحار على نعر ما فعل صدام حسين الذى لم يوحد العرب بقدر ما عاد بهم إلى مستوى الصراعات القبلية قبل ظهور الإسلام.

وإن فشلت الأنظمة العربية فى تحرير فلسطين فقد اتجه قادتها البراجماتيون إلى خط جديد سبب لهم صدامًا مع عناصر الرض التى قاموا بتفريغها بأنفسهم. ويفرض ذلك تصديتات على التحول الديمقراطى على الأقل من ناحية الترتيبات العملية. فحيث تتخذ عناصر الرض بأطوار صيغة إسلامية تفرض التصديتات على الديمقراطية شكلًا ومضمونًا كما أضحت الحالتان الأردنية والجزائرية. وليست بأقل أهمية حالات تونس واليمن والسودان. ويؤدى ازدواج المقاييس الغربية فى التعامل مع المسألة الديمقراطية إلى تأجيج المروق وتهديد العملية الديمقراطية فى المنطقة عموماً. كما أن العناد الإسرائيلى يهدد إمكانات السلام وبالتالى يعوق التحول الديمقراطى فى بلدان الشرق الأوسط.

ومن حسن حظ الصفوات الحاكمة فى معظم هذه البلدان أن الصفوات البديلة غير متماسكة حتى الآن. فهى تتكون من ثلاثة أفرع عريضة: الليبرالى والرايدينالى والإسلامى. هذا دونما ذكر للأفرع العرقية والقبلية. ونقتصر هذه الأفرع للاتفاق حول البديل السياسى من الناحيتين النظرية والعملية. ولذلك تعادل هذه الأفرع أثر بعضها بعضاً وتتأجل عملية استبدال السلطة. وعلى هذا النحو جاء استمرار نظام عبد الناصر بعد هزيمة ١٩٦٧، كما استمر صدام حسين فى السلطة جزئياً بسبب هذا العرض المؤثر على الصفوة العراقية البديلة. إلا أنه مع استمرار نمو الفروع الإسلامى للصفوة البديلة سيصبح الوضع استقطاباً ثنائياً حاداً ويكون من الممكن استبدال النظم القائمة إما من خلال صندوق الانتخابات أى بأداة جماهيرية أو من خلال الانقلابات العسكرية ذات المسحة الإسلامية أى بأداة للصفوة. وهو ما سيهدد عملية التحول الديمقراطى. وبدلاً من قياس أثر العرب على الديمقراطية والتحول الديمقراطى سيكون علينا أن ندرس هذه العملية الأخيرة باعتبارها حريا فى حد ذاتها.

إنه لا يكفى هذا أن نتجنب وجود الدساتير، والانتخابات والأحزاب، والبرلمانات... إلخ. فهى موجودة فى



صدام حسين

بلدان الشرق الأوسط بدرجة أو بأخرى. حتى الصحافة الحرة موجودة فى هذا المكان أو ذاك. والراى العام كذلك موجود ويناقش برغم التعاليع به وخداعه مثلما حدث فى الغرب نفسه خلال حروب فيتنام والخليج. إن بلدان الشرق الأوسط تقف على مسافات مختلفة من كل من العرب والديمقراطية. وتلك البلدان التى تعيش الحرب فعلاً أو تعيش فى ظل التهديد بها ليست بالضرورة هى البلدان الأقل ديمقراطية. فمصر والأردن ولبنان دول شبه ديمقراطية. وعلى العكس فإن دول الخليج التى تميزت ببعدها الجغرافى عن حروب الصراع العربى الإسرائيلى لعقود من الزمان، وتوافر لديها الغناض المالى لإرضاء شعوبها قليلة العدد، لم تبدأ بأن تتحول إلى الديمقراطية. ومين وصلت العرب إلى عقر دارها كان قادتها قد عرفوا تكتيك الكلام الديمقراطى والفعل الأوتوقراطى. وحالة الكويت ذات دلالة هذا سواء قبل غزوها أو بعد تحريرها.

إن السعى إلى الديمقراطية فى الشرق الأوسط ليس مجرد بحث عن وسيلة سلمية للتعامل مع مسألة السلطة السياسية: توليها، توارثها، تبادلها، تداركها، مشاركتها، نقدها... إلخ. إنها مسألة أكبر متعلقة بالنظرة العامة للكون وطريقة الحياة. وهى تحتاج كثيراً من الاجتهاد والجهاد، والاجتهاد الفكرى والنظرى العميق والجهاد العملى أى الحزبى الفعلى الصبور فى مجال تشييد أبنيتها وممارستها. إنها حرب فى حد ذاتها وتحض على التعمق فى دراسة علاقاتها ليس بمسألة العرب وحسب وإنما بمجالات أخرى عريضة للعيش البشرى:

أولاً: المسألة الاقتصادية وكيفية حصول الأغلبية الفقيرة فى إقليم الشرق الأوسط على لقمة عيشها. فإذا لم

«يتوزع» الفائض النفطي للمنطقة توزيعاً معقولاً، «ستتوزع» القوات المسلحة للانفصاف عليه وسيكون أكثر الكلام في المنطقة عن التوتر والحرب لا عن الديمقراطية. والأسوأ من ذلك أن المقدار البسيط من التحول الديمقراطي الذي تم في بعض البلدان سيعرض للخطر.

ثانياً: المسألة الوطنية أو القومية والمسألة الإقليمية. أي مسألة الصراع الرئيسي حول فلسطين والصراعات التالية في مناطق الأكراد والبربر وجنوب السودان، أو صوما مسألة غير الحرب في القلب العربي وغير المسلمين في القلب الإسلامي. إن دولة إسرائيل الصغيرة بأحلامها حول إسرائيل الكبيرة وعنادها الطفولي حول حل مسألة فلسطين الأساسية إنما تعطل حل بقية المشكلات القومية والإقليمية وتضمن بقاء الإقليم في حالة توتر دائم وفي هذه الحالة سيكون الحديث عن الديمقراطية نوعاً من الترف ويسكون الحديث. أوقع - مرة أخرى - عن «صوت المعركة».

ثالثاً: المسألة الثقافية والحضارية، والتعبير الواضح عنها هو المسألة الدينية أو بالأحرى «المسألة الإسلامية». إنها مرة أخرى في التاريخ «المسألة الشرقية». لكنها هذه المرة ليست مسألة إمبراطورية إسلامية متداعية، ولكن مسألة تيار صاعد وطموحات متزايدة. وللكرة في ملعب الغرب أن يحدد ما إذا كان يريد مصالحة - وربما ترشيدها - مع الظاهرة

الإسلامية أم يريد الصدام والمواجهة. إن امتدادات الحضارة الغربية من نظم قمعية وفاسدة في العالم الإسلامي أخذت في التداعي وإن يقد جلداهما سوى المزيد من القمع لكن لبعض الوقت. إن الحديث عن وجود ديمقراطية في العالم الإسلامي يستبعد منها الأصوليون الإسلاميون بكل أنواعهم - بما في ذلك المتشددون المعادون للغرب - هو حديث ضعيف من الأصل ويعبر عن موقف هروبي من المسألة كلها. إن الأصوليين الغربيين المعادين للإسلام والحضارة الإسلامية، إنما هم محالفون موضوعياً مع الأصوليين الإسلاميين المعادين بالكامل للحضارة الغربية، فكلاهما يسهمان في تدمير الديمقراطية السياسية على أرضية صراعهما الثقافي والحضاري الاستعماري.

رابعاً: مسألة القوة الكونية وتوزيع مصادر الثروة الاقتصادية والسياسية على الصعيد العالمي ونصيب بلدان الشرق الأوسط من ذلك. فبعد نصف قرن من الزمان انهيار النظام العالمي ثنائي القطبية، وخلال فترة أقصر قد ينهار النظام العالمي الأحادي القطب، وربما بصورة أكثر مأساوية. إن الصراع العالمي يحتاج لجرعة من التفكير الحضاري والتقدير الحضاري. بمعنى أنه إذا لم تعلم الولايات المتحدة الأمريكية (الدولة الأقوى في السياسة الدولية والعنصر الأحدث في الحضارة العالمية) كيف تتعامل مع للعالم القديم (الليابانيون -

الأوروبيون - العرب - الفرس - الصينيون - اليهود .. الخ) بطريقة «محتضرة» (تدمير العراق لم يكن تحضراً) فسكون هناك كارثة عالمية من صنع الإنسان تنتظره في القرن القادم كارثة سجنو الحرب العالمية الثانية أمامها جرحا سطحيا على جلد البشرية. وعند ذلك ستكون الحرب لا الديمقراطية هي حديث المدينة العالمية ناهيك عن قرية الشرق الأوسط التي لن تكون أرضاً للاستقرار في الكرة الدوارة أو واحة للديمقراطية في عالم بقره البطء.

وأخيراً فإن هؤلاء الطغاة وفلاسفتهم الذين لا يرون في الشرق الأوسط سوى ثلاثة «متحف التاريخ - قاعدة الصواريخ - بئر البترول» ليسوا مؤهلين لمساعدة العملية الديمقراطية لدى البشر الذين يقصر بصرهم عن رؤياهم كما تعجز بصورتهم عن احترامهم. إن اليهود المضنية التي يبذلها أهل المنطقة بأنفسهم لإقامة حياة ديمقراطية في بلادهم برغم الحرب هي مهمة شاقة تستأهل كل تقدير. وقد لا تؤدي هذه الجهود لأكثر من الحصول على نوع من «ديمقراطية الكفنة العسكرية» لا الديمقراطية المتكاملة. لكن هذا باعتبارات الزمان والمكان يعد في حد ذاته إنجازاً كبيراً. والمهم أن تتحقق تطلمات الناس لحياة ديمقراطية بهذا المقدار أو ذلك بدلا من أن تصبغ تصحيحاتهم سدى في الفلجان والمحيطات ■

قا بدخول اتفاق «غزة - أريحا أولا، مرحلة التنفيذ، تدخل المنطقة، ككل مرحلة جديدة في طبيعتها، مرحلة تختلف فيها معسكرات المواجهة، وآليات الصراع، والتحالفات، بل ونوع المواجهة. فعلى مدى عمر الصراع العربي - الإسرائيلي، من ١٩٤٨ وحتى ١٩٧٣، كانت المواجهة عسكرية في المقام الأول، خاض الطرفان خلالها أربعة حروب، انتهت بهزيمة العرب. حتى ثمار نصر أكتوبر المجيدة ذهبت أدراج المسارب السياسية. في خلال تلك الفترة، وبالذات في الفترة من ١٩٤٨ - ١٩٦٧، كان التعامل مع إسرائيل يتم من خلال منطق يستهين بها ويقل من شأنها. فهي «الكيان المزعوم، تارة، و «دولة المصائب الصهيونية، تارة أخرى. واستنامت الأطراف العربية إلى كثرتها العددية، وشعار لم ير التحقق يوما، أي الوحدة العربية، شعار اكتسب صبغة أصولية ولم يسفر سوى عن مؤتمرات للمصالحة العربية، في أفضل الأحوال.

ويفيق العرب على صدمة ١٩٦٧، بعد أن ابتلع العدو مساحات جديدة من الأرض، ومن الكبرياء القومية. وبعد أن ينقشع دخان الحريق، تبدأ رحلة اللهاث في أروقة المنظمات الدولية. وتراجع الأهداف القديمة، وبدلا من استرداد الأرض السلبية وعودة الفلسطينيين إلى ديارهم والقضاء على إسرائيل، يصبح غاية المعنى تطبيق القرار ٢٤٢ واستعادة الأرض التي سلبت حديثا.. سيبدأ والجولان والضفة الغربية. يتم كل هذا دون وقفة توضيح أو نقد ذاتي أو تقديم

تساؤلات على مأمش المستقبل

بدر الدين السامي

مهر للجمهور، وهو أمر يبدو كآلية طبيعية للعقل العربي، آلية التواطؤ مع الذات، دون اعتبار لدماء الشهداء أو لمقول الأحياء. ثم نعى حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة.

برولوج موسيقى قصير وسريع، يفتح بعده السhtar عن فصول جديدة تقدم، ولأول مرة، لجمهور المشاهدين من شعوب المنطقة.. كامب دافيد.. حرب الخليج ١٩٩٠.. وأخيرا غزة - أريحا أولا. (لا يقصد كاتب هذه السطور أى استهانة أو تقليل من تضحيات الجلود والشهداء الذين جادوا بجهودهم وأرواحهم، وشهد العالم كله بأدائهم البطولي في حرب أكتوبر المجيدة.)

وهكذا، وبالعادة، أدخلت المنطقة فى مرحلة جديدة. وأقول أدخلت لأن العرب طوال تاريخ صراعهم مع إسرائيل كانوا دائما فى موقف رد الفعل. كانت إسرائيل دائما تختار الموقف وتختار التوقيت، بل وأحيانا ما كانت تفرض نوع رد الفعل. مرحلة جديدة تدخلها، تراجع فيها المواجهة العسكرية الساخنة، لتحل محلها التسويات السياسية، كتمهيد لإقرار واقع جديد مغاير لن يقتصر، فى المدى البعيد، على مجرد تلك التسويات. وهى مرحلة، فى نظرنا، انتقالية الهدف منها ترتيب الأوضاع بما ينسجم مع المرحلة الثالثة من مراحل المواجهة العربية الإسرائيلية، مرحلة للشرق أوسطية، أو هكذا اختارت أن تسميها إسرائيل، بمباركة القوى الكبرى فى النظام العالمى الجديد (تحت التأسيس).

ما المقصود بالشرق أوسطية؟

تركز النقاش الذى دار حول الشرق أوسطية فى الصحف على تناول الفكرة من منظور كونها سوقا تضم دول المنطقة. لكن المتأمل لأفكار «سيمون بيريز»، مهتدس الشرق أوسطية، يشتم رائحة قومية إقليمية جديدة، انماء إقليميا جديدا، يتجاوز أو يemas مع الكيانات القومية الوطنية. فهو يشير إلى أنه «خلال فترة حكم الإمبراطورية العثمانية لم يكن للهوية الوطنية سوى اعتبار ثانوى فى تفكير الشعوب الخاضعة للعثمانيين، أو فى نظر الشعوب الأخرى»^(١)، والخطوط العلمية المعلقة حتى الآن تركز على قضايا عديدة لا تقتصر على الاقتصاد أو السوق قصب، فهى تتناول قضايا الأمن والديمقراطية والتنمية والاستقرار السياسى.. وبالإضافة إلى التعارون الثقافي والعلمى مع شعوب المنطقة، والذى بدأت إسرائيل مع مصر بعد التوقيع على كامب دافيد.

لقد سبق مقدم الشرق أوسطية مجموعة من المتغيرات العالمية والعالية المراتبة. فقد شهد العالم سقوط الاتحاد السوفيتى والكتلة الاشتراكية، التى كانت تمثل دعامة وسندا للمجبهة العربية وإنسلاخ كتلة «الدور» ومجموعة «الفتن»، الآسيويين من معسكر العالم الثالث،، ويتوالت هذا مع إعداد المسرح العالمى لنظام جديد لم تتضمن قسماته بعد. وعلى المستوى العربى، كانت حرب الخليج قد أتت على البقية الباقية مما سعى للضمين العربى. فمدد زمن غير قريب ظلت الوحدة العربية تتصامل، حتى

أصبح يطلق عليه الضامن العربى مرة والتسويق العربى مرة أخرى، لقد قصت تلك الحرب على أى أمل للضمين أو للتسويق أو حتى العلاقات الطبيعية. وحرب اليمن التى تدور رحاها الآن بين الأشقاء هى فى جانب منها شكل من أشكال تصفية الحساب.

كانت حرب الخليج تفجيراً لعداوتات عربية كامنة. وبنت قوات التحالف الغربى بمثابة المنفذ من الضلال العربى. وخرجت الأمة العربية من تلك الحرب مهزومة بيديها.. ربما لأول مرة فى التاريخ تقول أمة من الأمم هزيمتها. ولعشرات - ضمن أشياء أخرى - محاولات النطق الستمتية لورثة دور مصر فى قيادة المنطقة.

على هذه الأرضية من السيولة والتشتت وفقدان الاتجاه والقيادة بدأت تظهر الدعوة للشرق أوسطية. وهو اهتمام قديم لدى قادة إسرائيل، يعكسه عدد مراكز الأبحاث المهمة بدراسات الشرق الأوسط، منها «مركز موسى ديان لدراسات الشرق الأوسط»، «مركز دراسات الشرق الأوسط وأفريقيا، بجامعة حيفا» و«قسم للشرق الأوسط والدراسات الإسلامية، بالجامعة العبرية»، و«معهد شلواخ» و«قسم التاريخ الشرق أوسطى والإفريقي، بجامعة تل أبيب». وغروها من المراكز والمعاهد المتخصصة. وضم هذه الهيئات مجموعة كبيرة من الأساتذة والمختصين فى شئون المنطقة، الذين يتولون تقديم الدراسات والأبحاث حول الجوانب المختلفة، السياسية والاقتصادية

ولكى يتحقق هذا المصير لابد وأن تشرع في المواجهة التي تأخرت طويلا.. مواجهة تخلفها على جميع المستويات. ولن يتحقق لها هذا إلا بإرساء الديمقراطية. ومصر أكثر الدول المؤهلة لهذا، بفضل تراثها السابق في التنوير والريادة الفكرية.

هل يمكن للأصولية أن تكون بدلا للعربية في المرحلة القادمة؟ هل يمكن أن يكون الانتماء الإسلامي هوية قومية بدلية في مواجهة الشرق أوسطية؟

إن إسرائيل تنزع الأصولية الإسلامية كأحد الأسباب التي قامت الشرق أوسطية لمواجهةها. فهل يصنعنا المستقبل أمام اختيار مأساوي بين أحد الاكثين؟

أسئلة كثيرة وغيرها، ينبغي طرحها والتصدى لها بشجاعة واستنارة، ولا يجب أن ننتظر حتى نواجهها بلباس الموشك على الفرق.

وأعتقد أن مجمل هذه التساؤلات وغيرها في حاجة إلى جهد بحثي وحوار منظم، يشارك فيه كل مفكرنا ومثقفنا المستبشرين. إن مجموعة المقالات والأبحاث الواردة بهذا الملف تمثل جهدا فرديا مشكوراً. لكن الأمر في حاجة إلى إطار يجمع جهود المهتمين بالأمر، ينظمها ويوجهها في خدمة أهداف واضحة، ينفق عليها بطريقة ديمقراطية. إن الأمر يتعلق بمستقبل وطن ومصير شعب. ولا ينبغي ترك المسألة برمته للحكومات والأنظمة.

فهل تكون البداية ندوة «صنيقة» بين المهتمين تتولى الإعداد لها مجلة «القاهرة»، باعتبارها مثيرا تنويرياً

رئدا؟ ■

العوامش

(١) شمعون بيريز، الشرق الأوسط الجديد، ص ١٨٤

(٢) Middle East Contemporary Survey.

(٣) بيريز مرجع سابق ص ٣٥.

(٤) انظر مقال الدكتور شكري عباد بحريدة الأهالي - ٢٥ مايو ١٩٩٤.



شكري عباد

هل ما زالت الوحدة العربية - ولو على مستوى شعار - عامل جذب، يمكن أن يشكل عنصر استقطاب للعرب، أم استحالت إلى حلم ينتظر الفرصة المواتية؟

بعد سقوط الكتلة الاشتراكية ثار التساؤل: هل الميعب في فكرة الاشتراكية نفسها، أم في التطبيق؟ فهل يمكن أن نطرح السؤال نفسه فيما يتعلق بالوحدة العربية؟ إن أوروبا لم يجمع بينها من عناصر الوحدة ما تحققت للأمة العربية من عوامل، ومع ذلك تحقق لأوروبا وحدتها القائمة على تبادل المصالح الوطنية لكل وحدة من وحداتها القومية، فهل علينا في الحقيقة القادمة أن نحذو حذو أوروبا، مثلاً؟ بمعنى التركيز على استكمال البنية الوطنية والاستمراد بمصالحها، وبعدها يأتي الصديق عن الوحدة؟

وماذا عن مصر؟

هل آن أوان انعزال مصر، كما يرى بعضهم؟ لنعزل ويفرض بقاء الذات على كافة الأصعدة؟^(٤)

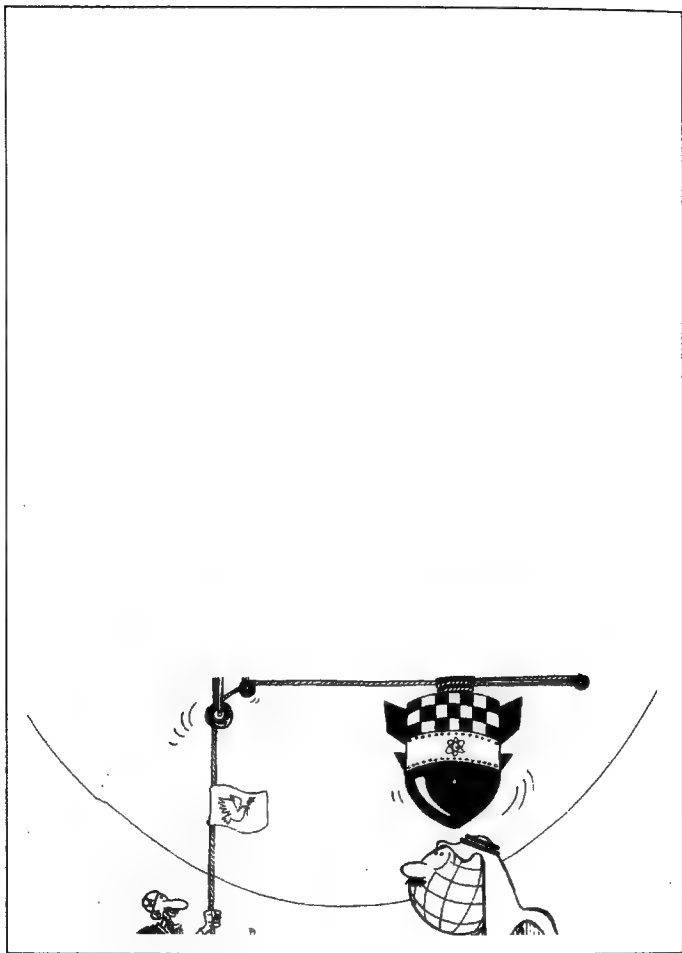
إن لمصر - دائماً - دورها المحوري في قيادة هذه المنطقة، وتراجعها الحالي وضع مؤقت وعابر، لابد أن ينتهي يوماً.

والثقافية والتاريخية. ومنذ ١٩٧٦، يصدر مركز «موسى ديان» كتاباً سنوياً^(١)، يتناول فيه الأوضاع التي عايشتها بلاد المنطقة خلال السنة المعنية، بلاد بلاد، مع التعرض للقضايا المحورية التي شهدتها العام. وشبكة دراسات الشرق الأوسط في إسرائيل على علاقة وثيقة بالشبكة المفتلة بالولايات المتحدة الأمريكية، والتنسيق بينهما كبير.

مشروع الشرق أوسطية إذن ليس وليد الظروف المستجدة أو العابرة، وإنما جزء من تخطيط استراتيجي، يستفيد من توتر المشروعات العربية. ولا أعني أنه رد فعل لهذه التغيرات، إن المشروع يستهدف، هذه المرة، السوق والعقل العربي. وسوف يرتدي للغازي، هذه المرة، ثياب التجار والمفكرين، يظهره بنية اقتصادية عربية مختلفة، ووسائل اتصال وأقمار صناعية جبارة بدأت نتائجها تظهر في البيت العربي بالفعل، وجيش من علماء الاجتماع. ومرة أخرى استشهد بشيمون بيريز، الذي يقول: «القرة الحقيقية، بل وحتى القوة العسكرية لم تعد توجد في المحسركات، بل في حرم الجامعة»^(٢).

كيف ندخل الحقبة الجديدة؟

هذا سؤال يستدعي جهود كل مفكرنا ومثقفنا، باختلاف توجهاتهم. جهد يحل بالمقالات وشجاعة السؤال وإعادة النظر في البديهيات المستقرة. إن تحدى المستقبل، في اعتقادي، مازال هو تحدى الماضي: بنية عقلية عصبية على التجدد، وتنمية متعثرة، وديمقراطية محتجزة. وفي هذا الإطار ينبغي طرح مجموعة من الأسئلة، منها ما هو جديد ومنها ما تأخر طرحه لسبب أو لآخر. وعلى رأس هذه الأسئلة يجيء السؤال: من هو العدو الرئيسي في المرحلة المقبلة؟ هل ما زالت إسرائيل هي العدو الرئيسي؟ وهل الأجابه على هذا السؤال تحوز إجماعاً أو أغلبية عربية؟





فإذا كان الكبار يحكمهم فن الممكن فإن الشباب يطمحون نحو أفق المستقبل وتبدو الحاجة إلى الكشف عن رؤى العالم لدى الشباب حاجة مستجدة ومفتوحة لفهم عالمهم، ومن ثم فهم مستقبل الأمة.

ومعرفة جوانب وحقيقة الوعي السياسى للشباب - وخاصة الجامعى - مهمة مشروعة ومغرية فى أغلب الدراسات التى تعرضت لمواقع التدشنة السياسية لهم، وقد أجريت الدراسة الحالية لمعرفة صور المستقبل العرسى لدى خريجي الجامعة المصرية حديثا، حيث أجريت على ٢٧٠ خريجاً جامعياً من خريجي مختلف كليات الجامعة المصرية والذين يأتون إلى كلية التربية للحصول على دبلومة عامة فى التربية لمدة عام، تؤهلهم بعدها للانخراط فى مهنة التدريس، فى ضوء واقع متأزم يعانى فيه أكثر من ثلاثة ملايين شاب التمثل.

والسؤال الأساسى والمفتوح الذى وجه لهذه العينة: ما صورة مستقبل الأمة العربية فى القرن القادم فى توقعك؟

وأجريت الدراسة مرتين فى عامى ١٩٩٠، و١٩٩٢، ولإحاطة أنها استوعبت - اتفاقاً - حدثاً جلا هو زلزال الكويت خلال مدة البحث، ومن قبل تخصصات مختلفة من هندسة وعلوم وتجارة وأدب وخدمة اجتماعية وعلوم سياسية ولأن الإجابة كانت مفتوحة، أى لم تحددهم جوانب يعينها فى المستقبل، فقد استخلص التحليل أهم القضايا الرئيسية الأكثر

صورة إسرائيل ومستقبلها لدى الشباب الجامعى المصرى

محسن خضر

باحث مصرى وروائى وقصاص

نحن وإسرائيل .. التحدى والمستقبل

وتحرير فلسطين بالقوة أو تنظيم أطفالها كحد أقصى، وإن لم يكن مطروحاً إقامة دولة ديمقراطية علمانية لكل القوى السياسية والعرقية، ومن أمثلة هذه الإجابات:

• لا يمكن أن تصل إسرائيل إلى نيل مصر أو فترات العراق (أرض الميعاد).

• ستشهد إسرائيل بوحدة العرب.

• ستقوم حرب مدمرة بيننا وبين إسرائيل للسيطرة على الوطن العربي بسبب طبيعتها العدوانية.

• لا حرب بين العرب وإسرائيل خلال عشر السنوات القادمة لفضل كل منهما في حسم الصراع في الجولات السابقة.

• خلق إسرائيل أو إقامة دولتها في حدود متفق عليها إلى جانب دولة فلسطين.

• متحل مشكلة فلسطين بالمفاوضات، ويفضل جهود الدول الكبرى.

• يسود سلام بين مصر وإسرائيل.

• سيقت الروس ضدهم.

• ستوافق إسرائيل مضطرة على الحل الملمي بسبب مخاطر الانقراض.

• لاستقبال لها وستقرض خلال سبعين عاما.

• ستعجز عن التوسع بسبب عجزها السكاني.

● مستقبل الوحدة العربية وإسرائيل.

تعى أكثرية الإجابات للتأثير السلبى للوحدة العربية على إسرائيل (فالوحدة من

٢ - نوايا إسرائيل فى المستقبل.

تستبعد أغلب الإجابات نوايا إسرائيل الجادة نحو بناء السلام، ونلاحظ أن توقيت إجراء هذه الدراسة (١٩٩٠ - ١٩٩٢) تم فى ظل مناخ (السلام البارد) وقبل الاتجاه الرسمى والإعلامى الأخير نحو (تسخين السلام) والإعلان عما يسمى (بالمسوق الشرق أوسطية)، فنوايا إسرائيل فى المستقبل - عند عينة الدراسة - ترى أن إسرائيل ستستمر فى ممارسة تهديدها، وستستمر فى احتلال الأرض العربية، وستستمر الحلول المحدودة بسبب طبيعتها العدوانية وستمارس تخريبها فى قلب الأمة العربية بالتهديد والتهويد والقوة)، وأن القضية الفلسطينية لن تدخل إلا بوحدة العرب.

٣ - مستقبل إسرائيل.

لانتكشف الإجابات عن إمام كاف بالتركيب السكانى والسياسى للمجتمع الإسرائيلى، ولانتناقضاته الداخلية (الأحزاب الدينية المتطرفة وأحزاب اليسار، أو بين الأشكنازيم والسفرديم، أو الهجرة المضادة، أو القليلة السكانية الفلسطينية، كما لم تشر إلى وضع الاقتصاد الإسرائيلى وبديويته، ولا عن خريطة منظمات المقاومة الفلسطينية، وهو ما يشير إلى جهل الشباب المصرى بخصائير القضية الفلسطينية وظلالها وتمرجعاتها المختلفة، وإن كان الوعى كبيرا بطبورات الانتفاضة الفلسطينية.

كما ظهرت نبذة واضحة تتعلق بالخيار (صفر) أى تصفية إسرائيل

تكرارا فى إجاباتهم، وكانت قضايا مستقبل الوحدة العربية، ومستقبل الصراع العربى الإسرائيلى، ومستقبل علاقة الذات بالآخر ومستقبل التنمية والاقتصاد العربى، ومستقبل الديمقراطية ومستقبل العلم والتعليم.

١ - صورة إسرائيل

تكشف مجمل الإجابات عن استمرار مشاعر العداوة بين أوساط الشباب المصرى تجاه إسرائيل، والازدواج نحو رفض التطبيع معها، وعدم الثقة فى سعيها الجاد تجاه إحلال السلام.

وتنوزع الاستجابات عموماً بين مشاعر انفعالية سلبية وموقف عداوة عقلائى .

وقد اختلفت التعبيرات حول صورة إسرائيل فى إجابات الشباب المستفتى، وإن تفاوتت فى المعنى، فهى خنجر فى جنب العرب، و(طعنة فى قلب العرب) و(أخطبوط) و(الابن المدلل لأمريكا) و(أداة الاستعمار) و(العدو اللدود للأمة العربية) و(مصاربون ضد السلام) و(ولاية أمريكية).

ويحدد دور إسرائيل عندهم فى استنزاف قوى العرب، وإجهاض محاولات التنمية والتقدم، والتهديد المستمر للأمن العربى، وفصل الشرق العربى عن مغربه، وغايتهم تحقيق إمبراطورية يهودية من النيل إلى الفرات، كما زرعها الاستعمار الغربى لتصبح مصدر قلق وحروب، ولتحقيق حلم الصهيونية العالمية.

شأنها تصوره فلسطين) كما أنها (تهدد مصالح إسرائيل والقوى العظمى) (ستزيح الوحدة لإسرائيل عن المسرح العربي) (وستجوع الوحدة في إيجاد حل جذري للقضية الفلسطينية).

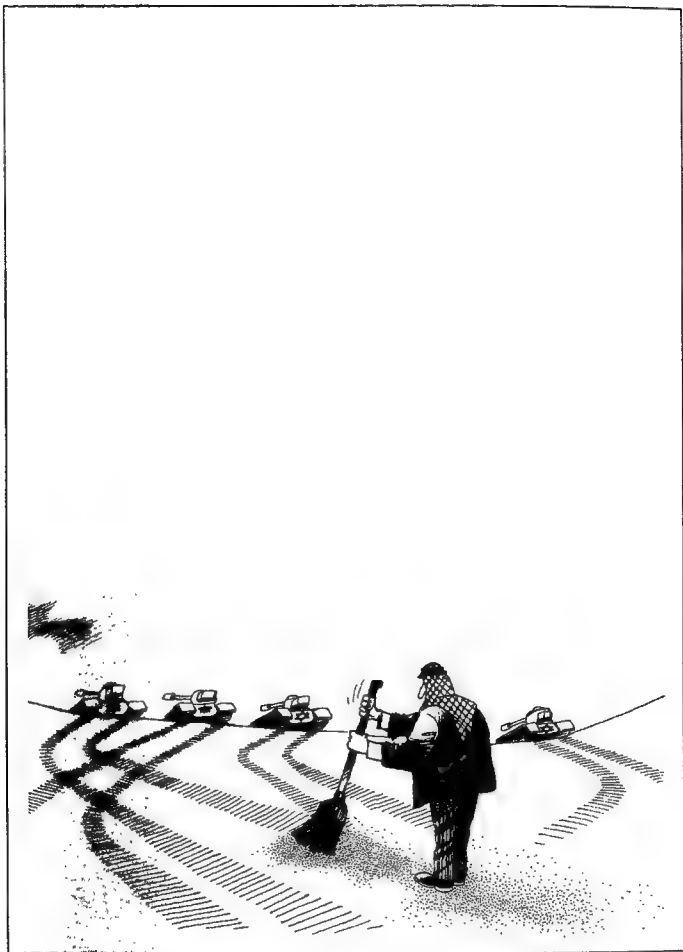
ومما يتجهو للتأمل حول صورة إسرائيل في مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي لدى الشباب المصري الجامعي حديث التخرج، هو الرفض النفسي، والوعي أيضاً لتطبيع العلاقات مع إسرائيل، أو الثقة في سعيها الجاد نحو بناء السلام، ومما يزيد هذه النتيجة أهمية، أنها تأتي من قبل (جيل كامب ديفيد) أي على لسان الجيل الذي نشأ وتفتح وعيه في ظل مفاز الصلح الرسمي بين مصر وإسرائيل، وإنهاء حالة العرب، ولكن استمرار عدوان إسرائيل وإنهاكها لتحقيق الهزيمة ومحاولة تعطيل جهودها العلمي والتكنولوجي، وتهديدها المستمر للسيادة العربية منذ معاهدة السلام (غزو بيروت - تمهيد المفاعل النووي العراقي - الاعداء المستمر على جنوب لبنان - قمع

الانتفاضة بكل السبل مشروعة وغير مشروعة - اغتيال الزعماء الفلسطينيين - ضرب تونس...!) قد وسعت من أزمة الثقة لدى الشعب المصري تجاه مصداقية السلام الإسرائيلي، كما يمكن تفسير هذه النتيجة - جزئياً - برفض أحزاب المعارضة المصرية للتطبيع مع إسرائيل قبل عودة حقوق الشعب الفلسطيني والجللاء عن الأرض العربية المحتلة وخاصة في ظل الانتقاد الدائم واللهجة المعادية لإسرائيل في صحف المعارضة المصرية وخاصة (الأهالي) و(الشعب) و(الوفد)...

وإذا أضفنا إلى ذلك أن الدراسة قد كشفت عن موقف مناهض للشباب عينة الدراسة من الدور الأمريكي وإتهامه بالتحيز لإسرائيل، وعدم العدالة في موقفها من الصراع العربي الإسرائيلي، وإتهام الولايات المتحدة للسمي للتأمر والهجمة على الإرادة السياسية العربية لأدركنا عمق الدلالة التي تبطن هذه الإجابات، أو التي يمكن استخلاصها

منها، وخاصة أن هذا الجيل لم يش في أجواء الخطاب القومي في الخمسينيات والستينيات، ولكن موقفه السابق من إسرائيل والولايات المتحدة يكشف أيضاً عن تأثير الجيل السابق - وبالتالي انتقال الثوابت القومية بين الأجيال - وفي مقدمتها الإيمان بعدالة القضية الفلسطينية، ورفض ما يظهله المشروع الإسرائيلي في المنطقة، وعدم الثقة في سعى السياسة الإسرائيلية نحو إحلال السلام بدلا من الحرب، أو استبدال لغة الحوار بلغة القوة.

وتدعو الدراسة إلى مزيد من الدراسات للكشف عن الوعي السياسي لقطاعات وشرائح أخرى من المجتمع المصري، مع الإشارة إلى نقطة مهمة أخرى وهو ما أكدت عليه هذه الدراسة من الإيمان العميق لدى الشباب الجامعي في مصر - من خلال عينة الدراسة - بقضية الوحدة العربية، وبعمق الهزيمة القومية وانتماء مصر العميق إلى محيطها العربي ■





قد يجد القارئ في السطور التالية قدراً مما يشبه السيرة الذاتية لكتابتها ، لكنها في الحقيقة ليست كذلك ، أو أن هذا ليس القصد منها . إنما كان الدافع المباشر لكتابتها صادياً - إن جاز التعبير ، فقد كتبها كمقدمة ثانية لتكتاب سبق أن ترجمه ونشره في العام ١٩٧١* ، لكن الدافع الحقيقي يتضح من قراره إعادة نشر هذه الترجمة ، فقد صدر هذا القرار عن سعيه إلى التفيتش في عقله وضميره عن حقيقة رؤيته لما يجري على الصراع العربي / الإسرائيلي من تطورات .

وقد كتبت هذه المقدمة الثانية للكتاب في شهر فبراير ١٩٩٣ ، أي قبل أن يتوصل الفلسطينيون والإسرائيليون إلى الاتفاق المعروف باسم «غزة - أريحا أولاً» ، وكان من بين العناصر الرئيسية وراء ما ورد فيها من أفكار وأقعة لا تذكرها هذه المقدمة ، وملخصها أن كاتب هذه السطور ، في سبتمبر ١٩٩٢ قد تناول مع عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية محمود عباس (أبو مازن) في فكرة «مسالك» غير رسمية بعضها غير علني ، توازي المفاوضات العلنية التي كانت دائرة في واشنطن في ذلك الحين بين الفلسطينيين والإسرائيليين . ويقر الكاتب أنه في تلك المداولة كان يحد هذا المسلك ، ويسجل - على مسؤوليته - أن الفلسطيني الذي كان في ما بعد هو المفاوض الرئيسي حول الاتفاق المذكور ، قد شاركه هذا الرأي ، بل وأبدى أنه يستطلع سبلاً لفتح مسالك تفاوضية من هذا القبيل .

سيرة عربي و سيرة يهودي

مصطفى الحسيني

نحن وإسرائيل .. التحدي والمستقبل

وما يلي هو نص هذه المقدمة للثانية للطبعة الثانية من تلك الترجمة والتي لم تصدر بعد.

لماذا أعيد نشر هذا الكتاب في هذا الوقت؟

ربما لا يستوفي هذا السؤال جوابه دون سؤال آخر؛ لماذا ترجمت هذا الكتاب ونشرته منذ أكثر من عشرين سنة؟ فليست مترجما محترفاً، بل وقد أقول إنني لا أحب الترجمة، ومع ذلك نقلت إلى العربية كتاباً ثلاثة غير هذا الكتاب^(١).

وكان دافعي إلى ذلك واحداً في المحاولات جميعاً: يعجبني كتاب أو يثير اهتمامي إلى حد أن أحس أنه يجب أن ينشر بالعربية، فأحاول إقناع أحد غيري بترجمته، فإن فشلت في هذا المسمى، قمت أنا بالعمل وأمرى إلى الله. وبالطبع لم يحدث هذا في شأن الكتب التي أعجبني أو أثارت اهتمامي جميعاً إلى حد الرغبة في أن أراها منشورة بالعربية، وإنما في هذا العدد القليل منها.

ولقد أقول أيضاً إن هذا الكتاب بالذات قد أُلح على إلحاحاً خاصاً، لأسباب عديدة قد لا يكون - بينها - من صلة سوى المؤلف؛ إيزاك دويتشر.

بدأت معرفتي بأعمال دويتشر في النصف الأول من الستينيات، وأذكر أن أول ما قرأته له كانت ثلاثيته عن ليون تروتسكي، ذلك الرجل الغريد من بين قادة الثورة البلشفية الروسية، الذي تمرد على المصالح الذي فرضه يوسف ستالين

على حلم الثورة الاشتراكية العالمية وعلى الثورة ذاتها في روسيا، وطن الاشتراكية في باد واحد، حسب الاختيار الذي رآه ستالين اختياراً واقعياً. وهو التمرد الذي جعل مصير تروتسكي النفي ثم الموت غيلة. في هذه الثلاثية يبدو ليون تروتسكي شخصية رومانسية وتراجيدية من طراز فريد. وقد كتب عنه دويتشر كتاباً مؤرخ وفنان، أوفت للتاريخ حقه من التوثيق والتقييم، بينما الرومانسية وضاءة وأسرة، وللتراجيديا عنيفة وأخاذة.

وكان أن شرعت في ترجمة هذه الثلاثية، إلى أن أنقذني، من هذه المهمة أن عرفت أنها تترجم في لبنان.

لكن دويتشر استحوذ على قدر مني، فسمعت إلى كتابه الأخرى، وهو هذا البولندي الذي تعلم الإنجليزية وعمره يناهز الثلاثين، فكتب بلغة منها لا يكاد يبلغها كثير ممن تربوا على ترانها، لغة تجمع إلى النقة العفوان وقوة الإيحاء.

وهو هذا الماركسي الذي أصبح من قادة الحزب الشيوعي في بلده في مطلع العشرينيات من عمره، ثم تمرد على الحزب وعلى الشيوعية «الدولية» عندما صدمته - التجربة السبائية، فخرج عن الشيوعية كما هي معروفة واستبقى الماركسية أو استبقته حتى آخر يوم في حياته، وبض النظر عن قبول الفلسفة الماركسية أو رفضها أو التحفظ عليها، فإن مفارقة دويتشر تستلقت النظر، خرج على الشيوعية «السبائية» وبقاء على الماركسية. ما يستلقت النظر وموقع

المفارقة هو نجاته من «الاستدراج الفكري، إن جاز التعبير. ففي الحركات السياسية المذهبية يبدأ الخلاف عادة من السياسة، لينتهي تدريجياً إلى تآكل الاقتناع بالمذهب، وفي معظم الأحيان العداء له والانضمام إلى صفوف خصومه، وهو مصير آل إليه الشيوعيون الذين خرجوا على السبائية جميعاً وبلا استثناء يستحق الذكر تقريباً، لكن دويتشر لم يطرُق هذا الدرب، بل وشغلته ظاهرة الاستدراج الفكري هذه، فوضع كتاباً عن أبرز من مضوا عليه، وكان عنوانه يلخص رؤيته لهم «هراطقة ومارقون».

وفي العنوان رنين من السبائية، فلو أن ستالين تناول الموضوع نفسه، ما خرج عنوانه عن هذه المعاني.

وهو هذا اليهودي الذي حيرته يهوديته، ترى قرية نكاد تكون يهودية خالصة وفي بنية يهودية نكاد تكون مقلقة، وعندما بلغ الثامنة (!) كان قد قرأ أصول الديانة على حاخامات مدينة كراكوفيا ببولندا وأدى امتحان الحاخامية. وفي مراهقته وشبابه الأول كتب الشعر بلغة يهود شرق أوروبا - البیدشي، وقرأه على تجمعات اليهود، وكان في خروجه على السبائية شيء من هذه اليهودية، فقد اندلع الخلاف من رفض الشيوعيين للسبائيين تحذيرات من خطر النازية على اليهود.

ولا يملك قارئ أعمال دويتشر إلا أن يلحظ ذلك الجهد الذي يبذله كي يبدى تماسكاً روحياً واتسجماً، إنما لا يفوته أن في عمق هذا الذي يبديه جهداً خارقاً

أى حال - أن يعيشوا تحت حكم عربى (عندما تتحرر فلسطين)، إلى قائل إنه يجب تصنيف اليهود ليس فقط حسب «أصولهم القومية»، وإنما حسب «أفئدتهم» فى فلسطين، فمن كانوا فيها مستقرين قبل «إقامة الدولة» لهم دين من عداهم حق البقاء... إلى ما لا نهاية من التبادل والتوافق.

ولم تكن الحجة أقل فيما يخص الطريق إلى «تحرير فلسطين». كان الشعار الشائع هو أن «الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد» مع التشديد على كلمة «الوحيد»، إلى قائل أن «التحرير» لا يتحقق إلا بوحدة عربية تخفق «الدولة»، ثم تجهز عليها، إلى قائل أن «الكفاح المسلح» من أجل التحرير هو الذى سيحقق هذه الوحدة، التى هى القادرة دون غيرها ولا أقل منها، على تحقيق التحرير، إلى قائل إن العرب قد تكرروا خذلانهم للفلسطينيين، فليس أمام الفلسطينيين إلا «أن يأخذوا قضيتهم بيدهم، ليحرروا أنفسهم وأرضهم، إلى قائل بأن «التحرير» إنما يعنى «نزع الصهيونية» عن الدولة اليهودية ليسهل إدماجها فى اتحاد عربى لن يلبث أن يستوعب اليهود متفرقين فى بلاد العرب لا متجمعين فى دولتهم، وأن الطريق إلى هذا هو إقناع اليهود من مواطنى الدولة اليهودية أن دولتهم لا توفر لهم الأمن وأن يكتب لها البقاء... أيضا إلى ما هنالك من تصورات السبل والوسائل.

وكان طبيعيا أن يشارك واحد مثلى فى هذا الجدل، خصوصا وأنى «هناك». وقد كان لبعض أحداث هذه التجربة ما له صلة بقرارى ترجمة هذا الكتاب (وهى صلة أراها الآن فيما كان مختزنا من وعى اللبائن آنذاك).

من هذه الأحداث أن المناضل الفقيد (وعلى عهدتى: الفريد) خليل الوزير (أبو جهاد) عضو قيادة «فتح»، وافق على

ولم يطل بى الوقت حتى اكتشف أو أدرك أن هذه الحركة التى تعمل هدف تحرير فلسطين «من النهر إلى البحر» حسب التعبير الشائع آنذاك، يروج لخلها بأفكار وتيارات وقوى تصطرع، قد يجمعها هذا الهدف، لكن أيا منها لا يكاد يتضح لديه ما الذى يطبعه بالضبط «تحرير فلسطين»، ولا كيفية تحقيقه بأى معنى من معانيه، وكان مصدر هذا الارتباك يدور فى نهاية المطاف حول مصير السكان اليهود الذين يعيشون على أرض فلسطين فى «دولة إسرائيل»، وكانت التيارات تتراوح ما بين أكثرها سخافة المرتكبة إلى المموميات: أن فلسطين بلادنا أو أنها جزء من الأرض العربية وأنها حق للفلسطينيين أو للعرب دون غيرهم وأن مصير اليهود الذين يعيشون على هذه الأرض «ليس مشكلتنا». وبين من لا يخفى انشغاله بمشكلة هؤلاء اليهود ودولتهم، فيقول عنهم قائل إن على الدول العربية الأخرى أن تفتح أبوابها وقربها لمردة اليهود الذين هاجروا منها، وأن هذا سيوفر للعرب المبرر الأخلاقى لدعوة بقية دول العالم إلى «استعادة يهودهم». ويقول منهم قائل إن اليهود «الأخرون»، أى الذين جاءوا إلى فلسطين من غير البلاد العربية، لن يقبلوا - على

لتحقيقه، أى لطمأنة نفسه إلى ضاسكه الروحى، وقد وضع هذا فى عنوان هذا الكتاب الذى صدر بعد وفاته: «اليهودى اللايهودى، وليس هو الذى اختار عنوان الكتاب، وإن كان عنوانا لأحد فصوله، وهو لم يكتب ما ضمه الكتاب لكى يكون كذلك، فهى مقالات ومحاضرات وأحاديث إنشائية وصياغة لأحاديث صحفية تفرقت ما بين الأعوام من ١٩٤٦ إلى ١٩٦٧، أى عام وفاته، ثم جمعتها وأشرفت على تحريرها ونشرتها زوجته «نمار»، وربما كان العنوان الأوفق هو «الاليهودى اليهودى»، فقد خرج ريشتر عن يهوديته خروجا كاملا، أو هكذا اعتقد، وبقي يهوديا. والعنوان تعبير ساطع عن حيرته الروحية.

لذلك عندما سمعت بهذا الكتاب سميت إليه، وما إن انتهيت من قراءته، حتى راودنى هذا الشعور بأنه يجب أن يتوفر بالعربية.

إنما كان هذا واحدا فقط من سببين رئيسيين لقرارى بأن أترجم هذا الكتاب، إذ يبقى سؤال: وإسناد هذا الكتاب بالذات دون غيره من كتبه؟

والجواب بإيجاز هو أن حيرة دويتشر كانت تقابلها عدوى حيرة أخرى، تختلف وتلتقى.

فى ذلك الوقت، آخر الستينيات وأول السبعينيات، كنت فى خضم الخروج من تجسرية فى حساباتى لها قدرها من الخصوصية وقدرها من العمومية، أى من الاتصال بالحياة العامة.

وتون الخوض فى كثير مما لا تتسع له هذه المقدمة، وليس هذا مجاله على أى حال، كنت فى بداية العام ١٩٦٨، متأثرا بهزيمة الساحقة والصهيبة فى ١٩٦٧، قد وضعت مهنتى وقلمى (ومياتى الخاصة) جانبا وذهبت إلى الأردن والتحقمت بصغوف حركة «فتح» الفلسطينية.



يوسف ستالين

اقتراح تقدمت به إليه، بأن تنشئ «فتح» مدرسة كادر. وكانت مرافقته محاطة بغير قليل من التحفظ الضمني، فقد اقترح أن تبدأ بدورة تدريبية، أكون وحدي المسؤول عنها، ويختار هو «الدارسين» فيها. واختار مقرا لها بيتا ريفيا متواضعا في سبتا، واحدة من قرى غوطة دمشق، وعين لنا مسؤولا عن إقامتنا ولحدا من قدامى المجاهدين الفلسطينيين الذين قاتلوا في حرب ١٩٤٨، عرفناه باسم «أبو أحمد»، وكانت عندنا - غير الإغاشة - مكتبة متواضعة وبستان فسيح وقرية يحترم سكانها «المجاهدين». وحدد أبو جهاد للتجربة شهرا واحدا، فإذا اقتنع أوسع. ولقد استلججت فيما بعد، وعلى ضوء خافت من الملاحظات، أن تحفظه كان يرجع إلى عدم حماس أعضاء آخرين في قيادة تلك الحركة بفكرة «مدرسة الكادر»، كما فهمت أن بعض مراجع عدم الحماس هذا، ضمن أشياء أخرى هو نوع من «القبليّة» أو «العصبية» الذي يوجد على نحو طبيعي في مثل هذه الحركات التي تبدأ «سرية» وفي ظروف صعبة تؤدي بها إلى تحالفات متضاربة وإلى عداوات لا تقل تضاريا. وكانت هذه عصبية «القدامى» حيال «المستجدين»، فالأولون هم الموثوق بهم والمجربون، أما الآخرون فـ «الله أعلم بهم»، وكنت أنا من «المستجدين». إنما على مستوى أوسع كانت تلك الحركة السرية قد فاجأتها الظروف بنجاح لم يكن في حسابها، دفع بها إلى اللعن، ودفع إليها بسيل متدفق من «المستجدين»

فبعد معركة «الكرامة» في مارس ١٩٦٨ (٧)، تدفق هذا السيل من المتطوعين، ولم تكن قيادة «فتح» تتوقعه ولا كانت قادرة على استيعابه. كما لم تكن تستطيع رفضه ولا كبحه. وفي هذا السياق فإن إنشاء «مدرسة كادر» بطى عمليا، إدخال عناصر جديدة، سيكون

أغلبها بالضرورة من «المستجدين» إلى مستويات قيادية، وكان طبيعيا أن يكون هذا مقاومة «القدامى».

وبالطبع، كان هناك أيضا ذلك الحصر على «نقاء» فكر الحركة والتوجه من الميخلات الجديدة.

وعندما أُنعت المرحلة للتجريبية الأولى «أبو جهاد» بالفكرة - إنما - فيما استلججت - لم تقنع سواء من أعضاء القيادة، انتقلت المدرسة إلى مرحلتها التدريبية الثانية. فأصبح مقرها موقعا إلى الجنوب الغربي لدمشق على الطريق إلى بيروت، في مقر مصنع مهجور للحلوى يضم مليونين يقابا بستان قاحل وفناء فسيحا وعزلة عن بيئة الحياة المدنية. وتقرر أن تستغرق هذه التجربة أشهرا ستة. وأن تصبح مسؤوليتها مشتركة بيني وبين المناضل الراحل سعيد حماسي (٧). ثم انضم إلينا فيما بعد الزميل القديم فاروق القاسبي، الذي عرف فيما بعد في الأوساط الفلسطينية باسم أحمد الأزهرى. كما أوكل إلينا - حماسي وأنا - مهمة اختيار «الدارسين» من أوساط مراكز إعادة للتدريب العسكري للتابعة للحركة، بالإضافة إلى أعضاء الدورة التدريبية الأولى.



كاهل ماريس

لكن هذه الدورة لم تكمل عمرها على أي حال، فقد فسختها قيادة «فتح» بعد حوالي ثلاثة أشهر، في انقلاب خاطف، في غيبة «أبو جهاد» الذي كان يرعاها ويحميها من المعترضين.

لكن هذه قصة أخرى، وأيضاً ليس هنا مجالها.

إنما أرى هذا الجزء من التجربة لملاقته في وعي الباطن بقراري ترجمة هذا للكتاب.

فقد كان من أسلوب العمل في المدرسة مزجاً من المحاضرات الشفوية للجدل، في فروع عديدة من المعرفة، والنقاش الحر المفتوح بلا كوابح، حول الأفكار والأحداث، وتشجيع القراءة على نحو يستهدف تأصيل المعارف وتويعها وتوسيعها، ومناقشة ما يقرأ.

وفي العمر القصير لتلك الدورة، بدأ يوضح عدلى مدى الحيرة السائدة، ليس في صفوف المقاومة الفلسطينية فحسب، إنما التي لابد أن تمسك بخناق كل من يعرض للقمينة الفلسطينية، بدءاً من محاولة تحديد ما هي هذه القضية، وليس انتهاء بمن يحاول أن يبعث لها حل.

ومن أحداث هذه التجربة أيضاً، أنه في مطلع ١٩٦٩، انتدبني «فتح» ضمن وفد لها لمتنور مؤتمر الحزب الاشتراكي الموحد الفرنسي، الذي كان يقوده آنذاك ميشول روكار. وكانت المرة الأولى التي يدعو فيها حزب أوروبى وفدا فلسطينيا لشهود مؤتمره. ورأيت أن أنشهز هذه الفرصة لأختبر بعض حيرتي (وأظنها عندئذ والأن حيرة عامة) وأجرى اتصالا مع بعض عناصر اليسار الإسرائيلي المقيمين في فرنسا، وكنت قد سمعت بنظرة إسرائيلية اسمها «ماتسين»، أى «البوصله». وأطلعت على وثائقها الأساسية، كما عرفت أنها تجد قدرا غير قليل من اللصدي والاهتمام في أوساط الشباب في إسرائيل. وعن طريق زميل

فرنسي رتب لقاء في باريس مع بعض من يمثلونها.

إنما ما كنت أحسب أنه سيكشف على بعض حيرتي، لم يفعل سوى أن يزيدها عمقا وارتباكًا. فهو لاء الشجائب (ماركسيون - تروتسكيون) المعادون للصهيونية، كانوا يرون حل المشكلة الفلسطينية ومعها المشكلة اليهودية في الثورة التي ستعم العالم كله ذات حين، ربما وجدت في هذا تعليلًا للمستقبل على المجهول، إنما يبدو أيضًا أنني تعلقت بأمل أو وهم أن يستطيع أمثال هؤلاء أن يكسبوا رأيا عاما في إسرائيل. وقادني هذا التعلق إلى أمر آخر لن يلبث أن يأتي ذكره.

أما الحدث الثالث، في تجرعتي الفلسطينية، أو قل إنها «الفتحية»، والذي أحس أن له صلة بالحيرة التي جعلتني أترجم هذا الكتاب، فهو أنه في أواخر عام ١٩٦٨، وقبل لقائتي مع معدي «ماتسبين»، كنت ضمن مجموعة عمل انعقدت في القاهرة، لصياغة خطاب ألقاه الدكتور نبيل شعث، (باسم حركة فتح) أمام مؤتمر «نصرة الشعوب العربية»، الذي شهدته القاهرة في نهاية ذلك العام، وتناولت المجموعة أفكارا متعددة، وتذاكرت أحداثا من التاريخ القريب للفكر السياسي الفلسطيني وفي سياق المناقشة بزغ أمامنا ما اعتدناه ضروما سلطعا، كانت لجنة تحقيق بريطانية/ أمريكية قد زارت فلسطين في عام ١٩٤٦، واستمعت إلى شهادات عديدة، كانت من بينها شهادة القائد النقابي الفلسطيني مصطفى طه، الذي رأى الحل في إقامة دولة واحدة في فلسطين تتساوى فيها المصالح والحقوق بين المواطنين، المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء، وقد أخذت اللجنة بهذا الرأي في توصيتها الأولى. وعلى هذا الضوء كبدنا خطايا يدعوا إلى أن تكون فلسطين دولة

ديمقراطية علمانية يعيش فيها العرب واليهود على قدم المساواة. وفي اليوم التالي عرضنا مسودة الخطاب على صلاح خلف (أبو إياد) عضو قيادة فتح المسؤول عن الإعداد للمشاركة الفلسطينية في المؤتمر، فأقره. وعرف هذا فيما بعد بأنه «خط الدولة الديمقراطية العلمانية».

وفي البداية، أحدث الخطاب ما يمكن وصفه بأنه «صدمة إيجابية»، فيها هم الفلسطينيون لا يريدون «لقاء اليهود في البحر»، بل يريدون التعايش معهم، وترددت تلك أصدا إيجابية أيضا على نطاق العالم، خصوصا في أروام اليهود، وبتت معالم انقسام حوله في الوسط السياسي الإسرائيلي.

لكن هذا كله لم يلبث أن ذهب أنراج الرياح. فدون خوض في التفاصيل، بقيت البرامج السياسية الفلسطينية والممارسات تعبر «الكفاح المسلح الطريق الوحيد لتحرير فلسطين، واستخدمت الحركة الصهيونية ومؤسستها الإسرائيلية الحاكمة هذا الكلام، لإقناع الآخرين بأن «الدولة الديمقراطية العلمانية، مجرد دعاية ونفاق».

أما الحدث الأخير الذي سأذكره في هذا الشأن، فهو أنني في وقت ما من العام



لبن تورتسكي

١٩٦٩، كنت ضمن مجموعة عسكرية من «فتح»، قامت بضرب هدف مهم في إسرائيل بصواريخ «كاتيوشا». وكانت الضربة في غيصة الفجر، وكان بوسنا أن نرى بالعين المجردة ما لحق بالهدف من دمار وما حققته من نجاح. إنما لم نحل السابعة صباحا إلا وكانت الطائرات الاسرائيلية تقصف المدينة الأردنية التي أطلقت الصواريخ من تخومها، وعلى الفور عرفنا معرفة مباشرة فداحة الخسائر التي لحقت بمكان المدينة من المدنيين. ومع نشرة الأخبار الأولى من الإذاعة الإسرائيلية، سمعنا بخسائر إسرائيل، وقالت تلك الإذاعة فيما قالت أن من بين الصابيين طفلة رضعا تمزقت أعضاؤها،

ونقلتها طائرة مروحية إلى مستشفى في وسط إسرائيل. وكان ضمن المجموعة التي نفذت العملية: سيد حماني. وما إن طرق سمعه ذكر الطفلة الرضيع، حتى قال في هدوء كظيم كان يتميز به عند الغضب: لسنا مناضلون، نحن مجرمون وقتلة. تخيل لو أن غارة إسرائيلية أصابت «دشا، أو «مصعب» (مطلقه) وقال إن هذه هي نهاية صلته بالعمل العسكري، ليس فقط ممارسة، وإنما مجرد التأييد.

ورما كنت في ذلك الحين أكثر «برودا» أو أقل حساسية من سيد حماني. ففهمت غضبه لكني لم أفهم قراره. فهو لاء الإسرائيليون يقتلون منا، كبارا وأطفالا، كل يوم، ثم: أليست هذه هي الحرب؟

إنما فيما بعد، أخذت أسأل نفسي إن كانت الحرب هي السبيل؟ وحتى هذه اللحظة لم أصل ببني وبين نفسي إلى إجابة على هذا السؤال.

إنما بقي السؤال يمسك بخناقى ويريد حيرتي عمقا.

أما الأمر الآخر الذي قادني إليه لقائي مع جماعة «ماتسبين»، فهو أنني بعد أن تركت «فتح» وعدت إلى مصر، شرعت في وضع كتاب عن «الاتجاهات غير الصهيونية في إسرائيل»، وأنهيت منه ودفعت به إلى واحدة من دور النشر، فبقيت نشرة.

إنما بعد ذلك ألقيت الكتاب، واستبدت بي هذا القلق أثناء زيارة قمت بها إلى لندن، فأبرقت من هناك إلى الناشر أطلب ألا ينشر الكتاب. ولم ينشر.

لماذا فعلت هذا؟

كان ما ألقني في الكتاب هو ما أسميه الآن «طابعه العلمي». ففي ذلك الحين كان في إسرائيل العديد من الحركات السياسية والدينية الصغيرة المعادية للصهيونية، ويعرضها لرفض من الأساس وجود دولة يهودية أو دولة لليهود. وتلك الحركات هي التي تناولتها في ذلك الكتاب. وبعد أن أنهيت منه لم أحصد إلا القلق. إذ أدركت أنه عندما يركز الكاتب اهتمامه ونظرة على ظاهرة محددة، فإنها ستبدو للقارئ أكبر من حجمها بكثير. ومهما تحفظ الكاتب إلى نسبة الظواهر والأشياء، فإن قيام هذا الانطباع لدى القارئ وارد وباحتمالات كبيرة. وعددت ألا أكون مذنبا بخلق «رهم ماء» لدى القراء العرب، وهو رهم له أخطاره البالغة؟ ألا أكون مذنبا بتطبيق المستقبل على المجهول كما تفعل جماعة «ماتسبين»، وهو ما أخذته عليها؟

وكان وضع الكتاب ثم النكوص عن نشره علوانا آخر من علادين «حيرتى للعربية» التي تقابل «الحيرة اليهودية» التي أستهنتها فيما يكتبه إيزاك دويتشر.

لكنني لم أكن قد قرأت بعد شيئا مما كتبه دويتشر عن إسرائيل أو الصهيونية أو فلسطين أو العرب.

إنما في ذلك الوقت تقريبا، قرأت له هذا الكتاب، ففكرت أن أترجمه لعله يساعدني على أن أشرك غيري فيما أعاني من حيرة.

وفي ذلك الحين، كتبت لهذه الترجمة مقدمة أقصيرة تميزت بالتحفظ. أو قل إنه الحذر، فالكتاب «يساعد على الفهم».

لهذا- إذن - ترجمت هذا الكتاب في سنة ١٩٧٠.

فلماذا أعيد نشره الآن؟

أبدأ بأن أقول إنها مصادفة، لكن هذا يحتاج إلى تفصيل.

كلت مع معنى للزمن واضطراب الحياة، قد فقدت الكتاب، طبعته الأصلية بالإنجليزية وترجمتي له إلى العربية. لكن أمرا ما - لا أعرفه - جعلني أتذكره دون أن أتذكر شيئا محددا من محتوياته، أو أنه كان مختلطا بما قرأت في غيره وممزجا.

إذ يبدو أننا عندما نستوعب ما نتلقى من أفكار، تدخل في سياق تفكيرنا العادي، لا مقبولة كلها ولا مرفوضة كلها، ولا تعود تميز فيما بينها، ولا فيما ساعدتنا على تكوينه وتشكيله من آراء. حتى يصعب أن تكون قادرين على أن تنسبها إلى مصدرها.

ولذلك، عندما تذكرت الكتاب أتح على سؤال ذاتي: يا ترى ما هي أفكارى المتعلقة بما تناول من موضوعات ترجع إلى هذا الكتاب، إثباتا أو نفيًا؟ ما الذي ساعدني هذا الكتاب على قبوله من أفكار وما الذي ساعدني على رفضه منها؟ على أي نحو أسهم في صياغة تفكيري؟ فأخذت أبحث عن نسخة من الكتاب، إلى أن وجدت نسخة من الترجمة وقرأتها. وعند تلك القراءة المتأخرة، كانت قد تغيرت أمور كثيرة.

كانت البيعة التي يجري فيها هذا الصراع العربي/ الإسرائيلي يدور، غير البيعة التي كانت سائدة وقت أن ترجمت الكتاب وكتبت له تلك المقدمة المتحفظة والحدرة.

وليس هنا مجال التعرض لما تغير في هذه البيعة، فمجرد سرد الأحداث والتطورات التي أدت إلى هذا التغيير، فضلا عن تحليلها وتصوير آثارها، يحتاج إلى كتب عديدة وكثيرة من المؤلفين.

لكن ما قد يسع له المجال هنا هو القول إن الموقف العربي قد أحاط به تغير كبير، من أهم معالمة انحسار موجة القومية العربية أو انكسارها وخفوت الاختراع بها خصوصا في صفوف ما تعرف بأنها «الخب السياسية والفكرية». وأن هذا شمل النظرة إلى الصراع ومكانه في تسلسل الأولويات العربية. وأن الانقسام العربي قد دخلت إليه خطوط فاصلة مستجدة، في مقدمتها حلول الانقسام على قاعدة من الثروة والفقر محل الانقسام على قاعدة من الراديكالية والاعتدال. وأن الانقسام العربي بصيغته المستجدة قد ازداد عمقا بينما أصبحت أساليب معالجته أكثر خفوتا أو هدوءا، ربما على أساس من القبول المتبادل أو الاعتماد المتبادل. وكان السلام المصري/ الإسرائيلي الذي وقع مفردا في تلك الفترة، وأيا كان الرأي فيه قد أصبح من المعكونات التي لا يمكن تجاهلها في بيئة الصراع وأخذ يدرج لكي يصبح (أو هو قد أصبح) ترجعها عربيا عاما. وكانت حرب ١٩٧٣ التي أنتجت هذا السلام، ثم حرب ١٩٨٢ الإسرائيلية/ الفلسطينية/ اللبنانية، قد أنتجت معهما معالم اقتناع عربي بأن الحرب ليست هي الوسيلة المظلمة، أو على الأقل، أنها ليست الوسيلة الوحيدة أو الفعالة لمعالجة هذا الصراع. وأصبح الجدول يدور حول شروط السلام مع إسرائيل وليس

حول السلام معها من حيث المبدأ. وخرجت من التصور العربي أمال هذا الصراع أفكار من قبيل «عودة اليهود من حيث أنواء»، ومن قبيل أن يعيش اليهود كأقلية دينية قومية ضمن دولة عربية فلسطينية أو أكبر من فلسطينية. وفتحت الحرب الأهلية اللبنانية الميادين العربية وبغسوة شديدة، على أوضاع الأقليات الدينية والعرقية أو القومية التي تعيش وسط الأغلبية أو الأغليات العربية على مستوى، والمسلمة على مستوى آخر، والمسلمة السنية على مستوى ثالث، من الأكراد إلى البربر إلى الزنوج، ومن الموارنة إلى الشيعة، وبدأ يدخل إلى الوعي العربي تفكير في تلك الأقليات يتحول من التجاهل والاستثناء واللامسام إلى الإقرار بالحقوق.

وبالطبع، ليس هذا حصراً لمعامل التغير في البيئة العربية، وإنما كان هذا التغير يتميز بصفات أساسية ثلاث:

١ - أنه شمل الفلسطينيين فيمن شمل من سواهم من العرب. وأقصده بالفلسطينيين هنا المؤسسة الكبرى المعبرة عنهم - منظمة التحرير الفلسطينية - وفصائلها جميعاً الراديكالية منها والمعتدلة، وما كان «برنامج النقاط العشر» الذي أقره المجلس الوطني للمنظمة في عام ١٩٧٤، وجسيمة الرفض، التي اصطلحت منه إلا من مخاض هذا التغير، فقد أقر هذا البرنامج إقامة «سلطة وطنية فلسطينية» على أي جزء من الأرض الفلسطينية يتحقق «تحريره». وكان رفض «جبهة الرفض» يدور حول ما يعنيه هذا بالنسبة لمستقبل الصراع، أكثر مما هو رفض لفكرة «قيام سلطة وطنية فلسطينية» تتوازي مع إسرائيل وتتجاوز، وإن كان ظاهر لغة تلك الجبهة يتباين مع ذلك، فالمعيار الأولي بالاعتبار هو أن «جبهة الرفض» تلك بقيت في صفوف المنظمة وكأنها حزب معارضة برلمانية.

٢ - أن هذه التطورات، - شأن التطورات التاريخية عموماً في كل زمان وكل مكان وحيال كل قضية، لم تكن متجانسة، لم تكن صفاتها الغالبة التحرك التاريخي إلى الأمام ولا الارتداد التاريخي إلى الخلف، كانت تفاعلات حياة يدور فيها ما يدور في الحياة من زيادة ونقصان، من تقدم وتأخر، من اندفاع وتعثر، من ائتلاف وتضارب، إنما هذه التغيرات أيضاً ولدت إحساساً عربياً يكاد يكون شاملاً بالتراجع والهزيمة، وشاعت في التعبيرات العربية كلمات من قبيل «الزمن الرديء»، كما شاع بين العرب تلميم بالهامشية والعجز عن الفعل، وأصبح جذبهم يدور حول تأثيرات التطورات والأحداث وأفعال غيرهم عليهم. وغاب عن هذا الجدل أو كاد، الحديث عن دور لهم أو فعل، شاع التسليم بأننا «موضوع» بلا ذات، «الذات» هي الآخر ونحن «الموضوع»، وإن دار الحديث عن دور للعرب أو فعل، تدهور إما إلى المثل وإما إلى التصورات فضلاً عن الإدعاءات، وأصبح الحنين إلى الماضي قريباً كان أو بعيداً حالة نفسية شائعة، أصبحت «السلفية» عامة، وتكاد تكون شاملة، لا تقف عند حد ما يركز على الدين، والجدل الشائع لهذه السلفية، إن كان لها بديل شائع، أصبح هو السعي إلى الاستعارة والمحاكاة والنقل عن الغير، والذي هو «الآخر» الذي هو الغرب، والذي كان هو العدو، حتى وقت قريب، وفي أعماق الوعى لا يزال، إنما أصبح يبدو وكأنه «عدو محبوب».

٣ - أن أي ما من هذه التغيرات لم يكن حاسماً ولا نهائياً، ولم يزل كذلك، لذلك أراها إلى التقلصات والمخاض أقرب، ولعل في هاتين اللصفتين الأخيرتين شيئاً من معالم الفترات الانتقالية في التاريخ، أو أن هذا ما بقي لدى من أمل أتعلق به.

لكن المقلق هو شيوع التخلي عن الإرادة كظاهرة اجتماعية وجماعية، الذي يعبر عنه شيوع النظر إلى الذات باعتبارها موضوعاً.

وإذا كانت البيئة العربية الحاصنة لهذا الصراع قد تغيرت على هذا النحو (وأكثر وأعتقد)، فإن إسرائيل والحركة الصهيونية ويهود العالم، قدامسايهم بدورهم وبالضرورة قدر غير قليل من التغير، إن أتعرض [هذا] إلا لأقل القليل منه، فمما يخص إسرائيل، كانت قد دخلت في تجربة احتلال أرض لا يسلم لهاها مجتمع للدول شأن الأراضي التي أقيمت عليها في ١٩٤٨. واشتبك اشتباك حياة أو موت مع عرب غير الذين حاولت وتعالوا منذ ١٩٤٨، استجباهم وعزلهم في الوقت ذاته، وهي محاولة عزل مزدوجة: عن المجتمع اليهودي في إسرائيل من ناحية وعن يفتهم العربية من الناحية الأخرى. وأتصور أن تردداً في ضم ما احتلت من أرض، لا يرجع إلى محاذير الشرعية الدولية، بقدر ما يرجع إلى محاذير التفكير الصهيوني أو العقيدة الصهيونية، وهو ما يعبر عنه الخوف على «يهودية» الدولة، وتقدر ما يرجع إلى حيرة تشبه حيرتنا ونحن ننادي بتحرير فلسطين أمام وضع السكان اليهود في إسرائيل، وما سياسة التهجير الجماعي المعروفة باسم «الترانسفير» والتي تراود إسرائيل، إلا المقابل الإسرائيلي لفكرة «عودة اليهود من حيث أنواء» التي نادى بها ذات حين. كما أنه في هذه التجربة يمثل أمام إسرائيل ما أصبح يعرف باسم «القتيلة الديمجرافية»، أي تفاوت التزايد السكاني الطبيعي بين اليهود والعرب في إسرائيل وفي الأرض التي تحتل. كما واجهت إسرائيل في سياق هذه التجربة اهتزاز الصورة التي تحرص على أن تقدم عن نفسها إلى العالم، صورة تلك الدولة والإنسانية،

والديمقراطية، كما أن المتغيرات العربية التي ترى فيها كثرة العرب انكسارا وتزجعا، تبدو في رؤية إسرائيل حبل يبدؤ النعوض والتقدم، بدءا من القدرة العسكرية العربية التي عسرت عن احتمالاتها في حرب ١٩٧٣، إلى قدرة المقاومة الشعبية، أي غير الرسمية سواء في برود «السلام المصري» الإسرائيلي، أو في المقاومة اللبنانية أو في الانتفاضة الفلسطينية، إلى تقدم انتشار التعليم والتخصص العلمي عند العرب بالمقاييس النسبية، إلى ما تراه إسرائيل نضجا وواقعية في التفكير السياسي العربي، على نحو تراه يضعها في خطر مواجهة السلام بعد أن تعودت على رؤية نفسها في مواجهة خطر العرب، وعلى نحو ما تنبأ به كاتب يهودي فرنسي «مارك ميليل» في ١٩٦٨.

وبالطبع، ليس هذا كل ما هناك من تغيرات على تلك الجبهة، فالمركبة الصهيونية أخذت بخفيض مثالي النهائية، فستحل «الدولة اليهودية» محل «دولة اليهود». وتعتبر اليهودية العالمية من آن لآخر عن تعلمها من سياسات إسرائيل أو من مطالبها، ويتوضح مدى اللوم فيما اختارت إسرائيل وقيادتها الصهيونية أن تصوره من «وحدة روحية» و«ارتباط مصير يهودي» بينها وبين يهود العالم... وغير هذا كثير.

لكن لب هذا التغيير أن ثقة إسرائيل بنفسها، لم تعد كما كانت تبدو. وأن حورتها أمام مصيرها، أصبحت توازي الحيرة العربية أمام المسألة الفلسطينية، إن لم تكن أكبر.

ولقد جرت هذه التغيرات كلها، وغيرها كثير، ومع ذلك بقي معنا صراع عربي/ إسرائيلي يتطلب حلا.

هذا في الشأن العام.

أما في الشأن الخاص، أي شأني، ففي تلك الفترة انتقلت بحياتي مرة أخرى إلى خارج مصر. وفي هذا الانتقال امتزجت ضغوط عامة بأسباب شخصية، لكن ما استطع قوله هنا إنني قضيت أحد عشر عاما من نهاية ١٩٧٥ إلى نهاية ١٩٨٦ في غسرة إنما لم أغرب، أو حاولت جهدي ألا أغرب. توزعت تلك الفترة ما بين بريطانيا ولبنان والولايات المتحدة الأمريكية على الترتيب وعلى تفاوت في عدد السنوات. وتخلها سفر غير قليل. وفيها توفر لي احتكاك متفاوت الاقتراب مع ثقافات وحضارات وتجارب وأفكار، تأملها وحاولت فهمها ما استطعت، وإيجاز، كان لما جرى عليّ فيها تأثيره الكبير على تفكيري.

لكن مجمل هذا التأثير لا يخرج عن محاولة أن أستوعب ما يحل بالعالم وما يخصنا منه من تغيير، ما استطعت. وأن أتوصل فيه إلى ما أعتقد صوابه من استنتاجات، ومجمله لا يخرج عن هذه النتيجة ذاتها وهي أنه أيا كانت التغيرات والتطورات، فهذا الصراع العربي/ الإسرائيلي لم يحل بعد، وأن تصور حله لا بد وأن يكون على خلاف ما درجنا عليه وتربينا؛ أي للرفض المطلق لأمرائيل بكانها، وأن وسائل حله لا بد وأن تتغير.

وعاد إلى ذاكرتي ذلك المشروع السياسي القديم الذي أسهمت في صياغته، مشروع «الدولة الفلسطينية الديمقراطية» التي يعيش فيها العرب واليهود على قدم المساواة. وبدلت أفكر في أن هذا المشروع المفعم بالثالية والعدل، قد ضاع أدرج الرياح أو دلفته الرمال. وبحث تأمل ما الذي أدى به إلى هذا المصير. وتوصلت إلى أن قدر المسؤولية الذي يحمله الصف الذي أنا فيه، يمكن تلخيصه في أن من يقول بهذه

الفكرة، لا يتصور في الوقت ذاته إن «الكفاح المسلح هو الطريق لتحرير فلسطين». فالعرب ليست الوسيلة الوحيدة لحل المشاكل مع من تنصرونهم شركاء في الوطن، لكن هذا هو ما حدث. ولا تقني أسباب حدوثه شيئا في تدارك الضسارة إلا بالتعلم من تلك الأسباب. لكن، وفي الوقت نفسه، لم يغب عن تفكيري أن معالجة هذا الصراع تحتاج إلى مزيج من العنف والسياسة مع دقة التصب في هذا المزيج، وتغيرها وتفاوتها حسب ظروف الصراع ومجرياته وتطوراتها، وأصبح يتردد على تفكيري مثال المؤتمر الوطني الإفريقي بقيادة نلسون مانديلا، فهو من ناحية قد وضع «الكفاح المسلح» في مكان بين الوسائل ليس على رأسها فضلا عن أن يكون وسيلة وحيدة، وهو، من ناحية أخرى، رفض التخلي عن العنف، وما زال يرفض حل الجناح العسكري للمؤتمر رغم وصول المفاوضات لخصفية الحكم العنصري إلى مراحل متقدمة.

كان هذا هو قدر المسؤولية الذي يتحمله الصف الذي أنا فيه، وهو لا يعنى الآخرين من مسؤوليتهم، على أي نحو وبأي قدر.

وفي ١٩٨٨، حاولت صياغة بعض أفكارى في مقال لملحة «الهلال» حول «مستقبل إسرائيل»، واختصار هذا المقال أننى لا أرى لها - كما نعرفها وكما هي قائمة - أي مستقبل. ولقد أعادت «الهلال» نشر هذا المقال في عددها التذكاري بمناسبة عيدها المئوي في سبتمبر ١٩٩٧ (أذكر هذا سهيلا على من يريد الرجوع إلى المقال).

وفي ١٩٨٩، وكنت في زيارة طويلة لباريس، وجدت نفسي استجمعت حصيلة مناقشات مطولة، بعضها مع صديقي القديم لطف الله سليمان أمد الله في عمره، ومعلمها مع صديقة لبنانية يستهويني ويستفزني دائما الجدل معها،

فهى تدارم على اعتراض أفكارى على نحو يضيف إليها ويضجها، هى ليلى غانم، ورغم تمكنها من ناصية ثقافة واسعة، ويتمتعها بذهن متوقد تتزج فيه طاقة فنية لم تجد تعبيرها بعد، فهى - على كرمها - بخيلة أو كسول، نادرا ما تكتب.

المهم. استجمعت حصيلة هذه المناقشات فى مقال طويل، هو بالبيان أشبه، واخترت له عنوانا «من النصيرة إلى تحرير فلسطين»^(٤)، ولا أحتاج إلى القول إن لطف الله سليمان ولىلى غانم اعترضا على الكثير منه. وبالطبع لا يحمل أيهما أى مسؤولية عنه. ونفعت بالمقال إلى صديقى وزمىلى بلال الحسن، الذى كان يرأس تحرير مجلة «اليوم السابع» على مدى عمرها القصير (حوالى ٨ سنوات)، واقتدرحت نشره فائحة لنقاش حول «المسألة الفلسطينية». وإذا كانت المجلة تعبر على نحو غير رسمى عن منظمة التحرير الفلسطينية، فقد رأى بلال أن يبدأ

بعرض المقال على بعض قادة المنظمة. وبعد مقاضات أحسست بما بذل فيها بلال من مشقة، لم ينشر المقال، وبقي على أرزاقى، حيث كنت أتحين فرصة أو مجالا لينشر من منبر فلسطينى، وقد كانت «اليوم السابع» وكما تبين فيما بعد - للأسف - ملجأ أخيرا.

إنما نشر المقال بعد ذلك، فى صيف ١٩٩١، فى وقت واحد فى كل من «السفير» اللبنانية و«صوت الكويت» التى كانت تصدر فى لندن.

بعد ذلك خطر على ذهنى هذا الكتاب الذى ترجمته ونشرته منذ أكثر من عشرين سنة.

فلما قرأته تلك القراءة المتأخرة، تراءت لى فائدة إعادة نشره بعد هذا الزمن، فقل من بعض حكمة إيزاك دويتشر، التى تبثت فى بعض ما تضمنه هذا الكتاب من فصول، أنه لا يرى حلا للمسألة الفلسطينية/ الإسرائيلية إلا أن

يكون منصفًا للطرفين؛ الفلسطينيين الذين طردوا وأهينوا، والعرب الذين هزموا وأهيدوا وانتهكت آمالهم، ولليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل، بعضهم بأرواح الحلم الصهيونى وجاذبيته لهم، وبعضهم بعد أن انهارت ثقتهم بالحصانة المسيحية باليهودية الأوروبية، لكن ذهبوا إلى فلسطين أو إسرائيل، ليعيشوا على فئات أفضلها، ويحتوموا ببنفاق دعمها مقابل أن يكونوا عملاءها وحراس مصالحها. ويعصهم بتأثيرات دينية أو أوهام أسطورية.

وأعتقد - وثقا - أو أننى أطلع - محتمليا - أن يجد القارئ فى بعض ما كتب دويتشر ما وجدت، وأنه لن يقبل من أطراف أفكاره ما لم أقبل، وسيحفظ على ما أنصفت عليه - على خلاف فى المواضيع والتأكدات والتخفيفات.

ولعلنى لم أعطى ■

الهوامش:

* الكتاب: The Non - Jewish Jew
ل مؤلفه إيزاك دويتشر، وقد نشر بالحرية تحت عنوان:
دراسات فى المسألة اليهودية.

(١) الكرامة، مخيم فلسطينى تحول إلى قرية يقع فى غور الأردن بالمنطقة الشرقية شمال جسر الملك حسين (اللابى)، بعد حرب ١٩٦٧ أصبح -قاعدة ارتكان لقوات المقاومة الفلسطينية. شنت عليه إسرائيل هجوما بالمدفعات والطيران، فى ٢١

مارس ١٩٦٨، وأبلى الفلسطينيون بلاء حمتا يدعمهم الجيش الأردنى.

(٢) سعيد حماسى، مناضل فلسطينى اعتقل فى لندن ١٩٧٨، وكان ممثلا لمنظمة التحرير الفلسطينية هناك، ورغم أن قنينة أهديه لم تصل بعد، شأنها شأن أمثالها. إلا أن لاغياله صلة غير مباشرة بالحدث الذى نتكلره هذه المقدمة، فقد كان تحوله إلى «الدبلوماسية» مترجبا على تلك التجربة. وفى عمله الدبلوماسى تولى مسؤولية الاتصالات المرية

مع «شخصيات إسرائيلية» للبحث عن أرضية مشتركة لحل الصراع.

(٣) خلاصة هذا المقال الطويل، إن جاز إجمالها فى جملة واحدة هى أن النصيرة التى يجرى السعى إليها يجب أن تكون من خلال إعادة توحيد فلسطين، وعلى نحو يعل المشكلة الفلسطينية ومشكلة السكان اليهود فى إسرائيل، على نحو عادل للطرفين ومتوازن بينهما، ويحفظ لكل منهما هويته وإثنيته المستقلة.





قا إذا كانت قد برزت في السنوات الأخيرة حركات يسارية صهيونية محدودة القوة ، أو مجموعات من المثقفين قليلي العدد ، يمتلكون نظرة راديكالية تناقض المقولات الصهيونية ، وإذا سادت بعض اتجاهات الاغتراب أو العزلة أو اليأس في بعض التناقضات الأدبية الإسرائيلية والتي تبدو وكأنها انفصال عن الموقف الفكري الصهيوني ، ورفض لسياسة إسرائيل تجاه عرب فلسطين ، وشبه انحياز إلى الرؤية العربية ، فلا يجب أن نعتبر أنهم قد اقتنعوا بوجهة نظرنا وتخلوا عن جوهر الفكر الصهيوني التوسعي . إنما هي حركات واتجاهات تجمت عن نوع من التمرد الداخلي ناتج عن مشكلات الحياة في مجتمع مضطرب يعاني من وضعه الأمني ، ويخاف على فكرة الدولة ، ومشروعها الاستعماري الاستيطاني من الفشل ، أو على أكثر تقدير فإنهم يتخذون هذه المواقف حتى لا يتهموا بالرجعية والحصارية ، فهم في أعماقهم ينظرون إلى العربي على أنه مخلوق من الدرجة الثانية أو الثالثة .

وكما يقول غسان كنفاني ربما كانت تجربة الأدب الصهيوني هي الجهرية الأولى من نوعها في التاريخ ، حيث يستخدم الفن في جميع أشكاله ومستوياته ، للقيام بأكبر عملية تمثيل وتزوير تتأتى عنها نتائج في منتهى الخطورة ، ومن أولى هذه النتائج وأهمها أنه أدى إلى عملية غسل دماغ جماعي في كل ناحية من أنحاء العالم ،

نظرة الأدب الصهيوني إلى العربي الفلسطيني

أحمد عمر شاهين

روائي وكاتب فلسطيني يسكن في القاهرة

نحن وإسرائيل .. التحدى والمستقبل

النشأة والترتية ، ولم تعد فلسطين بالنسبة لهم بلد الهجرة بل الوطن بما يعنيه ذلك من وجود علاقة جدلية بين المواطن وتلك الأرض التي يعيش عليها ، وهم الذين جعلوا لواء الأدب المجدد بما تعطيه حرفية الكلمة ، ونجد في كتاباتهم إلحاحا على تصوير العرقي في أبشع صورة ممكنة ، بحيث يبدو كتابوس مزعج مخيف تسيطر عليه نزعات الشر والعدوان ، مهددًا كيان إسرائيل وحضارتها.

وأما الكتاب الذين هاجروا من أوروبا ، حيث ولدت القصة العبرية أثناء المجاهدة مع العالم الغربي ، فقد حمل بعضهم آراءه المسبقة عن الأعيار وعكسها على العرب دون معرفة حقيقية بالعربي وعاداته وتقاليده وبنيته . بينما الكتاب الذين هاجروا من الدول العربية يظهرهم في أعمالهم كراهية ورفضاً للعرب أشد من اليهود الغربيين ، وربما يرجع ذلك إلى تكريراتهم عن تصرف العرب معهم حين دفعوهم للهجرة إلى فلسطين ، وإلى محاولة إيجاد وتعزيز القاعدة المشتركة التي تربطهم باليهود الغربيين.

أما بالنسبة للكتاب الصهاينة في الخارج فهم أسوأ الجميع ، فكتاباتهم مجرد تزيف للواقع ودعاية سافرة للصهيونية ، وعداء لكل ما هو عربي تاريخياً وثقافياً وحضارياً .

ربما الأمر الوحيد الذي يجمع بين كل الكتاب الصهاينة حول هذا الموضوع هو استغلال الشخصية العربية استغلالاً سلبياً في أعمالهم حتى عند الكتاب الذين

العالم ، وأشهر من يمثل هؤلاء الكتاب اينامار يعوز كيمت .

أما الكتاب الذين تناولوا الشخصية العربية والصراع العرقي الصهيوني في أعمالهم ، فهناك عدة عوامل أثرت في مراقفهم واتجاهاتهم ورؤيتهم في هذا المجال .

أول هذه العوامل هو التزامهم الأيديولوجي بالفكر الصهيوني ، ثم يأتي بعد ذلك الوطن الذي قنعوا منه إلى فلسطين ، والمرحلة التاريخية التي عاشوا فيها .

فعلى المستوى الشخصي والاجتماعي ، هناك فرق في التناول بين الكتاب الذين ولدوا في فلسطين وعاشوا فيها فترة معقولة نسبياً قبل قيام الدولة ، وبين الذين ولدوا وشبوا أثناء قيام الدولة مما يسمون بجيل الصابرا ، أو الذين هاجروا إلى فلسطين من أوروبا أو من دول الشرق . يضاف إليهم أولئك الكتاب الذين لم يهاجروا إلى فلسطين وتناولوا العرب في أعمالهم بعد زيارات قصيرة إلى فلسطين .

فالكتاب الذين ولدوا في فلسطين وعاشوا فيها فترة معقولة قبل قيام الدولة ، تقبلوا العقيدة العربية والبيئة الاجتماعية العربية دون تساؤل ، وعبروا عنها تعبيراً واقعياً لأنهم على ألفة معها منذ الولادة .

أما أبناء جيل الصابرا الذين ولدوا في فلسطين وعاشوا وحاربوا في سبيل إقامة الدولة ، فقد تميزوا بموضوعاتهم التي اتخذت صبغة صهيونية بحجة بحكم

استخدمت فيها الوسيلة التي لا يزال الإنسان يعتبرها وسيلة تنوير وتوسيع أفق وكشف حقائق ، فالمرء يقرأ في التعليقات السياسية اليهودية والغربية جملاً تكاد تكون متسرخة عن مواقف وردت في روايات صهيونية .

ومن الملاحظ أن كثيراً من الكتاب اليهود لم يتناولوا في أعمالهم عرب فلسطين أو الصراع العرقي الصهيوني ، وكأن لا وجود لهؤلاء العرب ولا مكان لهذا الصراع في أذهانهم ، فيوسف عجوني ظلت البلاد التي هاجر منها وحياء اليهود فيها وفي فلسطين المحتلة هي محور أعماله ، ورغم أنه هاجر أول مرة إلى فلسطين سنة ١٩٠٨ ثم عاش في القدس منذ ١٩٢٤ وحتى وفاته سنة ١٩٧٠ ، فالعربي من وجهة نظره غير موجود فكيف يتناول في أعماله . كذلك دافيد شيموني ، و دجاكوب شتاينبرج ، لم يهتما بالكتابة عن العرب أو ذكر فلسطين في أدبيتهما إلا نادراً . بينما تركزت أعمال حاييم بيناليك وشاؤول تشرنخوفسكي حول نضال الحياة الروحية لليهود في الشتات والتطلع إلى فلسطين باعتبارها رمزاً للخلاص ، ثم هناك ما يسمى بأدب الكيبوتس ، وهو الذي يصف محاولات صياغة الحياة اليهودية في إطار تجربة المستعمرات الصهيونية كما يتضح في أعمال ميليتيس ديليشنستايين ، ثم هناك كتاب لم يتناولوا في أعمالهم إلا ما سمي بأدب النكبة ، وهو ما جرى لليهود على أيدي النازي ، وهي الأكاذيب التي نفخ فيها كل أديب صهيوني حتى صدقها

يتمتعون بنظرة إنسانية ، فهم لا يختارون لتقصصهم إلا شخصيات ذات صفات خاصة - تروية أو بدوية - تحقق أهدافهم ، كما أن نظرة التعالى على العرب هي السمة المشتركة بينهم .

بالإضافة إلى ذلك بالطبع التزامهم بالأفكار الصهيونية واعتقادهم بأن العرب سوف يستفيدون من وجودهم فيتحذرون من تخلفهم وفقرهم .

كما نلاحظ أيضًا فرقًا واضحًا في تناول وتصوير الكتاب اليهود للبدو أو الفلاحين أو أهل المدن في فلسطين . فالبدو - رغم النظرة الدونية التي ينظرون إليهم بها - إلا أنهم يوصفون بمعارات إنسانية متعاطفة ، وإعجاب بل وحسد لعراقتهم في الحياة ، وقد رأى فيهم بعض الكتاب امتدادًا لأسلافهم في عصر التوراة ، وقد قال بن جوريون مرة ، عندما كان يتجول في صحراء النقب - ليهوشع مارين قائد منطقة النقب : لهم بشهرون الفرق الدينية اليهودية القديمة ، ونسأل ألا يمكن تهويدهم ؟ كما رأى فيهم بعض الكتاب أنهم يمثلون اليهودى الأصلى للقديم الذى تمددت عنه للحرارة والكتب للقديم ، وعن الأفضل أن ينصهر لليهودى الجديد القادم من الخارج في هذه البيلة . بينما صرهم كتاب آخرون بالعربى التقليدى ساكن الصحراء راعى الجمال الذى تستولى عليه دائما غريزة الدار والانتقام والشعور بالأصالة وحب الأبهة والاعزاز .

أما الموقف من الفلاحين فقد كان فيه ازدياد لتخلفهم وانتقاد له ، كما كان هناك احتقار وانتقاد لمجتمعهم وصاداتهم وتقاليدهم وحياتهم البسيطة .

وأما أهل المدن فهم الغزاة الغريباء ، أبناء البلاد الذين لا بد من مجابتهم دلما ، مجابهة ناتجة عن تعايش أقلية وأكثرية ، تعايش من طبيعته ألا يكون تعايشا سلميا .

بالرغم من أن العرب كانوا يسكنون فلسطين ومازالوا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، فالصهاينة تجاهلوا هذه الحقيقة ورفضوا شعار "أرض بلا شعب لشعب بلا وطن" ، وكان تيوتون هرتزل أول من أعلن ذلك صراحة في مطلع هذا القرن حين نشر روايته الوحيدة "الأرض الجديدة القديمة" ، فيها يرى أن فلسطين كانت تستلحق بانتظار اليهود ليعودوا ويصلحوها ويسكنوها ولا شيء فى الرواية عن الشعب الذى يسكنها .

وكثير من اليهود صدقوا هذه العقلة ، وهاجروا إلى فلسطين وهم يتوقعون ألا يروا شعبا يسكنها ، حتى أن الكاتب موسى سيملانسكى حين وصل فلسطين ورأى العرب على الطريق بين يافا وريشون ، تملكه شعور بالفضيب ودهش لرؤيتهم ، وكما كتب فى سيرته الذاتية ، تسأل : ماذا يفعل هؤلاء العرب هذا ؟ ومال سيملانسكى كثيرين .

ولكن سادام هناك شعب على هذه الأرض ، فكيف رأى كتابهم هذا الشعب فى أبيهم ؟ رأوا أن العرب بدائيون ، على استعداد أن يتقاسموا رغيف الخبز مع الجائع ، ولكنهم على استعداد أيضا لارتكاب جريمة قتل فى سبيل الحصول على شيء يريونه ولا يستطيعون دفع ثمنه ، كما يقول سيملانسكى .



محمود درويش

أما يصحاق شامى ، فيصور العربى فى روايته "انتقام الآباء" بأنه مخلوق خاضع للقدر الذى يحدد مصيره ، فالقسمه والصيب والقدر دائرة تحيط بالعربى لا يستطيع الخروج منها أو تحديها . كذلك يصور موسى فى قصته "فى النقب" مواقف الفلاحين العرب المناهضة للقتل فى استسلامهم للأحداث دون أى محاولة منهم للتحدى والتصدى ، حتى الشيخ الذى يتوقع منه أن يثور لما يتعرض له ، يصوره كدور كيشوت ، ويخلص بنتيجة أن العربى يتمتع ببلاذة كاملة ، يستسلم للقدر دون مقاومة ما يحرق تقدمه .

أما موسى سيملانسكى ، وربما هو أكثر الكتاب اليهود تناولاً للشخصية العربية قبل ٤٨ ، نجده فى مجموعته القصصية "أطفال الجزيرة العربية" - يقصد بالتسمية أن عرب فلسطين أصلهم من الجزيرة العربية - يتناول القوانين العربية الخاصة بالسلوك الإنسانى ، فيراها بدائية لا تتسامح مع ما تعتبره ظواهر غير عادية خارج الأنماط المقبولة والمألوفة ، كما أن الغريباء عند العرب مرفوضون لأشئ إلا لأنهم مختلفون عنهم ، كما يرى أن الوجود اليهودى فى فلسطين أمر حوى للعرب إذا قدر لهم أن يتقدموا ، كما تصور قصصه الفجوة الثقافية والاجتماعية والدينية التى تفصل بين العرب واليهود ، ومع أن هدف المؤلف هو التقريب بين العرب واليهود ، إلا أن مجموعته هذه أدت إلى عكس الهدف الذى أراده . وفى مجموعة أخرى من قصصه - عائشة ، عبد الهادى ، الطفل ، تل المحبة ، الفلاحين ، برغش ، أبنة الشيخ - نجد العربى سريع الغضب لا يتحكم فى عواطفه ، وفى حالة غضبه يمكن أن يقتل لمجرد التصلية ، كما أنه مستسلم للقدر والأحداث وأسبابه من الإقطاعيين والحكام .

وفى رواية ياكوف رابينوفتش «عماس الشومير»، يرى فيها أن عرب فلسطين هم فى الحقيقة قبيلة يهودية اعتنقت الإسلام ويجب أن يذنبوا فى المجتمع اليهودى العائد، بل ويجب إعادتهم إلى اليهودية.

بينما يرى «إسرائيل زارفى»، فى قصصه أن العربى جانح فظ، سارق يسلب جثث الجنود الأتراك الذين قتلوا أثناء تقدم الجيش البريطانى فى فلسطين كما أن العربى أسير شهواته، تسير وتفيد عقلانيته ولا يستطيع الإفلات من تلك الرغبات وكأنها قدر محتم.

وغالباً لم يصور الكتاب اليهود العربى كفرد سواء على صعيد التكوين الجسمى أو العقلى، بل جاءت معظم أعمالهم تتبع أسلوب للتلميط. فالخرافة جزء لا يتجزأ من النفسية العربية، والخوف الذى بلا مبرر، والرعب من شيء خفى أو خالى هو جزء من عالم العربى الداخلى، وأن أفعالهم وردود أفعالهم «سواء برعى أو بلا وعى، تتأثر إلى حد كبير بالخرافات، فالعرب سذج، بسطاء، وطغوليون.

وعموماً فإن الكتاب الذين عاشوا فى فلسطين قبل ٤٨، ومارسوا نوعاً من العلاقات مع العرب سواء كانت علاقات اجتماعية أم علاقات مواجهة قسموا أدباً أقل فنداناً للموضوعية، وإن كان الاختلاف بينهم وبين غيرهم اختلافاً محدوداً، لكنهم لم يستطيعوا أن يسقطوا من تجاربهم فترة طويلة عاشوها كأقلية فوق أرض كتبوا هم أنفسهم عنها، قبل قيام الدولة، كيد منصف.

منذ حرب ٤٨ وحتى حرب ٦٧ كان معظم الأدب الصهيونى يصور العربى على غير حقيقته. وقد أبدى كثير من الكتاب دهشتهم من رفض العرب لليهود، لأنهم - أى اليهود - يجلبون معهم الحضارة والتقدم والأدهار ويحدثون ثورة حضارية صناعية زراعية اجتماعية

ثقافية، الأمر الذى سيعود على العرب والمنطقة كلها بالفائدة والانتعاش.

لكن العربى حيث يوجد، يوجد الخراب، كما تميز عن ذلك الكتابة «دوره عمر» فى قصتها «الحد الذى فى القلب»، وأن العربى مختلف ابن صحراء محب للانتقام لا ينسى ثأره حتى بعد سنين ويشعر بالفرح والسعادة عندما يثأر، كما يراه «بيسمح يار» فى روايته «الانتقام».

كما أن العربى هو المعتدى دوماً على اليهود، ويرفض أى حل، ولا يحكم العقل أو المنطق، بل يلجأ دائماً إلى السلاح، وهو عديم الثقة والضمير، مخرب، قاتل، مجرم، لا يراعى حرمة المسنين والأطفال، يستخف بالأرواح وينتهك حرمة الأماكن المقدسة ويستغل ضعف الإنسان، كما يتضح كل ذلك فى قصة «قصاصو الأثر من الحدود الشمالية، لعونيت بسمير»، وقصة «القائد الأول، ليهودا بن عزيز».

وفى مجموعته القصصية «خريف أخضر» يرى «ناتان شاه» عند حديثه عن الأمري العرب، أن العربى جبان وخائن ومدموم القيم، ويفتقد التحديات ومستعد للتعاون مع العدو وعدد المنفط



غسان كنفانى

عليه - بينما يصور موردخاى غور العرب فى الحرب بأنهم سريعو الهرب لا يستطيعون سلاحهم بل لهم لا يجيدون استعماله.

كما أن العربى غير متحضر وساذج وتعدم عنده شروط النظافة والمحافظة على صحته وصحة حيواناته التى لا يعرف كيف يعنى بها، كما جاء فى مجموعة قصص «بلاد بنات أرى، لعاموس عز».

ونظرة العربى للمرأة نظرة جسيمة مجردة، والفرص منها إشباع الغريزة الجنسية، وهو مزواج كما نرى ذلك فى قصص «بنامين فوز» و«شن شالوم»، كما أنه - أى العربى - كاذب ومخادع واستغلالى وجاهل وأن جمع المال هو همه الوحيد بغض النظر عن الوسيلة، وهو يترك أبناءه حفاة عراة دون عناية ويعاملهم معاملة قاسية، كما جاء فى قصة «الشخاش المر»، لموشيه شامير.

حتى القصص ذات الميول الإنسانية الواقعية التى ظهرت فى هذه الفترة مثل قصة «الأسير» ليزهار سيملافسكى، حيث بأسر اليهود راعيا عربيا ينال على أيديهم ألوان العذاب أثناء التحقيق.

فاختيار المؤلف هنا راعيا ساذجاً يستدر عطفه وعطف القارئ لسذاجته لا لعذالة قضيتيه، يبين أن تجاهبه مع الشخصية العربية تجاهباً سلبياً ظاهرياً، كما أنه فى روايته «خريف خزر»، يتعاطف مع العرب لكن يندر غير مؤمن بقضيتهم، وكل ما يفعله هو إطلاق صرخة رفض ضد التجرد من القيم الإنسانية.

ونرى فى قصة «على حد رصاصة، ليتسحاق أوربان»، جندي إسرائيلى يجد عربياً مختبئاً فى مغارة، ويمجد رؤية العربى للجندي فإنه يلقى سلاحه ويستسلم له، فيقوده الجندي إلى مقر

القيادة ، وأثناء الطريق يقابلان الحديث ، ويثير العري عطف الجندي الإسرائيلي الذي يسمي أن يهرب ، لكنه يظل ملتصقا به ، رغم التلميح بإمكانية الهرب ، وحين يصل القيادة يقتل العري على أيدي الجنود الإسرائيليين .

فالكاتب منذ بداية القصة يثير الشفقة على بطله العري الذي يستحق العطف لما مر به من محن ، إلا أنه لا يتحرر من النظرة السلبية نحو العرب حين يقول إن الأسير يهوى على قسمي الجندي الإسرائيلي فيقبلها كى يبقى على حياته .

وفى قصة يتسحاق شليف «حادثة جبرائيل تيروش» يعلق التلميذ اليهودي على كلام مدرسه الإسرائيلي بقوله «إن في البلاد متسا لشعبي» ، فيرد المدرس «ليس السؤال كم هي قدرة البلاد على الاستيعاب ؟ وإنما السؤال هل توافق أن يدير شؤونك برلمان أغليته من العرب ؟ كذلك العرب لن يوافقوا أن تدير شؤونهم أكثرية يهودية ، والسؤال هنا : من سيكون القوة الكبرى والمؤثرة هنا ؟ ويعلق أحد الطلبة : إنك تصور وكأن الصدام أمر مفروغ منه ، فيرد المدرس : الحقيقة هي كذلك . ومن يحاول أن يصور مستقبلا يسوده حسن الجوار مع العرب وحياة سلام وطمانينة وازدهار اقتصادى ماهو إلا مضلل .

بعد حرب ٦٧ ، ونتيجة للاتصال بين اليهود وعرب الضفة وغزة ، هال الإسرائيليون أن يروا أعدادا كبيرة من المتعلمين والمتقنين ، وهم الذين اعتادوا أن يسمروا أن العرب متأخرون ورجاء ، وفوجئوا بأن النهضة التعليمية والثقافية قد شملت كل الفئات ، ومن هنا فقد نشأ - كما يقول غانم مزعل - اتجاه عقلاني بين أوساط يهودية خاصة عند بعض الكتاب مثل : يشعيا هو لا يفوفتش ، واسحق لاثور ، وباعيل غريفيش ، وداليا رابيكوفيتش وغيرهم ، وعبر بعض

الكتاب عن مواقف تجاه الحرب فيها بعض الاختلاف عن المواقف السابقة .

ففى قصة «مطمون» لأهارون مجيد، نجد يميل إلى موقف اللاجئ العري ضد المرأة اليهودية ، ويحاول إيجاد مبرر لهذا اللاجئ فى كل عمل يقدم عليه ليسترجع بيته . بينما يبين «ديامين تموز» فى قصته شجرة الزيتون ، محبة الفلاح العري لأرضه وقوة ارتباطه بها ، ومن سطور القصة يتضح أن تموز يري العري جزءا أساسيا من مناخ البلاد ومناظرها .

رما من أهم الروايات التي صدرت فى هذه الفترة ، رواية «فى مواجهة الغابات» لإبراهيم بن يهوشع سنة ١٩٦٨ ، وقد أثارت ردود فعل كثيرة فى البلاد . فى هذه الرواية يحين شاب يهودى يعد رسالة دكتوراه عن الحروب الصليبية ، حارسا لإحدى الغابات للإبلاغ عن أى حريق يشب هناك . وذلك فى محاولة لإخراج هذا الشاب من معاناته للشخصية وكثير من التغيير فى حياته . بعد أيام من عمله يتوصل هذا الشاب ، وسط خوفه وإنزعاجه ووجعته إلى أفكار مفادها أن هذه الغابة وأشجارها الكثيفة لم تقم إلا على أنقاض قرية عربية ، هي قرية ذلك الحارس المربى مقطوع اللسان الذى



ثيودور مرتزل

يتحول فى الغابة معتنبا بها ترافقه ابنته الصغيرة . فى حديثه مع هذا الحارس العري بواسطة الإشارة ، يفهم منه أن بيته وقريته هنا تحت هذه الغابة ، ويمر الوقت لم يعد الشاب اليهودى يهتم باحتراق الغابة أو عدم احتراقها ، وحين يرى عيदान الكبريت وأعقاب السجائر لا يطفئها ، لقد حدث تغير جذرى له ، وحينما تحترق الغابة ترتفع أمام ناظرية من جوف الدخان والضباب أطلال القرية العربية ، تولد من جديد بخطوطات أولية كما فى لوحة تجريديّة ، واللحظة يخيّل إليه أن الغابة لم تحترق ، بل إن أشجارها غادرتها فى سفرة طويلة ، نحو البحر مثلا ، ويفكر بأن العري يتكلم إليه الآن بالإنر ، بوذه أن يقول له كل شيء مرة واحدة ، ولكن هل فى إمكانه أن يفهم ؟ وحين يأتى المحققون يعتقلونه مع العري ، خاصة حين يتضح أن الغابة حُرقت بفعل فاعل ، ويضبطون عليه حتى يتهم العري ، ويصبح الاثنان مضطهدين .

فى هذه الرواية نجد أن العري أخرس فقد حرية التعبير ، يقطن مكانا قام على أنقاض قريته وأن من يتعاطف معه يضطهد ويتهم بالجنون ، إن المؤلف يريد أن يقول إن النكبة التي مالت صدور الفلسطينيين الذين شردوا من ديارهم وسلبت أراضيهم ، لن تطفئ حتى لو فقتوا حرية التعبير ، وإن كل السعاسي لإخفاء معالم قرية عربية (الحق العري) لن تفلح فى خداع الناس كل الوقت ، وإن اليهودى والعري منحايا فى النهاية للمؤسسة العنصرية الحاكمة .

وعلى مستوى الشعر ، نرى فى هذه الفترة ، أن هناك شعراء قد طرأ بعض التغيير على مواقفهم السابقة . فهنا «يهونا عميحاي» فى قصيدته القدس قد تنازل عن مواقفه السابقة ويمكن من رؤية العري وللمتمن فى وجوده بوعى أكثر ،

وأقل انسجاماً مع الأفكار والمعتقدات الصهيونية الشائعة، يقول:

وقلت برهة أمام واجهة

دكان عربى، قرب بوابة دمشق

دكان للأزوار والسست والأبازيم

ويكر خيط مختلف الألوان

أخبرته فى سرى أن أبى أيضاً

كان يملك دكاناً - كهذا - للأزوار
والخيط

يصطدم وجدان عميحاي فى القدس بوجود العربى، ذلك الشبيه للسلف اليهودى (أبى)، وإن كان التشابه الذى يلتقطه عميحاي قائماً ليس بين شخص أبى وهذا العربى، وإنما بين دكان أبىه ودكان العربى، أى قائماً على الظروف المحيطة بكل منهما، وليس بالمستبعد أن عميحاي لم تواتره الجسارة للتوصل إلى الفكرة الإنسانية الأشمل عن التماثل الأخرى بين أبىه اليهودى وذلك البائع العربى، كما يبدو أن عميحاي لم تواتره الجرأة للتعبير عن فكرة الاندماج السياسى أو الخلط بين الصفة اليهودية للدولة بقبول فكرة الدولة العلمانية متعددة الأديان، فاكتشاف عميحاي حقيقة الوجود العربى تكتمها أغوار نفسه «أخبرته فى سرى»، وكأنه لا يملك القدرة على الإعلان عنها:

أخبرته فى سرى أن أبى أيضاً

كان يملك دكاناً - كهذا - للأزوار
والخيط

وشرحت له فى سرى، عن عشرات
الستين

وأسباب ظروف وجودى هنا، ودكان
أبى

هناك رماذ، بينما رفاقته هنا

ولما انتهت حان وقت إغلاق
البوابات

وشد هو أيضاً المصراع وأغلق الدكان
وعدت للبيت مع كل المصلين

إن عميحاي الذى يكاد يشعر بمبرراته التى تدور حول الاضطهاد الأوروبى لليهود، إذ تترتب عليه شرعية استيطانها للأرض العربية، يكشف عن قسوة المفارقة التى تحملها الكيان العربى فى فلسطين نتيجة لهذا الاضطهاد الذى لم يتسبب فيه، هذه المفارقة التى أصبح العربى ضحيتها الوحيدة. ومع ذلك فعميحاي فى شعره لا يتغلغل فى أعماق المشكل العربى ولا يتقصى جذور المسألة العربية ولا يطرح حلولاً لها. ولأنه فى القدس يعان عن تكتمه لهذه الوجودات دون أن يملك القدرة على إعلان رأيه، فالقدس كقصيدة على هذا النحو تمثل موقف عميحاي للتقدي لجمعه، وفشل هذا المجتمع فى التعامل مع هذا الواقع بكل حقائقه الخائبة وإدانة مثله للتوسع والعدوان التى سجر عليه الخراب.

وقبل أن نعبر عن نظرة الأدب الصهيونى للعربى فى السموات الأخيرة، يجدر بنا أن نلقى نظرة على للكيفية التى صور بها كتاب صهيانة يعيشون خارج الأرض المحتلة، العربى الفلسطينى فى صراعه مع الكيان الصهيونى. ورغم أن الأدب الصهيونى المكتوب بالعبرية يترجم على نطاق واسع إلى اللغات المختلفة، فإن أثر الكتب والروايات الصادرة أصلاً بهذه اللغات خاصة الإنجليزية والفرنسية، يشكل خطورة أكبر فى تكوين الرأى العام العالمى بما يحمله من صورة مشوهة وغير صادقة للشخصية العربية.

فمثلاً رواية كالخروج لليون أورييس، واللى تقدم اليهودى كمنقائل شجاع يحارب شرارهم من المتخلفين فى سبيل نشر الحضارة الغربية، لقيت نجاحاً كبيراً ووزعت ملايين النسخ وانتشرت على كل المستويات كتاباً وقليلاً وأغاني مستوحاة منها. كيف قدمت هذه الرواية الشخصية

العربية من خلال أحداثها ومواقف شخصياتها؟

العربى ساذج، فقد نجح أرى بين كنعان الذى يقود قوة من البالمالخ من إقناع عرب صفد بالهرب من البلاد سنة ١٩٤٨ بقوله لهم: إن اليهود يملكون فتابل ذرية. كما أن العربى يظهر فى هذه الرواية متهمًا بالدهاء والخيانة وحب ارتكاب الجريمة والأخذ بالثأر والغيرة العمياء، كما يبرز المؤلف العرب كأفراد لا قضية لهم وغالبًا هم مأجورون من قبل قوى خارجية ولا علاقة لهم بالأرض التى خزبوا على مر الأجيال، كما يؤكد المؤلف على التلخف الذهنى والحضارى للعرب والذى شكّل فى رأيه سمة عامة لا يرجى خلاصهم منها، وعنده أن العربى الجيد هو الذى يعتقد أن اليهود هم المخلصون الوحيدون للشعب العربى. ويخلص فى النهاية أنه لو كان عرب فلسطين قد أحبوا أرضهم لما كان يوسع أحد طردهم منها، لقد كان للعرب قليل من الأشياء ليعيشوا من أجلها، وأقل من ذلك ليقاتلوا فى سبيلها.

إن هذه النتيجة التى يصل إليها الكاتب هى مجرد تبرير للتصلل من مواجهة الحقيقة، فالمؤلف المطالب بتبرير طرد العرب من أرضهم يختار إصدار حكم بعدم جدارة العربى بوطن. لقد كتب المؤلف روايته سنة ١٩٥٨، ورغم الانتقادات التى وجهت إليها حتى من كتاب يهود غير صهيانة كفيليب روث مثلاً، إلا أنه عاد فى رواية تالية هى «الباج لإبراهيم» سنة ١٩٨٤ ليؤكد مفاهيمه المطروحة عن الشخصية العربية، وأن العربى إنسان خيالى يؤمن بالخرافات والسحر.. ألم يقدم للعالم ألف ليلة وليلة؟ إنه شخص مزواج، يعامل أبناءه فى قسوة ويعتبر خلقه للبائت عارا.. إلخ هذه المفاهيم التى يحب الغرب أن يسميها ويصدقها عن العربى.

بيلما كاتب آخر هو آرثر كويستلر ، يقول في روايته «الصوم في الليل» سنة ١٩٤٦ ، إن العرب لم يلتجؤوا شيئا يستحق المشاهدة إلا كساريهات و«كاراتات» بوسثال حقيرة من طجة إلى طهران في آلاف سنة الأخيرة . كما أن لهجته في الحديث عن العرب تنصف بالاستعلاء ، وعنده أن كل كبير عائلة في القرية العربية تتوجب رشوته إذا احتجت منه شيئا ، وأن العرب أكثر الناس قدرة في التاريخ على تدمير الأرض المزروعة وإحالتها إلى صحراء حيثما ذهبوا ، فهم جذيرون باسم أباء الصحراء بدلا من أبناء الصحراء .

بينما نجد عدد روبرت بن ناثان في روايته «نجمة في الربيع» أن العربي وقع ، ملء بالكرامية ، وتلوح عليه سيماء لا تطاق من الفسقة والدناءة ، وأنه لم يكن هناك ثمة أرض تزرع في فلسطين وإنما مجرد صحراء ومستنقعات وفلاحين يتناقصون طوال قرون ، نصف أطفالهم يموتون بسبب القذارة ، وأن اليهود لم يسرقوا شيئا من الأرض وإنما سرقوا الملايا والتراتخوما وعفن حياة العرب وفقرهم . وإذا خاض العربي معركة فليس لديه أي حافز لها ، وإذا مات فإنما في سبيل حكامه أو في سبيل النهب ، كما أنهم لا يقتلون سوى الأطفال في حين لا يلحق اليهود أي أذى بالأبرياء . أما «جيمس ميتشلر» في روايته «التيوب» سنة ١٩٦٥ ، والذي يسرد أحداثها من خلال تعقبه لتاريخ قرية فلسطينية خيالية سميها ماكور في الجليل الغربي من قبل الميلاد وحتى منتصف ستينيات هذا القرن ، يضمناها شخصيات كنعانية وصليبية ورومانية ويهودية وعربية ، ولكنه يخصص لتاريخ العرب في فلسطين حيزا أصغر مما يخصصه لأية فئة أخرى سكنت المنطقة أو أية سلطة أجنبية حكمتها . وعدد تناوله للصراع العربي

الصهيوني يقول إن العرب يغرون في نعر بدء على أوامر صادرة لهم من القادة العرب ، وإنهم إذا حاربوا فهم جبناء ، فقد استطاع ثلاثون يهوديا نصف مسلحين أن يحتلوا عكا ويهزموا حاميتها في فترة وجيزة ، وعنده أن العربي غير قادر على تحمل المسؤولية ، فحارس مخازن السلاح في عكا يهرب إلى بيروت تاركا الجلود بلا خيصة . كما يرى أن العربي متخلف ، ويقارن بين بيت إسرائيلي حديث مزود بالكهرباء وتكييف الهواء ، وبيت عربي لا كتب فيه ولا كهرباء ، وإنما أوان فخارية وملابس من طراز قرون مضت وطاحونة يمكن أن توجد قبل آلاف السنين - وهو أي العربي يعيش حياة قاسية في قرى أرققتها ضيقة ودكايتها قذرة .

وفي رواية «كأس الضنبل» لآدم غليون نجد أن دور العربي في مجرى الأحداث خلال الحرب لا يتعدى القيام بعمليات السلب والنهب ، ويصور الصراع في فلسطين على أنه صراع بين رجال العصابات الصهيونية وبين السلطات البريطانية في محاولة لإغفال دور عرب فلسطين إغفالاً تاماً في هذه الحرب . وحين يصف المؤلف رجال المقاومة العرب ، يقول «إنهم مرتزقة ممن كانوا قبل حملهم السلاح نثالين وذليحي رقاب محترفين وقوادين ومغربين ومحالين ومنشردن ولصوص وسهنا سابقين وجميع أنواع السفاحين الذين يتعذر تصنيفهم ، وإغراء الرواتب الجيدة والاعمال الجاني والاحتمالات الواعدة بالنهب والاعتصاب والقتل ، قام هؤلاء بالانضمام بحماس إلى صفوف المقاتلين المتعطشين إلى الدماء بقدر مائل» .

أما رواية «موسم الشك» لجون كليري ، فقد قدم فيها عدة شخصيات عربية ، ولكن لم يسمح سوى لشخصية واحدة أن تعبر عن وجهة نظرها في الصراع

العربي الصهيوني ويأجج شديداً ، بينما يقول أحد مهربي السلاح الإنجليزي ، «كنت منحازاً إلى الجانب العربي في بداية الأمر ، ولكن كلما ازداد تعامل مع العرب ازدادت ضيقاً بهم ، فهم جميعاً يرتابون في بعضهم ، حتى أن بعضاً منهم يكره بعضهم الآخر أكثر مما يكره اليهود ، فالعربي لا يفكر ولا يثق بأي غريب ، كما أن البؤس والقذارة تظف حياته ، وأطفاله يموتون لقلة الرعاية الصحية والعناية بالنظافة ، وعنده أن مقصدة العربي هي المساواة ، لكنها مساواة لا تدل على ذكاء .

وفي رواية «وسط الأسود» لسمث همبستون ، يرى أنه لا يوجد شيء يربط بين العرب سوى عقيدتهم ولغة كتابية مشتركة يجهلها كثيرون ، فهم قطع من الأُميين .

وفي رواية «برج بابل» لموريس ويست فإن الشخصية العربية تنصف بالنقاء والإيمان الأعمى بالقضاء والقدر ، والعربي معتمد الضمير يستطيع أن يتغاضى عن أي جريمة لاتصل إلى حد القتل . أما في رواية «ليسترجون» السجد الأعظم ، فإن سبعة من اليهود نصف مسلحين في سيرة شعن معطوبة غنموها في معركة مع العرب ، استطاعوا أن يكتسحوا بلدة «الجي» قرب المجدل وأن يحتلوا دون أن يفقدوا رجلاً واحداً وبسهولة شديدة .

وفي رواية «أحضرنا أبنائي من بعد» لوالف لونسداين ، فإن كل الشخصيات العربية في الرواية عبارة عن جنديين غير نظاميين بقيا في إحدى القرى بعد أن هجرها أهلها ، وهدفهما هو النهب والسلب ولا شيء غير ذلك .

وفي رواية «جرائم نظمية» سنة ١٩٨٧ لوليم باور والتي تتحدث عن الفساد في الكيان الصهيوني والرشوة

وإعتماد الضمير عند بعض الصهاينة ، فإن العربى فى هذه الرواية لا يظهر إلا فى حالتين ، الغلمان العرب الذين يبيعون أجسادهم ويتسكعون على الشواطئ فى منتصف الليالى ، والعصابات العربية من الشباب التى تتعرض للسباح لسرقتهن ، وغير ذلك لا يوجد عرب آخرون .

وهناك مئات للروايات خاصة البوليسية منها ، واسعة الانتشار ، والتى تصور العربى بصفات مشابهة . والملاحظ أن صورة العربى فى هذه الروايات صورة سلبية قائمة ، سواء فى التعبير عن ظروف معيشتهم أو عقليتهم أو مظهرهم الجسدى أو عوامل تكوينهم النفسية أو عاداتهم الاجتماعية وطريقة معاملاتهم وأخلاقهم ومثلهم العليا وطريقتهم فى الحديث ونسائهم ومؤسساتهم ومعتقداتهم الدينية وتركيب مجتمعهم وقوانينهم المسلحة وزيجاتهم وحياتهم العاطفية .

كما يصور العرب فى معظم هذه الروايات بصورة السكان الأصليين المتوحشين ، وهناك محاولة واضحة لاستعمال مصطلحات مستقاة من التجربة الأمريكية لوصف التجربة الصهيونية ، لكسب عطف القارئ الأمريكى على الموقف الصهيونى .

وهؤلاء الكتاب بحثون فى كتبهم المهررات نفسها التى اعتمدوها كل غزاة فى التاريخ ، من التفوق البدنى والذهنى والأخلاقي إلى التفوق الحضارى ، دون محاولة لاستقصاء الحقيقة فى الصراع العربى الإسرائيلى ، فهم ينطلقون من تعيز واضح للصهيونية ثم يقيمون بنفسهم صورة العرب والصهاينة والصراع بشكل عام بحيث تتناسب هذه الصورة وتفاصيلها مع ذلك التحيز المسبق . فتفسير العربى واحتقاره ، لا يمكن أن يكون عملاً تفرضه ضرورة

معركة ساخنة ، بل هو تبرير لطرد العربى من أرضه ورفض مطلق لإيجاد أرض مشتركة يمكن إقامة حوار عليها .

كانت حرب ١٩٧٣ نقطة تحول عند بعض الكتاب الصهاينة ، حيث اصطدم كثيرون بصخرة الواقع ، فتغيرت مواقفهم ، فأصبح بعضهم أكثر نظراً كموشى شامير الذى تحول من اليسار إلى أقصى اليمين مطالبا فى كتاباته بإسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات ، بينما من ناحية أخرى ازدادت الاتهامات العنصرية الداعية إلى السلام ومقاومة الحرب عند بعضهم الآخر ، كما نرى فى حالة الروائى عاموس عوز الذى تحول من يعينى متعصب إلى ليبرالى متحرر .

لكن من الملاحظ على العموم أن اليهود ذوى الأصول الشرقية بما فيهم الكتاب أكثر عداء للعرب من اليهود الذين أتوا من أصول أوروبية ، وحيث إن اليهود ذوى الأصول الشرقية يزيدون عدداً أكثر من ذوى الأصول الغربية ، فمن الطبعى أن يتضخم المعسكر اليميني الذى يؤيدونه ، لكن هناك ظواهر أدبية تشير إلى اختلاف فى مواقف الكتاب فى نظرتهن إلى العربى وحقه فى فلسطين عن مواقفهم السابقة ، وربما يتضح ذلك فى ثلاثة أعمال روائية ظهرت فى السنوات الأخيرة توضح ما نلحقه .

ففى رواية «إتسامة الجدى» لنافيد جروسمان صاحب كتاب «الزمن الأسفر» الذى صدر سنة ١٩٨٧ ، وأحدث صدوره صدمة أصابت الإسرائيليين حين اكتشفوا بعد هذه السنوات الطويلة أن مشروعه الصهيونى يقوم على أسس من الرمال وأن الشعب الفلسطينى يقف بعناد وقوة ضد جبريتهم ، ويقاوم ويجز دون خوف عن كراميته المحتل دون أن يربح آلاتهم العسكرية وهيمنتهم الإدارية وتحكمهم فى أرزاق الناس وحياتهم اليومية ، وأن الفلسطينى مازال ينظر

إليهم كمجموعة من الغزاة المتسلطين ستدور الدائرة يوماً عليهم .

فى الرواية ، يقع جندى إسرائيلى فى أسر خيال عجز عري ، شبه أسمى وشبه مجنون ، يخلق عالمه من قصص الأساطير الخالية التى يحكيها لنفسه ، وبالتدريج تفك الأساطير بالواقع الذى حوله ، قرية عندل التى يعيش فيها منذ طفولته ، والجيش الإسرائيلى المسيطر عليها ، والجندى الذى يستعمل لحكاياته وحكمته ويحاول الاستعانة به فى حل لغز الكذب الذى تقوم عليه حياته . وكما يقول أحد القناد ، فإن هذه الرواية هى «رواية عن الصحوة» ، عن غربة جديدة بين إنسان وكل ما آمن به ، إنها مراجعة لمرآح العفن البشرى الناجم عن اتصال الإنسان بالظلم والكذب ، ويحث عن متنفس من خلال الكرايبس هرباً من تجربة الاحتلال العنيفة التى تعدى المحلل والواقع تحت الاحتلال فى الوقت نفسه .

ثم رواية «العاشق» لإبراهيم يويوش ولتى يمكن اعتبارها أهم رواية إسرائيلية صدرت فى السنوات الأخيرة - وقد ترجمها إلى العربية محمد حمزة غنيم - أحد أبطالها الرئيسيين ، شاب عري - نعيم - يعمل فى كراج عند يهودى ، ويقم عدد عجز يهودية ، وتقع ابنة اليهودى صاحب الكراج فى حبه ، الأمر الذى لا يريده الأب وترديه الابنة .

فى هذه الرواية يعرض المؤلف لثلاثة أجيال يهودية مختلفة تعيش فى فلسطين الآن ولها وجهات نظر مختلفة تجاه العربى الذى هو هذا الشاب نعيم العامل فى الكراج .

العجز التى يقم عندها نعيم ، ولتى تمثل الجيل المتحفظ والمتعصب ضد العرب ، وهى أم صاحب الكراج ، ولتى ترى فى نعيم ولداً لا يؤمن جانبها ، فقد

يكون أحد أعضاء فتح ، وترى أنه لا يجب للثقافة فهو يهرع إلى سريره دون أن يزيل الأوساخ التي علفت بجسده ، وتبدأ في توجيهه وتنقله على حذر .

والأب - صاحب الكراج - والذي يمثل الاتجاه نفسه عند العجز لكن بحدّة أقل ، كما أنه يرى أن عجلة العمل في الكراج لا يمكن أن تسير بدون العربي ، فالعربي قد أصبح ضرورة في الحياة الإسرائيلية . أما بالنسبة للبيت التي تمثل الجيل اليهودي الشاب فهي أقل تعصبا وكرهية للعرب من الأجيال السابقة ، وتعامل الشاب معاملة اللد لللد .

والمهم في هذه الرواية أن مؤلفها ابتعد تماما عن أي تزيف أو كذب في تصوير صورة العربي ، وقدمه بالفعل بعين إسرائيلية موضوعية .

أما الرواية الثالثة فهي الطريق إلى عين حارود ، لعاموس كينان - وقد ترجمها إلى العربية أنطون شلمت - فموضوعها يتخذ تعبيراً جديداً في إطار الرواية الإسرائيلية المعاصرة ، وتكثّر أحداث الرواية حول وقوع انقلاب عسكري يضع حداً للديمقراطية المزعومة في إسرائيل ، والمؤلف في هذا لم يبن روايته من فراغ ، إذ إن معطيات الحاضر هي التي أوجت إليه بها .

بطل الرواية ، الإسرائيلي والإرهابي السابق ، الذي تعب من الحرب والعداء لكل من حوله ، يستمع في إحدى الليالي بعد الانقلاب ، إلى محطة إذاعة تسمى عين حارود الحرة ، فيقرر السفر من تل أبيب إلى عين حارود بحثاً عن الديمقراطية وهدئا من الإرهاب الجديد ، يلتقي في طريقه بمحمود الفلسطيني الهارب أيضا من دولة التعصّب هذه ، ولكل منهما دوافعه الخاصة في الوصول إلى عين حارود . يقابلان في طريقهما جنرالا إسرائيليا وسائقه يهريان أيضا ،

ويمرون بسلسلة من المغامرات ، وقبل أن يصلوا إلى هدفهم يحتفلهم قائد المنطقة الشمالية والذي يعجب بالسجل الإجرامى لبطل الرواية الإسرائيلي ، فيقرر الإبقاء على حياته بينما يعدم الآخرين في قلعة بناها الإنجليز لصد قوات اللتاني فيما لو نجحت في الوصول إلى هناك في الحرب الثانية . في الرواية مزج بين الرواية السياسية والرواية البوليسية ، كما أنها تكشف بوضوح كبير تدخل الصراع العربي الإسرائيلي في رحلة طويلة كانت لابد أن تنتهي نهاية مأسوية .

ويرى المؤلف ، في روايته ، أن القضية الإسرائيلية لا تنفصل عن القضية العربية ، والرحلة إلى عين حارود لم يقصد بها أن تكون رحلة جغرافية ، بل رحلة تاريخية يلتقي فيها العربي واليهودي رغم كل العقبات ، ويسيران معا هرباً من مصير مجهول ، والظروف المحيطة هي التي تملأ عليهما التعاون ، هذه الظروف هي التي تفسر على العرب واليهود وحدة المصير ، والاعتراف بوحدة المصير يولد التعاون . وفي الرواية يحزن بطلا الإسرائيلي لمقتل محمود ، ويعد بالانتقام له ، لأنه إذا لم ينتقم فلن يصل إلى عين حارود الديمقراطية .

لكن ، لا يبدو في كتابات الأدباء الصهيانة أي بارقة تؤيد العيش في دولة ديمقراطية مع العرب ، فسامي ميخائيل يقول : « في اللحظة التي تصبح فيها إسرائيل مجرد دولة ديمقراطية ، سأكون مستعداً للتخلي عن أمتي وأصلها أي عربي وأنتقل من هنا على الفور » ، إنى أفضل العيش في دولة ديمقراطية تعود لكافة مواطنيها في منطقة أخرى وليس في هذه المنطقة المصابة بالجنون .

وفي كتابات بعض الكتاب نجد أنهم يبدون استعدادهم لمحاربة أي جور يلحق

بالعربي ، لكن ليس أكثر من ذلك ، فلكي يخلصوا العربي من مصيره فهم على استعداد للمغامرة بمصيرهم الشخصي وليس مصيرهم القومي ، وليست المعركة الأدبية والسياسية التي قامت في إسرائيل بعد نشر محمود درويش لتقصيته «عابرون في كلام عابر» بعبدة ، فحين أحم ، حتى اليساريين ، شبه سياس بكيان الدولة القسام منذ ٤٨ ، قامت قيامتهم ولم تدم .

وبعد الانتفاضة الشعبية في الأرض المحتلة ، والتي قلبت كثيراً من المفاهيم لدى عدد كبير من المثقفين اليهود ، فإن كثيراً منهم اعترف بحق الفلسطيني في أن تكون له دولته بحق تقرير المصير ، لا إيماناً بالحق الفلسطيني ولكن خوفاً من انهيار المشروع الصهيوني كله ، ومحافظة على بقاء الدولة اليهودية ، وهذا أقصى ما يقدمه الكاتب والمثقف الإسرائيلي الآن ، وهو أقصى ما يمكن أن يثاله الفلسطينيون في هذه المرحلة التاريخية التي تتربع أمريكا على عرشها ■

اعتمدت هذه الدراسة أساساً على الكتب التالية :

- الأدب الصهيوني المعاصر بين الإرث والواقع ، جوديث السعد المؤسسة للعربية / بيروت ١٩٨١ .

- الأدب الصهيوني بين حربين ، د. إرياهم البحراوي المؤسسة العربية / بيروت ١٩٧٧ .

- الحقيقة والرواية ، مدير صلاح الأمبهي / انصاد الكتاب العرب / دمشق ١٩٧٨ .

- تشابك الجذور عن الشعر الإسرائيلي ، أحمد عمر شاهين ، ورضا الطويل ، دار شهدي القاهرة ١٩٨٥ .

- الشخصية العربية في الأدب العبري الحديث غانم مزعل ، دار الجليل / عمان ١٩٨٦ .

- ايتسماعة الجدى، فصل ودراسة، دافيد غروسمان، مجلة لقاء صيف ١٩٨٥ .
- اللقاء الذى كان، ندوة لعدد من الكتاب العرب واليهود، مجلة لقاء صيف ١٩٨٦ .
- نقوش عربية على جدار الصهيونية، سامى ميخائيل، مجلة لقاء صيف ١٩٨٦ .
- الأدب الإسرائيلى الجبل ٤٨، رشاد الشامى، شؤون فلسطينية مايو / ١٩٧٢ .
- نماذج من الأدب الإسرائيلى بعد ٦٧، د. رشاد الشامى، شؤون فلسطينية يونيه ١٩٧٢ .
- الأدب العبرى المعاصر وتكريس التوسع، د. رشاد الشامى، شؤون فلسطينية نوفمبر / ١٩٧٢ .

- Pattern Crimes William Bayer Villard Books N.Y 1987.
- The Haj heon vris Bantam Books U.S.A 1985.
- The Source James Michener Cor-gi Books U. k. 1967
- وعلى المقالات التالية :
- نظرة الأدب الصهيونى للشخصية العربية، أحمد عمر شاهين، مجلة للقاهرة، يونية ١٩٨٩ للدراسة تطوير لهذا المقال وإعادة صياغة وإضافات .
- نظرة فى الأدب القصصى الصهيونى، أحمد عمر شاهين، مجلة صوت البلاد ١٩٨٤/٦/١٠ .
- بين العنصرية ودعوى الديمقراطية، أحمد عمر شاهين، مجلة صوت البلاد ١٩٨٤/١٠/١٧ .

- الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية . د. رشاد الشامى عالم المعرفة/ الكويت ١٩٨٦ .
- صورة العبرى فى الأدب العبرى من ١٩١١ - ١٩٤٨ ريزا دومب ت : صارف الطارى ، دار الجليل ١٩٨٥ .
- فى الأدب الصهيونى، غسان كتفانى، مركز الأبحاث الفلسطينية - بيروت ١٩٦٧ .
- الماشق ، رواية أ . ب يهوشع، ت : محمد حمزة غدايم ، جامعة تل أبيب ودار المشرق ١٩٨٤ .
- الطريق إلى عين حارود، عاموس كيلان، ت : أنطوان شلحت، مجلة الكرمل، العدد ١٣، لسنة ١٩٨٤ .
- فى مواجهة الغالبات، أ . ب يهوشع ترجمة خاصة .



ق السياسة هي فن تحقيق الممكن. وثمة طريق طويل شاق بين تحقيق الممكن وتحقيق الأمنية. وتختلف الأمنية في ضمائر الشعوب. وربما لا تجرؤ السياسة - في مرحلة من المراحل - على الحديث.. مجرد الحديث عن الأمنية. لكنها تعبر ما أمكن تحقيقه خطوة، أو نقطة انطلاق على الطريق الطويل الشاق.

وكانت اتفاقية كامب دوفيد خطوة أو نقطة. قد تكون خطوة قاصرة، أو نقطة غير واضحة للانطلاق، لكننا لا نستطيع أن ننكر طابعها. ومن أنكرها يحاولون الآن الوصول إلى ما هو دونها. لقد فهم الرئيس السادات لعبة السياسة الدوائية، وأصر على أن يخوض غمارها على يحرز هدفا جديدا، بعد الهدف المجيد الذي أحضره يوم السبت الثور: السادس من أكتوبر، العاشر من رمضان. ولم يقل مطلقا أن المعاهدة نهاية المطاف. (وكما استطعنا أن نلغى معاهدة سابقة، فليس من المستحيل إلغاء معاهدة لاحقة. وأن التطبيع - الذي نصت عليه بنود الاتفاقية أو المعاهدة - ليس هو ثمرتها. فثمرتها الحقيقية هي استرداد الأرض بالعمل السياسي. واسترداد الأرض شيء، والتطبيع شيء آخر. استرداد الأرض بالعمل السياسي هو البديل المتاح لاستردادها بإقامة النماء من الجانبين. ولأربب أن حقن الدماء أفضل ألف مرة من إراقتها. والتطبيع عمل شعبي ليس للسياسة دخل فيه. كان السادات يحسبته السياسية يدرك ذلك. ويدرك - وهو

القصة

والتطبيع

محمد محمود عبد الرازق

نحن وإسرائيل .. التحدى والمستقبل

يصدر القرار.. أن التطبيع لا يأتي بقرار سياسي، وإنما باقتناع شعبي ويدرك أن تجاوزنا مع العنصرية الصهيونية نقف جداراً أسود يحول بيننا وبين أي تقارب مع إسرائيل. ولم يفرض القرار السياسي ذاته - وصاياته على ضمير الشعب. ولو سار الشعب في مساره لما أرست المسيرة صاحب القرار نفسه - وهذا فرض جلي محض - فقد كان السادات يتعامل مع «الممكن» وفي ضميره «الأمنية». وقد يغير السياسي الوطني ملامحه وفق متطلبات اللحظة، فيرتدى الحلة العسكرية في الاحتفالات العسكرية، وللحلة المدنية في المناسبات المدنية، والجلباب البلابي أثناء إقامته في قرية.. لكنه لا يستطيع أن يلقى ضميره في أي لحظة. الخائن فقط هو الذي يلغوه.. أو يبدله.

ورفضت القصة التطبيع مع إسرائيل منذ أن طرح منظومته فلقد تعاملت مع الفكر الصهيوني وجهاً لوجه، ومع السلام للصيوني وجهاً لوجه. وعرفت أن العدو هو العدو، سواء ارتدى حلة الحرب أو تسير بمرح السلام وإذا أعيت الحيلة عن طريق الحرب، فسوف يعمل لاهتيال الفرص عن طريق السلام، لتخريب اقتصادنا، وتشويه وجهنا الثقافي، وتصفية دورنا في المنطقة. عندما تعاملت الحكومة المصرية مع إسرائيل في مجال الزراعة صدرت إسرائيل البذور والأوعية معا. وعندما تساملا - في حيرة - عن أسباب ظاهرة الإزهاق، وذهبا كل مذهب..

أشار الفيلسوف روجيه جاردو إلى «الموساد» ويبدو محمد حسنين هيكل

قلقه الشديد من كثرة المبالغ المرصودة لأغراض البحوث الاجتماعية والسياسية في مصر. فهذه المبالغ تزيد سنوياً على مائة مليون دولار - معظمها تقدمه هيئات أجنبية - والمشكلة أننا لا نعرف يقيناً من الممولين. فنحن نقرأ أسماء هيئات دولية، لكن الأسماء، كما علمنا التجارب لا تدل بالضرورة على المسميات، ثم إننا لا نعرف أين تبدأ المقاصد، ولا نعرف أين تنتهي النتائج، ومآثره هو مجموعات فرق بحث تصح البلاد بالطلول والعرض واللعق، ثم تطلق أوراق لا تبدو مساوية للجهد، ثم تكثر أشتار النسيان تدريجياً على كل شيء، البحث والباحثين والأوراق المكتوبة، كأنه زر نور لمسه أصبح فائتد ثم لمسه ثانية فانطفأ، وإذا لم تكن ضد الحقيقة، فلماذا من أنصار العري الكامل لمجتمعنا أمام عيون لا تعرف يقيناً ما الذي تبحث عنه وتفقد عليه. ونحن في عصر المعلومات. ووسيلة الفعل السائدة في أي عصر تؤثر على ما فيه. ونحن بلد مستهدف^(١).

ولا نتعد أنه بإمكاننا تجاهل رأى روجيه جاردو بعد منجبة الخليل. حدثت المنجبة فجر يوم الجمعة. وفي صباح الأحد دوت الانفجارات داخل كنيسة «سيدة النجاة» بشمال بيروت أثناء إقامة الطائفة المارونية الكاثوليكية الصلاة لقدس الأحد. ووصف الرئيس كلنتون الانفجار بأنه «عمل شائن ضد الدين والإنسانية» وأنه يهدف إلى تقويض مسيرة الوفاق الوطني اللبنانية. ويوم وقفة عيد الفطر سمعت سيدة صوت

قمرلة مفاجئة لسيارة مسرعة أعقبها إطلاق الرصاص على بعض من تصادف وجدهم معها أمام البوابة الأولى للدير المحرق. ورغم أن معظم الآراء تنجمه إلى أن الفعل الإجرامي تم بالمصادفة، إلا أننا نرجح تحرك أصابع «الموساد» في كل من بيروت والقوصية. والهدف واضح بعد إدانة العالم لمذبحة الحرم الإبراهيمي، وهو إلقاء إسرائيل الستار على جريمتها البشعة، وإيهام العالم بأن التعصب الديني الأعلى ليس وقفاً على تكوينها الناذ. وإنما من إملاء طبيعة المنطقة ذاتها. وربما لهذا السبب أعد مؤتمراً «حقوق الأقليات في الوطن العربي والشرق الأوسط» على أن يقدّم بالقاهرة، وعندما لفته التراب المصري هرب إلى قبرص. وكما هو واضح من جدول أعماله فإن عبارة «الشرق الأوسط» مقحمة في الطوان. فجميع المشاكل المتفرقة تخص دولا عربية، إذ لم يرد بالجدول ذكر لقبريا أو إيران مثلاً!!.. كذلك لم تطرح مشاكل الأقليات في إسرائيل على بساط البحث.. ومشكلات التفرقة بين اليهود الشرقيين والغربيين وبين اليهود لا تخفى على أحد.

والذي تسمي إليه إسرائيل الآن هو تهود المنطقة كلها بجعلها تهرز في فلكها. وكخباث شيمون بيريز وزير خارجية إسرائيل: «الشرق الأوسط الجديد، ما هو إلا «دراسة جدوى» للمشروع الإسرائيلي العممي: «النظام الشرق أوسطي». وفيه تقوم إسرائيل بدور الرأس المفكر، وعلى العرب أن يعدوها برأس المال والمواد

الخام والأبدي العامة. وأصدرت إسرائيل نشرة بعنوان: «إسرائيل في القرن ٢١، جاءها: «إن البترول العربي سوف يتدفق مرة أخرى إلى حيفا، والطنان المصري سوف يغزل وينسج في تل أبيب، وإسرائيل سوف تملك من الكمبيوتر والتكنولوجيا الحديثة ما يفوق كل مالدتي الدول العربية... «إن القدس عاصمة إسرائيل سوف تكون العاصمة الروحية للمنطقة، يلتقي فيها علماء المسلمين ويطاركة المسيحيين وحاخامات اليهود».

والبين أن الذين يقبلون التعاون مع إسرائيل - عدا الحكومات - هم رجال أعمال وتجار لا يرفعون لهم وطنًا غير المال، ولا دنيا غير الاستعمار، وحلقة ضمنية من الكتاب والساسة الذين يسمعون إلى المال والاستعمار. أما الشعوب فإنها ترفض رفضاً قاطعاً مجرد التفكير في البقيع والشرارة، لقد عجزت إسرائيل عن تحقيق بغيتها عن طريق الحرب، فرأت - أروأى ساتنوها - أن تحققها عن طريق اللاحرب، والطريق الثاني يبدأ بالاتفاقيات التي تتحدث عن السلام والولائم، وسط الجماعم والأشلاء وللعتام. ولأن القصة القصيرة صميم العصر، أو هكذا نراها، فلقد رفعت للتطبيع قلباً وقلبا، وتبعتهما شغيقناها: الرواية القصيرة والقصة القصيرة جدا.

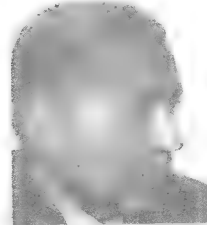


وأحسب أن أول قصة تصدعت لمنظومة التطبيع هي قصة: «إنزله لرجب سعد السيد، ثمة قصص أخرى كتبها القيمين في الفكر الباسم لا نرجعها إلى التأثر بالسيد أو إلى التواصل السكندري بين الأديباء وخاصة جماعة عبد الله هاشم، ومنهم أحمد محمد حميدة، وبحورية البدرى ومجدى عبد الله. وسوف تتناول أعمالهم بالدراسة - أو ممن تخرجوا من ورشته ومازالت مياه

الود جارية بينهم، أو تخرجوا وانتشروا وإن حرصوا على متابعة أعمال ندوة الجمعة التي يعقدها في بيته بباكوس، وندوة الاثنين التي يديرها بقصر ثقافة الحرية. وأخبار نشاطاته الأخرى، خاصة في مجال إصدار مجلة «نادى القصة»، ومطبوعاتها.

ولا نرجعها إلى محاولة النكتل ضد نزعة فردية قوامها القاص نعيم تكللا ونفر من أسدقائه. أزعج أن عقدهم انفرط، أو - على الأقل - تأثر بقوة نعيم تكللا، ويبرز سعيد سالم منه.

وجه تكللا خطابا إلى رئيس تحرير مجلة: «القاهرة» أعلن خلال توبته، وهو يسرد مسيرته منذ عام ١٩٨١: وفي صيف هذا العام منذ أكثر من عشر سنوات التقيت لأول مرة بأستاذ إسرائيلي قدم لي نجيب محفوظ هو البروفيسور ساسون سوميخ المراقى الأصل اليساري النزعة والمناصر للحقوق الفلسطينية وللسلام للشامل مع العرب. وجدت عند الرجل اهتماما بكتاباتي أرضي غروري الأدبي الشاب، وتوالت بيننا معرفة ومداقة أثمرت نشر مجموعة قصصية لي لدى ناشر عربي بمدينة عكا اسمه عبد الله السروجي (قفزت اللاتار



محمد حسين ميكل

الأسمر الفصيل - دار السروجي - عكا ١٩٨٣، كاتب مصري وناشر فلسطيني ومقدمة لأستاذ إسرائيلي للأدب العربي صديق لكبار كتابا متردد عليهم باستمرار ومناصر للحقوق الفلسطينية وعربي الهوى - لم يخطر ببالي قط ما يمكن أن يثيره هذا صديق. كنت أظن أنني أقدم جسرا مع أخوة عرب حرمنا منهم طويلا وحرروا منا. وأن جهدي المتواضع قديم يدعم اتجاه السلام في إسرائيل الذي تمنى أن تكون له الغلبة على الاتجاه العنصري التوسعي العدواني نوابا حسنة صادقة لا يمكن أن يلومني عليها أحد حتى لو كانت تتضمن أخطاء غير مقصودة اكتشفت تورطى فيها فيما بعد، اكتشفت أنني كنت غافلا عن كثر من تعقيدات الصراع العربي الإسرائيلي التي لا يمكن أن تزول آثارها من النفوس سريعا. لم يكن يتصور أن يصير رمزا للتطبيع مع إسرائيل. وأدركه أن يكون وحده كبش الفداء، وهناك العشرات من الكتاب والأديباء ذهبوا إلى أبعد من مجرد إظهار اللوايا الطيبة تجاه عملية السلام، سافروا إلى إسرائيل ومازالوا يسافرون. حضروا المؤتمرات ولبوا الدعوات الكريمة السخية وظهروا على شاشات التلفزيون المصري يتحدثون عن الصداقة المصرية الإسرائيلية. ولكن أحدا لا يجزم أن يس لهم طرغا، وحتى إذا منهم بمجرد كلمات فهذا لا ينال منهم شيئا. فوذهم في ازدياد ومكاسبهم في تنصم (٧).

والتحقق جمال الفيضاني الكرة، لاتعرف لماذا؟؟... ونشر بجريدة: «أخبار الأدب» مقالا بعنوان: «عفا يا أستاذ نجيب» يعترض به سعيد سالم عن عدم حضوره ندوات محفوظ السكندرية، لأنه يجد نفسه «شديد الغزو عن حضور مجلس الأستاذ إلى أجل مسمى يرتبط ارتباطا وثيقا بولاد من رفقاء رحلة أمريكا عاهدت نفسي ألا يضماني به

مجلس... وأصل الحكاية - كما يقول - إن «صاحبها» ولم يذكر اسمه - نشر منذ عدة أعوام ثلاثة أعمال قصصية بإسرائيل أهاجت ضده معظم الأدباء، وبعضهم لمجرد النشر في إسرائيل، وبعضهم الآخر رداً على تعاطفه غير المبرر مع إسرائيل كما هو واضح من مضمون قصصه التي يتباهى في إحداها البطل برفرفة علم إسرائيل على أرض فلسطين المحتلة... ولقد بلغ بعض من اتهمه في شرفه وفي وطنيته (...) والحقيقة أنني لم أقبل من الزملاء هذا الموقف وقد وصل إلى تلك الدرجة من العنف والتدنّي، ولهذا فقد التزمت جانب الدفاع عن حقّه في النشر بأي مكان، فضلاً عن أنني كنت في بداية الأمر - قبل غزو لبنان - ميالاً إلى تصديق اتفاقية السلام مغفلاً بها، مخدوعاً في مسألة التطبيع التي كان يروج لها أسندقاؤه الإسرائيليون إذ كانوا يجاملونا في أكثر من محفل أدبي - أتعمد حضوره - ويؤكدون لنا حسن الدوايب الإسرائيلية... (٣) وظل على موقفه هذا، حتى فوجئ به يخطئ خلال الرحلة إلى أمريكا بأراء وأقوال غاية في الغرابة جعلته يعلن «بكل صراحة» عن انتهاء علاقته به.

وعمر لمقال يروي على ثلاث سنوات سابقة على نشره. ولا نعرف للمرة الثانية - لماذا فُتض القبطاني في أدراج مكتبه أودايليه وأُخرجته لنشره في ذلك الوقت بالذات؟!... ولم بلغت النظر إلى التاريخ الذي ذكره الكاتب موضعاً إلى أي سنة ينتمي، كما تقضى بذلك أمانة نشر المعلومة، فبدا كما لو أن «الرحلة الأمريكية» تمت في «سبتمبر الماضي». يقول سعيد سالم في مفتتح مقاله: «لا ينحى قدوم الصيف عندنا - نحن قبيلة الأدباء القمقيمين بالإسكندرية - إلا شيئا واحداً هو قدوم الأستاذ نجيب محفوظ إلى

الإسكندرية واستمتاعنا بمجلسه اليومي الطريف على الشاطئ. هكذا تعودنا منذ ما يقرب من عشرين عاماً مرت علينا بطولها ومرها وما تغير بمجلسنا شيء.. إلى أن جاء سبتمبر الماضي ومعه دعوة لزيارة أمريكا موجبة من وكالة الإعلام الأمريكية إلى كتاب ثلاثة كنت واحداً منهم... أما الكاتب الثالث فيشير إليه سالم بقوله: «رفيقنا الثالث الشهير بالأديب الشاب العميد الحاج الأستاذ فلان الفلاني».

ويشير تكللاً إلى سنة كتابة المقال، وبسطراً على موقف سالم من تغيرات أثناء الرد عليه بالصحيفة نفسها: لأدري كيف خفى على جريدتكم الموقرة أن هذا المقال إنما هو «طبخة بابنة» عمرها ثلاثة أعوام لأن رحلة أمريكا التي تحدث عنها سعيد سالم تمت منذ أربع سنوات ومقاله كتب منذ ثلاثة أعوام، وقد جرت في النهر مياه كثيرة وعاد سعيد سالم إلى التردد على ندوة نجيب محفوظ مشاركاً في الحوار حول هذه المسائل المعقّدة للراحة التي صارت تؤرق كتاب ومثقفى مصر الحريصين على وحدتها الوطنية. وقد بادرت بالاتصال بسعيد سالم تلغرافياً لأقدمه إلى ناشر طبع له كتابين وقد سمعت من سعيد شكراً ولملت منه مودة تجاهي ولطفاً وبعد كل هذا



جاروي

أفاجأ بهذا المقال الذي أقرره سعيد سالم منذ سنوات وهو يكابد حالة كنا نظن أنه شفى منها.. وماذنب القارئ بأن يرتبك بكل هذه التقلبات النفسية للأستاذ سعيد تجاه صديق أو رفيق رحلة؟» (٤).

وفي الخامس من ديسمبر ١٩٩٣ نشر جمال القبطاني في صحيفته: «أخبار الأدب» قصة لتعقيم تكللاً بنزار: «حدا النجار» تعمل ذات الهمم التي أشار إليها للكاتب نفسه في خطابه إلى مجلة: «القاهرة» حين قال: «ومن البداية فرض القلق الوطني القسبي نفسه على كتاباتي». ولا يخفى هذا التوجه بدءاً من العنوان الذي يتناس مع شخصية دينية رفيقة مسالمة في شخصيته: «يوسف النجار» ويصور تكللاً في قصته قرية مصرية صعيدية في زمنين. في الزمن الأول يتناسك النسيج الوطني ويبدو بعضاً في تواد وتراحم، يعبر عن سمة حضارية مهمة من سمات الحضارة المصرية. تلك السمة التي حورت اللورد كرومر فقال بعد مغادرته مصر غير مأسوف عليه: «لا يوجد فرق بين مصرى وقبطي في مصر» غير أن أحدهما يصلى في مسجد، والثاني في كنيسة، ولهذا لم يفتح اللورد كرومر في زعزعة «الكتلة الحضارية» بهجه المعروف بسياسة: «فرق تسد». في الزمن الثاني تغزو القرية بعض الأفكار الغربية غابها تزييق النسيج المتين. وعلى الكاتب أن يغشش عن المأساة خلف هذه الأفكار كما نصحه روجيه جارودي. والكاتب يمتلك ناصية القصر، ويعبر عما يريد في سلاسة ويسر. وإذا كان أعلن تويته - ولنا الظاهر ولله السرار - ورفض منظومة التطبيع مع إسرائيل، فإننا نوجه إليه - مرة أخرى - الكلمات التي سبق أن وجهتها له مجلة «القاهرة» في ذيل تعقيبها على رسالته: «من المؤكد أنك كلما اقتربت بأقوالك وأفعالك من القاسم المشترك بين المتدينين

المصريين والعرب حول مفاهيم السلام والتطبيع، وجدت قبولاً لك ولأعمالك ولحضورك الثقافي.. فليست هناك مواقف نهائية من شخصك أو كتاباتك.



لا ترجع القصص السكندرية الراقصة للتطبيع إلى الغائر بقصة: «الزلة» لرجب سعد الهيد، ولا إلى التوصل بين الأدباء المقيمين بالإسكندرية، ولا إلى محاولة التكتل ضد زعزعة فردية مضادة أعلنت ثوبتها.. وإنما ترجعها إلى المناخ العام الذي ذاق مرارة التجريد مع العدو.. في الحروب وفي الاحتراب.. في الفسك العسكري والفسك تحت راية سلام مهدلة.. كل قصة من قصص أحمد محمد حميدة وحرورية البشري وحجاج حسن أدول ومعدى عبد النبى لها مذاقها الخاص، ورائحتها المتفردة.. كل نحلة تفرز عسلها متأثرة بها امتصته من رحيق.. ولقد انطلقت.. في الوقت نفسه أقلام أخرى تعبر عن رفضها من زوايا مختلفة في كافة أنحاء البلاد.

نشرت قصة: «الزلة» - لأول مرة - بمجلة: «القصة» (أبريل ١٩٨٥) ثم أعيد نشرها بأخر أول مجموعة لكتابتها عام ١٩٨٦،^(٥) والقصة تتحدث عن سائق يبحث عن راكب - عند الاستدارة العادة بعد الفندق الكبير أمام سور حدائق قصر المنتزه تهيأ له أن شخصاً يلوح له. فتح الرجل باب السيارة ويزرق إلى داخلها. كان يتنفس بحرق ويصوت مسموح، ومحفط المطر يصدر أصواتاً وهو يحك كفيه ببعضهما. نظر في المرأة العاكسة فرأى قبعة سوداء. فكر في أن يكون سالماً أجنبياً، واستبشر خيراً. في اللحظة نفسها سمع يتكلم بالعربية: «... معذرة..» نصبت أن أقول مساء الخير. واعتبرنا أن تحية المساء زلة لسان من الراكب، ف نحن في الصباح، ثم اتضح أنها زلة قلم من الكاتب. كل الدلائل تشير إلى ذلك.

شخص القصة يعمل بوظيفة كتابية بجمع السحاح الذى مازال يعرف حتى الآن بالإسكندرية المحافظة على تقاليدها باسم: «الحقانية» ويحتم عليه وضعه البطولي أن يقع في قائمة الحضور قبل الثامنة والنصف. خرج من الجيش يحمل رخصة قيادة. اشتغل لدى أصحاب السيارات الذين يتهمون السائقين بعدم الأمانة. بعد مكابدة سنوات طوال استطاع أن يشتري سيارة بالتقسيط. لا يتصور أحد مدى اللقاقة الذى يقلب كيانه وأيام الشهر تزحف إلى نهايتها دون أن تقترب العجيبات المقتصدة من قيمة القسط الشهري. اعتاد ألا يستجيب إلا للارغبات التى تتفق مع طريقه إلى عمله من والريدين، إلى «ميدان المنشية». كان يفشل في التقاط الركاب. على مكتبه بسرائر المحكمة راجع حساباته فوجد أنه سيضطر لتحويل كل راتبه الحكومى إلى صندوق القسط الشهري. قرر أن يستجيب لأى طلب. أعطته السيدة التى أرسلها إلى أبى قبر أجراً معقولاً، غير أنه لا يظلى خسارة الرجوع خالياً. هاهى الساعة تقترب من الثامنة وهو يتهدأ على الطريق. خلت الطرق من أى راكب.. عند الاستدارة وجد منالته.



بيل كليتين

كان الراكب يحدث نفسه وهو يزيل دائرة من غلالة البخار المكلف فوق زجاج النافذة: «الإسكندرية تفنسل.. لا يكتفيا البحر.. تستهويها الأمطار.. وأخذ يرقب الأمواج والأمطار صامتاً. فطفت السيارة مسافة طويلة دون أن يحدد وجهته. سأله السائق فكانت إجابته: «أى مكان بالإسكندرية هو وجهتى». إنه اللعين إذن، كان الرجل مهذباً رفيقاً. لم يقل المؤلف ذلك. لكن المرء يشعر به من خلال الحوار والتداعيات: «احتاج القيلة إلى رفيق سكندرى أنكم معه». طلب من السائق أن يتوقف لحظة خلع خلالها معطفه وطرحة فوق المقعد الخلفى، وفتح الباب الأمامى وجلس بجواره. نهل السائق في سيره بناءً على رغبته. إنه هارب من فوج سياحى يقوم في الفندق. أغفيت جولتهم في المدينة بسبب نطل السيارة: «غداً صباحاً سنطير إلى الأقصر». أصر على تنفيذ الجولة. معظم رفاقه من كبار السن، ولا تهتمهم الإسكندرية كثيراً، خصوصاً إذا كانت ممطرة. أخذ يردد مقاطع من ألحان شعبية لا تسمع إلا في حوارى إسكندرية راجح يفحص الشرائط: «فوق للشوك.. أه.. عبد الحليم.. أهوك!.. صافينى مرة!.. ذكريات الأغاني الأولى الجميلة.. أملت معى أن بداياته أكثر جمالاً!..». وصلت السيارة إلى محطة الرمل. كان يريد أن يسير في شوارع «الأزاريطة» و«كامب شيزار». اقترح المسائق أن يمر عليها في طريق العودة: «فكرة طيبة.. والآن.. نكمل المسيرة.. إلى عبق ذكريات المكان والوجوه والروائح.. إلى الأنفوسى، و(رأس التين).. ليذكك شربى في كل الشوارع والحصارات.. أريد أن أمشى في الأزقة القديمة وأشم رائحة السردى المشوى تنبعث من البيوت.. ماراك في أن نتناول عشاءنا شواء في محلات

الأرصفة؟.. كنت أنكر بعض الأسماء المشهورة.. سجدوا.. هيا بنا.. ثم أنزل زجاج النافذة قليلا.. فلما تحققنا إلى وجهه خيوط المطر سارع برفعها عابثا كالأطفال.

عرف السائق أنه من موليد إسكندرية. وأنه غادر مصر عام ١٩٥٦ وهو فى العشرين. سألته عن البلد الذى هاجر إليه، وضمن معه إلى أن ابتسم. الراكب. ابتسامته عريضة وهو يقول فى هدوء وبساطة «لكى لا تجهد نفسك.. أنا.. إسرائيلى..» فى لحظة واحدة خاطفة استوعب السائق الأمر «ومررتك فحماء، وصرخت عجلات السيارة المتوقفة تنزل على الأسفلت المبتل. دارت السيارة دورة، وكادت تصطدم - قبل أن تتوقف - بعمود إنارة بعد أن صعدت مقدمتها للرصيف الوسط بطريق الكورنيش.

كان الراكب يتسامل مذعورا، وكان السائق يفتح الباب بجانبه ويسرع - فى المطر - إلى الباب الآخر ليفتحه صامتا مكثرا للاملاح مشيرا للراكب أن يخرج.

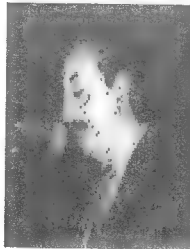
ارتفع صوت الراكب مستكبرا ومحتجا. ابتدل شعر السائق ووجهه وملابسه بالأمطار الغزيرة. كان يرتعش كمحموم، وكانت عيونه تهرقان بحدّة امتدت يده وقبضت على كنف الراكب تشده، وكان يأمره بصوت صارخ رافض: انزل!

هل يقابل الحنين بهذا الجفاء وتلك القسوة؟.. إن الراكب رقيق.. رقيق الحاشية. وحنينه يجعل أى قلب يميل إليه ويتعاطف معه.. الحنين الذى جرفه وهو فى أواخر العمر إلى مسقط رأسه، ومرتع صباه، وشاطئ شبابه الآمن: كان يلتفت إلى الأضرار والمبانى وعلامات الطريق. كان سمعته غريبا على الجو الذى خلقه فى السيارة مننحل بها. نظر السائق إليه. كان شاردا.

وملاح وجبهه تشى بأفكار محزنة. حسب أن للسبب صوت عبيد الحليم الشجوى، وكلمات الأغنية الرقيقة المعانية فى حزن..

لماذا كل هذا الجفاء وذلك الانفعال، إذن، ونحن شعب اعتدنا الحفاوة بالغرباء، قسما بالنا بالأصلاء، سواء أكانوا من المواطنين أو المستوطنين. هل الذى يقف حائلا بينهما هو تجربة الحرب التى مر بها السائق، وموت أمه حزنا عليه أثناء أسره؟ لقد اتفقا على أن الحرب عمل غير صالح. قال الراكب الذى لم يكن قد أفصح عن هويته: «الحروب تدمر كل شىء.. السلام نعمة كبيرة». وأمن السائق على قوله قائلا: «لا أحد يحب للحرب». عبارات قصيرة مكلفة مثل طلاقات مخجوى.

لاشك أن لهذه التجربة المريرة دخل فى موقف السائق. بيد أن الأكثر والأشد تأثيرا، ليس تجربة الأسر الفردية، وليست المعارك المتارية التى يفرضها الفرد ضد عدو غير إنسانى.. وإنما التجارب الفردية بعد انصهارها فى البوتقة الجماعية، وتشكيلها الوجدان الجماعى. من الممكن أن يتسامح الفرد مع معيبيه، ويغفر لأعدائه، لكنه لا يمكن أن يتسامح.. أو يتساهل مع أعداء أمته، ومالعها على



نعيم تكتلا

أبيدهم من غدر وفك. والأمة - ذاتها - قد تتسامح مع عدو لها إذا خلد إلى الراحة أو أقر السلام.. لكنها لا يمكن أن تتسامح مع عدو يعتبر غيره من الشعوب - فى الحرب أو فى السلم - مجموعات من المومل تستحق الذبح والإبادة.

قد يبدو شخص القصة بلا ذنب أو جريرة، وقد يكون مخلصا فى دعوته لنيل الحرب كيهود فهم تكتلا ومن بينهم «البروفيسور ساسون سوميخ العراقى الأصل اليسارى اللزعة المناصر للحقوق الفلسطينية وللسلام الشامل مع العرب». لكن نعيم تكتلا نفسه اكتشف أن التعبدية أكثر تعقيدا أمن أن تتحملها الغوايا العسة: «نوابا حسة صادقة لا يمكن أن يلومنى عليها أحد حتى ولو كانت تتضمن أخطاء غير مقصودة اكتشفت تورطى فيها فيما بعد، اكتشفت أننى كنت غافلا عن كثير من تعقيدات الصراع العربى الإسرائيلى الذى لا يمكن أن تزول آثاره سريعا. ولذا فإن تخرصات مثل تخرصات عهد العظيم ريمحان من الممكن دمهضا بسهولة. فإذا قال إن للشعب الإسرائيلى عبر عن رغبته فى السلام بما لا يدع مجالا للشك عندما طرد حكومة الليكود وأتى بحكومة العمل، (الأهرام - ١٦ أبريل ١٩٩٤) فإن إدوار سعيد سيقول له - أو غيره - إن عدد الضحايا الفلسطينيين - خاصة الأطفال - فى الأشهر الأولى من حكم حزب العمل كان أكبر من عددهم فى ظل أى حكومة من حكومات حزب الليكود (الأهرام ويكى ٢٦ يناير ١٩٩٤).

وأتى موقف السائق هذا رغم أنه كان فى أمس الحاجة إلى مكافأة الراكب. غير أن الصاجة لا تجعل المرء يلغى ضميره، أو يغير جلده. وهذا موقف متفق عليه. ثمة قصة قصيرة جدا بعنوان: اتفاق؛ للقاص السوهاجى محمد عبد المطلب تؤكد المعنيين السابقين. فخصوصها من الفقراء غير المحاربين

الذين يتحركون بالصمير الجمعي إلى الرضخ القاطع . والقصة رغم دلالتها الثرية غاية في الوضوح بحيث لا تحتاج إلى تعقيب . ويمكن استضافتها كاملة : كتبت بالمقهى . في محلها شاب أجنبي شعره يسقط على كتفيه وأنفه معقوف ومثقت للنظر . تساملات أين رأيت هذه الملامح من قبل؟؟ أثارت انتباهي محاولته في التغامر مع الجرسون وهو لا يتكلم لغة أجنبية معروفة . ومضت الإجابة في ذهني كالبرق . فمثل هذه الملامح رأيتها في سنوات سابقة لكن في بذلتها العسكرية فوجئت بأن الجرسون قد أمهله فارتفع صوته متحسرا ومستدركا : تى . تى . لكنه صمت . وأشار إلى ماسح أخذية في الركن البعيد من المقهى وعندما اقترب منه الرجل وأوشك على الانحناء على القدمين خرج صوت الجرسون غصونيا وكفوما : هذا كوهين . يهودى .

أعدت قامة ماسح الأخذية بصراحة وتقاليداً واكتست ملامحه بالازدراء . رددت بصري بين الجرسون وماسح الأخذية واكتشفت أن ملامحي أيضا اكتست بسمات الازدراء نفسها . (١)



ويفلقنا مجدى عبد النبى بقصته «الرحيل» إلى تجارب وقت السلم .. حتى قبل الولادة السفاح لكيان الصهيونى . والقصة تلخص بالواقع التصاقا حميما . وهى تسمى إلى الإحسان من خلاله . وتتسحرك فى رقعة تمدد من قامة «قايتباى» إلى «حارة اليهود» . بيد أن كانتها لايتكى بتسجيل أسماء الشوارع أو الإشارة إلى المعالم كما يفعل بعضهم للدليل على انتمائهم السكندرى . مجدى عبد النبى لا يسجل وإنما يعبر . لا يقرر وإنما يصور . ويعجن صوراً بإحساسات شخص القصة ومشاعره وهو يؤم

المناطق التى كان يؤمها أبوه . وأبوه كان صبيانا . ولهذا فهو يتوقف عند «حلقة المسكة» ثم يتجاوز «حى الأنفوشى» . وينسحب من أمام «أبى العباس» . ويلحظ القاذورات المكومة عند أول «وكالة التيمون» ثم يسلك أحد الشوارع الجانبية متجها إلى «حارة اليهود» ويتجاوز محل سمعان القديم بلافتته المتأكلة . ولا يلحظ «الرجل الأنيق» وهو يلف سلسلة من الذهب حول إصبعه الممدودة أمام الملح . وسيكون لهذا الرجل شأن فى مسار القصة .

ركب أبوه البحر مع الرجال ولم يعد حتى الآن . وهو يعيش على أمل عودة أبيه . أحيانا يقذف النوارس العاوية بالحجارة لأنه سيعود . وأحيانا يستنطق البحر على ينبله بخير الرجال . والرجل الأنيق صاحب السلسلة الذهبية بدأ يطارد . فهو يطرق بابه ويسأل ساخرا عن أبيه . إنه لايعرف من هو ؟ .. غير أنه لاينسى تعابير وجهه الصلف وهركة السلسلة الدائرية . وعند البحر يشعر أن أحدا يراقبه . ويحين ينظر إلى الخلف يراه يرمقه تبعد . ويسأله مستهزئا عن ميعاد عودة أبيه . وكان لابد أن تتم المواجهة أو المكاشفة . ويعترف أن هذا الرجل هو «إسحق بن سمعان «الرهناتى» .



جمال الفيطنى

وكانت محلات التسليف على رهونات التى يحتكرها الأجانب . وخاصة اليهود . تنتشر فى أرجاء البلاد وتتركز فى الأحياء والأسواق الشعبية . وكان لها أثرها السمر فى مسيرة الاقتصاد المصرى لفترة طويلة من تاريخنا الحديث . فأتى الأجانب عن طريق الربا الفاسح . وخربت بيوت المصريين بالاستيلاء على عقاراتهم ومثقلاتهم فى ظل قوانين الامتيازات الأجنبية . وتنبه عبد الله اللندى إلى هذا الفطر فى وقت مبكر . ونبه إليه بحواريه : «المرابى والفلاح» . وتأثر كتاب القصة المعاصرة بهذه الحوارية . نذكر منهم محمد روميش فى أول قصة تنشر له بعنوان : «فرح سلامة» . وأردت وزارة الأوقاف أن تعارب هذه الظاهرة فأنشأت مايسمى «إدارة القرض الحسن» وكانت تقبل الإقراض على رهونات . وعمل نجيب محفوظ بهذه الإدارة فى فترة مبكرة من حياته الوظيفية . ولك أن تخيله وهو يستقبل الشورى اللاتى يعرض مصرغاتهم أو أروانى بيوتهم . والمخلفات التى كانت رجالا وهى تعرض ماتبقى فى أيديها . ولك أن تخيله وهو يقرأ على وجه كل كائن بشرى قصة . ولعل هذه المأسى هى التى أثرت أصماله بتلك النماذج الشعبية التى لاتتسى . إلى جانب مؤثرات أخرى معروفة وتقوم البنوك الآن بهذا الدور . ومازلنا نذكر ما قرأنا عن ترايط بعض الموظفين مع بعض أثرياء المصادفة . وكيف فُدرت رهوناتهم بأعلى من قيمتها . وتكاد من الهرب إلى الخارج بما غنموه من البنوك الحكومية . وكان خراب الاقتصاد المصرى رهين بهذه الرهونات سواء عن طريق الأجانب المستغلين أو المواطنين المنحرفين .

يقدم عبد النبى صورة من هذا الخراب . مشيرا إلى ماسوف ينتهى إليه حالنا لو تركنا اللعابين تسعى فسادا فى دورنا من جديد : «كانت القوارب ترفض

فوق الشاطئ.. الرجال يغردون للشباك. يرتقصون فى حلقات (..) وبعد لحظات كان سمعان قادما من بعيد. انقبض قلب الرجل. انهزمت الرزائل فى الحلق. كان يحمل فى يده عدة أوراق وأختام. تسلل أبى إحداهما. ابتسم لى. أخفى دمعة اغتالت بقايا البسمة. سار نحو القلعة. جلست على أحد المدافع. مسح الوجه المكود. أشار على أحد الماخل:

من هنا دخل جيش يونابرتة. وسقط للبطل الشجاع. وكأنه بهذه العبارة الأخيرة يشير إلى بدء المحدث الحديثة بعد الاجتياح الأجنبى لأراضينا.

وهاهو إسحق بن سمعان الذى رحل مع أبيه مسغيرا يوصد إلى الأراضى المصرية شامعا. وبذ كرشخص القصة بفرح المواطنين عند رحيل الأجانب وكأنه يتوعد. وفى النهاية تراود شخص القصة أمينة رحيل إسحق كما رحل سمعان. ويختلط رحيل والد شخص القصة.. برحيل والد إسحق.. برحيل إسحق.. لكن ضحكات الأخير تتخال الأمية.

مجدى عبد النبى يرتفع فوق الواقع دون أن يتجاوز طبيعته. فهو يرسم سلوكا. ويبدع شخصيات. ويقيم علاقات ترتبط ارتباطا وثيقا بالواقع. ولهذا لم يخل التوازن بينه وبين ما يرمز إليه. رغم أن لكل موقف فى القصة دلالة.. حتى العبارات والأسماء. فوالد شخص القصة اسمه «مجاهد.. غير أن «المجاهد» لكسر: «من يمدد تطلو على السطح تقرب ببطء شديد نحو الشاطئ» تمهل فى حزن عميق. التفت قطعة الخشب من الماء. قرأ الحروف (مجد...) الحروف الأخرى انكسرت مع نهاية القطعة الخشبية.

وشخص القصة اسمه «سلامة».. غير أنه يرفض السلامة المدانة: «أنه صوب المصحات. كان الرجال يخرجون

محتسباتها. يفشرونها على الرصيف رائحة الأسماك تعفت. كان يقف كالطود ويتصم بزهو بالغ. يحطمنى بنظراته. السلصلة الذهبية تصوى مع الحركة الدقيرة. يصوق خطواتى. ولا يخفى ما ترمز إليه السلصلة التى تعوق خطوات شخص القصة. فهى قيد وإن صنعت من ذهب براق. كما أن حركتها كما لو كانت تعيد الزمن إلى الزواء. والقلعة القيمة التى كانت حصنا حصينا أصبحت مزارا سياحيا. ولم تعد مدافعا الصنعة تستعمل إلا فى الجلوس عليها.



عاد مجدى عبد النبى بقصته: «الرحيل» إلى جهازنا القديمة مع الصهاينة - عندما كانوا يعيشون بين ظهرانيها - لينذر وقومه إذا ما قرروا إعادة الكرة. أما المكتورة حورية الجدرى فلم تكف بالنقطة الزمانية. وانتقلت بنا نقطة أخرى مكانية فى قصتها. «راشيل» (٧) لتتذر قومها - كذلك - كى لا تعيد الكرة. فما فعله الصهاينة مع الشعب الألمانى سوف يفعله مع الشعب المصرى. فالبدأ واحد: الكراهية المتأصلة - عرقيا ودينيا - لكافة شعوب العالم. والسعى - من هذا المنطلق - لتدمير العالم وجعله مطية ذلول لهم. وسبق أن ذكرنا قصة التعويضات



إدوارد سعيد

الألمانية لإسرائيل. ومطالبة مناحيم بيغن أنصاره فى مشهد مسرحى أن يسموا: «إن كنت أنتسى - فى يوم من الأيام - فناء اليهود على «هتتر» فلتعيسى يدى اليمنى». ولم يخف على المكتورة اليهودى دور إسرائيل فى جلب المواد المنحدرة منذ بداية الاندفاع لنهب الأموال الانتفاحية السهلة. وتدمير النفس البشرية الغالطة. يقول الزوج الألمانى: «إنها لم تحرك لى شيئا. استندزفك تماما. حتى الحيلة لم تعد تفكها. بل إنك لاتملك مجرد التفكير المتعظم. أملكك راشيل للعن. وأوصتها عليك فى غيابها. ولحقن تزدى وأجبها بأمانة. لكنها - ورغم كل شراستها - أرحم منك ياراشيل». وهامى لى طريقها إلى اقتناص المصرى لتستمتع بإذلاله: «يؤمن بأنك إنسانة يد لك يديه وفكره وتسامحه. تتسجين حولها خيوطك الرقيقة الحريية. وحتى يقع داخل بيتك. فريسة لا حول لها ولا قوة» ستفهمين خناجرك فى كل جزء من جسده وفكره ومشاعره. وستفحين ياراشيل. فبهض الذى تصمله أنا لا يستطيع المصرى مجرد تصوره. خيانتك المتكررة الفاضحة. إن تخفيها عنه. بل ستحرمين على أن يعرفها أو يكون أول من يعرفها. ستحرمين على أن يشاركك متحكما كما تقولين لى. يشاركك!..»

والخيانة الزوجية - هنا - رمز لكل الخيانات المقصورة. كما نستطيع أن نقول إن «الإنجاب» من الفتاة الصهيونية رمز لتدريج التطبيع. وإذا كان اللصل - طبقا للديانة اليهودية - ينسب إلى الأم. فقد خضع فى هذه القصة للأم. وشارك فى إذلال الأب. حتى تمنى أن يبعد عن ابنته أيضا: «أبحث عن بداية. أى بداية بعيدة عنك. وحتى عن سارة ابنتى هذه التى نصفها إنسان والأخر عتكوى ملكة». وهذا ما تسعى إليه إسرائيل صراحة: تهويد المنطقة كلها بجعلها تدور فى فلكها. لتستخدمها فى أغراضها.

وحورية البدرى كاتبة متعددة المواهب، فهي تكتب شعر العامية والفصحى، ولها ديوان بالعامية: «أيام في حمن الليل، ومجموعتان من قصاص القصص: «أخرجنى من عيني»، «احترق قوس قرع» وراشيل فتاة عنكبوتية تلف خيوطها على صيدها فلا يستطيع فككا: نقرأ في مفتاح القصة: «رفع ميلار رأسه قليلا، نظر أمامه. أزعج الشعر المتسدل عن عيني. لا يوجد أمامه شيء. عاود الانكفاء. ألمه ظهره. مد جسده ومال بالكرسي للخلف. نطمت. فرك رأسه المكدود. ويريد أن يفق لكنه يخشى من سياط أفكاره. الصور تتوالى أمام عيني. وخياله لا يرحم. راشيل. يتمنى لو ينتقم. لكنه لن يفعل. بل لن يستطيع. لا يدري لماذا تخدعه... قد يكون لخداعها الآن سبب كأي امرأة مفادعة. لكن لماذا كانت الخديعة الأولى؟ لماذا أوهمته بالحب؟ أفرقه براب حبها. تسجت حوله خيوطها برقة وعذوبة. لم يشعر إلا وهو داخل بيت العنكبوت. ليس حرا في حركته. الخيوط تلفت حول كل جزء منه. يحاول الخلاص، لكنه لا يملك سوى الاهتمام قليلا والنظر إليها ثم يعاود السكون. ينظر إليها. يلقى عليها في نظره كراهية كل المولات السابقة واحتراره لها.. يذكر أنه كان يضحك في وقت ما. لكنه الآن كف عن الضحك. كف عن كل شيء. شلت راشيل حركاته حتى البسيطة منها. حتى مجرد انفراج شفثيه عن ابتسامته.. هذه المرأة العنكبوتية لماذا اختارتها هو بالتحديد.. إنه إنسان. وفي البداية رأى فيها صورة الإنسان.. رأى حبها له. أو ما أوهمته أنه حبها. إنسانته مثله. لا يعيبها كونها يهودية..»

بيد أنها لم تكن مجرد يهودية. كانت صهيونية تحركها الأحقاد التي ماليت أن أشارت إليها. في البداية جاءت إشارتها

عابرة «لزمّن اليهود والكلاّب». لمح ظال ابتسامته على شفثيها فظنها ابتسامته «تسامح» بيد أنها كانت ابتسامه «ظفر». وبعد أن أحكمت خيوطها تكررته «بالأفزان». كانت نظرتها غريبة مخفية، قشعر - لأول مرة - بالخوف منها. أراد الفروج من المأزق. اكتشف أنه مشلول تماما داخل بيت العنكبوت. لم تتفع له لفته الصغيرة. في كثير من الأحيان يرى فيها صورة مصفرة لأمها. بل ويراهم تعاون أمها في إذلاله. عندما يكرر سترج به في الأفزان المختلفة مثل أمها. وأسلحة الصهيونية في هذه القصة تبدأ بالمدخل الإنساني الذي يخفى الوجه القبيح للأحقاد العنكبوتية. وهذا هو ما يجعلنا لائق بالكلمة، ولا بالعاطفة مادامت تعارض مع تجاربنا التي خضناها مع عدو غير إنساني كما سبق أن أوصلنا عدد تمرينا لقصة: «انزل».

وتتقل الكاتبة الحسيفة فتلة أخرى إلى هدفها، وذلك بتصوير ما يدبره الصهيونية لتدمير العالم بأسره مغلًا في دولتين كان للصهيانية احتكاك مباشر بهما. ألمانيا ومصر. والكاتبة بهذا التوجه اللساني تقوم - في الوقت نفسه - بدور الدخيل لقومها. تترك راشيل زوجها الألماني بنعي خطه وتتوجه إلى القاهرة. وتبدأ للفتة بأنباء قرب عودتها من القاهرة بعد إلقاء احتفالات السجود بقيام الدولة: «من ألقاما طعن راشيل في صميم انتقامها.. جاءت لتنتقم. تبث خيوطها. تحيط المصريين تفرقهم في حبها ومودتها وضحكتها. تفرقهم في إنسانيتها التي أعرفها جيدا. ثم ماذا ستفعل بهم؟ لها ألف طريقة وطريقة للانتقام. لا ريب أن بعض المصريين سيفهمونها. لا يفهمها ذلك. ثمة من لا يفهمين. من سمعبرونها إنسانة سورية. فيسهل عليها نصب الشباك لهم. إنها تستعد للمواجهة. وستستغل في المصري مثلما فعلت في

الألماني. والألماني لا يخفى فرجه لاهتمامها باستغلال الضيف الجديد. فإن ذلك يعني خلاصه. محطما نعم.. لكنه الخلاص.. والبحث عن بداية جديدة: «رغم إشفاقى عليه، فكل ما أريده هو خلاصى. ستعلميننى للخلاص بمجرد استسلامه لك. وسأهرب. سأنتقل مبتحا. وقد أتعمر من الحقن للغة أيضا. أبحت عن بداية. أى بداية بعيدة عنك..» فهم ذلك حين قالت: «من الأفضل أن نسمى ابتكلا سماء آخر غير سارة، فالعصريون يحبون هذا الاسم.. أنرك أنها قررت الإنجاب من مصرى. للتبديل في مصر. والانتقام مستمر..»



اعتاد الكرام الكتاكين الافتتال على رموز نجيب محفوظ. في رواية: «السمان والخريف» جلس «عيسى الدباغ» على أريكة تحت شمال سعد زغلول، وأخفى «الشاب» متجها نحو شارع صفيه زغلول، فكثرت الأعمال التي استضافت هذا الرمز. وغير ذلك كثير مثل استناد شخص قصة: «العاوى خلف الطبق» إلى «جدار أشرى كان يوما ما مبنى لبيت المال وقصرا للقائضى، وعند مزاجعنا للعدد السادس والثلاثين من مجلة: «ناني القصة» السكندرية، ذهبا إلى أن أحمد محمد حميدة يشترك مع محمد حافظ رجب في الاستعانة برمز سعد زغلول (٨).

يفتح حميدة قصته بقوله: «ميدان سعد يروج بحشود البشر، فوق الأرصفة والبريكات ومداخل البيوت ومتاجر الثياب.. ناس، وجوههم جيزة.. أمهم، يحلون بصرى، وآخرون مأثور الملامح، كانوا بمستوى عيني..» وفي السياق: «احتبست بالمصدر صرخة.. أود لو أطلتها وسط حشود البشر بميدان سعد..» لكتنا. والحق يقال - نقبلنا رمز «ميدان سعد

زغول، عند حميدة دون شعور بالتقليد، لأنه كان جزءا مهما من المكان الذي ارتاده شخص القصة. ومثل «سرة» البلاد، أو «وسط» المدينة. ومن ثم فهو مكان تجمع مهم للغرباء والمواطنين على السواء في كل يوم. وكان هو - وشارع النبي دانيال - العلامتين البارزتين من حيث المكان. وجاءت إيمانها بطريقة عفوية لا افتعال فيها، يمكن ما حدث مع قصة حافظ رجب: «أشجار اللحم تطرح عظاما.. فقد دخل محمود درويش مكان الحلاق الأحب فأرى سعد زغول في إطاره فوق كرسى الحلاقة، وهو تقليد مفنوح غير مبرز. ويصل الأمر إلى حد التسطوح حينما يقول: سعد زغول يطال عليه من الشرفة قال مغيش فايدة، فهي عبارة شعبية مستهلكة لم يحسن استخدامها في مكانها، فكأنه يسرد محفوظاته من المأثورات الشعبية بالمناسبة.

ولا يسلم أحمد محمد حميدة من استعمال الرموز المستهلكة، مظهرا هنا في «الكتاب» الذي يحمله الراوى أثناء سيره مع صديقه من ميدان سعد زغول إلى شارع النبي دانيال. وقد انزلق للكتاب في النهاية من تحت إبطه فركله ركلة دفعت به إلى منتصف الشارع «حيث العربات والمارة». وفي السياق، كان الراوى يتصفح للكتاب أثناء السير. وكان صديقه يحمل كتابا، فمديده وأغلق كتاب الراوى فلا فائدة: «وضعت الكتاب تحت إبطي.. ثقافتنا بين نعم ولا.. حكايات الزمن الفائت عن الفن والأدب.. أميبيات التغيير... رسائل كتبت منذ العهد البهر، حتى بدايات العهد الداعر... رجال ماتوا فكريا، وجسديا، وآخرون استنزفت دماءهم العقائد والقيم. وأذيانا، صاروا سلما تباع وتشتري في أسواق اللخامة..». ولا ندرى ماذا يقصد بعبارة: «ثقافتنا بين نعم ولا...؟» هل يقصد كتاب

غسالي شكرى الذى يحمل هذا العنوان؟.. وهل هذا الكتاب تناول الأمور السابق ذكرها؟.. لا أعتمد... وإن كان هذا مقصده فقد خاب سعيه..

ويبدو أن أحمد محمد حميدة من المؤسسين لمجلة: «نادى القصة»، فقد أصدرت له مطبوعاتها خمسة أعمال: ثلاث مجموعات قصصية هي: «الهجرة إلى الأرض...»، «القيظ والعنفوان...»، «الثقوب»، وروايتين هما: «حراس الليل»، «الغجر». كما كانت مجموعته: «شوارع» تنام من العاشرة، أولى إصدارات سلسلة: «إشراقات أدبية». وقد نشر قصته التي تناولها بالدراسة مرتين: الأولى في «نادى القصة»، بعنوان: «السفح والقمعة»، والثانية في «القصة»، بعنوان: «التطفل». وحاول تفسير ثنائية العنوان الأول بعبارة مبهمة حينما قال الراوى: «الأعمى لنا والسطوح... السفح والقمعة». ونحن نميل إلى العنوان الثانى لتطفل الوجه الجورية، داخل الراوى - إذ إنها أخذت تتكاثر أمام عينيهِ. وهما لاهيوية - وتروح وتجيء وتقدر حوله حتى ارتقت عيناه غسبا «كغمامة تالتقت فوق مجرى العينين المنجلتين ليطبعوهما بالدهشة والغربة، وكانوا يتسكعون بقعة زائدة وصلف بالغ - ويسيدون بلا مرشد لأنهم يعرفون الدروب والممالك تماما كما يعرفها إسحق ابن سميان في قصة: «الرحيل» لمجدى عبد النبى. يذكر الراوى أنه شاهددهم في السندراك ومسطحة السكة الحديد وبعض دور الصحف. وحاول الهرب منهم إلى أعماق المدينة، لكنهم كانوا يتطفلون ويكبرون حتى شعر بالضايغ في مدينته: «أين إذن تكون مدينتى؟».

والقصة - كما نرى - كابوسية تحيط بلحظة حياتية إحاطة محكمة. ومن أجل هذا لم يكن هناك ما يدعوا للحديث عن تفاصيل وجزئيات أحاطت بها النظرة الشاملة، مثل منحة نصف الشهر،

وارتفاع أسعار شطط المدارس والمراليل والأحذية فهذه التفاصيل ثرائل لا تفرى المعنى الكلى الذى وصل إليه الكاتب من عدة زوايا وخاصة عند حديثه عن مسأولفى السلامح الذين يواصلون رحلة التفرج البطيء على القطارين: «أبدان تروح، مخلوقة القلوب، تخطف أعينهم أنوار الأودية والأحذية وإعلانات دور العرض السينمائي. وكان بيوت المدينة الرحبة قد تناقت بسكانها، فلفظهم كتلا مكبوتة، متمية الزهري، إلى الشوارع، لترقع هنا. ليرفعوا الأعين الحسيرة فوق زجاج القطارين الزلق، حيث تزلق أرقام المعروضات النظر، يرتعد، فتسقط العيون فوق دهاليز الليون، مكسورة الخاطر، ومألوفة السلامح يواصلون رحلة التفرج البطيء، وتروح النفس بالتسكع تحت أضواء اللين الباهرة...».

كذلك فقد قدم صورة معبرة للجدى المهان أمام المعبد اليهودى: «تقدم جدى الحراسة أقدر بزيه الأبيض، ترك باب المعبد المظق ودنا من دائرتهم.. تحولت لبضامة الرضا الودود، ورفيفة المنيح، فوق وجهه المشرب بحمرة الخجل. توقف بصمت المنظر لسؤاله، كانوا فى لهو عن تواجدده المفاجئ... نظر أحدهم إليه، ثم تابع الحديث والتطلع إلى قبة المعبد القديم والنجمة السداسية... تخنح الجدى لتتحلى لهم قدرته على التواجد (...). يد الجدوى ترتفع ببطء، ويد أحد الرجال تمدد ببعض اللقود الفكة، توضع فى يد ذى اللزى الكالج ليصحب ببطء.

هل تعود يد المستغل الأجنبي هي العليا ويد المواطن المستقل هي السفلى!!!



وتعيش مع معصوم مرزوق في قصصه: «رباعيات رجل فقد الهوية، كابوسا مقيدا منذ البداية والقصة تتألف من أربعة مقاطع. فهي «رباعية، وليست

«رباعيات» في المقطع الأول نشاهد «الكعاب الحساء» على الأسفلت. ربما كانت «مدهونة على الأسفلت» كما ورد بالنص.. وربما كانت «مدهوسة» والمعنى هنا واحد حتى لو كانت «مدهونة» تصحيحا غير مقصود.. و «المطريق يمتد.. يمتد.. يمتد..» ويكرر الفعل «يمتد» ثلاثا في ثلاث فقرات، نشعر معها بالسأم والضيق ولا نجد وسيلة للخلاص.. السباح السلكي الشائكة على يسار فاقد الهوية لا ثغرة فيه.. وأحجار الليل لا تتزحزح.. والبحر يتهدد.. ولزمن يجمد.. والنجوم نصال مشرعة.. ودماء الفتاة ترسم خارطة خضراء على الأسفلت الأسود.. وفاقد الهوية يسير وكان الطريق متوقفا، لكنه يمتد.. يمتد.. يمتد.. ويتكرر الأسفلت، ويتقرب من شخص القصة، فيتدحرج بهذا الفتاة تجاه البحر، ويحاول اللحاق بهما، فيستوقفه مخنث يراوده عن نفسه بعبارة صريحة.. وهنا.. يضيف الكاتب التفتيز إلى السأم والملل والضيق ويشترك بهذا الفتاة بالسور السلكي وأمواج البحر تتفزز في رصونة تريدهما.. ومطاردة المخنث مازالت مستمرة، رغم اختصار شخص القصة لانحطاطه.. والفتاة تستصرخه.. واقع مرير يحاصر شخص القصة ولا من نصير يناصره.

في المقطع الثاني يزورون تاريخه: «أحاطوني بأفواههم يقذفون البساق، تهاوت وإن ظلت واقفا، جلسوا فارتفعت صمتهم المقاعد. نبتت في أفواههم السجائر.

الضخمة، قفزت من عيونهم الزرقاء السياط، لما استكزفوني جيئ بناليهم فأعلن قائمة من أسماء الصوص، المعرة، القرايين، قال أحدهم وهو يخفى ضحكته إنهم أجدلدى.. وفي الثلاث يصل الاتجاه الصحيح: «كنت أعبر وحدى، أجدف بذراعي المقطوعتين على حافتي خورننى الصلبنة، أسارع الموج الذى صعرلى خديه وهو يدفع للشاطئ بعيدا.. بعيدا.. ثم يعرف متأخرا أنه جدد عكس الاتجاه.

وتأتى النهاية المرعبة لكل هذه التخططات في المقطع الأخير: «أكبر لوحة تلو أكبر بلانية فى أكبر شارع لدخل أكبر مدينة، كتب عليها بخط عريض (شالوم)، مرسومة حولها غريان محومة فى مناقيرها أجساد لأناس رافقونى فى الطريق الطويل(..) التصقت الكلمة على مياه المجارى الآسنة التى انسابت عبر المواسير المتأكلة، صبت من كل الصنادير، شربها الناس والأبقار والحصير والأشجار والزهور، فأطلقت الألسنة، لم تعد تطلق إلا (شالوم)، واللجمة ذات الأبراز السخنة رقصت بين نهود نساء المدينة ليرضعها أطفالنا، ويبولوا بها فوق رفات قديمة - رفات من شطبوا من للقاموس شالوم..»

وعندما يعود إلى حجرته، يجد فوق فراشه خنازيرا «عصب إحدى عينييه بعصابة سداة مستديرة.. طالبه بالخروج فكش عن أنيابه واندفع نحوه بوحشية،

واغتصبه: «خرجت إلى الشارع أعبر مذعورا، وجدت فوق كل ظهور الرجال خنازير تفت. صبهم فأقفيت على نظرى أفهقه.. أفهقه.. أفهقه.. كان تقطيع فم تفت.. صبهم من هول المفاجأة.. أما للتهقته فلاحظ أنها تهقته الذل والقهر، التى لا تقوم بعدها للإنسان قائمة. ربما من أجل هذا لم يكمل شخص القصة لها فى خاتمتها.. وربما للخزى والعار.■

الهوامش

- (١) الأهرام، ٢٢ أبريل ١٩٩٤.
- (٢) القاهرة، يونيو ١٩٩٣.
- (٣) أخبار الأدب، ١٥ أغسطس ١٩٩٣.
- (٤) أخبار الأدب، ٢٩ أغسطس ١٩٩٣.
- (٥) رجب سعد السيد، الأشعة الرمادية، كتاب المواهب، ١٩٨٦.
- (٦) الموقف الأدبي، العدد ٨٣، مارس ١٩٨٧.
- (٧) حورية البدرى، احتراق قوس قزح، مديرية الثقافة بالإسكندرية، يونيو ١٩٨٨.
- (٨) القاهرة، أغسطس ١٩٩٣.
- (٩) القصة، إبريل ١٩٨٨.

رسالة

السيد الأستاذ رئيس تحرير مجلة القاهرة

تعية من عند الله طيبة مباركة وبعد

فقد استمعت بقراءة مجلكم، عدد إبريل ١٩٩٤ رقم ١٣٧ ولفت نظري أخطاء معينة في مقال القرآن والإنجيل، إذ وردت آية من سورة البقرة على النحو الآتي: لقد آتينا موسى الكتاب وقيناً من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريم البيان... إلخ. [آية ٨٧ البقرة]

وإذا رُسِمَت الآية بالرسم العثماني للمصحف تكتب آتينا هكذا ءاتينا - أى ألف همزة بعدما ألف، وإذا كتبت بالرسم الحديث كتبت هكذا آتينا أى ألف عليها علامة المدّ ولا تكتب مطلقاً آتينا لأن هذا يغير المعنى كما يغيره كتابة كلمة البيان بدلاً من للبيانات.

ووردت أيضاً في نفس الصفحة (٧٣) للعمود الثالث آية وكأين من نبى قُتل معه ربيون كثير ١٤٦٦ آل عمران، وواضح أن الكاتبة توخت فيها الرسم العثماني للمصحف، ولكن للرسم كما ورد في المقال ناقص وي ينبغي أن ترسم علامة الألف بين القاف والفاء هكذا قُتل، وتقرأ قاتل.

كما لفت نظري غياب علامات الترقيم كلها من الآيات القرآنية والمصحف الشريف علامات ترقيم خاصة لا تخفى على من يقرأ فيه ورجالي الدقة الكاملة في كتابة آيات القرآن الكريم، وتتبع أى من طريقتي الهجاء والرسم، للعثماني للخاص بالمصحف الشريف أو للرسم الحديث. شرط أن يكون ذلك صحيحاً، حتى لا تلتبس على القارئ المعاني المقصودة.

وفقاً لله وإياكم إلى ما فيه خير العلم والوطن

والسلام عليكم ورحمة وبركاته

المخلص

الدكتور محمد السيد غلاب

أستاذ الجغرافيا بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية

جامعة القاهرة

١٩٩٤ / ٤ / ٢٥

قا يحاول الباحثون الإسرائيليون إيجاد نقاط التقاء بين الأدبين العربي والعبري... أو بالتحديد صياغة «معاهدة سلام» بين الأدبين!.. وبالرغم من اعتراف بعضهم بأن نقاط التقاء الشعبيين العربي والإسرائيلي وأدبيهما: لا تبشر بأى تقارب أو تفاهم متبادل فى المستقبل القريب!.. إلا أن مفكرى الكيان الصهيونى يحملون: أن يخلق الصراع فى المنطقة «جيلا جديدا» يعانى مما يسمونه ازدواجية الهوية «يكتب لغة أدبية خاصة هى نتاج المزج المعقضى بين الثقافتين العربية والعبرية»..!

وإذا كانت «التقارير الأدبية الإسرائيلية الرسمية» الخاصة، «لـ «التوظيف السياسى» تزعم أنها تهدف إلى: «إسراء تعارف بين القارئ الإسرائيلى والأدب العربى».. إلا أنها فى - حقيقة الأمر - تسعى إلى تشكيل موقف القارئ الإسرائيلى إزاء العالم العربى وثقافته، بما يعمق الأفكار النمطية المسبقة المعادية للعرب، وإشاعة «الوهم» لدى القارئ الإسرائيلى بأن الأدب العربى- المصرى خاصة - بعيد عن تناول قضايا المواجهة العربية مع الكيان الصهيونى!.. كما أشار يوسف جفعمونى فى مقدمة كتابه: «مكان على الأرض» الصادر عن منشورات معهد «هان لير» للأبحاث فى القدس، بالاشتراك مع قسم مناهج التدريس بوزارة التعليم الإسرائيلية، والذي يضم مختارات من القصص العربية المعاصرة، فيقول: «... عملياً نعتل المواجهة مع إسرائيل، لدى غالبية العرب

إشاعة الوهم تحت محفوظ ق الدراسات الإسرائيلية

عزينة عليا غلو

نحن وإسرائيل .. التصدي والمستقبل

وفي عام ١٩٧٠، صدرت عن دار «سفریات بوعلیم» رواية «اللس والکلاب» ترجمة: مناحیم کابلویک^(٢)، متضمنة خمس قصص قصيرة مختارة من مجموعتي: «نفیا لله» و«بيت سین السمعة».. (اللس والکلاب صدرت بمصر سنة ١٩٦١) .. مرحلة ما بعد الثلاثية، والتي عبر عنها البروفيسور: ساسون سومخ^(٣) .. أسنان الأدب العربي بجامعة تل أبيب - بقوله: «بشرت بالتحول المهم الذي طرأ على أدب نجيب محفوظ من الواقعية الاجتماعية إلى أساليب الرواية الحديثة» .. باستبعاد المفاهيم التقليدية للواقعية، وخلق لغة جديدة بديلة، باستخدام التنكيك المعاصر المتمثل في تيار الوعي والإيجاز وسرعة الإيقاع... وكان الروائي الكبير قد واجه حملة نقد ضارية انتهت بمصادرة «أولاد حارتك».. ومن أجل وجهة النظر الداخلية هذه، قام محفوظ بتوظيف عناصر التصوف الإسلامي - ثيماتيکياً وبنیوياً - في طراز جديد، تجلى بشكل خاص في قصة «زعبلاوی، التي/ تضملمتها مجموعة کابلویک».

وكان البروفيسور: مناحیم ملسون، قد نشر دراسة مهمة في العام نفسه: ١٩٧٠، بعنوان: «نجيب محفوظ والبحث عن معنى»^(٤) يذاهها بمقدمة عن نشأة نجيب محفوظ - أشهر كتاب مصر المعاصرين - ومؤلفاته من روايات وقصص قصيرة، وما تحول منها إلى أفلام سينمائية، ثم يتناول رواية «اللس والکلاب» ويصفها بأنها: رواية واقعية، تعبر عن معان رمزية أساسية لوجود الإنسان وظروف

روائعه - المصرية جداً لكنها متميزة بملامح إنسانية شاملة، قد حظيت باهتمام مبكر من الباحثين الإسرائيليين ..

ففي عام ١٩٥٤، ترجمت قصته «فتوة الطوف»^(١) إلى العبرية، ضمن مجموعة قصص مصرية مختارة بعنوان: «كفیفاء مصریت - سلة مصرية» ترجمها: يادوخ موران وقدم لها د. إسحق شموش أستاذ الأدب العبري بالجامعة العبرية، أما أول رواية متكاملة تترجم إلى العبرية، فكانت «زقاق المدق» عام ١٩٦٩ (الطبعة العبرية ١٩٤٧) ترجمها: إسحق شرايبر، وأعيد طبعها عدة مرات، عن دار «عام عوفید» ضمن سلسلة «كتب الشعب» .. خاصة وأن قراء العبرية قد انبهروا بلوحات نابضة بالحياة، وبالفاعل بين شخصيات من مسمم الشعب المصري كالشيخ درويش وحميده وعباس العلوي قاطني لزقاق الفقير - وأحداث مصرية شهدت مصر خلال الحرب العالمية الثانية.



نجيب محفوظ

في الأقطار المجاورة، حيزاً ضئيلاً للغاية، في تجربتهم الأدبية... ومع البداية المؤلمة لمسيرة السلام، رأينا من الضروري أن نوسع الكرة التي انفجحت أمامنا إلى حياة جيراننا - إلى ذلك العالم القريب لكن القريب جداً منا - لنطل عبرها على تجربتهم الأدبية،!

ولقد أسهمت الدراسات الأكاديمية الإسرائيلية في التعرف على الأدب العربي الحديث والكلاسيكي، ومن أبرز أساتذة الجامعات الإسرائيلية المهتمين بالبحث في الأدب العربي: مناحیم ملسون، ساسون سومخ، يماننا، صيمح، موريه، شمعون بلاص... ومذ عشرات السنين والترجمات الأدبية تتوالى، وشيخ المترجمين الإسرائيليين من اللغة العربية إلى العبرية، هو: «مناحیم کابلویک» - (١٩٠٠ - ١٩٨٨) الذي قام بترجمة عديداً من الآثار الأدبية العربية، على مدار نصف قرن، أشهرها: «كتاب الألبام» لطفه حسين، تل أبيب ١٩٣٧، و«رامة توفيق الحكيم» يوميات نائب في الأرياف، تل أبيب ١٩٤٥، و«اللس والکلاب» لنجيب محفوظ، و«ملوك العرب» لأمين الريحاني..

وأدينا العظيم «نجيب محفوظ» ذلك الصرح الشامخ الفريد في تاريخنا الحديث، الذي خرج من قلب القاهرة.. من الجمالية والأزهر والمسين.. من بيت القاضی وقصر اللوق والسکریة وخان الخليلی وزقاق المدق.. ليحفظ بجوار عمالقة هذا الفن العالمي: من دستورسکی إلى بلزاك إلى تشارلز ديکنز، كانت

حياته، وقد استأثر هذا الموضوع باهتمام نجيب محفوظ في إبداعاته التالية، متأثراً ببعض الكتاب الأوربيين، خاصة: كلكا، سارتر وكامو... وتبرز هذه الرواية - بشكل مباشر - وعي وإحساس محفوظ بالوجود الفأسوي للإنسان، وانتفاخ هذا الإنسان حديثاً، للحصول على معنى لحياته!

وقد اهتم عدد من العلماء الإسرائيليين، بدراسة نجيب محفوظ وأثارة الأدبية، خاصة في نهاية الثمانينيات، فقدموا رسائل متنوعة نالوا عليها درجتى الماجستير والدكتوراه، خصصت كلها أو جزء منها للرواية المصرية العالمة، هؤلاء الباحثون لم يقتصر جهدهم على البحث والنشر العلمي فحسب، وإنما قاموا بتقديم إبداعات محفوظة إلى القاعدة الشعبية، سواء بالترجمة أو بالتحليل، في المجالات الأدبية أو الصفحات الأدبية بالصحف اليومية، وكثيراً ما نشرت ترجمات قصص قصيرة أو فصول من رواياته في الصحافة الأدبية، قبل أن تشر متكاملة في مجلدات مستقلة.

ويشير البروفيسور سامون سوميخ إلى أهم الترجمات وأوسعها تأثير في أوساط القراء الإسرائيليين، وهي: ثلاثية نجيب محفوظ، رواية الأجيال التي يعتبرها النقاد أروع ما أنتجه الأدب الكبير، بل أهم أثر روائي في الأدب العربي الحديث، ويضيف: ... واللغة العبرية هي أكثر لغة في العالم، نقياً لمعظم أعمال نجيب محفوظ، ويكفي أنها أول لغة ترجمت إليها ثلاثية القاهرة بأكملها، (٥)!

وقد صدرت للترجمة العبرية للثلاثية، ضمن سلسلة «روائع الأدب العالمي، وتولى ترجمتها الأدب الإسرائيلي: سامي ميخائيل (ولد بالعراق سنة ١٩٢٦) وبلغ حجمها ٩٥٠ صفحة

من القلغ الكبير، عن دار «سفرديات بوعلم» مكتبة العمال، أهم دور النشر الإسرائيلية، وكان صدورها على النحو التالي:

- الجزء الأول: بين القصرين - القاهرة - ١٩٥٦، وفي العبرية صدرت بعنوان: بيت في القاهرة، سنة ١٩٨٢.

- الجزء الثاني: قصر الشوق - القاهرة - ١٩٥٧، وفي العبرية صدرت بعنوان: كمال، سنة ١٩٨٤.

- الجزء الثالث: السكينة - القاهرة - ١٩٥٧، وصدرت في العبرية بعنوان: الدليل الثالث، سنة ١٩٨٦.

وقد حتى كل جزء من الثلاثية فور صدوره، باهتمام النقاد الإسرائيليين، فتناولوا بالنقد والتحليل شخصيات الرواية والحياة الاجتماعية والجنور الفكرية لها، وعناصر الفن الروائي واللغوي..

ويشير سوميخ إلى أن أبطال الرواية الرئيسيين: «السيد، ذلك الأب الفاسق للمستبد، وأسيده الأم ودية المنزل المنطوية على أمرها، وكمال الشاب ذو النزعة القربية، ومخدجة، وعائشة، فتاتنا الأسرة، وحشد من الشخصيات الرئيسية والثانوية قد تركوا انطباعاً عميقاً في عقول وخيال آلاف القراء



توفيق الحكيم

الإسرائيليين.. ويضيف سوميخ بأن الثلاثية قد قوبلت بحماس من القراء والنقاد على السواء.. «فقد خصصت لكل صفحة من الرواية: دراسة أو مقال، على وجه التقريب. وأحياناً أكثر من مقال أو تطبيق لهذه الصورة الحية، لتلك الشريحة المهمة من المجتمع القاهري، فيما بين الحريين العالميين!»

أيضاً من الروايات الشهيرة التي ترجمت إلى اللغة العبرية: «الشحات القاهرة - ١٩٦٥، ترجمة: هانينا براند، عن دار نشر «بابيروس»، سنة ١٩٧٨، و«ثرثرة فوق النيل» القاهرة - ١٩٦٦، ترجمة: ميخائيل سيلع، عن دار نشر «كيتز» سنة ١٩٨٢. و«ميرامار القاهرة - ١٩٦٧، ترجمة: إسحق شليوبام، عن دار نشر» سنة ١٩٨٣.

أما أهم الرسائل العلمية، التي تناولت أدب نجيب محفوظ، فهي: «روايات نجيب محفوظ - تفكيك، نال عنها سامون سوميخ، درجة الدكتوراه، من جامعة أكسفورد، وإشراف محمد مصطفى بدوي، وهي أول رسالة في دراسة أدب محفوظ، يقدم بها باحث إسرائيلي..

وقد نشرت هذه الرسالة منقحة في كتاب بعنوان: «الإيقاع المتغير: دراسة لروايات نجيب محفوظ» (٦) عن دار نشر «بريل» ١٩٧٣. وأطروحة الدكتوراه الثانية، كانت: «دلي دين: الأعمال الأدبية لنجيب محفوظ، تقدم بها الباحث الإسرائيلي: ما تسيهاو بيليد» (٧)، إلى جامعة كاليفورنيا، بإشراف البروفيسور ج. فون جرونباوم، عام ١٩٧٢، ونشرت في كتاب عام ١٩٨٠، عن دار نشر «نيويورك» بالولايات المتحدة الأمريكية..

كذلك كانت أطروحة محمود غنام. أستاذ الأدب العربي بجامعة تل أبيب. وللي تقدم إلى الجامعة نفسها عام

١٩٨٩، بعنوان: «تطور أسلوب تيار الشعور في الأدب العربي الحديث» متضمنة فصلاً كبيراً عن فن نجيب محفوظ.

وقد ارتكزت الدراسات الأدبية (٨) والفنية والاجتماعية الإسرائيلية، في خصم اهتمامها بأدينا العالمي، على مناهج بحث حاولت الكشف عن أسلوبه الفني واللغوي، وإبراز الجوهر الفلسفي والخلفيات الاجتماعية والتاريخية والاتجاهات السياسية، وأهم المورثات التي طرأت على أعماله الأدبية، وبحث مصادر الأصالة الفنية لدى نجيب محفوظ، وتأثير الأدب والفكر الأوروبي، والتراث الإسلامي..

وتجدر الإشارة، إلى اهتمام المسرح الإسرائيلي، بإبداعات أدينا المصري، فقد ترجمت إلى العبرية مجموعته «تحت الظلة» إلى عدة مسرحيات من فصل واحد، قدمت على عدة مسارح سنة ١٩٦٩، كذلك عرضت رواية «ثلاثة فوق الدن» كاملة على مسرح حييفا سنة ١٩٨٢.

بعد هذا العرض لاهتمامات الباحثين الإسرائيليين، بأعمال نجيب محفوظ وترجمتها وأهم الدراسات النقدية التي تناولتها، أرى من الأهمية، الإشارة في إيجاز، إلى كيفية «استغلال وتوظيف الآراء والمواقف السياسية لنجيب محفوظ، من جانب الإسرائيليين كعادتهم في البعد عن الموضوعية.. وتزييف التاريخ والوعي الثقافي، بما يحقق أهدافهم، حتى من الباحثين الأكاديميين..!

ففي محاضرة للبروفيسور سوميخ، عن أدب نجيب محفوظ، ألقاها بالمركز الأكاديمي الإسرائيلي بالقاهرة، في مارس سنة ١٩٩٠، وبعد مقدمة أشار فيها إلى أن: الإنجاز الفكري لأعظم روائي عربي في عصرنا الحالي، لم يحظ حتى



أمين الريحاني

وقت قريب، بما يستحقه من الاهتمام العالمي، وأن الإعلان في أكتوبر عام ١٩٨٨ بأن جائزة «نوبل» في الأدب، قد خصصت لأديب عربي، كان خطوة مهمة، لجذب اهتمام العالم نحو أدب - عربي حديث، كما تضمنت الجائزة اعتباراً عالمياً بأن هذا الأدب المقيم بالحياة - جزء لا يتجزأ من أدب العالم المعاصر، ويضيف «.. وفي إسرائيل، لم يكن جمهور القراء والناقد - على السواء - بحاجة إلى الجائزة السويدية، ليتعرفوا على نجيب محفوظ وأدبه، فهو أديب مشهور بين الإسرائيليين، ومواقفه الإنسانية والسياسية معروفة للجماهير،



د ستروفسكي

من خلال أحاديثه التلفزيونية والصحفية، التي أوردتها وسائل الإعلام الإسرائيلية في السنوات العشر الأخيرة، أي منذ حلول السلام بين مصر وإسرائيل، وربما من قبل ذلك، حيث كان عدد من قصصه، سواء مترجم إلى العبرية أو في نصها الأصلي، ضمن المقررات الدراسية الأدبية، بالمدراس الابتدائية والثانوية..

ثم عرض لجهود الباحثين الإسرائيليين، في دراسة وترجمة مؤلفات نجيب محفوظ، مؤكداً أنهم «سبقوا في هذا المجال زملائهم في أرجاء العالم بسنوات عديدة، بل ربما كانت نشاطاتهم هذه من العوامل التي حفزت أوساطاً أدبية وجامعية، في الشرق والغرب، على مزيد من الاهتمام بالأديب المصري الكبير وبالأدب العربي ككل، سواء قبل الجائزة أو بعدها!!

ثم يضيف: «.. وهذا الاهتمام العظيم، الذي لا يمكن إنكاره، كان بأصله - محفوظ - بشكل خاص، بأرائه المعتدلة في المجال السياسي، وسيذكر الإسرائيليون دائماً: أن هذا الروائي العظيم، ومعه كاتب مصري آخر كبير هو المرحوم «توفيق الحكيم» كانا من أوائل المفكرين العرب، الذين جددوا فكرة تسوية الصراع العربي - الإسرائيلي، وقد نشر دعوته من أجل «السلام وإعادة البناء» في بداية السبعينيات، قبل زيارة السادات التاريخية للقدس بعدة أعوام، وعندما تمت تلك الزيارة، بارك محفوظ بشجاعة ودون تردد، عملية السلام ونتائجها، التي تمخضت عن نهاية للحروب بين مصر وجارتها الشمالية..!!

هوامش:

(١) قصة «فتحة المطرف» لم تسجلها مجموعة «هس الجون» التي جمع فيها نجيب محفوظ معظم قصصه القصيرة المبكرة، وقد

(٨) يحزر اليروقيصور سوميخ بابا أسبوعيا في الملحق الأدبي بصحيفة «نقار» بعنوان: «نقار» يتناول فيه الثقافة المعاصرة، في إطار صحفي - أكاديمي، وكانت أهم مقالاته، في الفترة الأخيرة: ملوية الهلال ودور جويحي زيدان في النهضة الثقافية العربية، دراسة عن أدب نجيب محفوظ، كذلك تيمر الإشارة إلى أن مجلة «لقاء» التي يصدرها المعهد اليهودي - العربي التابع للأمم المتحدة قد نشرت في عيدها لسنة ١٩٨٧، صفحا من رواية «يوم قتل الزعيم».. كذلك في المجلة نفسها عدد سنة ١٩٨٨، قدم مناقم ماسون دراسة نقدية وتحليلية لأب نجيب محفوظ.

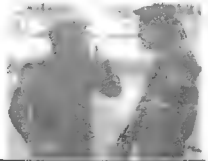
Naguib Mahfouz : Research and Translations in Israel, Bulletin of the Israeli Academic Center in Cairo, no 14, January 1991, PP.17-21

- (4) Menahem Milson: "Naguib Mahfouz and the Quest for meaning" ARABICA, 17-June 1970, PP, 177 - 178
- (5) Sasson Somekh : OP. cit.
- (6) Sasson Somekh : "The changing Rhythm : A study of Najib Mahfuz novels, leiden, E.J.Brill, 1973
- (7) Matityahu Peled: Religion My own; the literary works of Najib Mahfuz, new brunswick, 1980

نشرت في «الرسالة» في ٤ نوفمبر سنة ١٩٤٠، وفي المجموعة المترجمة للعربية - كتيبا مصريتا - تدخل هذه القصة، الصفحات من ٢٠٩ - ٢١٥ إلى جانب مخاوفات من قصص أدباء مصريين بارزين، هم: توفيق الحكيم، محمود تيمور، طاهر لاشين، إبراهيم المازني، عبدالرحمن الشرقاوي، سيد قطب، إبراهيم الورداني، سعد مكاوي، أمينة السيد، د. بنت الشاطئ، وصوفى عبدالله.

- (2) Menahem Kapeliuk : "Haganav ve-ha-klavim" tel-Aviv, Sifriat Po'alim, 1970.
- (3) Sasson Somekh : The works of





قلا شك أن كتاب: «سينما الهالك» للناقد أمير الممرى حول اتجاهات وأشكال السينما الصهيونية المعاصرة يعد أحد أبرز إصدارات الأعرام الأخيرة على الصعيد السينمائي، ليس لطروحاته السياسية أو لمناخه الجادة ذات المعنى التاريخي - التحليلي - الوصفي للتنتاجات الفولمية، ولكن لتعديده «مصطلحي» التعامل معه، في حكمة وروية، مما يذكّرنا بمقولة فولتير قبل مائتي عام: «عليك بتحديد مصطلحك قبل التحدث معي».

وذلك يتضح، أساساً، في مقدمته التفسيرية، حيث استسهل بعضهم قراءة الدوريات والمطبوعات السنوية، واستخلصوا منها ما قد يتوأكّد مع فكرهم - إن وجد - القاصر سياسياً، فإن وجدوا فيلماً بطله يدعى «دافيد»، تمدى الأمر من يهودى إلى صهيونى مرة واحدة، ولا يكفي - في هذا الصدد - عدم مشاهدتهم للفيلم.

هذا الخلط بين ما هو دينى (يهودى) وبين ما هو أيديولوجى (صهيونى)، شوش معرفياً دقة المصطلح، وكذا المفهوم المتعامل مهما، فكان القطاب مشرّها: عدم القدرة على التفرقة بين الفيلم الفلكلورى والفيلم الصهيونى مخالاً وليس حصراً، الأول يصور حياة وتقاليد اليهود في بعض المجتمعات، مثلما هو الحال في «الشتل» Shetl في روسيا القيصرية والهجرت، فى لسانيا وهى أفلام محدودة القيمة والأثر ما دام تصويرها لليهود لم يخلع عليهم من الصفات ما يحلهم

سينما الهالك تأصيل المنهجية المعرفية في التعامل مع السينما الصهيونية

أحمد عثمان

نحن وإسرائيل .. التحدى والمستقبل

الملاحق والوثائق والشهادات غير المتوفرة في الكتاب، تعد - حقاً - هي الأبدى والأشمل (طبعت ونشرت ترجمة شفيق مقار سلسلة بمجلة: «الدستور اللندنية»). تبين «الهلاك الأبدى» كيف أن بعض القادة الصهيونيين تعاونوا مع النازيين (إخمان خصوصاً). أثناء وقبل الحرب العالمية الثانية، وعلق مكسيم، روندسون حولها: «والواقع أن جيم آلان عندما طرح ذلك الائتفاء بين مصالح الصهيونيين والنازيين في مسرحيته (وقد أجاد صياغة ذلك الائتفاء كخلفية للحدث) قبل ما فعلته أنا وكثيرين غيري، فأبان عن أن أعداء السامية الألمان والصهيونيون كان لهم هدف مشترك هو دفع اليهود الأوروبيين صوب الهجرة إلى فلسطين». (ترجم المقال شفيق مقار)، وهو نفس ما يؤكدته العمري حين يذكر مقولة الزعيم الصهيوني/ شابلن كلوسنر: «إنني على قناعة أنه من الواجب لإسراهم على التوجه إلى فلسطين، محلاً - غير خطاياهم - مفهوم هو: الأفلام الصهيونية زمن النازية: «تندرج في إطار الأفلام الصهيونية الأفلام التي تصور الحرب العالمية الثانية وتبني التحليل الصهيوني الذي يقول إن الهدف الأساسي من الحرب كان القضاء على اليهود وإن الحلفاء من دول الغرب فضلو البقاء مكتوفي الأيدي أمام ما كان يقع من اضطهاد ضد اليهود (...) من أجل تحقيق الهدف السياسي المعلن بعد الحرب وهو تأسيس دولة يهودية في فلسطين. «واكتفوا بتصوير الأمر على

بالولايات المتحدة في العرب ضد الألمان في أوروبا وحتى لا يشتموا بالولاء لليهودي الخارج أو في أفعال الأحوال بازواجية الولاء، غير أن الحرب العالمية الثانية شهدت انحصار هذه الرؤى وبدء انتشار الدعاية للصهيونية، وأبلغ دليل على هذا التعاطف الدعائي ما فعله جاك وارنر (صاحب ومؤسس شركة وارنر) حين طلب من العاملين والفنانين اليهود في شركته أن يقبلوا بنسبة من مرتباتهم لصندوق الإغاثة اليهودي المتحدة، وكان يهددهم بالطرد من العمل إذا لم يستجيبوا له.

حول مسرحية «الهلاك» نجيم آلان، كانت أغلب صفحات الفصل الثالث: «سينما الهلاك»، إذ عرض أحداثها وردود أفعالها بناء على متابعته الذاتية لبرامج التلفاز اللندني واستناداً إلى الطبعة اللندنية المترجمة (منشورات الخطاط، لندن ١٩٨٧)، إلا أنه وبالمقارنة تعد ترجمة شفيق مقار وتزويدها بالعديد من

بمميزون كثيراً عن غيره من البشر، أما الآخر/ السينما الصهيونية فهي ليست فقط السينما التي يصنعها السينمائيون اليهود في إسرائيل ولكنها السينما التي يصنعها اليهود وغير اليهود في إسرائيل أو خارج إسرائيل وتكتبى بشكل مباشر أو غير مباشر الدعاوى الصهيونية وتبرر قيام إسرائيل وتقدم استمرارها على ما تتبداه من كل إنكار للوجود الفلسطيني وتدعو الرأي العام إلى التعاطف مع الصهيونية، وقد تستخدم هذه السينما ما يسمى بالتراث اليهودي أو خصوصية «العنادة اليهودية.. من أجل تصوير إسرائيل كملاذ طبيعي أمام يهود العالم.

بين دفتيه، يحتوي الكتاب على تسعة فصول، بخلاف المقدمة والملاحق: رسالة حب من كيرك دوغلاس إلى إسرائيل، فشل اقتراح ريد جريف بمقاطعة إسرائيل، مقابلة مع كلود لاترمان، مقابلة مع المخرج رودلف شان دليسر، وفلسطين في الجزيرة السينمائية، ويقدر ما أنها شهادات بقدر ما هي - في مجموعها - وثيقة تاريخية - حسب المفهوم الليوري، نسبة إلى كارل برور - لمصار وآليات السينما الصهيونية.

في فصله الأول: «البحث عن الجذور»، يناقش قصصاً صهيونياً مصطلحاً للسينما اليهودية والسينما الصهيونية، فيما يشير في الفصل الثاني: «هوليوود والسينما» إلى كون يهود هوليوود يترددون كثيراً في إيداع تعاطفهم مع القوى والمنظمات المناهضة للفاشية حتى لا توجه إليهم تهمة محاولة الزج



فى الفصل الخامس: «بريسترويكا صهيونية»، وبعد أن يتعرض لوضعية كل من اليهود فى الاقتصاد السوفيتى والتشريعات السينمائية بها حيث يحظر النظام السياسى (قبل البريسترويكا) عرض أى إنتاج يشجع الدعاية العنصرية والقومية والشوفينية والصهيونية، كما جرى الحال عند منع عرض فيلم: «القوميسار» من إخراج/ ألكسندر أسكولودوف فى العام ١٩٦٧ (عرض الفيلم بعد عشرين عاماً بمهرجان لندن السينمائى وعده بعام فى مهرجان القاهرة السينمائى، دورة ١٩٨٩) ... منع عرضه لأنه يضع روسيا فى مواجهة اليهود باعتبارهم شعباً آخر له هويته الثقافية المختلفة وتاريخه الخاص سواء تحت الحكم القيصرى أو الاشتراكى، ثم يسرد الأفلام، مع تحليل موجز، ذوات الإنتاج المشترك بين الاتحاد السوفيتى وإسرائيل وأهمها فيلم: «جواز سفر» للسوفيتى/ جيو جى دانيلا...

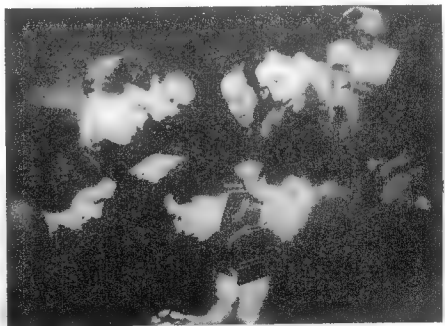
وفى دراسة مطولة، هى الفصل السادس، لأفلام المخرج الهولندى/ رونلف فان دنبرج (بالكتاب، ضمن الملحق، مقابلة مطولة معه)، حملت اسم: «الذات والآخر»، يخلص، وذلك فى بداياتها، إلى أن الموضوع الذى يورقه يتمثل فى البحث عن الهوية اليهودية ومغزاها، عبر أفلامه: «سال سانتين»، «الباستول»، «مكان الغريب».

«كيف يمكن لسينما لمقيدة متشرمة أن تصنع لها أنماط تسليقة خاصة بها، وأن تستدب لها معادلات وعلاقات لانتظير لها فى واقع الأمر فى أعماق المجتمع نفسه؟»، هكذا يورخ فى الفصل السابع: «الخرج من الظل» للسينما الإسرائيلية، أشكالها وإنجازاتها، منذ بدايتها حتى ظهور أفكار اليسار الإسرائيلى على الشاشة، متفقاً فى ذلك



فرايتير

مسيرتها - زولها ... مع تحليل مختصر لبعض ما أنجزته: «الصفير» (١٩٨٤) للمخرج / جى جى ثوميسون، «قوة دلنا» (١٩٨٦) للمخرج / مناحيم بولان (وهو نفسه مالك الشركة. وللعلم، كان أحد قادة الضربات الجوية على مصر أثناء العدوان الثلاثى)، وكلاهما يتناولان الشرق الأوسط بسفيرة لاذعة، تقارب العنصرية المتطرفة التى يتبنيان أيديولوجيتها.



لقطة من فيلم «لهيب فى الرماد» الإسرائيلى

اعتبار أنه كان صراعاً بين اليهود «الطيبين» والألمان المسيحيين «الأشرار»، وهو موقف متبع وقاصر ويساهم بوضى أو دون وصى فى خدمة العقيدة الصهيونية التى تعتمد على ترويج الأساطير الغامضة لتكريس فكرة العداء الأبدى لليهود فى الشتات، وكذلك لانتقاسى، فى هذا الإطار، كسور الربط بين الهولوكست وإسرائيل بأى شكل من الأشكال فى السينما يجعل من العمل السينمائى عملاً صهيونياً بالضرورة، ويحلى هذا المفهوم فيما يلى من أفلام: «ليزا» (١٩٦٢) لفيليدون، «نتكر للعب» (١٩٨٣) لجاك سميت، «ديفيد» (١٩٧٩) لبيتر ليلتال.

«إمبراطورية المراهب» عنوان الفصل الرابع، يعنى بها إمبراطورية شركة «كانون» Canon السينمائية، إمبراطورية مناحيم جولان ويورام جولياس، هذه الإمبراطورية - الظاهرة التى شغلت أوساط صناعة السينمائى فى العالم كله بظاهرة الصعود الغربى والغريب، يعرضها من خلال نشأتها.



لقطة من فيلم الخماسين

ومع ذلك، تبقى الميزة الأساسية لهذا الفيلم في كونه يجعل المشاهد يدركون بوضوح أبعاد المأزق الذي تعيشه إسرائيل بعد أربعين عاماً على تأسيسها حيث فشلت في أن تتجاوز كونها مجرد كيان تحت التأسيس أو هيكل هش قابل للانفجار (...) ولعل التعايش الممتد حول تعريف اليهودي في دولة قامت على أساس «اليهودية» دليلاً كافياً على هشاشة البنية الاجتماعية والسياسية في إسرائيل، فيما يعد الآخر أول فيلم إسرائيلي روائي طويل يعكس أثر الانقضاة على المجتمع الإسرائيلي ويعبر عن العجز والتمزق وانهايار القناعات الذي أصبح الطابع الغالب على هذا المجتمع، فضلاً عن نوع من الحيرة التي يشعر بها السينمائيون الإسرائيليون من أبناء جيل «الصابرة».

مما سبق، اتضح تركيزي على تناول الكتاب، من ناحية المفاهيمية - الاصطلاحية - المعرفية، مستنداً إلى سريته التاريخية، فعلى الرغم من كون فصوله نشرت في عدد من المطبوعات العربية، على فترات متباعدة، إلا أنها مترابطة، مبنية على افتراضات علمية، لا يطرح استنتاجاته بناء على آراء مسبقة. وأهمية، لا يخلط بين الديني والسياسي، مما ساعده على عدم إطلاق الأحكام

نواجه الواقع بشكل جديد. هناك نوع من اللحدي وهناك جيل جديد يتوجب عليه التوصل إلى حلول عملية وهذا يستوجب المتطور على حلم جديد... جيتاي، أي نعم معارض للصهيونية وممارساتها داخل إسرائيل، يحلم ببدا الحصار والتعايش السلمي، ولكنه: هل تصل معارضته إلى حد رفضه وجود إسرائيل؟ سؤال أمس به في أذن أمير العمرى... ولذلك، بالتأكيد، لاتتمدى نطاق الخلاف بين ما هو متخيل وبين ما هو واقع حقاً.

أما الفصل الأخير: «التقاط الأشلاء»، فهو دراسة تحليلية لفيلم: «أحلام محطمة .. لالتقاط الأشلاء» (١٩٨٧) ليزول سكوفيلد والحقول الخضراء لاسحق يوشيريون مستخلصاً بالنسبة للأول: «...»



مكسيم روينسون

مع ما طرحه حايم برشيط: «...» ولكن بالنسبة لموز وآخرين مثله في الجماعات اليسارية الصهيونية من حزب العمل حتى حركة السلام الآن، تبدو المشاعر التي تربطه باليمين اليهودي المتطرف أقوى من أي ميول إيجابية تجاه الفلسطينيين... ويتذبذب هذا الاتجاه حول الموضوعات المركزية مثل حق تقرير المصير للفلسطينيين أو العنصرية الكولونيالية للمشروع الصهيوني... كما يتبدى في أعمالها: «خربة خزعة» (١٩٧٨) نزام لومي، «الخماسين» (١٩٨٢) لدانيل فاكسمان (أول فيلم تناول بشكل مباشر الشخصية الفلسطينية كطرف رئيسي في الصراع)، «وراء القصبان» (١٩٨٤) لأوري بارياش وغيرهم.

حول تجربة المخرج الإسرائيلي/أموس جيتاي، يدور الفصل الثامن: «زوال الحلم القديم»، في أفلامه: «أسطورة سياسية» (١٩٧٧)، «بيت» (١٩٨٠)، «وادي» (١٩٨١)، «يوميات حملة» (١٩٨٢)، «استر» (١٩٨٦)، «برلين - القدس» (١٩٨٩)، ويخلص آراءه في مقولة اقتبسها منه: «أعتقد أن فكرة الحلم الصهيوني لم تعد لها الأهمية نفسها التي كانت لها في الماضي، الآن علينا أن

القاطعة والآراء التعصبية الجاهلة، خاصة عندما تعرض لإشكالية تواجد اليهود في السينما، فليس معنى وجود بطل يدعى «ديفيد» في أحد الأفلام، على أن الفيلم يهودى وبالتالي - فوراً، ومرة واحدة - صهيونى، أى يتعدى الأمر إلى اعتبار ديانة صانع الفيلم - أو مجرد كونه يحمل اسماً «مشكوكاً»، فى يهوديته - دليل على «صهيونية» الفيلم... فهل كان فاسبندر أو

شابان - يهودياً من جهة الأم، واليهودى يتبع ديانة أمه أساساً كما فى إلخوراه والتعاليم اليهودية - أو وودى آلن صهيونيين؟ أو حتى فى رده على مؤامرة اليهود فى السيطرة على صناعة السينما، إذ إنها، فى الحقيقة فكرة يروج لها اليهود المتعصبون أنفسهم بفرض المبالغة فى إظهار قوة تأثيرهم وعظمة نفوذهم.

حقاً، يعد الكتاب صفعه فى وجه الجهالة السائدة، الجهالة العنصرية، جهالة البيانات والشعارات الزائفة، فى نبرة هادئة تحترم «المصطلح» وتوقر... وتضعه فى المصاف الطيبى بدلاً من العاطفة - الاجتزالية، التى تتهج - برغم دوافعها الطيبة - إلى التوافق مع آليات الخطاب الصهيونى العنصرى. ■

الفكر والغايات

التاريخ يتغير من جنوب أفريقيا

٧٤ التاريخ يتغير من جنوب أفريقيا، إعداد وتقديم وترجمة، خليل علفت.

٨٢ تأمين الفصل العنصري للسلطة الاقتصادية في جنوب أفريقيا ، لورنس

هاريس. ٨٨ مهمة ضخمة في انتظار إعادة البناء الوطنية ، كريستين

عبدالعريم ديلان. ٩٢ خلفيات التغير في موقف الحزب الحاكم في جنوب

أفريقيا ، إليكس هالينيكوس. ٩٦ المؤتمر الوطني الأفريقي.. من السجن إلى

البرلمان ، تشارلي كيمبر. ١٠٠ تلخيص العصر في شخصية محتر (٢) ، عمر الماروف .

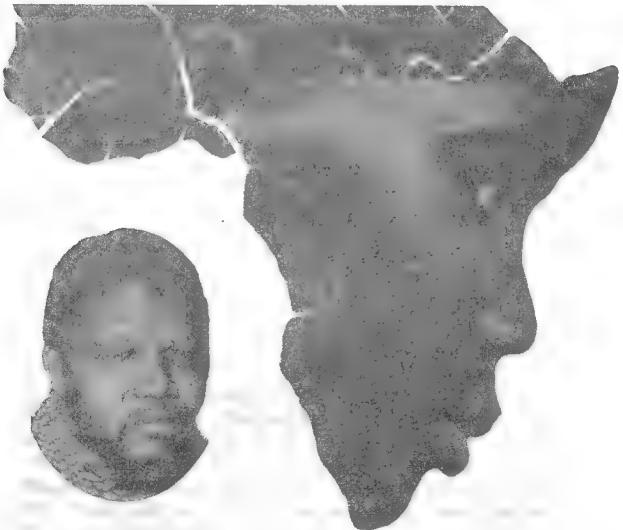
التاريخ يتفیر



ملف من اعداد

خليل كلفت

من جنوب أفريقيا





حدث تاريخي:

أخيراً... وبعد تاريخ طويل يشع (مئذ وصول الهولنديين إلى هناك في ١٦٥٢)، وصراع طويل مرير (تأس المؤتمر الوطني الأفريقي في ١٩١٢)، ومفاوضات شاقة (طوال ٤ سنوات مئذ إطلاق سراح نلسون مانديلا في ١٩٩٠)، وانتخابات ديمقراطية (٢٧ أبريل ١٩٩٤ والأيام التالية)... تنتهي «رسمياً» سياسة الفصل العنصري في جنوب أفريقيا كسياسة رسمية ودستورية ظلت تقتضي، مئذ وصول الحزب الوطني (الحاكم قبل الانتخابات الأخيرة) إلى الحكم في ١٩٤٨، أي مئذ قرابة نصف قرن، أن يحيش الأوروبيون (الببيض)، والبانانتو (الأفارقة السود)، والمولون (المختلون من آباء ببيض وأمهات سود)، والآسيويين (الهنود)، في مناطق منفصلة، وأن يذهبوا إلى مدارس منفصلة، وأن يتعبدوا في كنائس منفصلة - وكل هذا وغيره فوق أرضية تاريخية من الانفصال الجذري بين تقدم وثروة البيض وتخلف وفقير وحرمان السود، بين هذين العالمين المتجاورين داخل بلد واحد: عالم الرأسمالية العالية التطور في مناطق البيض والعالم الثالث (أو الرابع)، في مناطق أو معازل السود.

إننا نبتهج مع كل من ابتهجوا في كل مكان في العالم ونحن نشهد نهاية الأبارتهيد أي الفصل العنصري كسياسة. وما لم تقع نكسة لا يمكن استبعاد مجيئها من داخل جنوب أفريقيا، من جهات عديدة متربصة، لتضع حدا لهذا التطور ولتعيد عجلة التاريخ، وإن مؤقتاً، إلى الوراء، سيكون قد تم قطع خطوة مهمة على طريق تحقيق أمل من أعز آمال كل من ناضروا في كل مكان في هذا العالم منذ نظام الفصل العنصري.

على أن يريق الحدث التاريخي، هذا الانتصار المحدد لكن المهم، لا ينبغي أن يخطف أهباسنا أو يعمى بصائرنا إلى حد فقدان الموضوعية الضرورية للوصول إلى إدراك واضح لطبيعة وحقيقة وأبعاد ما حدث في جنوب أفريقيا.

والحقيقة أننا في أزمنة رديئة، وهذه الأزمنة تمنع بحكم التعريف تحقيق انتصارات كاملة أو حتى شبه كاملة، وإن كانت تطوى مع ذلك على آيات تنتهي بنا إلى حالة من الاستعداد النفسي لإسقاطات وأوهام بلا حدود.

وما من شك في أن الفصل العنصري بوصفه سياسة وأيديولوجية رسمية ودستورية مباشرة تنبناها الدولة ينتهي الآن رسمياً غير أن هذا لا يعني في حد ذاته نهاية كل فصل عنصري، فقل أو قانوني، كما أنه لا يعني بطبيعة الحال، ومن باب أولى، القضاء على العنصرية بكافة أشكالها فليس الفصل العنصري سوى شكل واحد من أشكال العنصرية وإن كان من أكثرها بشاعة وتدميراً.

وهناك بطبيعة الحال ذلك التراكم التاريخي الطويل للفصل العنصري الفعلي والقانوني والذي بدأ منذ وصول الأوروبيين إلى تلك المنطقة من العالم في ١٦٥٢، أي منذ ثلاثة قرون ونصف القرن. وعندما وصل الحزب الوطني (الحاكم قبل الانتخابات الأخيرة) إلى الحكم في ١٩٤٨ وتبنى الأبارتهيد (الفصل العنصري) كسياسة رسمية وكإيديولوجية نوعية وكأساس دستوري لم تنشأ هذه السياسة من فراغ بل كانت امتداداً بأشكال جديدة لسياسة البيض في حكم وعزل وفصل السود وغير الأوروبيين خلال قرابة ثلاثة قرون سابقة على ذلك التاريخ. أما الآن فلدينا دستور جديد مؤقت يفترض أن يحل محله دستور دائم بأغلبية الثلثين بعد خمس سنوات وجرت انتخابات ديمقراطية على أساس الدستور المؤقت وفاز المؤتمر الوطني الأفريقي بأكثر من ثلاثة أخماس مقاعد البرلمان الجديد وشكلت حكومة وحدة وطنية. وهكذا يمكن القول إن سياسة الفصل العنصري قد انتهت رسمياً ما دام السكان بمختلف أعراقهم يشكلون معاً كموالدين وعلى قدم المساواة (من الناحية الدستورية) دولتهم الواحدة.

التاريخ يتغير من جنوب أفريقيا

لكن هل تبشر نهاية الفصل العنصرى كمياسة وأيديولوجية للدولة بنهاية قريبة للفصل العنصرى بتراكمه التاريخى
الفعلى (والذى كان قانونيا أيضا ومعدّ البداية) طوال قرون؟

سوف نرى من خلال متابعة هذا التقديم والأخص من خلال قراءة المقالات المترجمة هنا أن التفاؤل الشديد فى هذا
المجال لا أساس حقيقى له.

جمهورية كونفيدرالية تحت سيطرة البيض:

من البديهى أن كل تفكير فى تحويل جمهورية جنوب أفريقيا إلى دولة ديمقراطية عادية من الطراز الغربى تقوم على
مبدأ المساواة فى الحقوق بين مواطنين يطوى على عقدة مستعصية تتمثل فى أن هذه الدولة تتكافض مع مصالح الأقلية
البيضاء كما يفهم قادتها العنصريون هذه المصالح. مثل هذه الدولة قد تفكر فى إعادة بناء الحياة الاجتماعية والاقتصادية
انطلاقاً من التأميم أو حتى انطلاقاً من تطبيق نظام ضريبى جديد ملائم لمثل هذا الهدف. وه الضعية، فى كافة الأحوال
هى المصالح الاقتصادية للأقلية البيضاء والتي تحتكر ثروات البلاد. بل يمكن أن يحول مجرد البقاء الأمن لأقلية
تضطهد السكان الأصليون على مدى القرون استنهاذاً لا هوادة فيه ولا رحمة إلى مشكلة مستعصية فى حالة سيطرة
المضطهدين (يفتح الهام) على الدولة. وأمام هذه الصغافوف المنطقية للبيض والأخص لقاوتهم من السذاجة أن تتوقع أن
تقبل الأقلية البيضاء فى جنوب أفريقيا ومهما كانت الضغوط أو الأهداف بدولة ديمقراطية لمواطنين متساوين فى الحقوق.
وباستبعاد مثل هذه الدولة من خيارات الأقلية البيضاء لا يبقى أمامها، بافراض استحالة استمرار النظام السابق نفسه،
سوى أحد أمرين: إما السعى إلى تقسيم البلاد وإما تفريغ الدولة الموحدة من مضمونها كدولة عادية.

ولا نريد أن نقف طويلاً عند فرضية استحالة استمرار النظام السابق نفسه. ذلك أن مصلحة الأقلية البيضاء فى
الإصلاح ترتبط بتفادى ويلات نظام الفصل العنصرى وبالرغبة فى الحصول على جوائز التخلص منه. وهكذا يمكن
القول إن الأهداف من وراء الإصلاح تتمثل فى:

١ - تصفية النضال الوطنى الأفريقى بكافة أشكاله.

٢ - للملاقات الطبيعية مع البلدان المجاورة باعتبارها «المجال الطبيعى» للنمو والسيطرة.

٣ - للملاقات الطبيعية مع العالم بعد إلغاء المقويات الدولية بسبب سياسة الفصل العنصرى.

وفى ظل موازين قوى مؤنثة لقوى الاستعمار وللرجعية فى كل مكان فى العالم وغير مؤنثة للشعوب ولحركات
التحرر الوطنى بدا للأقلية البيضاء أنه لا مخلص من الإصلاح لتفادى النتائج السلبية لسياسة الفصل العنصرى والحصول
على جوائز لإغاثتها، استغلالاً لموازين القوى العالمية المؤنثة، واستغلالاً لانهايار أوضاع الدول الأفريقية المجاورة،
واستغلالاً أيضاً لواقع أن حركة التحرر الوطنى فى جنوب أفريقيا بقيادة المؤتمر الوطنى الأفريقى بعبودة تماماً (بحكم
ضعفها المسكرى وبحكم نداعى حلفائها إقليمياً وعالمياً) عن أن تكون فى أوضاع تسمح لها بأى قدر من التضدد، أى
استغلالاً لواقع أن المؤتمر الوطنى الأفريقى سيكون مستعداً، شأنه فى ذلك شأن غيره من حركات التحرر الوطنى فى بقية
أنحاء العالم، للركض وراء الفرصة الأخيرة، وراء تسويات الأزمنة الزديبة التى تنذر بأزيمة أكثر رداءة، وراء هذا الشر
الذى لا بد منه حسب تعبير السيد جوسيفر الزعيم التاريخى للحزب الشيوعى لجنوب أفريقيا والمستشار الرئيسى للنسول
مانديلا، انطلاقاً من أن الشعب الأسود لا يملك الوسائل اللازمة للإطاحة بالسلطة، ولأنه لن تكون لأى حرب أهلية طويلة
الأمد نتيجة سوى أن تقرد البلاد إلى الدمار (لوموند دبلوماسيك - عدد يناير ١٩٩٤، مقال بيبير بوديه).



فما هو الخيار الذى كان ممكنا ومرغوبا من جانب الأقلية البيضاء والذى كان وراء مبادراتها ومغآجاتها التى لم تنقطع منذ سنوات؟

رأينا منذ قليل أن الدولة الواحدة ذات الأهمية الكاملة والسيادة الكاملة والتي يحكمها المقهورون على مر القرون كانت مرفوضة بطبيعة الحال من جانب الأقلية البيضاء. ولم يكن أمامها سوى أمرين: إصلاح يعطى شكل هذه الدولة مع تفريغها من أهليتها وسيادتها وسلطانها كدولة أو السعى إلى تقسيم البلاد. وهنا ينبغي أن نلاحظ أن السيطرة مع التقسيم والفصل كانت تمثل إطار سياسة الفصل العنصرى. أى أن هذا التقسيم الذى يحمى البيض داخل مساحاتهم الشاسعة وثرواتهم الواسعة وصناعاتهم المتقدمة، ويعزل السود داخل مساحاتهم وجيوبهم الضيقة ويؤسهم للتشديد، مع إدخال هذا التقسيم فى إطار دولة واحدة تضمن السيطرة للبيض، هو نقطة الانطلاق قبل التسوية الأخيرة.

ولا غربة فى أن أى حل قابل للنفاذ كان ينطلق من الحفاظ على هذا التقسيم المقدس. التقسيم بالتقسيم المباشر إلى دولة للبيض ودولة أو دول للسود والملونين والآسيويين، أو التقسيم من خلال الدولة الموحدة شكلا والمقسمة بحكم الأمر الواقع لحماية المناطق البيضاء من تجاوزات أية دولة كاملة الأهلية، ولحرمان المناطق السوداء والملونة والآسيوية من امتداد برامج التطوير الحقيقي إليها على أيدي أية دولة تملك الوسائل الضرورية لمثل هذا التطوير.

وبطبيعة الحال كان كلا الاتجاهين (اتجاه التقسيم المطلق واتجاه التقسيم مع السيطرة من خلال دولة مشلولة) قائمين داخل الأقلية البيضاء (بعض حلفائها). أما اتجاه الدولة المركزية الموحدة فكان بطبيعة الحال اتجاه المؤتمر الوطنى الأفريقى الذى تخلى عنه أمام معارضة الحزب الوطنى ومختلف القوى السياسية والاجتماعية المعنلة للأقلية البيضاء.

وقد طالبت اتجاهات بيضاء معينة متطرفة بأن تصل سلطات المقاطعات إلى حد تحديد الحكومة كذلك بمقاطعة مستقلة، «بوطن قومي»، للأفريكانز.

وكان شعار تحالف الحرية (الذى تشكل فى أكتوبر ١٩٩٣ كائتلاف يوحد جبهة شعب الأفريكانز والحزب المحافظ وحركة إنكثا وإدارات، بانتر ستانات كوازولو، وبوقواتسوانا، وميسكاى) هو شعار حق تقرير المصير غير القابل للتصرف لكل شعوب جنوب أفريقيا.

غير أن الحل الذى جاء به الدستور المؤقت الذى جرى إقراره فى ٢٢ ديسمبر ١٩٩٣ هو الذى حظى فى نهاية المطاف بموافقة القوتين الرئيسيتين: الحزب الوطنى (الابيض) والمؤتمر الوطنى الأفريقى ثم بموافقة أحزاب أخرى أبرزها إنكثا فيما بعد. وهذا الحل هو الذى يحقق فى الواقع مصالح الأقلية البيضاء، ويحيطها بكافة الضمانات من خلال «دويلات» مستقلة ذات سلطات واسعة تضمنها جمهورية كونفيدرالية فى حقيقتها لأنها كرئاسة وحكومة مجردة من السلطات والوسائل مع ضمان السيطرة لإحدى هذه «الدويلات» أى «دولة» البيض بحكم الأمر الواقع، أى بحكم سيطرتها على معظم مساحة البلاد وعلى ثروات واقتصاد البلاد ويحكم جيشها القوى الذى يلعب دور الجيش «الفيدرالى» فى حقيقة الأمر.

وحسب الدستور المؤقت (انظر مقال يبير بوديه حول كثير من المعلومات الخاصة بهذه النقطة) فإن «الأقاليم» التى سوف تسمى من الآن فصاعدا «مقاطعات» ستكون لها سلطات تنفيذية فى عدد كبير جدا من المجالات: الزراعة، التعليم الابتدائى والثانوى، الصحة، الإسكان، الحكومات المحلية والتنمية الحضرية، التجارة، الشرطة. كما ستكون لها سلطات واسعة فى المجال المالى.

التاريخ يتغير من جنوب أفريقيا

وقد جرى إضعاف السلطة التنفيذية وفقا للنظام المعقد الذى أعده خبراء الحزب الوطنى. ف رئيس الدولة سيكون إلى جانبه نائبان أحدهما يمثل أحزاب الأقلية (بشرط حصولها على ٢٠ ٪ على الأقل من الأصوات)، وستعمل الرئاسة «بالإجماع». وكما كان متوقعا فقد تم تشكيل حكومة وحدة وطنية ونتائج الانتخابات هي التي تفرص منح حقائب وزارية لكل حزب يحصل على ٥ ٪ من الأصوات. ومثل هذا الاقسام للسلطة قد يصيب الحكومة بالشلل.

وهكذا نجد أنفسنا إزاء مقاطعات ذات سلطات واسعة ودولة «كونفيدرالية» مشلولة بحكم واقع أن سلطات المقاطعات إنما تستمع على حسابها ويحكم قلة مواردها ويحكم عجزها عن اتخاذ أية إجراءات اقتصادية جذرية ويحكم أنها تتمثل فى رئاسة جمهورية يقيد النائبان ونظام الإجماع دورها وفى حكومة متعددة الأحزاب وبالتالي حكومة وحدة وطنية وبالتالي مهددة بالعجز عن اتخاذ قرارات. ومقابل هذه الدولة التي قد يصل نفوذها إلى أغلب مناطق أو مقاطعات السود والمولدين والآسيويين، لكنه لن يصل أبدا إلى مناطق البيض، والتي لا تتمثل سلطات مقاطعاتها غير البيضاء فى حقيقة الأمر إلا فى عجزها الحقيقى وحرمانها من الموارد وانطوائها على بؤسها الأزلئ، مقابل هذا نجد المنطقة البيضاء سليمة كما هى باقتصادها وجيشها لم تقم فى الواقع سوى بإلقاء عبء حكمها «للمناطق» وحماية أمنها من «المناطق» على كاهل قوى كانت هى ذاتها عبئا على أمنها وبالأخص المؤتمر الوطنى الأفريقى وفى مقابل هذا التنازل عن العبء ضمنت لنفسها ليس فقط استقلال وحماية مصالحها بل كذلك سيطرتها على الدولة الجديدة بحكم القوة الاقتصادية والعسكرية المتفوقة بلا منازع ويحكم القيود الدستورية والواقعية على هذه الدولة الجديدة، كما ضمنت التعاون للواسع النطاق مع عالم إنما كان يعارض سياسة معزلة، وسيكتفى أنه جرى الآن إلغاؤها.

هل هناك مستقبل آخر؟

لقد وصل الهولنديون إلى جنوب أفريقيا فى ١٦٥٢ وأعادوا تسمية رأس العواصف (كما سماه قبلهم بزمين طويل أوروبيون آخرون) برأس الرجاء الصالح. وحتى منذ ١٦٦٠ (أى بعد وصولهم إلى هناك بنمائية أعوام) نجدهم يصدرين فرمانات مثل منع دخول غير الأوروبيين إلى منطقة رأس الرجاء الصالح إلا بغرض للتجارة (وسوف تتوالى للفرمانات والقوانين والديكتاتير التي تكريس التمييز العنصرى والفصل العنصرى إلى أن يصبح الأبارتهد سياسة وأيديولوجية رسمية للدولة منذ ١٩٤٨)، ونجدهم يتفوقون بسهولة على الهولنديين والبوشمان الذين سيخفون من جنوب أفريقيا تماما، ونجدهم يتوسعون شمالا منذ سبعينيات القرن الثامن عشر وهناك يلقون شمالي وشرقي نهر «جريت فيش ريفر» بالبانانتو (السكان الأصليين) وتندلع الحروب بين البوير (الهولنديين والذين سيكون اسمهم فيما بعد الأفريكانز) والبانانتو طوال مائة سنة وهى أشبه ما تكون بالحرب بين المستوطنين البيض والهنود الحمر فى أمريكا. ولكنهم لا ينجحون نجاح غزاة العالم الجديد فى الإبادة الكاملة أو شبه الكاملة للبانانتو.

وهكذا يكون لدينا الهولنديون (البوير - الأفريكانز) وسيأتى من أوروبا مستوطنون آخرون من موظفى الإدارة الاستعمارية البريطانية لجنوب أفريقيا، ولدينا البانانتو الذين وصل إليهم الهولنديون (أخيرا) فى أواخر القرن ١٨) واخفى السكان الأصليون الآخرون (الهوتونفوتو والبوشمان) بومن هؤلاء وأولئك، من الآباء البيض والأمهات المحليات، ستنشأ ذرية من الملونين، وسيأتى للتجار والصناع الآسيويين أو الهنود لمستوطن البلاد جماعة ثقافية أخرى أيضا.

وفى خطوط تقاطع كل مع هذا التنوع العرقى والثقافى، ومع الانقسامات الاجتماعية والطبقية، نشأ انتشار على الأرض الواحدة وفى البلد الواحد بين عالم رأسمالى متقدم لكن أبيض أيضا وعالم ثالث أو رابع لكن غير أبيض (أسود أو ملون أو آسيوى)؛ وكما استحال تأخى الجماعات العرقية والثقافية المتباينة بفضل أنانية الرجل الأبيض، استحال اندماجها



فى اقتصاد واحد بفصل احتكار الرجل الأبيض لإنجازاته الاقتصادية لجعلها سلاحا للسيطرة والاستغلال وليس سلاحا للحياة الكريمة المشتركة التى تتأخى فيها الشعوب وتطور. وهكذا يبدو الأبيض والأسود، الشرق والغرب، الشمال والجنوب، الرأسمالية وما قبل الرأسمالية، العالم الرأسمالى المتقدم والعالم الثالث المتخلف، يقفان ليس عبر إقارات والمحيطات، ليس فى مشارق الأرض ومغاربها، بل على أرض واحدة، على أقل من مليون وربع مليون كيلومتر مربع، على مساحة لا تزيد كثيرا عن مساحة مصر، وإن كانت من أغنى بقاع الأرض، هكذا يبدوان يقفان متباعدين وكأن كل شىء يدفعهما إلى هذا التباعد، بعيدا عن كل حل إنسانى، ويعيدا عن كل تناقض صحى.

وهذا المشهد، العنيد عبر القرون، ينطق بحقيقة أن التنافر كامن فى النظام الرأسمالى وفى أبنائه وفى كافة شروبه. والآن... ونحن على أعتاب القرن الحادى والعشرين، القادم فى أزمنة رديئة، حدث شرخ فى الجدار يمثل فى هذا الانتصار المحدد ضد الفصل العنصرى لكنه لا يمس النظام الرأسمالى من قريب أو بعيد. فهل هناك مستقبل آخر تتأخى فيه هذه الشعوب عبر نضال مشترك، سياسى وإنسانى وثقافى ضد كل ما قهر هذه الشعوب بما فى ذلك الشعب الأبيض ذاته؟

هل هناك مستقبل آخر تعيش فيه شعوب جنوب أفريقيا ليس فقط بدون الفصل العنصرى كعقيدة وليس فقط بدون الفصل العنصرى كحماية من الفرق فى مستنقع العالم الثالث أو من انتقامه وبالتالي كضرورة للسيطرة عليه، بل كشعوب تهنأ جميعا بالحرية والرفاهية باعتبارهما حقا لكل شعب ولكل إنسان وللبشر جميعا؟

الحقيقة أن كل ذلك يمثل قضايا مستقبل طويل من المعاناة والنضال. لما الآن فإننا نشهد على الأقل شيئا بسيطا جدا لكن بالغ الأهمية رغم كل شىء: إنه هذا الاعتراف الرسمى من جانب الشعب الأبيض بأن هؤلاء السود الذين اضطهدوهم وحاربوهم وأبادوهم وعزلوهم وفصلوهم واستطوهم فى كافة الأحوال بشر متلهم ومن حقهم أن يتمتعوا مثلهم بحقوق دستورية وانتخابية متساوية، ورغم أن الاعتراف الرسمى لا يعنى بهذا الواقع الفعلى فلا مفر بأن نعرف بدورنا بأن هذا الانتصار على الفصل العنصرى، أن هذا الاعتراف ببطلته، أن هذا الاعتراف بالمساواة بين هذه الجماعات الثقافية والإثنية المتباينة سيكون أو يمكن حقا أن يكون بداية وعى جديد ومسير جديد لدى البيض ولدى السود على حد سواء.

وسيجد القارئ هنا وعلى الترتيب هذه المواد المترجمة:

مقال لورنس هاريس عن تأمين الفصل العنصرى للسلطة الاقتصادية فى جنوب أفريقيا، ومقال كريستين عبد الكريم ديلان عن المهمة الضخمة التى تنتظر السلطة الجديدة والتى تتمثل فى متطلبات الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى فى المناطق غير البيضاء (وهذان المقالان مترجمان عن «لوموند ديبولماتيك»، عدد أبريل ١٩٩٤)، ومقال أليكس كاليديكوس عن خلفيات التبدل فى موقف الحزب الحاكم فى جنوب أفريقيا، ومقال تشارلى كيمبر عن خلفيات قبول المؤتمر الوطنى الأفريقى لمثل هذه التسمية (وهذان المقالان مترجمان عن المجلة البريطانية «سوشاليسمت ريفيو» للشهرية البريطانية عدد أبريل ١٩٩٤).

خ. ك



جنوب إفريقيا - الفجر الجديد
رسم بالكمبيوتر للفنان / سامي بشيت



تأمين الفصل العنصري

تحيت
ضغوط متعددة، أكثر زعماء

الوطني الأفريقي من التنازلات ذات الطابع
السياسي بحيث إن سلطة الأغلبية
المسوداء ستكون بالثقة الضعيفة.
والأدهى من ذلك أن كل شيء قد تم ترتيبه
مسيقاً فيما يتعلق بالملطة الاقتصادية
لقد تم تأمين إقامة الصواجز وأغلاق الأبواب
دون الوسائل المالية اللازمة للإمساك
بزماء الأمور - الأمر الذي يعرقل بشدة
مشروعات إعادة البناء التي أعدها المؤتمر
الوطني الأفريقي. والحقيقة أن الأبارتهيد
الاقتصادي لن يختفي قريباً.



التاريخ يتغير من جنوب أفريقيا



دوريات إحصاء

السلطة الاقتصادية في جنوب أفريقيا

وشأنه في ذلك شأن كل حركات التحرر، ارتبطت شرعية المؤتمر الوطني الأفريقي باقتناعه الراسخ بأن السلطة السياسية سوف تؤمن له السيطرة على الاقتصاد وتسمح له بالنهالي بتحسين الوضع المادي للشعب. ولم يشغل تحويل الهيكل الاقتصادي سوى مكان ثانوي بين مطالبه الأخلاقية والسياسية: كان طريق التحرر يمر عبر حق الانتخاب وعبر إلغاء الأشكال القانونية للتمييز العنصري. على أنه ما دام الأبارتهد قد ظل يمثل نظاما اقتصاديا تمثله لغير ذلك على الأقل فقد استندت شرعية المؤتمر الوطني الأفريقي كذلك جزئيا إلى الإمكانية المستقبلية لامتلاكه للسلطة الاقتصادية.

وكان يبدو من جهة أخرى أن تقاليد جنوب أفريقيا تبرر مثل هذا التحليل. والواقع أن نظام الأبارتهد، بعكس الصورة التي أعطاها لنفسه باعتباره نظام المشروع الحر والسوق، أقام اقتصادا خاصا لعبت فيه الدولة دورا مهيمنًا. وحتى بداية الثمانينيات، كانت القطاعات الرئيسية للصناعة ملكية للدولة، وكانت

لورنس هاريس

أساذ الاقتصاد بكلية الدراسات للشرقية والأفريقية بجامعة لندن.

في الفترة من ٢٦ إلى ٢٨ أبريل ١٩٩٤، سيقوم ملايين السود بالتصويت في الانتخابات للمرة الأولى في جنوب أفريقيا. وأخيرا ستكون للبلاد حكومة يختارها بحرية مواطنون إن يعودوا سودًا، أو بيضًا، أو ملونين، بل سيكونون ناخبين متساوين في الحقوق. وسيصبح السيد نلسون مانديلا رئيسًا للجمهورية؛ كما أن أغلب أعضاء البرلمان وأعضاء الحكومة سيكونون منتسبين إلى المؤتمر الوطني الأفريقي. وسيكون على الأقلية البيضاء أن تخلى عن سلطة مورست بوحشية وبلا شريك.

غير أن الأمور لن تكون بهذا البساطة. وعندما يظهر السيد نلسون مانديلا ووزرائه المنتسبون إلى المؤتمر الوطني الأفريقي على المسرح العالمي بوصفهم الممسكين بالسلطة السياسية فإنهم لن يمارسوا أية سلطة تقريبًا في مجال الاقتصاد ولن يكون بمستطاعهم تقريبًا أن يغيروا أوضاع حياة شعبهم. وفي هذا المجال، على الأقل، ستواصل النخبة البيضاء حكم البلاد.

المشروعات والأسواق منظمة بأدق تفاصيلها، بينما كانت الصناعات الرئيسية المرتبطة بالقطاعات المنجمية والطاقة تحت حماية الدولة، وحتى إذا كان المؤتمر الوطني الأفريقي لم يرق في المدى بإعداد استراتيجية اقتصادية فقد كان يوسع في هذه الحالة أن يأمل في أنه سيكون الاستيلاء على السلطة ليحقق السيطرة على الجهاز الاقتصادي. غير أن نهاية نظام ووصول قوى سياسية جديدة إلى الحكم لا يشكلان أبداً انتقالاً بسيطاً للسلطة. ففي جنوب أفريقيا كما في كل مكان آخر اقتضى ذلك تحويلاً لشكل الحكم استلزم أربع سنوات من المفاوضات الدستورية المعقدة. والواقع أن النظام الاقتصادي وكذلك السلطة التي تنبع منه قد تبدلا إلى حد أن مسئولى المؤتمر الوطني الأفريقى سوف يكتشفون، في اللحظة التي يجلسون فيها خلف مكاتبهم في بريتوريا، أن مفاتيح الاقتصاد إنما توجد في مكان آخر.

تلك معصلة استراتيجية وقائية أرادها النظام القديم، حتى إذا كان للطرف الخارجية دور فيها. والحقبة أن البيض ذرى الامتيازات في جنوب أفريقيا، بقيادة نخبتهم السياسية والاقتصادية، فعلوا كل ما هو ضرورى لئلا تكون السيطرة على الثروات وعلى السياسة الاقتصادية في أيدي الدولة ولجعلها في مآمن من كل إشراف سياسى.

شَلْ الحكومة المقبلة

هروب الراسمالي هو الوسيلة الأكثر مباشرة لتفادى خطر التأميم أو خطر فرض الضرائب ورغم واقع أن البنك المركزى لجنوب أفريقيا يتمتع بنظام فعال للغاية لرعاية النقد فقد تضاعفت التحويلات المالية إلى الخارج منذ عدة سنوات. وهناك تقديرات بأن صادرات الراسمالي بلغت ٥٠ مليار دولار بين

١٩٧٠ و١٩٨٨، وحسب معلومات كشف عنها البنك المركزى فإن هجرة الراسمالي تتسارع. وفيما يتعلق بالشركات الضخمة التي تقع مقارها في جنوب أفريقيا فإنه لا يكفينا استثمار راسماليها في الخارج. ولكي تحمي نفسها من القرارات الاقتصادية التي قد تتخذها الحكومة الجديدة للتي ستتمخض عنها الانتخابات فقد كان من الضروري أيضا أن تصبح هذه الشركات ملكا لشركات أجنبية. كذلك فإن الشركات عبر القومية لجنوب أفريقيا، مثل أنجلو أميركان أو مبرلانت، نجحت خلال السنوات الأخيرة في تأسيس شركات في أوروبا مكونة مالكة لكافة أسهمها خارج جنوب أفريقيا.

وفيما كان رأس المال الغاصب يقوم بإعادة توليد نفسه، فامت الحكومة البيضاء (التي ظلت، حتى تأسيس المجلس التنفيذي للانتقال في نهاية ١٩٩٣ السيطرة على السلطة بلا منازع) بإعادة هيكلة الدولة بحيث يجرى الحد من قدرة الحكومة القادمة على التأثير على الأنشطة الاقتصادية وفي دولة جنوب أفريقيا، كان النمو الاقتصادى مرتبطا إلى حد كبير بالاستثمارات الحكومية الضخمة في المشروعات الرئيسية للقطاع العام، مثل إسكون (إنتاج الكهرباء) أو ساسول (المنتجات الكيماوية، بوجه خاص). وفي الآونة الأخيرة، انطلقت الحكومة البيضاء في تطبيق برنامج للخصخصة يستهدف وضع هذه المشروعات في مآمن من السيطرة المباشرة للحكومة الديمقراطية الجديدة. وبذلك انخفض القسم الذى تسيطر عليه الدولة من الاقتصاد انخفاضاً كبيراً. فى الوقت ذاته، تم تحويل المؤسسات العامة إلى وكالات، الأمر الذى منحها المزيد من الاستقلال. وأخيراً، وليس بلا صلاقة، منح الموظفون دور الأصل الأوروبى لأنفسهم مزايا

خاصة، حيث سيكون بوسعهم الحصول على معاشهم بمعدل أفضل مع مواصلة العمل فى الوقت ذاته. وسيؤيد هذا للتدريب إلى زيادة أمن ومداخيل الموظفين، وإلى ترك أزمة في صناديق المعاشات للحكومة المقبلة.

وقرب نهاية السنة الماضية وفيما كانت المفاوضات الدستورية تتجه إلى إصابة الهدف، ظهر عنصر جديد في استراتيجية النظام في سبيل الاحتفاظ بالسلطة الاقتصادية: إضفاء المركزية المؤسسية على استقلال البنك المركزى. ومستملة اتجاهها عالمياً، أعلنت الحكومة الجديدة أن السياسة النقدية مسألة أخطر من أن يجرى تركها للمسؤولين السياسيين؛ وسيكون من المفعل بالتالى أن يعهد بالسياسة النقدية دستورياً إلى بنك مركزى يتألف من محافظين غير منتخبين. وفي جنوب أفريقيا، يرتدى هذا التفسير دلالة خاصة: كان البنك المركزى ولا يزال معقلاً محافظاً، ألد سرية من المعامل الأخرى وكذلك أقل انفتاحاً على الحقائق السياسية الجديدة(١). وحالما تؤثر معدلات الفائدة وتعدلات سعر الصرف والتسهيلات الائتمانية تأثيراً مباشراً في الاقتصاد يجعله فإن استقلال السياسة النقدية سيهدد إلى حد كبير بإضعاف وسائل التأثير الاقتصادى للحكومة القادمة. وقد أثارت هذه المشكلة، من جهة أخرى، مناقشات داخل المؤتمر الوطنى الأفريقى وفيما بين مستشاريه الاقتصاديين قبل التوصل إلى تسوية مؤقتة فى سبيل إحراز تقدم فى المفاوضات الدستورية.

والحقيقة أن هذا الإضعاف للسيادة الديمقراطية لا تنفرد به جنوب أفريقيا؛ العديد من بلدان العالم الثالث تختل من مسؤولياتها الاقتصادية من خلال اتفاقات يتم التفاوض عليها سراً مع صندوق النقد الدولى والبنك الدولى. ويهدف تجريد

أيدى الحكومة المقبلة، سارت دوائر الأعمال في جنوب أفريقيا في نفس الطريق. غير أنه على العكس من أغلب عملاء صندوق النقد الدولي فإن جنوب أفريقيا ليست بلداً من بلدان العالم الثالث وضعه حال هائل في ميزان مفكراته في وضع مديوس منه. على العكس تماماً: منذ أزمة الديون في ١٩٨٥ وتأجيل الدفع (الموراتوريوم) الذي أعقبها، استطاعت جنوب أفريقيا أن تسدد قروضها بفضل فوائض ميزان مدفوعاتها بالذات وهي ليست مدينة إلا بمستوى من أضعف مستويات المديونية لكافة البلدان ذات الأوزان المشابهة. وهكذا إذن فبافتراض أن مشاريع إعادة البناء لدى الحكومة الجديدة تستلعب عجوزات كبيرة في الحساب الجاري (وهذا غير متوقع)، سيكون من الممكن تماماً تمويل هذه العجوزات بمساعدة الأسواق المالية الدولية دون أن تكون هناك أية حاجة إلى اللجوء إلى قروض صندوق النقد الدولي وفقاً للمعايير المعتادة. ورغم ذلك فإن المسؤولين الاقتصاديين والسياسيين قد تصرفوا بحيث يحكم منح قرض جديد على القادة المقبلين للبلاد بالخنسوع لإشراف صندوق النقد الدولي. وهكذا جرى التفاوض في ١٩٩٣ على الإقراض على سبيل تسهيل التمويل التعويضي.

ومن المفارقات أن النخبة القديمة في الوقت نفسه الذي كانت تناور بهدف الاحتفاظ بالسيطرة على مفاتيح الاقتصاد فقدت كل مبرر للخوف على ثروتها: الواقع أن المؤتمر الوطني الأفريقي لا يملك أي برنامج جذري يستهدف تحويل الاقتصاد، أو مراقبة الشركات الخاصة، أو إعادة توزيع الثروة. ورغم أنه عمل في إطار تصالف وثيق مع الحزب الشيوعي في جنوب أفريقيا واتخاذ القرارات المالية لجنوب أفريقيا فإن برامجه لم تنس، إلى الآن، إلى أقل معاناة لعالم الأعمال.

ولم يكن هذا ملحوظاً في بداية الأمر. وحتى إطلاق سراح السيد تليسون مانديلا، في فبراير ١٩٩٠، كان سكان ضواحي بريتوريا، وجوهانسبورج، والمدن الإقليمية، يرون فيه رأس رمح الشيوعيين، والعنصر المحرك الذي انطلق من الكفاح في سبيل الحقوق السياسية ليشعل ثورة اجتماعية. وكانت الحكومات الغربية تشاطرهم هذا الرأي: هكذا شنت مسز مارجريت ثاتشر هجوم حفاوة إزاء بوتليزى زعيم الزولو حتى عندما كانت تعامل المؤتمر الوطني الأفريقي بازدراء.

ولكن المؤتمر الوطني الأفريقي لم يكن لديه في الواقع، خلال سنوات الملقى، أية استراتجية اقتصادية، بل كان يوسع المرء أن يتصالح ما إذا كان قادته لم يفعلوا كل ما كان بمستطاعهم في سبيل منع أن تمضي الأمور على نحو مختلف. وكان ما يقوم مقام البرنامج لديه هو ميثاق الحرية وهو نص أساسي تم إعداده في ١٩٥٥ أثناء ذلك التجمع الديمقراطي الكبير والفريد والذي تمثل في مؤتمر الشعب. وفي هذا الميثاق، وإلى جانب إعلانات المبادئ المؤيدة لحقوق الإنسان، كسانت هناك سلسلة من التوجهات الكبرى ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي.

وعندما تم إطلاق سراح السيد تليسون مانديلا، كان أغلب أعضاء المؤتمر الوطني الأفريقي يعتقدون بالتالي. وكان هذا ما يخشاه القادة البيض - أن عدداً من الخطط كالتأميم، وتعزيز نظم الرقابة، وإعادة توزيع الأراضي، سرعان ما ستوضع موضع التطبيق، وفقاً للمبادئ التي أعلنها ميثاق الحرية: «الثروة القومية لبلاندا (...) سيتم ردها إلى الشعب؛ الثروات الطبيعية، والبترول، والصناعات، ذات المركز الاحتكاري ستصبح ملكاً للشعب بأسره؛ كافة التجارات والصناعات

الأخرى ستوضع تحت الرقابة (...) وستوزع كافة الأراضي على أولئك الذين يخلوونها تفادياً لأخطار المجاعة والجوع إلى الأرض».

أساس أيديولوجي جيد الإعداد

ومنذ انخسرت المؤتمر الوطني الأفريقي في المفاوضات مع السلطة البيضاء، منذ أربع سنوات، فإنه لم يجعل هذه الأهداف (الواردة في ميثاق الحرية) من عناصر التفاوض على الإطلاق. وينتهي مسلوله لقيادة بلاد مستمر فيها الأمور كما كانت من قبل. وأمام هذا التغيير المفاجئ للاتجاه يمكن لرد فعل ذي طابع يساري أن يتحدث عن «الخيانة، أو الاستسلام». غير أنه في هذه الحالة الخاصة لا معنى لهذه الاتهامات ما دامت تضع الأليات التي سوف يتشكل من خلالها مستقبل جنوب أفريقيا أمام ورطة لا مخرج منها، لأن منظور تحويل جوهرى للنظام الاقتصادي والاجتماعي لم يجر إسقاطه سهواً: لقد جرى إقحام هذا المنظور بصورة منهجية طوال جدل محترم وسلطة تأثيرات مدروسة بقدر ما هي فعلية، وقد جرى كلا الأمرين على هامش المفاوضات الرسمية.

وفي ١٩٩٠، عندما صار من الجلي أن المؤتمر الوطني الأفريقي (الشعري) منذ ذلك الحين) سيحيل إلى السلطة، استولى على الشركات الضخمة التي تسيطر على جنوب أفريقيا الشعور بأن هناك خطرين سيهددان رفاهية البلاد: من جهة، التأميم؛ ومن جهة أخرى، الأمل المتفجر في إجراء تحسين لدخول السود. ولمنع هذين الخطرين جرى شن معركة أفكار، مسئلة جزئياً من مثال الجمعيات (الشركات المتعددة النشاطات)

الأجلو أمريكية التي أرادت، عبر آليات المساهمة والمشاركة، إثبات أن الرأسمالية ليست كما يدعى اليسار. وظهرت «سيديابوهات» مستقبليّة تستند إلى مخططات اقتصادية ويجري تقديمها في شكل سهل الإدراك للغاية لتصبّ في استنتاج فولاذي: سيكون تحقيق زيادة في الإنتاج الشرط المسبق لكل تحسين لمستوى معيشة السود، وإن يكون بالإمكان زيادة النفقات العامة، وبوجه عام سيكون المستقبل رهنا باطمئنان دوائر الأعمال. ومن ثم جرى نشر هذه السيناريوهات بين مسؤولي المؤتمر الوطني الأفريقي، والنقابات، وقادة الرأي. وقام مدير المشروعات للجنوب - أفريقية والأجنبية بتنظيم كسافة الاجتماعات والمؤتمرات اللازمة في سبيل تحقيق أوجه إدراك للأخطار التي ستشكلها التأميمات على اطمئنان المستثمرين.

وانتشرت في بيئة خصبة تلك الأطروحة التي زعمت أن جنوب أفريقيا أفقر من أن ترفع مستوى معيشة السود وأنه لا ينبغي عمل أي شيء يمكن أن يثير مخاوف دوائر الأعمال. وعلى أي حال فقد كان المؤتمر الوطني الأفريقي حركة تمرر وطني متعددة الديارات، ولم تزعم ذات يوم أنها ملتزمة بالمبادئ الاشتراكية. حتى الحزب الشيوعي، الثوري الفذول للغاية داخله، بدأ محاذرا بخطاب أرياب العمل: في مارس 1991، أكد لنا أحد قادته فضلا عن ذلك أن المسؤولية الرئيسية لحزبه ستكون احتواء أمانى العمال؛ وأعلن آخر، أثناء اجتماع لاقتصادي الحزب، أن التأميم لن يكون في جدول الأعمال (حتى إذا ظل احتمال حدوثه متوقعا من جانب النصوص الاقتصادية للمؤتمر الوطني الأفريقي).

والجالب أنه بدأ أن الوضع الدولي يؤكد حجج دوائر الأعمال. فقد بدأ أن

انهيار النموذج السوفيتي - الذي كان يرجع إليه القادة الشيوعيون لإيضاح الصورة التي سيكون عليها اقتصاد جنوب أفريقيا - إنما يبرهن على تفوق المشروع الخاص. كما أن أزمة الاشتراكية الديمقراطية في السويدي والبنمارك تصنف مركز العناصر غير الشيوعية في المؤتمر الوطني الأفريقي والتي توقعت أنه سيكون من الممكن، بغضنل دولة رفاهية قوية، تحسين مستوى معيشة السكان.

ومجربا على هذا النحو من استراتيجية اقتصادية حقيقية (مثل أغلب حركات التحرر الوطني)، دخل المؤتمر الوطني الأفريقي في بداية التسعينيات في سلسلة من المباحثات الاقتصادية التي انتهت إلى تقارب هائل في وجهات نظر مجموع المسؤولين السياسيين. واليوم يوافق الجميع على أن الأولوية للنمو الاقتصادي، وأنه يحتاج إلى مشروعات تصديرية تنافسية، وأن إصلاح السكن، والصحة، والتعليم، يتوقف بدوره على تنمية الإنتاج. أما السائلان الأكثر تعقيدا، وهما مسألة التأميم ومسألة إعادة التوزيع الواسعة النطاق للأراضي، فلا مكان لهما تقريبا في وثائق المؤتمر الوطني الأفريقي. ونحن لا نجد فيها كذلك مشروع إنشاء وزارة أو هيئة مسؤولة عن تخطيط الاقتصاد. وحسب إعلاناته في ديسمبر 1993، ليس لدى المؤتمر الوطني الأفريقي نية لإعادة هيكلة الصمحات المتعلقة التي تسيطر على الاقتصاد، ولا لفرض شروط التنافس عليها.

وقرب نهاية العام الماضي، صمّبت المشاريع المرتبطة بالمؤتمر الوطني الأفريقي واتحاد النقابات العمالية بجنوب أفريقيا في ثلاثة أنماط من البرامج. برنامج الاستراتيجية الصناعية وهو عبارة عن دراسة قطاعية للسياسات التي من شأنها أن تساعد على النمو.

(مشروع) مباشرة العمل الديمقراطي والذي سيكون بمثابة إطار للسياسة الاقتصادية الكلية، وهو عبارة عن دراسة معدة بناء على طلب مجموعة البحث الاقتصادي الكلي. وأخيرا مشروع لبرنامج إعادة البناء. والحقيقة أن الاستقبال الإيجابي الذي أعدهت الصحافة الليبرالية الجديدة باللغة الإنجليزية لهذه المشاريع الثلاثة يرمز بكل جلاء إلى مدى الاتفاق القائم بين المؤتمر الوطني الأفريقي وحلفائه، من جهة، ودوائر الأعمال، من جهة أخرى.

أما كتّاب الافتتاحيات الذين حيرهم مدى مسألة المائدة التي يجب عليها على البرنامج الذي قدم لهم فقد كان عليهم أن يلجأوا إلى أحد العناصر المقدسة من جانب مجموعة البحث الاقتصادي الكلي، وهو ذلك الخاص برفض استقلال البنك المركزي، وكان الفكرة ببنين وفا لها أن يصبح هذا الأخير ملكا عاما وخاصعا لإشراف الدولة لا تتفق مع ممارسة مأسوفة في عدد من البلدان الغربية.

مجادلات داخل

الحزب الشيوعي

رغم تقارب وجهات النظر بين المسؤولين السياسيين، تواصل دوائر الأعمال ارتباطها إزاء أولئك الذين هم، في نظرها، ساسة. فضلا عن ذلك، بعدما بعد المؤتمر الوطني الأفريقي والمنظمات الأخرى للحالف ضد الأبارتهيد تكريات ديناميكية، من وجهات نظر بالغة التنوع، يغدو الخط السياسي لمسؤولي المؤتمر الوطني الأفريقي عرضة لإعادة النظر. والحقيقة أن اتحاد نقابات عمال جنوب أفريقيا وبعض المنظمات الأخرى الستمية إليه قد طالبت باستراتيجية ذات طابع اشتراكي، بل طالبت، في بعض الحالات، بتأميم الصناعات الرئيسية.

وينص بيان الحزب الشيوعي (٧) أمام ميول المنتمين إليه مانحا دورا للملكية الجماعية وللرقابة الديمقراطية للصناعة أكثر مما تفعل قيادة ذاتها. وحتى داخل المؤتمر الوطني الأفريقي ذاته فإن المشاريع التي أعدها مسؤولو إدارة الاقتصاد والتخطيط جرى تعديلها في اتجاه أكثر جذرية من جانب المندوبين المنتخبين (٨).

وفي سياق هذه الأوضاع، ارتأت دوائر الأعمال أنه سيكون أكثر فائدة القيام بتفريغ الدولة من محتوياتها الجوهري. فالإتفاق الدستوري سيتكفل بأن يغدو المؤتمر الوطني الأفريقي مكتوف اليدين: ستمسك الحكومة إلى أساس من اقتسام السلطة وإن يكون بالإمكان تبديلها قبل خمس سنوات. وفصلا عن ذلك، يكاد يكون من المؤكد أن مسئولين يبعثوا عن الاقتصاد اصطعدوا لأنفسهم، منذ حوالي عقد من الزمان، صورة للتقوُّرط، سيحتفظون بمركز

نفوذ: هناك، على سبيل المثال، السيد ديريك كيز، الذي أصبح وزيراً للمالية بعد فترة من النشاط في مجال الأعمال، والذي سيحتفظ على الأرجح بمكتبه. أو أيضاً السيد كريس ستالز، محافظ البنك المركزي لجنوب أفريقيا، الذي استطاع توطيد علاقات جنوب أفريقيا مع البنوك العالمية رغم العقوبات الدولية، والذي سيقضى الأمر بقاءه بدوره في منصبه.

وفي نهاية شهر أبريل الجاري، سيمسطر شعور بالاحتجاج عندما تنتقل السلطة بين أيدي شعب جنوب أفريقيا وأيدي حكامه. غير أنه في الوقت الذي سيصاعد سود هذه البلاد عما إذا كانوا قد وروثوا السلطة الحقيقية فإن دوائر الأعمال في كل مكان في العالم سوف يتفهمون الصعاء ■

إشارات

١ - إلى ذلك المين، لم يكن للبنك المركزي مستقلاً بنسب الدستور لكنه لعب دوراً هجيباً.

كان هذا البنك هو المؤسسة الوحيدة تقريباً من هذا النوع في العالم لأنه كان عبارة عن شركة يتم تسعير أسهمها، المملوكة للقطاع الخاص، في البورصة ويتم تعيين أعضاء مجلس إدارتها، وكذلك محافظها، بقرار من رئيس الدولة. على أن حريته في المناورة كانت تتوقف، بوجه عام، على علاقات القوى بين المحافظين والوزراء.

Building Worker's Power for Democratic Change, Umsebenzi Publications, Johannesburg, Janvie 1992.

٣. قارن، بهذا الشأن، مع الفصل المخصص للسياسة الاقتصادية في وثيقة:

"Ready to Govern: ANC Policy Guidelines for a Democratic South Africa"

وهي الوثيقة التي أقرها المؤتمر العام للمؤتمر الوطني الأفريقي المنعقد في الفترة من ٢٨ إلى ٣١ مايو ١٩٩٢، والبرنامج المطروح للمناقشة وكان قد نشر في ٢٧ أبريل ١٩٩٢.



مهمة ضخمة في انتظار



التاريخ يتغير من جنوب أفريقيا

إعادة البناء الوطنية

كريستن عبد الكريم ديبلان

صحفية تعمل في باريس

البشرية، وبناء الاقتصاد، ومقرطة الدولة والمجتمع، وتطبيق البرنامج (١).

ويشرح السيد جاي نايدو، رئيس اتحاد نقابات عمال جنوب أفريقيا وعضو قيادة المؤتمر الوطني الأفريقي، الأمر قائلا: «يتمثل أحد أهم الأهداف في أن نضمن لغالبية الناس الذين جرى استبعادهم من الحياة الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، لهذه البلاد إدخالهم الآن فيها بطريقة تتمد حاجاتهم». وكلمات أخرى فإن المطلوب هو القضاء على انشطار البلاد إلى قسمين، من خلال حلول سريعة بخصوص الإسكان، والصحة، والتوظيف، والأبنية التحتية الصحية، والتربية. ويمثل الأفريقيون ٩٥٪ من أصل ١٨ مليون نسمة يعيشون تحت خط الفقر، ٦٠٪ منهم في حالة فقر مطلق. ويبقى ما بين ٨ و٩ ملايين من الأشخاص على قيد الحياة بفضل الإعانة الاجتماعية. وفي حين يمثل السود ٦٤٪ من السكان العاملين فإنهم لا يشغلون إلا

ق يصل عدد سكان جنوب أفريقيا إلى ٣٧٧ مليون نسمة (وسيصبحون ٤٧ مليوناً في سنة ٢٠٠٠)، منهم ٧٥٪ من السود، ١٣٪ من البيض، و٩٪ من الملونين، و٣٪ من الهنود. وبأغليبيتهم الساحقة، يشكل السود، داخل هذه البلاد،، عاصمة ثالثاً، بالغ النخلف (لا يتلقون سوى ٢٧٪ من الدخل القومي)، وقتياً (٤٦٪ منهم تقل أعمارهم عن تسعة عشر عاماً)، ونافذ الصبر، بعد سنوات من النضال ومن الحرمان من كافة الحقوق الأساسية. وخلال السنوات الخمس التي سيكون على الجمعية التأسيسية المنبثقة عن صناديق الاقتراع في ٢٧ أبريل أن تحول فيها الدستور المؤقت الراهن إلى الدستور الدائم، سيتعلق الأمر بالنسبة للمؤتمر الوطني الأفريقي وحلفائه للحزب الشيعي واتحاد نقابات عمال جنوب أفريقيا والحركة المدنية بأفضل تحقيق لبرنامج إعادة البناء والتنمية الوطنية المتعمورة حول خمسة أهداف رئيسية: إشباع الحاجات الأساسية، وتنمية الموارد

١٥٪ من الوظائف المهنية، أو شبه المهنية، أو التقنية.

ومن المتوقع تطبيق سياسة تقتضي منح الأولوية لتوظيف السود، غير أن هذه السياسة ستصدم في الحال بالمستوى الهزيل للتدريب، وحتى بالأمية (٤٨٪ للأفارقة مقابل ١٪ للبيض) وستستلزم تطبيق برامج ضخمة للتدريب وكذلك تحويلًا جذريًا للتعليم. كما سيكون على هذا البرنامج للتوظيف أن يأخذ في اعتباره حاجات النساء، أولئك صاحبات الأبارتهيد، والشباب، وأن يتم إدراجها في إطار مترابط للتنمية الشاملة.

ستون ألف مالك عقارى يكترون ٨٧٪ من الأراضي

ومشكلة الإسكان حاسمة كذلك. والواقع أن المدن السوداء الكبرى من كرويسورد إلى كيبستون، من سويتو والإسكندرية إلى جوهانسبورج، إذا اكتفينا بذلك الأوسع شهرة، وخاصة المناطق الواجهة لملاك الأراضي بوضع اليد حيث تصطف أكواخ الصفيح على امتداد كيلومترات، كما هو الحال في خاويلشا في الكاب أو أومبابا إيتاندا. كرينجو في ديربان، الواقع أن هذه المدن والمناطق تعطي فكرة عن العمل المتخلف الذي ينبغي القيام به. وسكون من اللازم بناء مليونين من الوحدات السكنية في غضون خمس سنوات. وينبغي أن تنضيف إلى ذلك التهيئة اللازمة لملايين المساكن في المدن السوداء وكذلك الأبنية الخشبية الصحية.

وفقاً لتقرير إبنك تنمية جنوب أفريقيا، والذي تعتبر تقديراته أقل من الحقيقية، لا يستفيد ٤٠٪ من ٢٢ مليوناً يشكلون سكان المدن إلا من الحد الأدنى من أنابيب المياه والصرف الصحي، وهو «حد أدنى» لا يتوفر في مناطق المساكن غير الرسمية. وأخيراً، في المناطق

الريفية حيث يعيش الآن ١٦ مليون نسمة، هناك ١٤٪ فقط في متناولهم «مراحيض مصنعة»، و٥٣٪ في متناولهم مياه صالحة للشرب. وفيما يتنق بالكهرياء، لا يزال ٦٥٪ من سكان جنوب أفريقيا محرومين منها. وعلى سبيل المثال فإن ١٩٠٠٠ مدرسة (٨٦٪) و١٧٠٠٠ مركز صحي للسود لا تزال محرومة منها.

ويأمل واضعو برنامج إعادة البناء في تنمية مجتمعات جديدة بالقرب من مواقع الإنتاج، والمراكز الاقتصادية، والمراكز الصحية والتربوية، من أجل إعادة خلق تسويق اجتماعي متماسك، مع أخذ الجانب البيني والمناخي في الاعتبار. والواقع أن أكثر من ثلثي مساحة البلاد لا تتلقى سوى ١١٪ من الأمطار، كما أن للسود والأبنية الخشبية للتخيم المياه مرئية وفقاً لاحتياجات المناطق التي يستحضرها أو يقلتها البيض. وهناك مشكلة كبيرة أخرى هي أن الإصلاح الزراعي يمثل من جهة أخرى واحدة من أخطر الصعوبات التي سيكون على القيادة المقبلين حلها. هناك ٦٠ ألفاً من الملاك البيض يمتلكون ٨٧٪ من الأراضي المزروعة ويؤمنون ٩٠٪ من الإنتاج.

وحسب المؤسسة المدنية، (٢)، يعيش ١١ مليون نسمة من سكان المناطق الريفية تحت خط الحد الأدنى للفقر، معظمهم من النساء. وفي كافة القطاعات، تكون الاختلافات ملحوظة مع السكان السود المدنيين. وهكذا فإن معدل وفيات الأطفال بالنسبة للسكان السود بلغ، خلال الثمانينات، ٢٠٤٪ في جراهامستاون الواقعة في المنطقة الريفية، مقابل ٢٧٪ في جوهانسبورج (٣). ولم يعد من الوارد تأميم الأراضي الزراعية أو تطبيق نظام جماعي عليها كما نادى ميخائيل الحرة، برنامج حركة التحرر

الوطني والذي أقصره في ١٩٥٥ مؤثر الشعب في كليتان: يكفل برنامج المؤتمر الوطني الأفريقي كافة أشكال الملكية. مع ذلك، تبقى كثير من المسائل بلا حل لفرط تعقيد الموقف الذي خلقته قوانين الأبارتهيد في هذا المجال، وسكون على الإصلاح العقارى على كل حال أن يستلزم إلى مبدئياً: إعادة توزيع الأراضي السكنية والإنتاجية على أولئك الذين يحتاجون إليها لكنهم لا يمكن وسائل الحصول عليها - إعادة الأراضي المصادرة إلى أولئك الذين صودرت منهم. وتتعلق صعوبة أخرى بفقر البيانات الرسمية الخاصة بملكية الأرض.

التلظ على خامات معدنية

يمثل قطاع آخر حاسم لإعادة بناء البلاد في قطاع المناجم الذي يشكل مع البنوك والمالية، القلب المسيطر لاقتصاد جنوب أفريقيا، والذي يتركز مع ذلك في أيدي أربع شركات (أنجلو أميركان، وجيممين، وأنجلو فال، وجولد فيلدز) وشركتين حكوميتين سابقيتين (سامول وإسكور)، والذي تصب فروعه في كافة مجالات الاقتصاد. وهذه الصناعة المنجمية، المصنفة في عداد تلك الأكثر غنى في العالم، لا يزال يغلب عليها إنتاج الذهب، الذي يمثل ٧٠٪ من الصادرات المنجمية و٨٠٪ من الدخل. وفي ١٠ فبراير الماضي، أعلن السيد نلسون مانديلا، في بروتوريا، أمام المؤتمر الوطني لاتحاد نقابات عمال المناجم القوي النفوذ، أن: «الخامات المعدنية لجنوب أفريقيا ستكون ملك للدولة»، فأثار بذلك عاصفة من الدهر.

ثم اتهم (مانديلا) السيد دى كلفر بأنه باع ملكية الحقوق المنجمية للشركات بضمن بعض تحسلاً للتفويضات التي لا مة منها بعد الآن (اقرأ مقال لورنر هاريس). وكما هو الحال بالنسبة

نظام من هذه النظم ممكنا إذا لم يكن هناك أولا، في جنوب أفريقيا، إقامة حد أدنى للنظام ديمقراطي. . حقا لقد دقت ساعة التغييرات، غير أن هذه «الواقعية» سيكون عليها أن تحمل ثمارها بسرعة بالغة لأن الوضع الاجتماعي متفجر الآن ■

إشارات:

- ١ - Macro- Economic Research Group (MERG), Making Democracy Work: A Frame Work for Macro-Economic Policy in south Africa, Johannesburg, 1993.
- ٢ - Urban Foundation, Rural Development: Towards a New Framework, Policies for a New Urban Future, 1991.
- ٣ - Centre for Health Policy, A National Health Service for South Africa, part 1 and 11, ANC Health Department avec l'aide de l'OMS et de L'UNICEF, A National Health Plan four south Africa.

الحدود، ويبدى تفاؤلا ظاهرا. وفي الترفة التجارية سجل «مؤشر الثقة» أعلى مستوى له منذ ١٩٨٨. كما ترصد الميزانية الأمريكية التي قدمها السيد وليم كلينتون إلى الكونجرس اعتمادا خاصا قدره ٢٥٠ مليون دولار لتعزيز الاستثمارات الأمريكية في جنوب أفريقيا.

ويقول السيد جاي نايدو: «الاستثمارات الأجنبية ينبغي قبل كل شيء أن تجد هنا بيئة مستقرة. إننا نقدم لهم سوقا مفتوحة تماما، ولا تزال مختلفة. غير أننا (كما يوضح) لا نريد مستثمرين ينتهكون حقوق شعب جنوب أفريقيا، إننا نريد استثمارات مضمونة وبالأجل الطويل».

وكما نرى فقد تم استخلاص دروس التاريخ. يقول جيريمي كرونين، أحد قادة الحزب الشيوعي، هذا التنظيم الحاضر بقوة في مجموع عملية المفاوضات الرأبنة: «يمكن إجراء مناقشات جمولة حول الليبرالية، أو الاشتراكية، أو الاشتراكية. للديمقراطية. وإن يكون أي

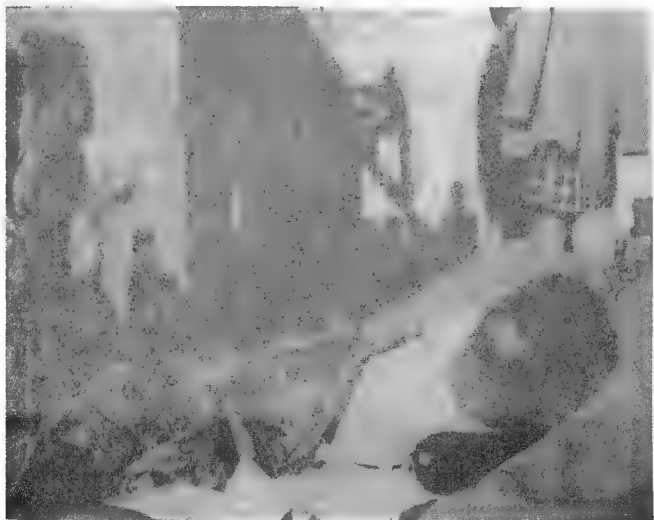
للأرض فإن التأميم ليس واردا. وفي رأي السيد جاي نايدو: «لا ينبغي النظر إلى التأميمات باعتبارها الأداة الرئيسية. وكان علينا أن نعرف بالواقع. لكننا نعتقد أن هناك دورا بالغ الأهمية تلعبه الدولة في القطاعات الرئيسية للاقتصاد». وهكذا فإن «مقرطة» القطاع المنجمي ستمر عبر إقامة مؤسسات داخلية في إطار تشريع لمكافحة الدروسات وفي إطار آليات قانونية. كما أن من المتوقع للتعامل مع هذه المواد الأولية محليا.

كيف سيتم تمويل هذا البرنامج لإعادة البناء؟ يعتمد الحكام المقبلون على الموارد الموجودة، التي سيكون من الواجب ترشيدها استخدامها وفقا للأهداف والمبادئ المعلنة. وهذا تفكير في إعادة هيكلة للميزانية وكذلك في إعادة تنظيم للنظام الضريبي.

وبالإضافة إلى ذلك، سيتم حدث القطاع الخاص على تمويل مشاريع، خاصة في مجال المساكن. ويرى عالم الأعمال سوقا ضخمة جديدة تفتح أمامه، سواء داخل البلاد أم فيما وراء



خلفيات التفير في موقف



التاريخ يتغير من جنوب أفريقيا

الحزب الحاكم في جنوب أفريقيا

أيكس كالينيكوس

١٩٨٩. فمن جهة، كانت انتفاضات المناطق غير البيضاء الكبرى في ٨٤-١٩٨٦ قد أظهرت أن الأغلبية السوداء لم تعد مستعدة للعيش في ظل الأبارتيد. ولم تعط حالة الطوارئ التي كان قد فرضها سلف دي كليرك، أي ب. و. جوتا، في يونيو ١٩٨٦، للنظام سوى فسحة قصيرة من الوقت. فبحلول ١٩٨٩ كان التنظيم الجماهيري والنضالية الجماهيرية يزدهران من جديد.

وكان يشكل أساس انتفاضات أواسط الثمانينيات. وتلك التي كانت قبلها في ١٩٧٦ و ١٩٨٠. تغير هيكل في اقتصاد جنوب أفريقيا. ومع انتقال السود بصورة متزايدة إلى الأعمال الماهرة لذوى الياقات الزرقاء وذوى الياقات البيضاء تعاملت قوتهم الجماعية كعمال. وكانت النقابات العمالية المستقلة - المنظمة بصفة رئيسية من خلال اتحاد نقابات عمال جنوب أفريقيا - مكونا حاسما من مكونات نضالات أواسط الثمانينيات وكانت العامل الرئيسي في دعم المقاومة السوداء أثناء حالة الطوارئ.

شهد التاريخ القريب العديد من الانقلابات المفاجئة والدرامية. لكن قلة منها فقط كانت تشكل مثل ذلك المشهد المذهل الذي اتخذته التحول الذي مرت به جنوب أفريقيا. ففي غضون أقل من خمس سنوات انتقل الحزب الوطني الحاكم من الدفاع بالقوة عن الأبارتيد، نظام السيطرة العنصرية، الذي أنجزه خلال أربعة عقود من وجوده في السلطة، إلى المشاركة في انتخابات تقوم على أساس صوت واحد للشخص الواحد. وكنيجة للتسوية التي وافق عليها كل من الحزب الوطني والمؤتمر الوطني الأفريقي فإن هذين التنظيمين اللذين كانا يشنكان في حرب بينهما بالفعل على مدى عدة سنوات سيختمان معا في حكومة واحدة.

ما الذي جعل الحزب الوطني، بقيادة ف. و. دي كليرك، يخطو هذه الخطوة المجهولة العواقب؟ من الناحية الجوهرية كانت الأزمة العميقة في مجتمع جنوب أفريقيا هي التي واجهت دي كليرك عندما تسلم رئاسة الدولة في أغسطس

ومن جهة أخرى، دفعت الأزمة السياسية الرأسمال العالمي إلى اتخاذ قرار بحجب الثقة عن جنوب أفريقيا. وعجل خطاب مستنموس ليوثا يرفض فيه المفاوضات مع المؤتمر الوطني الأفريقي في أغسطس ١٩٨٥ بالهروب الواسع النطاق للرسميل. وكانت جنوب أفريقيا عاجزة عن جمع القروض الأجنبية المطلوبة لتمويل أى شيء أكثر من معدل النمو الأكثر رؤسا. وبعد استلام السلطة سرعان ما أدرك دى كليرك أن الطريق الوحيد لإعادة اجتذاب المستثمرين الأجانب إلى جنوب أفريقيا يتمثل فى تحقيق تسوية سياسية مع المؤتمر الوطني الأفريقي، القوة المسيطرة فى صفوف المقاومة السوداء.

كانت مثل هذه الصفة تحث تفكير الأبارتهيد ومنح صوت واحد للشخص الواحد. لكن دى كليرك كان يأمل فى أنه بالإسكاف بالمبادرة واستغلال يد المساومة الأقوى نسبيا (فى أواخر الثمانينيات كان ميزان القوة العسكرية لا يزال لصالح النظام بصورة ساحقة) سيكون بمسطاعه أن يحقق مساومة مؤننة لكبار رجال الأعمال البيض، وهم أهم أنصاره.

وهكذا فساجأ دى كليرك العالم. والمؤتمر الوطني الأفريقي - فى فبراير ١٩٩٠ برقع الحظر عن التنظيمات الرئيسية للمقاومة وإطلاق سراح نلسون مانديلا. وفى المفاوضات اللاحقة ضغط الحزب الوطني من أجل دستور من شأنه تقيد سلطة الأغلبية فى برلمان منتخب ديمقراطيا عن طريق نقل معظم المسؤوليات إلى المقاطعات فى ظل نظام فيدرالى، وعن طريق فرض حكومة اتحادية دائمة تتشكل من الأحزاب الرئيسية. وفى الوقت ذاته، تعامى دى كليرك، على أقل تقدير، عن حكم الإرهاب الذى تنظمه إنكاثا وحلفاؤها من قوات الأمن فى المناطق غير البيضاء.

وقد وضعت هذه الحملة المؤتمر الوطني الأفريقي فى موقف الدفاع وأضعفت منظماته المحلية.

هل نجحت هذه الاستراتيجية؟ نعم ولا. فلاحك فى أن دى كليرك بالغ فى الاعتماد على قوته فصح بانهايار الجولة الأولى من المحادثات المتعددة الأطراف فى مايو ١٩٩٢ بسبب مطالبه الخاصة بحق قبو البيض. وفى الوقت ذاته، أدى العنف فى المناطق غير البيضاء إلى حركة الرجعية مفاجئة فى صفوف الأغلبية السوداء. وجاءت نقطة التحول فى أبريل ١٩٩٢ عندما اغتيل كريس هاني، زعيم الحزب الشيوعي لجنوب أفريقيا والذي يعدّ بطلا بين مناضلى المؤتمر الوطني الأفريقي، على أيدي اليمين الأبيض المتطرف.

وقد أظهر الانفجار الهائل للفضب الشعبي الذى أعقب ذلك فى آن معا مدى التأييد الذى يتمتع به المؤتمر الوطني الأفريقي وكذلك دوره الذى لاغنى عنه فى ضبط ذلك الفضب. ويقول باتى فالدمار فى *الحايفاتشميال تايهين* إن مقتل هاني: «حول بصفة دائمة... ميزان القوة لصالح المؤتمر الوطني الأفريقي». وكان دى كليرك مضطرا إلى قبول تسوية تسورية لم تعط على وجه الإجمال الضمانات الراسخة للسلطة البيضاء والامتياز الذى ظل الحزب الوطني يضبط من أجله.

وفى الوقت ذاته يتمثل سبب من الأسباب وراء واقع أن من الواضح أن رجال الأعمال البيض غير منزعين لغياب هذه الضمانات فى أنها لا تبدو ضرورية. ومنذ فبراير ١٩٩٠ بذل مانديلا وبقية قيادة المؤتمر الوطني الأفريقي جهودا خاصة من أجل طمأنة الرأسمال المحلي والأجنبي إلى أنهم لا يعتزمون إجراء أى تغييرات اجتماعية

واقتصادية جذرية. وقد أظهر مسح لآراء ١٠٠ من كبار زعماء رجال الأعمال نشر فى جوهانسبورج فى ويكلي *ميل اند جارديان* فى ديسمبر الماضى أن ٨٨٪ منهم أيضا مانديلا باعتباره أول من يفضونه رئيسا للجمهورية، ويدل هذا المسح على أن تلك الجهود كانت ناجحة.

فصلا عن ذلك، بدأ أن للظهور التى جرت منذ إقرار مسودة الدستورى نوفمبر ١٩٩٢ تعمل لصالح الحزب الوطنى. فقد قرر تحالف الحرية - وهو التحالف متنافر من اليمين الأبيض المتطرف وزعماء مواطن متبانية. مقاطعة انتخابات أبريل، وكان وراء هذه الاستراتيجية التهديد المبطن بالغف. من جانب الفاشيين من أتباع حركة مقاومة الأفريكان (البيض)، وربما من جانب المتحالفين العسكريين مع الجنرال كونستانت فيلجوين، زعيم جبهة شعب الأفريكان والرئيس السابق لقوات دفاع جنوب أفريقيا، وقبل كل شيء، من جانب أنصار حزب الحرية إنكاثا المثل لبقال الزولو.

وأشارت استطلاعات للرأى إلى أن إنكاثا لم تعط إلا بتأييد أقلية حتى فى الدائل حيث يقطن أغلب الأفارقة الناطقين بالزولو. غير أن لدى إنكاثا تنظيمى جماهيري هائل تم بناؤه بعين قوات الأمن ويدعمه جهاز الدولة فى موطن الكوازولو الذى يسيطر عليه زعيم إنكاثا جاتشا بوتيليزى. وفى الشهر السابق للانتخابات كانت هناك تقارير عديدة تؤكد أن فرق إنكاثا، التى تدربها وتسلكها جبهة شعب الأفريكان، تم نشرها فى كل مكان فى الدائل لعرقلة الانتخابات.

وردت قيادة المؤتمر الوطني الأفريقي على ابتزاز تحالف الحرية عن طريق عرض سلسلة من التنازلات عليهم بهدف

إنقاذهم بالاشتراك فى الانتخابات. وجرى تغيير الدستور الجديد لمنح سلطات أكثر للمقاطعات، ولتعزيز سلطة ومكانة ملك الزولو، ولضمان قيام «وطن» أبيض يتمتع بالحكم الذاتى - كل هذه التدابير التى كانت ملائمة لهدف دى كليرك المتمثل فى الحد من سلطة الأغلبية السوداء فى جنوب أفريقيا الجديدة». وعلمت الوثيقة ميل أنجبارديان بقولها: «للمرة الأولى سيكون بوسع الحزب الوطنى الآن أن يدعى بعض الانتصارات» على مائدة المفاوضات».

ولحسن الحظ أثبتت الجماهير السوداء كيف يمكنها أن تسترد فى الشوارع ما فُرضَ فيه زعمائها على مائدة المفاوضات، ففي أوائل مارس، قبل الانتخابات بسنة أسابيع لاغير، أطاح العصيان الشعبى بلوكاس مانجوى رئيس موطن البورفوثاتسوانا.

وكان مانجوى ومستشاره الرئيسى روان كرونجى، الوزير السابق فى النظام

الرويسى العنصرى الأبيض السابق، بوصفهما عضوين قياديين فى تحالف الحرية، يرفضان السماح بالانتخابات فى البورفوثاتسوانا. غير أن الحركة التى بدأت كإضراب للموظفين العموميين، خشية أن يحاول مانجوى سرقة معاشاتهم، تطورت إلى انتفاضة عامة تطالب بإعادة إجماع البورفوثاتسوانا فى جنوب أفريقيا والمشاركة فى انتخابات أبريل. وانضم الطلبة وبقية العمال إلى الموظفين العموميين فى الشوارع.

وعندما تردد جنوده وشرطته طلب مانجوى اليأس من فيلجوين أن يتقذه. وأصدر فيلجوين أوامره بالقتال لعدة آلاف من اليمينيين وبصفة رئيسية من الجناح شبه العسكرى لحركة مقاومة الأفريكان. ويفضل للتأييد الشعبى، تمكنت قوات دفاع البورفوثاتسوانا من رد الفاشيين على أعقابهم، وقتلوا فى سياق ذلك أحد «جنرالات» حركة مقاومة الأفريكان.

ووجدت قوات دفاع جنوب أفريقيا نفسها مجبرة على التدخل لاستعادة النظام، لكن لقاء التحصن من مانجوى وإعادة إجماع البورفوثاتسوانا فى جنوب أفريقيا.

وتثبت انتفاضة البورفوثاتسوانا أن خدعة أقصى اليمين يمكن كشفها. ولاشك فى أن بوثيليزى خصم أقوى من مانجوى، غير أنه سيكون لامناص، عاجلا أو آجلا، من مواجهة استنساخه وسفاحيه. بالقلوة بالتأكيد تقريبا - إذا كان لجنوب أفريقيا أن تحصل على أى نوع من المستقبل الديمقراطي. على أن الانتفاضة كانت تنطوى على درس أساسى أكثر. مرة أخرى كان العمال والشباب السود هم الذين دفعوا سرعة التغيير. كما فعلوا طوال الثمانينيات ثم من جديد بعد اغتيال هانى. فمضى يحصلون على قيادة سياسية تعتمد على قوتهم وشجاعتهم بدلا من السعى إلى كبحهم ■



المؤتمر الوطنى الأفريقى



من السجن إلى البرلمان

تشارلي كيمبر

وعلى مدى ٣٥ سنة شدد زعماء المؤتمر الوطني الأفريقي على ، القيم المسيحية، والأعنف، والمعاداة للمسلمة للشويعية. وكان أسلوبهم المفضل لمقاومة العنصرية يتمثل في تقديم الالتماسات إلى الحكومة البريطانية لإقرار المساواة. وكما هو متوقع لم تلق تلك الالتماسات أى استجابة. غير أن المؤتمر الوطني الأفريقي ظل مخلصا لمبادئه. وباعتباره هياجا ومهدبا، أدار ظهره للاضطرابات العمالية المتنامية في أعقاب الحرب العالمية الأولى. واستخدم أصحاب مؤسسات التعدين والرأسماليون زعماء المؤتمر الوطني الأفريقي بصفة متكررة في إقناع العمال بالتخلي عن الإضرابات لصالح التفاوض و«الانضباط».

مثل هذا التظيم، أو أنه لم يتحول، كان لا مخلص من أن يموت في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ذلك أن أعدادا كبيرة من العمال السود كان قد تم تعيينهم في المصانع وأحسوا بقوة جديدة. وأظهر إضراب عمال المناجم في ١٩٤٦

ق عندما يفوز المؤتمر الوطني الأفريقي في انتخابات جنوب أفريقيا في نهاية هذا الشهر (أبريل الماضي - المترجم) سيكون ذلك انتصارا لكل شخص ناضل ضد الأبارتيد (سياسة الفصل العنصري). إن الحزب الذي أعلن الحزب الوطني الحاكم أنه سيجرى «سحقه باعتباره حزب الإرهابيين» سيصبح هو الحكومة. وستكون هزيمة العنصريين مدعاة للابتهاج الحقيقي. لكن مانوع التغيير الذي سيأتي به نلسون مانديلا والمؤتمر الوطني الأفريقي للأغلبية السوداء؟

كان المؤتمر الوطني الأفريقي، الذي تم تأسيسه في ١٩١٢، تحت سيطرة الزعماء التقليديين - الشيوخ القبليين - والمتشككين الذين أغضبتهم السيطرة العنصرية المتزايدة للبيض. وكانوا يريدون بوجه خاص أن ينظموا صفوفهم ضد إلغاء حق غير البيض في عضوية البرلمان، وضد الإعداد الذي كان يجري على قدم وساق لإصدار قانون للأراضي يحدد الملكية السوداء بـ ١٠ ٪ من مساحة البلاد.

بوضوح، رغم هزيمته، وجود مزاج جديد في صفوف العمال المنظمين. بالإضافة إلى ذلك حارب الآلاف من السود في حرب كان من المفترض أنها ستجلب الحرية. وبدلاً من ذلك عادوا ليجسّدوا الإعداء الجاهري على قدم رماق للتطبيق التكاملي لسياسة صارمة تماماً للفصل العنصري - الأبارتيد.

وطالب جيل جديد من الزعماء بأساليب جديدة للنضال وبروح جديدة للمقاومة، ولم نعد ذاهبين لتتسول، إننا ذاهبون لتأخذ، هذا مقالته أحد المتحدثين في اجتماع للمؤتمر الوطني الأفريقي في ١٩٤٩. وبفضل هذا التبدل الخطابي استطاع المؤتمر الوطني الأفريقي أن يظل تنظيمًا قابلاً للحياة. وقد شكّ سلسلة من الاحتجاجات الجماهيرية المتتمة بمبدأ اللاعنّف والمنظمة بهدف اجتذاب السود من كافة الطبقات إلى النضال من أجل الديمقراطية.

وخلال الستينيات والسبعينيات واجه المؤتمر الوطني الأفريقي قمعاً صارماً من جانب الدولة بل جرت إبادته بالقتل في أنحاء عديدة من البلاد. ولم يجر إحياءه إلا نتيجة للتنظيم المعالي المتعاضد في أوائل الستينيات والتمرد اللطالبي في سويسرا في ١٩٧٦ - رغم أنه لم يقدّر إلا الإضرابات ولا الانتماضة. وبحلول التسعينيات كان قد توطد بروح باعتباره القوة الرئيسية المعادية لسياسة الفصل العنصري، محلياً وعالمياً على السواء. والحقيقة أن النضالات البطولية لمناضليه (رفض قاداته أن ينفخوا أمام السجن، والسعيذ، والموث) كانت تغطي أن الأكثرية الساحقة لسود جنوب أفريقيا كانوا يطمحون إليه ليجلب الديمقراطية. غير أن المؤتمر الوطني الأفريقي ظل حركة وطنية (قومية) أكثر منها اشتراكية. وكان يشدد على المفاوضات أكثر من الثورة كطريق للوصول إلى

الحرية. وقد ألحّ على ضرورة الاحتفاظ بالسود من كافة الطبقات في حركة واحدة وكذلك على أن تتحد الطبقة العاملة في مطالبها من أجل الحفاظ على هذا التحالف.

وطوال تاريخه في الآونة الأخيرة ظل المؤتمر الوطني الأفريقي يقوم بألعاب بهلوانية. فمن أجل تأمين التغيير من حكم وحشي إلى حكم مقيد، كان مضطراً إلى أن يقوم على الأقل بتعبئة قدر من قرة الجماهير والعمال. والحقيقة أنه ما كان بمستطاع المؤتمر الوطني الأفريقي أن يصل على الإطلاق إلى مائدة التفاوض لولا الإضرابات، ولولا المظاهرات الضخمة، ولولا التهدييد بالإطاحة ليس فقط بسياسة الفصل العنصري بل كذلك بالرأسمالية.

غير أنه في الوقت نفسه كان زعماء المؤتمر الوطني الأفريقي يخشون دائماً أن تخرج الأمور من أيديهم، وألا تنكسرت الجماهير بزعمائها عندما يؤنّ أوان وقف الاحتجاجات ويده الانتخاب لبرلمان يعمل داخل رأسمالية يقودها السود.

ومنذ إطلاق سراحه في ١٩٩٠ ظل نلسون مانديلا يقوم ببراعة بهذه الألعاب البهلوانية. وقد نجح في تركيز اهتمام المؤتمر الوطني الأفريقي على المباحثات مع الحكومة ولم يسمح لشيء بأن يعترض الطريق إلى تسوية مع دى كليرك. غير أنه استخدم أيضاً ضغوط العمل الجماهيري لتحسين شروط التسوية وللعمل كصمام أمان لإحباط غضب المناضلين الذين عاثوا كثيراً جداً وطيولاً جداً. وبحقق مانديلا المأثرة الرائعة المتغلطة في أن ظل الزعيم الأسود الأكثر شعبية بكثير وكذلك في أن يكون الرئيس المفضل لأكثرية ساحقة من رجال الأعمال.

وفي بعض اللحظات الحاسمة - تعرضت زعامة مانديلا لتوتر خطير.

ويعد مذبحة بويباتونج في يونيو ١٩٩٢ والتي لقي فيها ٤١ شخصاً مصرعهم رمياً بالرصاص أو قطعياً بالسواطير على أيدي أعضاء المجموعات الإرهابية التابعة لإنكتا بامساندة قوات الأمن، طفا إلى السطح كل نفاذ الصبر مع بطء سرعة التغيير. وهنا قام مانديلا الذي انتقد الشباب على تصرفه، مثل العمل بينما تذبح الحكومة شعباً، بوقف المباحثات. ودعا أنصار المؤتمر الوطني الأفريقي في النقابات العمالية إلى إضرابات. غير أنه حالما انتهت حالة الطوارئ استؤنفت المفاوضات.

وتخلّت محنة أفسى بكثير في مقتل كريس هاني زعيم المؤتمر الوطني الأفريقي والحزب الشيوعي منذ سنة. وضمت الإضرابات العفوية والمظاهرات الضخمة الملايين. وكانت البلاد بأكملها في حالة غليان. وأصابته الحركة بالثعثرية أولئك الرأسماليين الذين كانوا قد ترقبوا انتقالاً مسخراً نسبياً من رأسمالية الفصل العنصري إلى رأسمالية يقودها المؤتمر الوطني الأفريقي.

غير أنه، كما كتبت البيرينيس وبه الأمريكية:

لقد نجح المؤتمر الوطني الأفريقي في اختبار للقيادة... ذلك أنه وسط الاضطراب كان نلسون مانديلا هو الذي لعب دور رجل الدولة. فعلى مدى ثلاث ليالٍ في الفترة الرئيسية للتليفزيون طالب بالهدوء. وقد بدأ زعماء الأعمال يقدرون دور المؤتمر الوطني الأفريقي تقديراً عالياً.

قامت الشركات بتغطية نفقات كثير من جوانب جائزة كريس هاني. ونفت شركات التعدين الكهري بصورة مشتركة أكثر من ١٤٠ ألف جنيه استرليني لهذا الغرض بينما قدمت شركة كركا كولا المياه الغازية مجاناً. ويفسر الأمر مسئول تنفيذي كبير في قطاع التعدين قائلاً:

على دوائر الأعمال أن تقوم بتعزيز مركز ذلك القسم من قيادة المؤتمر الوطني الأفريقي الذين يداخولون في سبيل تحقيق انتقال مستقر نسبياً.

ويشتمل البيان الانتخابي للمؤتمر الوطني الأفريقي على عدد من الوعود الجذرية تماماً. فهو يتعهد بطرح برنامج تشغيل عمومية تستخدم ٢,٥ مليون شخص على مدى السنوات العشر المقبلة لتوفير المنازل، والمياه، والكهرباء، والمستوصفات، والمدارس، والطرق. ويقول إنه سيكون هناك تخفيض ضريبي لكل من يكسب أقل ٨٠٠ جنيه استرليني في الشهر (الأغلبية الواسعة من السود) وإلغاء ضريبة القيمة المضافة على السلع الأساسية.

على أن زعماء المؤتمر الوطني الأفريقي أروضوا بكل جلاء أنه لن يكون هناك أي هجوم على الرأسمالية. وفي حديث إلى المزارعين البيض أبح مانديلا على أنه ليس هناك ما يخشونه من حكم المؤتمر الوطني الأفريقي وأنه لن يحدث تأميم لأراضيهم.

وقال لرجال الأعمال في لندن: «أصدرنا قانون استثمار يضمن أنه لن يكون هناك تجريد من الملكية أو الاستثمارات، وسيكون من حق المستثمرين الأجانب إعادة حصصهم وأرباحهم إلى بلادهم». وفي الشهر الماضي قال بالجواردان منسق سياسة التعددين والطاقات في المؤتمر الوطني الأفريقي إنه لم يجر التفكير في تأميم شركات التعدين أو حقوق التعدين. وهناك حديث عن أن ديريك كيز، وزير المالية الحالي، وكريس ستالز، محافظ البنك

المركزي، سيطلب منهما البقاء في منصبيهما بعد الانتخابات.

أنت هذه التنازلات الخطيرة للرأسمالية وكذلك القلق المتزايد بشأن مقدار ما سيحصل عليه من الحكومة الجديدة إلى مؤثرات نقابية عمالية عديدة ناقشت فكرة حزب عمالي منفصل عن المؤتمر الوطني الأفريقي. وطالبت نقابة عمال الملابس والنسيج بجنوب أفريقيا والتي تصل قوتها العددية إلى ١٧٠ ألف عامل اتحاد نقابات عمال جنوب أفريقيا بقطع علاقته مع المؤتمر الوطني الأفريقي بعد الانتخابات. وضد نصيحة قيادتها صوتت النقابة الوطنية لعمال التعدين والتي تصل قوتها العددية إلى ٢٢٠ ألف عامل لصالح النظر في تأسيس حزب عمالي وقطع الصلات مع حكومة وحدة وطنية بقيادة المؤتمر الوطني الأفريقي.

لا يعني أي شيء من هذا أن العمال لن يصوتوا لصالح المؤتمر الوطني الأفريقي. فقبل كل شيء آخر ليس هناك بدبل جماهيري. وفضلاً عن ذلك فإن الكثير من العمال سيرغبون في أن يروا المؤتمر الوطني الأفريقي في موضع الاختبار في الممارسة العملية قبل أن يفكروا في التحلي عنه.

على أن هذا يعني حقاً أن العمال قد بدأوا بالفعل في الانتقال من السؤال عن كيف يمكن التخلص من الأبارتهد إلى السؤال عن نوع المجتمع الذي سيعقب الانتخابات. وسوف يظل المؤتمر الوطني الأفريقي كما كان دائماً - حركة قومية يسيطر على قيادتها السياسية أشخاص يريدون أن يروا رأسمالية سوداء. وباللظر

إلى الأعمال الضخمة المطلوبة لتحسين مستويات معيشة السود فإن سياسات المؤتمر الوطني الأفريقي ستحصل على الأرجح إلى مأزق في المستقبل القريب نسبياً.

وقد لا يمر وقت طويل قبل أن نرى الإضرابات الأولى التي يقوم بها العمال مطالبين بما هو أكثر مما يمكن أن تكون حكومة للمؤتمر الوطني الأفريقي مستعدة لتقديره. وعندما يحدث ذلك فإن احتمالات نشوء تيار اشتراكي حقا سوف تتزايد بشدة

وفي سبتمبر الماضي ألقي نلسون مانديلا خطاباً لافتاً للنظر. وفيما كان يخاطب مؤتمر اتحاد نقابات جنوب أفريقيا وضع أوراق مذكراته جانباً في نهاية خطابه وأعلن:

«كم مرة عملت حركة التحرير الوطني سوية مع العمال ثم خانت العمال في لحظة الانتصار؟ هناك أمثلة عديدة لذلك في العالم. فقط عندما يقوم العمال بتقوية تنظيمهم قبل وبعد التحرير فإنه يمكنكم أن تتصوروا. أما إذا استرخت بظنكم فإنكم ستجدون أن تضحياتكم كانت عبثاً. أيدوا المؤتمر الوطني الأفريقي فقط طالما قام بتسليم السلع. أما إذا لم تقم حكومة المؤتمر الوطني الأفريقي بتسليم السلع فإنه ينبغي أن تصفوا بها نفس ما فعلتموه بنظام الأبارتهد،

وهو محق تماماً عندما يشير إلى عيوب الحركات المشابهة للمؤتمر الوطني الأفريقي. والمهمة التي ينبغي القيام بها هي بناء تنظيم اشتراكي يمكنه أن يقدم بدلاً عنه. ■



تلخيص العـصر

ف من الطغيان إلى الثورة

هذا موضوع الفصل الثاني والعشرين (جـ ٢ ص ٥٣٦ - ٥٩٩).. وعنوانه أيضاً باختصار، يستكمل به ما بدأه في الفصل السابق.. عن تطور نظام الحكم في مصر.. وتركزه في قبضة الفرعون.. مع اختلاف تسمية الحاكم.. عبر العهود، يستهلها بمعاودة تحليل «جغرافية مصر الاجتماعية» (ص ٥٣٦)، مع التفصيل في تحليل أيكولوجية المجتمع المصري.. كمجتمع هيدروولوجي.. نواته النيل، مستنداً إلى متابعتها الواردة فيما سبق من سطور، مع التركيز على تطور دور الحكومة.. وكيفية تسميها بالطغيان (.. بدأت الحكومة كوسيط بين الإنسان والبيئة.. وهمة الوصل بين النهر والغلات.. هي

ضرورية - فكرة وأجهزة - للتكامل الأيكولوجي، ضرورة كما هي نتيجة.. تتطور لتنتهي عاملاً جغرافياً.. بكل معنى الكلمة، ص ٥٣٩)، أي أن الحكومة عامل أيكولوجي أصيل، تستمد شرعيتها من عدالة التوزيع.. فالعدل كما يقول رفاعة الطهطاوي أساس العمران (ص ٥٤٠)، ثم يضاف إليها وظيفة حماية العمران.. ومن هنا (عدالة التوزيع + الدفاع) تنبثق ضرورة أن تكون مركزية.. في تتابع تنفرد به مجتمعات الأنهار.. خاصة من يتعرض منها للفيضانات، وللب المركزية هنا أن المياه مؤمنة.. يملكها الجميع.. فكيف يمكن تغير المركزية أن تدار.. وأن يحصى العمران من الغزو والفيضانات؟ (.. ذلك إن توجيه البيئة الفيضية.. وتأثيره

السياسي.. وهو توجيه طبيعي وصحي وحكيم، ولا علاقة بينه وبين الانصراف للطغيان، فإذا وقع.. فلا بد أن نبحت عن الأسباب، ص ٥٤٦).

ويعود في بحثه عنها للجدور.. إلى بداية تكوين «النظام الاجتماعي المصري» (ص ٥٤٦)، مستهدياً في تحليله بثلاث نظريات، النظرية القطاعية، النظرية العبودية النظرية الآسيوية (ص ٥٤٩) منتهياً إلى ارتباط تجذر الطغيان في مصر.. بتحول ملكية الأرض بعد المياه، إلى الحاكم (.. الذي أصبح يملك الأرض وما عليها.. والكل يخضع له خضوعاً مطلقاً كاملاً. ص ٥٥٢)، وكان لا بد أن يتبع ذلك تكيف هيكل النظام.. بما يناسبه ويحقق مقاصده، وهكذا نبئت البيروقراطية (ص ٥٥٦) من الأوتوقراطية،



فى شـخـصـيـة مـصـر

عمر الفاروق

بعد ذلك، أى أن الانطواء الزراعى القابع داخل قوقعة الموضع.. كان من عوامل استمرارية الأوتوقراطية واستشراء طغيانها، وبعبارة أخرى لو أن مصر ركزت أكثر على استثمار الموقع كما ينبغي.. لأنقذا الموقع من نتائج تحريف الطغيان وتشويهه لإمكانات الموضع، (ص ٥٦٧)، وإذا يذكّرنا بمعادلة القوة المصرية (الموضع × الموقع) كأساس لتقدمها.

ويفسر الطغيان الداخلى.. وقوع مصر المتكرر الطويل تحت سيطرة الاستعمار، فحين يهزم النظام.. تسقطه مصر.. وتستبدل طغيانا بطغيان، بل وسرعان ما يتحالف الطغيان الخارجى.. مع الداخلى.. فى معظم الأحيان.

وأحاطت ذاتها بقداسة الكهنة (٥٥٧)..
وبرجال الجيش (٥٥٨)..
وميلقة عليا
غير ارسطوقراطية.. مرتبطة بالفرعون
(٥٥٩)..
وتكاد هذه التحالفات القديمة
أن تشكل صلب هذا النظام.. الذى بقى
بعد ذلك عشرات القرون.

وقد ضاعفت أصادية النظام
الاقتصادى المصرى (الزراعة)..
من تصلب هذه البنية الإقطاعية (... فنظراً
لأحادية البيئة النيلية.. فقد حد ذلك من
نمو طبقة من التجار والصناعيين..
بدرجة يمكن أن تنافس الإقطاع التسديد،
ص ٥٦٦)، ويضيف.. (.. ولجس من
الصعب أن ننتهى من هذا.. إلى أن
مصر لم تستغل موقعها الفريد كما
ينبغي وركزت أساساً على الموضع، ولو
فعلت فلربما تغير تاريخها وشخصيتها

تلخيص العصر فى شخصية مصر



(الاتراك مع الممالك على سبيل المثال، ص ٥٦٧)، ومع انقطاع الصلة بين الحكام والمحكومين.. لا تجاوز المسألة تفسير نظام بنظام، دون أن يعنى ذلك التهوين من قدرة الشعب المصرى على التصدى فى الحالىين، فتاريخه سجل حافل بالهبات والثورات.. ولكن بطريقته الخاصة على مر التاريخ (.. ذلك لأن مصر بحجمها جسم ضخم لا يتحرك بانفعاك متهور.. بل بدفع محسوب، ولذا فإن ثورتها الشاملة.. وإن كانت قليلة العدد نسبيا.. إلا أنها فاعلة حين تقع ومطمحة.. ص ٥٦٨)، وهكذا ينفى أن يكون الطفيان قرينا.. مصر الاجتماعية.. (ص ٥٨٠) بل هو ضد روحها الكامنة، وضد روح المكان *Genius loci*، ولا يجاوز كونه انعكاسا لطبيعة *Zeitgeist* عصر من العصور، عرفته المجتمعات البشرية.. كل فى مرحلة معينة.. بأدواته تصاب، هو إذن لا يعبر عن روح المجتمع للمصرى، ولا يمكن أن توصم روحه الوادعة وأصالة المنظمة.. بأنها استجابة فطرية.. لما عرفته من طفيان.. فى فترة طويلة من تاريخها (.. لا حتم جغرافى إذن فى الطفيان، ص ٥٨٣)، وإنما هى انصراف السلطة المركزية عما عهد إليها به، هذا صدا ما أضافه الغزو الأجنبى والاستعمار، أما الأصل.. أى المجتمع للنظم.. فالديموقراطية روحه، قوامها عدالة توزيع المياه والأرض بين سكانها، ديموقراطية سياسية واجتماعية واقتصادية معا فى آن.. ص ٥٨٤ - ٥٩٩، وبذا يحدد من الخصائص.. ما يفسر الآثار البعيدة والقريب.

ورغم إقراره للموضوعى بما يمكن أن يخلفه الطفيان والاستعمار.. من رواسب وشوائب (ص ٥٨٤) فى شخصية المصرى ومجتمع المصريين، إلا أنه يتصدى لجملة من «النظريات الخاطئة» (ص ٥٨٦ - ٥٩٣) .. تسعى لدمج

(تخلف الموضوع عن الموقع، ص ٦٤٢) صالحة دائما للتفسير (.. لقد تكشف العمور المتعدد عن قوى جديدة.. وقواعد أرضية وبشرية من مقياس أضخم من المقياس المصرى، وقد وجدت هذه القوى أن المفتاح يرقد دائما فى أرض الزاوية.. تلك مصر، ومن هنا أصبحت قبلة الغزاة، ونظراً لأن وزن موضعها لم يعد يسعها إزاء هذه القوى الأكبر جرماً.. فقد وقعت مصر فريسة لها، بمعنى آخر.. إن الانقلاب الذى حدث فى مصر مصر.. هو أن خطر موقعها قد زاد كثيراً عن قوة موضعها، لقد تخلف الموضوع عن الموقع.. ولم يواكب تطوره ولم تعد إمكانيات الأول التقليدية.. ترقى إلى متطلبات الثانى الباهظة، ص ٦٤٣)..
تخلف الموضوع عن الموقع إذن إجابته. وهى أيضاً نظريته الثرية بلا جدال.

ويطبقها بعد ذلك فى الفصل الرابع والعشرين (ص ٦٥٤ - ٦٨٩) .. الذى يخصصه للاستعمار الأوروبى الحديث متابعاً علاقات مع مصر.. منذ الحملات الفرنسية، فالاستعمار البريطانى (٦٥٩) وتزايد نسبة الأجانب (٦٦٧) .. وتأثيره فى المجتمع المصرى، وفى الجوانب الاقتصادية المختلفة (وبالنسبة للأجانب فإنهم كانوا يظلوا مجتمعاً مغلفاً، منقولا بجذوره وبيئته.. ومناخا الحضارى والاجتماعى، باختصار جزء أوروبية فرضت على الأرض المصرية قطعة من أوروبا فى مصر.. التى لم تصبح على أية حال.. قطعة من أوروبا ص ٦٧٤)، ويقرر ما يظهر هذا الفصل استمراراً لسابقه.. ومجالاً لتطبيقه نظريته، فإنه يهدى أيضاً للفصل اللائق له (٢٥ ص ٦٩٠ - ٧٧٧) .. ويخصصه لدراسة شخصية مصر الاستراتيجية.. متوجهاً بها الباب الخامس من الجزء الثانى من كتابه وهى يكون قد أقر ستة فصول كاملاً

شخصية مصر فى الضميم، وبعد ما يستقرىء التاريخ.. يقرر (.. غير أن الحقيقة التاريخية التى تثبتها مرارا وتكرارا تجربة ألفى سنة.. ما زالت مستمرة معنا حتى اليوم، وهى أن كبرى الأفتين ليست الاستعمار الأجنبى.. ولكنه الحكم الداخلى المطلق.. إنه وجه مصر القبيح، ص ٥٩٥)، وهى الحقيقة التى سوف يستند إليها بعد ذلك فى كثير مما يلحق من الفصول، بالإضافة إلى ما حده منها فيما سبق من فصول، يظهر ذلك على الخصوص فى الفصلين (٢٤، ٢٣ ج ٢)، وذلك حين يعود إلى تحليل شخصيته السياسية عبر العصور، متسانلا فى أولهما (.. كيف تحولت مصر من أول إمبراطورية فى التاريخ .. إلى أطول مستعمرة عرفها التاريخ، ص ٦٠٣)، وتقضىه إجابة السؤال خوض غمار قرابة أربعين قرناً من الزمان، يتابع فيها دورات الازدهار والانتكاس بالتفصيل، دون أن يكف عن إجراء المقارنات الموحية بين مصر وغيرها من قوى العالم القديم، وحين يتوصل إلى إجابته.. تظهر كنظرية

(٢٠ - ٢٥) .. أى ما يزيد على ٤٠٠ صفحة (ص ٣٦٣ - ٧٧٧) لدراسة شخصية مصر السياسية.

فماذا يقصد من عنوان هذا الفصل «شخصية مصر الاستراتيجية».. على وجه التحديد؟

(.. الآن وقد درسنا مראخل وأنوار تاريخ مصر الجيوپوليتيكي.. ما بين إمبراطورية ومستعمرة، وحللاً معانيها ودلالاتها، نحن فى موضع يسمح لنا بالتعميم بعد الشخصى، لننفذ إلى أعماق شخصية مصر الاستراتيجية ككل وكإقليم من الخارج، ولنحدد جوانب القوة والضعف فيها، ثم لنضع مصر كقوة سياسية فى الميزان.. بما فى ذلك دورها ووزنها السياسى، ثم أخيراً.. لنقيم ونقنن أركان وقواعد استراتيجية مصر من الداخل، حتى نصل من ذلك جميعاً إلى مؤشرات للعمل المستقبلى.. تفيد فى تخطيط أهدافه.. لاسيما فى الصراع المصرى مع إسرائيل (ص ١٩٠).

ومرة أخرى.. وايمست أخيرة.. يضع قاعده (الموضع × الموقع) أساساً لتحليلاته وتفسيراته، باعتبارها لب شخصيتها الاستراتيجية.. محل الدراسة.. (..الحقيقة المعطى فى كيان مصر.. ونقطة البدء لفهم شخصيتها الاستراتيجية.. هى اجتماع موقع جغرافى أمثل مع موضع طبيعى مثالى، وذلك فى تناسب أو توازن ناسر، (ص ٦٩)، ويفضى فى إثبات ذلك.. من زوايا جديدة، تحلل لوائح القوة فى المناطق المحيطة.. مسجلاً هذه الحقيقة (..مصر كانت دائماً مركز دائرة قطب قوة.. ولم تتزاق إلا نادراً لتصبح على هامش دائرة أخرى، ويحكم مرضها (السبب الممتنع) وموقعها (الصعب الممتنع).. فإنها تصعد منحنى القوة كقوة إقليمية، إذا ما وظفت إمكانيات موضعها

- إذا كان آفة الدين رجاله، فإن الحل هو رجل الدين المثقف، المطلوب طبقة عصرية من رجل الدين هى رجل الدين المثقف، أى المثقف ثقافة مدنية، وضعية، علمية، علمانية، رجل الدين العلمانى وعالم الدين العلمانى.

جمال حمدان

وموقعها جميعاً، فذلك مفتاح الماضى ملغماً من دليل المستقبل، (ص ٦٩٢).

وتحت عنوان «خريطة الخطر» (ص ٦٩٣)، يتابع ماتعرضت له مصر من أدوار الغزو والاستعمار (.. لقد عاشت مصر دائماً أو غالباً فى خطر..)، ويتناسب الخطر الخارجى تناسباً طردياً مع أهمية الموقع، ولم يكن ذلك سلبياً.. فقد نصبت شخصية مصر بقرى ما تعرضت له، وهو يحمل نواتر الخطر وحلقاتها.. ويمل عليها عبر تاريخها، متوصلاً إلى عدد من الخصائص يراها دائمة، من أهمها العلاقة الاستراتيجية العضوية بين مصر والشام (ص ٦٩٨) وهذا فإن الدفاع عن مصر يبدأ من طوروس (ص ٦٩٨).

ويستغرقه بعد ذلك تحليل وتفنييد عدد من النظريات الخاطئة (ص ٧٠٣)، من قبيل نظرية «أطول مستعمرة» (ص ٧٠٤)، ونظرية «الخنضج للجبر» والشيخوخة المبكرة (ص ٧٠٦)، ونظرية «المقاومة السلبية» (ص ٧٠٧)، ونظرية «الشعب غير المحارب» (ص ٧١١)، ونظرية «جناية الموقع» (ص ٧١٤)، تفنيداً قوياً يثبت به خطأها وصواب ضدها.

وفى اتجاه تحليل «مصر كقوة سياسية» (ص ٧١٦)، يتابع وزنها عبر تاريخها، محمداً زبذباته وارتفاعاته وانحداراته، مستنداً إلى معادلاته الأساسية (الموضع × الموقع)، حيث إن من شأن تنمية موارد الموضع والموقع أن ترفع بداية من المحصلة، ولقد حققت مصر بالنسبة لشق المعادلة الأول خلال القرن الماضى ما دعمه حقاً، سواء فى مجال الزراعة (ثورة الرى الدائم من ٧٤٠) التى بلغت نهايتها بالسد العالى، أو الصناعة التى قطعت فى مضمارها شوطاً لا يستهان به، وذلك «خريطة الخطر المحيطة بها..» والتى لا تكف عن محاولة إجهاضها وتبديد تراكماتها، سواء من جانب الاستعمار العلمانى أو إسرائيل، وفى الوقت نفسه فإنها رغم ما حققت.. فقد كان العالم المتقدم ينمو بمعدلات أكبر.. تتضاعف المسافة بينه وبينها (.. لقد كانت مصر طوال العصر الحديث.. فعلياً وفى حداثتها فى نمو مطرد.. حجماً ووزناً وقوة وسكاناً وتحضرًا وتمددًا، بيد أنها كانت تجد نفسها فى تناقص وتراجع وتخلف مطرد، لالشيء سوى أن العالم كان ينمو

خارج كل حدود.. (ص ٧٣٩)، وبالنسبة للموقع. فقد ملكت منصر موقعها باستعادة القناة، وبذا يمكن إحلال (السد العالي + القناة) محل معادلة القوة المذكورة، باعتبارهما أعلى ما حققته مصر في تاريخها الحديث.

وتحت عنوان سياسة مصر الخارجية (ص ٧١٧) يقرر (.. إن تكن الجغرافية وراء السياسة مقولة صحيحة، ففعل سياسة مصر الخارجية تعكس شخصيتها الاستراتيجية.. ربما أكثر مما تعرف دولة أخرى (ص ٧١٧)، ومن ثم يتابعها ويقسمها (.. يمكن أن نتعرف على ثلاثة مراحل رئيسية من السياسة الخارجية المصرية، تمثل في جوهرها أبعاداً جغرافية في الدرجة الأولى، وبالذات أبعاداً متوسعة متزايدة على التعاقب: مرحلة السياسة المحلية، مرحلة السياسة الإقليمية، مرحلة السياسة العالمية، ص ٧١٨ - ٧٢٢)، ويعد تطيلها تاريخياً وجغرافياً وجيوبوليتيكياً - يستخلص ما يسميه أجرومية أو قواعد سياسة مصر الخارجية في خمسة مبادئ أو قوانين.. تدور تباهاً حول العلاقات والمحاور الآتية (القوة والعزلة أولاً، العزلة والعرب ثانياً، العزلة والاستعمار ثالثاً، العزلة والتحجيم رابعاً، المجال الطبيعي..)، وتوضح درجة ثقل العزلة.. في هذه الأجرومية، وتمثل بالطبع الوجهة السلبية من السياسات المصرية الخارجية، ومنها يخلص إلى قاعدته الأساسية في هذا الشأن (.. تتناسب قوة مصر السياسية تناسباً عكسياً مع درجة عزلتها وانغلاقها داخل حدودها، وطردياً مع مدى انفتاحها خارج حدودها، ص ٧٢٢).

وفي متابعة شائقة لدور مصر ووزنها في المراحل أو الدوائر الثلاث.. منذ القرن التاسع عشر عامة، وما بعد الحرب العالمية الثانية خاصة، يتوصل

تلخيص المصدر في شخصية مصر



إلى ما يسميه المجال الطبيعي (ص ٧٢٣)، ويمثل في العالم العربي على وجه التحديد (.. والبعد الأملئ لسياستنا الخارجية هو البعد الإقليمي الذي يربادف العالم العربي..).

وكما يضع الخطوط تحت مسألة العزلة، يضع مثلها تحت الدائرة الإقليمية من نواتر سياستها الخارجية، وبالدات للمجال العربي منها (.. ويتحدد دور مصر ووزنها في الدوائر الإقليمية بعامة.. والعربية بخاصة، ص ٧٤٢) ويتابع دورها تاريخياً حتى المرحلة المعاصرة التي يرى مصر فيها وقد تدهورت.. ليس من حيث الدور وإنما من حيث المكانة أيضاً، ويعود بدهور المكانة إلى البترول، ويتدهور الدور إلى الصلح مع إسرائيل (ص ٧٤٤)، ويضيف إلى أهمية استعادة مصر لدورها الإقليمي.. مجموعة من الأسس يراها بمثابة قواعد دور مصر السياسي (.. لا أمان ولا مستقبل لمصر إلا بالقوة الذاتية، القوة العسكرية والمادية والاقتصادية، سواء على مستوى الموضع أو الموقع، سواء في الداخل أو الخارج، ص ٧٤٠).

ولا ينتهى الموضوع عنده بذلك.. بل يعاود طرحه من زاوية جديدة.. تحت عنوان «قواعد استراتيجية».. (ص ٧٤٦)، يحاول الإلام فيها (بتركيب مصر الجيوستراتيجي)، مستهلاً ذلك بإثبات ما ينطوي عليه هذا التركيب من عناصر قوة البر والبحر معاً، ويتحلل عمقها الاستراتيجي (ص ٧٤٧ - ٧٥٥)، ومنتهاً إلى ما يسميه «مفاتيح مصر الاستراتيجية» (ص ٧٥٥ - ٧٧٧)، ويحدها بداية في (سيناء في الشمال الشرقي ومرتريكا في الشمال الغربي، والندوة في الجنوب، ص ٧٥٥)، غير أن سيناء تستأثر بجل اهتمامه، حيث يخضعها لدراسة مستفيضة، توظف كافة المعلومات عنها لزائوته الجيوستراتيجية المختارة، مع الربط عضويًا بينها وبين القناة وادى النيل، وفيما يلي بعض أهم ما أورده في هذا المجال.

● (لم يترك الفراغ العمراني سيناء.. أرضاً جاهزة لمركبة العدوان وملامنة لأغراضه فقط، ولكنه تركها نهياً للإطامع الاستعمارية الآن وفيما مضى، وبصفة عامة يمكن القول إنه كان هناك دائماً عدو ما يشكك بطريقة ما في مصرية سيناء.. ويطمح فيها بصورة ما.. بالضم.. بالسلب.. بالعزل أو بغير ذلك. لن نذكر هنا البيع أو الإيجار..)، ص ٧٧٢.

● (.. من الوجهة الاستراتيجية البحتة.. فلم يعد معنى لأن يتوقف ارتباط سيناء بمصر الوادى عبر القناة.. على كوبرى سكة حديد قابل للتدمير.. ثم للتدمير بعد إعادة البناء، لابد من منسلة انفساق تحت القناة تحمل شرايين المواصلات مثلما تنقل المياه، فمثل هذه الانفاق تعد مجازياً بل عملياً، بمثابة إعادة تحقيق للاستمرارية والوحدة الأرضية بين الوادى وسيناء ولزقعة

مصر الجغرافية السياسية عموماً.. رغم وجود القناة..) ج٢ ص ٧٧٧.

●●● (اهتبلت إسرائيل فرصة النكسة لتحقيق خططها القديمة والمروبوغة لورثة القناة نهائياً، ومعروف أن إسرائيل كانت تهدف دائماً إلى سرقة موقع مصر الجغرافي، وتحلم بأسر تجارة المرور منها وتحويلها إليها..) ج٢ ص ٨٠٠.

●●● (.. القناة محكوم عليها بالخطر.. «الراجع».. وموقعنا مهدد أبداً ومنتظام بالإجهاض والشلل الجزئى ما بقيت إسرائيل، ومن ثم يصبح المبدأ الاستراتيجى الأول فى نظرية للأمن المصرى هو مرة أخرى: دافع عن سيناء.. تدافع عن القناة - تدافع عن مصر جميعاً، ولاضمان بالتالى إياها بذهب العدى، غير أن هذه قضية متروكة للعدى البعيد) ج٢ ص ٨١٠.

ويقرر فى الخلاصة (.. وعلى هذا نستطيع.. وفى الختام أن نعبر عن الموقف الجيوستراتيجى كله فى إيجاز.. فى سلسلة من المعادلات الاستراتيجية على النحو التالى:

- من يسيطر على فلسطين.. يهدد خط دفاع سيناء الأول.
- من يسيطر على خط دفاع سيناء الأوسط.. يتحكم فى سيناء.

- من يسيطر على سيناء.. يتحكم فى خط دفاع مصر الأخير.

- من يسيطر على خط دفاع مصر الأخير.. يهدد الوادى.

وهذه بالضبط نواة نظرية الأمن المصرى (ص ٧٢١) فى صياغته الأخيرة. فإذا كان وجود مصر يستند إلى هاتين الدعائتين:

* الموضع.. ومحوره النيل.. بكل ما أدى إليه من اقتصاد وعمران.

«العلمانية هى العقلانية بلا زيادة ولا نقصان، وضد العلمانية هى ضد العقلانية، بينما الدين الإسلامى دعوة إلى العقل وعلى أساس العقل»..

جمال حمدان

بسيطة (.. تستمد مصر أساسها الطبيعى من عنصرين جوهريين.. الموضع والموقع، الموضع هو الوادى العمود المزروع بموارده وإنتاجه، والموقع يتمثل فى تجارة المرور.. وتلخصه وتلخصها الآن قناة السويس غير أن هناك زوجاً جغرافياً آخر كاملاً ووثيقاً وليس يقل خطراً بين النيل والبحر المتوسط وقد أثر هذا الزوج الجغرافى السعيد مصر.. أم الأمم.. أم الحضارة.. أم التاريخ.. أم الدنيا، (٧٨٢)، غير أنه يصعد من فحوره نقطة الخطورة (.. إن الكيان المصرى يستمد أصوله من مصادر خارج الحدود سواء فى ذلك الموضع أى الوادى الزراعى، أو جانب الموقع أى تجارة المرور، (ص ٧٨٢)، وبذا يضع يده على صميم دراما شخصية مصر.. وينطلق منها إلى تحليلاته.

قلب العالم

وكما سبقت الإشارة.. فإن الفصل الأول من هذا الباب يخصصه «لموقع مصر الجغرافى».. وأيضاً فوقه عنواناً (قلب العالم) وتحت عنواناً (عسكرية الموقع)، ويستعمل بما يسميه معادلة الموقع.. (إنها لاتعتنا فقط بالموقع المركزى المتوسط فى قلب الدنيا القديمة، ولابالموقع المدخلى أو موقع البوابة فحسب، ولكن أيضاً بالموقع العقدى البؤرى، (ص ٧٨٤)، ويقتضيه تفسير ذلك رحلة طويلة.. تبدأ بتحليل الموقع

* الموقع.. فى هذه الزاوية نادرة المثال من العالم.. ورمزها قناة السويس.. فما هى درجة صلابة الدعائتين؟ وما هى درجة مثانة مايلعوا من بناء؟.

الاساس والبناء

يخصص الباب السابع من الجزء الثانى لدراسة «البناء المصغرى والاساس الطبيعى» (ص ٧٨١ - ١٠١٨)، ويتضمن ثلاثة فصول (٣٦، ٣٧، ٣٨)، ويخصص أولها لدراسة «موقع مصر الجغرافى».. ويأتى الثانى تحت عنوان «هبة النيل»، ويكمله الثالث بعنوان «ضبط النيل»، يهد لها جميعها بمقدمة قصيرة، يستهلها بهذا السؤال الموحى (.. ما الأساس الطبيعى لبنائنا الحضارى الشامخ الذى أقمناه عبر العصور، بكل مصمولاته من غطاء عمرانى وكيان اقتصادى إلى تراث مادى وبنكلى اجتماعى؟.

هل هو يقوم على أرض صلبة بحيث تتكافأ قوة الأساس substructure مع عظمة الصرح superstructure وما هى نقط القوة والضعف فيه؟ (ص ٧٨١). ويحدد من بعد سؤاله طريقه بسؤال آخر (.. ما طبيعة وتنوع العلاقة فى كياننا البشرى بين الحضارة والبيئة، وبين المصنوع والمطبوع وبين التاريخ والجغرافية؟، وثأتى الإجابة فى معادلة

عميقة إلى موضع مصر (.. إن الماء والطین يتلازمان ويتقاسمان أرض الوادی وثيقاً فی الداخل.. مثلاً يتلازمان الطین والرمل من الخارج، ص ٨٩٥)، ثم يتبعها بأخرى (.. بيئة مصر مطبوعة superimposed على اللاندسكيب الطبيعي، لا يكاد شبر منها يخلو من بصمات أصابع الإنسان أو لا يتشبع بهرقه، ص ٨٩٧).

غير أن لموضعها مشكلاته أيضاً، هذه يحددها ترتیباً.. فی أن مصدر وجوده يأتيه من خارجه، كما أن مائية هذا المصدر ترتبط بالناخ البعيد المتذبذب.. الذي ينعكس فی دورات فيضانه على مر عضورها (.. تراجيدياً) بالفيضان ص ٩٠٣، هذه التي يقننها فيما يسمى «النض الهامشي»، (ص ٩٠٩)، بمثابة قسانون ايكولوجي marginal vibrance لأن وقته اوضح ما يكون فی هوامش للمعمر منها فی قلبه (.. بما يدل على أن النهر ضابط إيقاع جوهري للمعمران فی مصر الفيضية، ص ٩٠٩).

ويتابع فی رحلة تاريخية طويلة «عملية استنزاع مصر» واتجاهاتها (ص ٩١٠ - ٩١٩) يختمها بأن نهاية قانون النض الهامشي قد ارتبط بشرة الرى الدائم فی مصر.. وأن «السد العالي» قد وضع نقطة ختامه بالفعل.

ولأن السؤال الاساسي فی هذا الباب.. هو عن الدعامات الطبيعية لبناء الحضارى فی مصر، فإنه ينتقل إلى تحليل متانة دعامة الطبيعة الوحيدة. كما تتمثل فی مياه النهر، وذلك تحت عنوان «الماء والسياسة» (ص ٩٢٤)، حيث يناقش الماء «كسلاح سياسى، محدداً لب القضية فی هذه العبارة (.. كقاعدة عامة يرى البعض ان دول المصب.. مثل مصر.. هي بالضرورة فی الموقف الاضعف جغرافياً.. فی حين أن دول

تلخيص العصر فی شخصية مصر



المتابع، الماء والطسى)، ويلخص ذلك كله فی (.. كما تتركز كل قوة مصر فی وادی النيل.. تتركز كل قوة حوض النيل فی مصر، ص ٨٩١).

وتحت عنوان «بيئة الرى المثالية» (ص ٨٩٢) .. يقرر (.. وما هنا وعلى وجه التحديد.. نصل إلى جوهر الوجود المصرى وصميم كيان مصر وأساسها الطبيعي، فمصر ليست فقط بيئة فيضية متداخلة نموذجية، وإنما هي النموذج المثالى لتلك البيئة الجغرافية، وهذا یرى مجموعة من الحسابات الطرفية يجسد بها النهر، فهو يعادل من حيث المكافئ للطرى ٩٥ بوصة، وتبلغ جملة مسطحه للمائى ربع مليون فدان، يضاف إليها نصف مليون آخر لشبكة التسرع بمستوياتها والمصارف (جملة أطوالها ١٢٥ ألف كم ص ٨٩٥)، بما يعادل ثمن جملة الأراضي الزراعية (١٦ مليون فدان)، فإذا ما أضيف إليها بحيرتا ناصر والريان.. لبلغت مساحة المسطحات المائية المتصلة به أكثر من ٢ مليون فدان، أى أن أكثر من ربع مساحة الوادى هي مسطحات مائية، ومن ثمة يضيف لسة

الجغرافى الطبيعى (ص ٧٨٤)، ومقارنة الموقع والموضع (ص ٧٨٧) وتذبذب الموقع (ص ٧٨٨)، ودورات الموقع ودواره (ص ٧٩٠)، منتهياً إلى دور القناة.. باعتباره الدور الأخير (ولكنه وحده ثورة كاملة، ص ٧٩٦)، فبالنسبة لمصر.. (كان أبسط معنى للقناة أنها جددت شباب موقعها الجغرافى، ص ٧٩٧)، ويتابعها بإسهاب منذ بدايتها الأولى (.. قد لا تبالغ كثيراً إذا قلنا إن تاريخ مصر الحديث المنعم للتضاضف.. إنما هو فی التحليل الأخير تاريخ القناة، ص ٧٩٨)، ويربط بينها وبين الاستعمار العالمى (ص ٧٩٩)، ثم بينها وبين البترول (ص ٨٠١)، وبالخطر الإسرائيلى (٨٠٥)، ويحذر من الخطر الإسرائيلى الراجح، ويؤكد معادلاته بأن من يدافع عن سيناء يدافع عن القناة، وبعبارة أكثر مباشرة (.. لا أمن لقناتنا ولاضمان بالتالى لموقعنا الجغرافى إلا بذهاب العدو (ص ٨١٠).

● القناة وبدايتها

يعد ذلك وإلى نهاية الفصل دراسة موضوعية للقناة، وتحليلاً دقيقاً لبدايتها المطروحة ويطلق عليها التحديات الثلاثة (ص ٨٢٨)، وتتمثل فی (متغيرات البترول، خطر الأنابيب، الفاقلات العملاقة ص ٨٣٣، منتهياً إلى (.. أن كل الأخطار التي يمكن أن يتعرض لها موقع مصر عارضة ومقتطة.. وليست نابعة من طبيعته، ص ٨٧٥)

وفى الفصل الثانى من هذا الباب (هبة النيل) .. يتناول الشق الثانى من معادلة الوجود المصرى.. أى الموضع، ويستتله بمقولته (.. مصر هي النيل)، ويحدد ما يسميه «بالزمانى العشر» (ص ٨٧٨) للنهر، بمعنى المقومات الطبيعية التي تجمعت له من منابعه لتؤدى به فی النهاية إلى مصبه فی مصر، ومن أهمها بطبيعة الحال (ثنائية

المنبع في الموقف الأقوى، من ٩٢٥)، ويتابع هذه القضية تاريخياً بصفة عامة.. وفي مرحلة الاستعمار بصفة خاصة، وبالأخص (السياسة البريطانية المخططة العائدة للإكثار من السدود والخزانات والمشاريع المائية والزراعية في السودان، من ٩٢٨)، وخاصة خزان سنار وجبل أولياء (.. بما يمكن من التحكم في إيراد مياه النهر، من ٩٢٩)، عدا ما يثار أيضاً بشأن منابع النهر في إثيوبيا، ويتصدى للقضية مستنداً إلى الحقوق القانونية التي تكفلها اتفاقيات توزيع مياه النيل بين دول الحوض من ناحية، وإلى ضمانات الطبيعة (من ٩٣١) من ناحية ثانية، هذه التي تتمثل في ثنائية المنابع أولاً، وفي استحالة كبح المياه الحبشية ثانياً (٩٣٢)، وفي أن الطبيعة قد وزعت مباتها (المطر + النهر) بعدالة بين دول الحوض الثلاث، بحيث يظهر دور النهر محدوداً للغاية بالنسبة لدول المنابع الوفيرة المطر بالفعل، بما يحقق ما يسميه «الكفاية الطبيعية» للجسيم (من ٩٣٦)، ومن ثم يحدد استراتيجية مصر المائية في (مبدأ حسن الجوار + وحدة المصلحة بين دول الحوض + السد العالي)، ويتوضح متانة هذه الدعامة الطبيعية الثانية (الوضع) بعد أن أوضح متانة الأولى (الوقت)، ينهي هذا الفصل.

ويعد ذلك.. لا يعدو الفصل الثالث من هذا الباب (ضبط النيل) أن يكون فصلاً مكملاً لما سبقه، يحل فيه أسس البناء الحضاري أو الصرح.. الذي شيده مصر فوق دعائمين راسخين، وتحت عنوان «تطور الري للمصري» (من ٩٤٤) يتابع مراحل الفن الزراعي.. في رحلة تاريخية كدابه، تبدأ من فجر التاريخ في مصر، حيث يحدد في مراحل أربع (من ٩٤٥ - ٩٦٧)، يضيف خلالها

ولكن هذا أيضاً دور المسيحية العربية على وجه العموم فالأقلية المسيحية في العالم العربي خاصة والعالم الإسلامي عامة هي جسور طبيعية مهددة ومعددة بين الإسلام والمسيحية والغرب والعرب، لتوظف أقلياتنا لتحسين غالبيتنا..

جمال حمدان

من مياهه (١٠٠٢)، كما أنه لا يحصى مصر من خطر الفيضانات العالية (وإن كان مفيض توشكى قد تكفل بهذه المشكلة)، وكذلك فإن ما يوفره من مياه.. يدفع إلى الإلزام في الري (من ١٠٠٣)، كما أدى إلى تفاقم مشكلة الصرف.. بسبب كما سبق (الإفراط في الري + اختفاء الفيضان ميكانيكياً + نوعية المياه كيمياً)، ويقترح مواجهتها بتدعيم نظام الصرف، وتقوية قناتر النهر، وجسوره، والانتشاء.. من مفيض توشكى، والتخصيب الصناعي للتربة، وحماية سواحل الدلتا من التآكل (من ١٠٠٣ - ١٠٠٨). كما يقترح إنشاء قناة جانبية لاستعادة الطمي (١٠١١)، وفي المحصلة وتحت عنوان «السد في اليزان»، يرى بأن (السد هو قبة الري الدائم.. وهو بهذا قمة مزاياء مثلهما هو قبة عيوبه، ولهذا فكما أن السد نفسه ليس الكلمة الأخيرة في الري المصري، فإن المستقبل وحده هو الذي سيقول الكلمة الأخيرة، والحكم النهائي في أمر السد، من ١٠١٨).

ويبدأ وينهي الفصل الأخير (الثامن والعشرين) وكذا الباب السابع.. والجزء الثاني من كتابه الكبير.

العديد من اللمسات إلى قسمات شخصية مصر (الري الصيفي، مرحلة الترع بلا قناتر، مرحلة الخزانات والقناتر، خزان أسوان..)، منتقياً إلى السد العالي (٩٦٨) الذي يخضعه إلى دراسة مستفيضة كموضوع شبه مستقل، يبدأ معه منذ ولد كفكرة، منتقلاً إلى تحليل موضوعه (٩٦٩)، ثم مائتته (٩٧١)، ثم هندسته (٩٧٣)، ثم نتائجه (.. السد والاندسكيب من ٩٧٧)، هذه التي يحددها في ثلاثة (نظام النهر، البحيرة الصناعية، نمط العمران، من ٩٧٧)، ويفصل في نتائجه المادية والاقتصادية (من ٩٩٨).. مبتدئاً بتقرير (.. النتائج الإيجابية لاتقل بالطبع عن انقلاب كامل..)، مثبثاً ذلك هيدرولوجياً وزراعياً وكهربياً، أما آثاره الجانبية (من ١٠٠١) فيلخصها في معادلة واحدة (.. أن السد قد استبد بمجاعة الماء.. مجاعة الطمي..) بكل ما يترتب عن الأخيرة.. من مشكلات تدهور الخصوبة وتآكل السواحل والنصر ونقص المادة اللازمة لطوب البناء.. وهجرة السريين (من ١٠٠١)، ومن ناحية غير مباشرة.. فالسد قد جعل من مياه الترع الرائقة مرتعاً للنباتات.. التي تفقده نحو ٤٠٪

ثالثاً: شخصية مصر الاقتصادية :

بهذا يعنون الجزء الثالث (٩٧٣ صفحة) من كتاب الكبير، والتكامل مفتاحها.. من بعد (اليمسامة + التجانس).. بالنسبة لشخصيتها الطبيعية والبشرية.. على الترتيب، يضعه في باب واحد (الثامن، ص ١١ - ٩٧٣)، ويصنفه إلى ثمانية فصول (من ٢٩ إلى ٣٦)، يخصص الأول منها لتحديد خصائص خريطة الاقتصاد المصري.. كما أسفرت عنها تطوراتها وتغييراتها.. منذ عهد محمد علي.. ومشروعه الاقتصادي الكبير، ويخصص للمزراعة المصرية ثلاثة فصول.. (ص ١٧٣ - ٥٣٨).. عدا ما سبق منها في الجزء الثاني.. تحت عنوان التجانس المادى (فصل ١٦، ص ٥٩ - ١٦٦)، وصيداً يعود دائماً إليه، ويخصص للصناعة في مصر.. أيضاً ثلاثة فصول.. تتبع دراساتها بقدر مناسب من التفصيل، من حيث التطور والتوزيع والتركيب الهيكلي والمشكلات، ثم يخصص الفصل الأخير.. الثروة المعدنية وصناعة التعدين.

والتكاملية عنده في المعنى الأخير.. لا تقتصر على تكامل عناصر البنية الاقتصادية في المكان.. أي من حيث التوزيع، بل هي تتواصل بالتطور عبر التاريخ، وتتوقظ وظيفياً بتبادل المزايا والاستثمار.. وإضافة القيمة للمزراعة بالتسويق والتصنيع، كما تترابط عضوياً مع غيرها من مقومات الشخصية المصرية.. تتبادل التأثير والتأثير.. داخل الإطار الحضارى العام، هي إذن تكاملية متشعبة متعددة.. جغرافياً وتاريخياً ووظيفياً وعضوياً.. فذلك ما يعنيه.. ويسمى لإثباته في هذا الجزء من مشروعه العام.

تلخيص المصر في شخصية مصر



ولا تختلف معالجه لشخصية مصر الاقتصادية عن شخصيتها البشرية، وتتفق نظرتيه إليهما من حيث استنادهما إلى قاعدة طبيعية.. شكلت خصائصهما الأساسية، بما يعنى أساساً مشتركاً لهما جميعاً، كما لا تختلف أدواته التحليلية.. كما تتمثل في المقابلة والمقارنة التاريخية، على طول منحنيات تكشف عن بداياتها وتحدد مصطلحاتها، متضمنة جذباتها وتغييراتها، وما تنطوى عليه من نقاط الضعف والقوة، هي أيضاً لا تختلف من حيث نحت الصياغات الرامية إلى تلخيص نتائجها.. في عبارات مشحونة بفكره، بمثابة أوتاد يرتكز عليها ويمود إليها، وهي أخيراً لا تختلف من حيث الرؤية النظرية العامة.. الهادفة إلى التوصل لحدود التوازن بين مكونات هذه الشخصية بما يسمح لطاقتها أن تتفاعل وتتواصل وتتصاعد.. دون أن تختل علاقاتها أو يتهاكسجها.

ويقدر ما استوعبت مقولته الأساسية عن «التجانس».. عناصر شخصية مصر البشرية وأبرزت مضمونها، بقدر

ما عبرت مقولته الأساسية في هذا الجرن عن «التكامل».. وأتسقت مع عناصر شخصيتها الاقتصادية، الواقع أنه لم يستغن عن التجانس إطلاقاً.. بل جعل منه قاعدة للتكامل لاغنى عنها، ومن هنا فإنه يستهل تحليله لشخصية مصر الاقتصادية بعنوان له دلالة (ج٢ ص ١٢) عن «الأساس الطبيعي للاقتصاد المصري».. باعتباره لن القرار في عمله كله، مردداً عبارة تكررت كثيراً عن أحادية بيئة مصر العمورية.. مضيقاً إليها (..) وقد انعكس هذا على الاقتصاد المصري فكان هو الآخر (أحاديئاً زراعياً) .. وبذا تكامل أيضاً نظريته العامة عن شخصية مصر من الجذور الطبيعية (النهر والبيئة الفيزيائية) .. إلى الجذع البشرى (الريف) .. إلى الفروع والثمار، وبعد أن يطمئن إلى سلامة البناء.. يطلق إلى التفصيلات.. متابعاً التغيرات الكمية والنوعية، ومحدداً المصطلحات الراهنة.. ومشيراً إلى مقومات تطويرها في الختام.

أبعاد التطور الاقتصادي:

كما سبق فإنه يخصص الفصل الأول من هذا الجزء (فصل ٢٩ من ص ١٧٥ - ١٧٥) .. لما يعنونه «بخريطة الاقتصاد المصري»، يبتدئها بقراءة «تطور الاقتصاد الحديث».. يمهدها بتحديد خصائصها التي ارتبطت بها منذ وجدت.. وحتى بدأت تطورها الحديث (..) جوهر الزراعة المصرية تاريخياً.. يتمثل في كونها معاشية Subsistence Economy أي غذائية كسائية، ثم هي مظلة اكتفائية.. تهبط لتحقيق الكفاية الذاتية.. وليس التبادلات التجارية (ص ١٢)، وكانت التجارة محدودة.. قد أضعف منها.. ضرائب الدولة المركزية.. التي كانت تزح النسبة الكبرى من فوائدها.. إلى مخازنها

لتحقيق أهدافها، ورغم ما أنفنى إليه ذلك من إعساقه النشاط التجارى والصناعى، إلا أنه قد حقق نوعاً من التوازن.. كفل لهذا المجتمع الوجود والاستمرارية التاريخية (.. إن الاقتصاد الزراعى يبقى بلا شك.. الأساس للمادى الصلب لقوة مصر التاريخية.. ورخاها وتفوقها، ويكونه اكتفائها هو نقطة قوة.. ولا يجوز أن يعد نقطة ضعف.. كما يظن الذين ينظرون غير منصفين بمنظور اليوم، ص ١٤)، وسيعود إلى هذه النقطة عندما يناقش قضية الكفاية الذاتية.. التى تعد الآن من أهم مشكلات مصر، غير أن استمرارها كنقطة قوة.. يجب أن يقرن بتمتعها وتطورها.. وتنوعها ومضاعفة فوائدها، بحيث تؤدى إلى دوائرها التكاملية، هذه التى تتمثل فى دائرة الصناعة الوطنية.. ودائرة التجارة الخارجية، دون أن يكون ذلك على حساب الكفاية، أى دون أن يختل التوازن بين الدوائر الاقتصادية الثلاث للزراعة (الكفاية + التجارة + الصناعة)، ويعود إلى معادلتها الأساسية (الموضع x الموقع) فى شخصية مصر، حيث يرى أن مصر (لم ترتفع تماماً إلى مستواها، من حيث استغلال موارد الموقع.. بالتجارة أساساً.. إلى القدر الذى وصلته بالزراعة فى استثمار موارد الموقع، ولو قد فعلت لتغير اقتصادها.. وبالتالي كيانها جديراً، ولعاشت تاريخها منذ وقت مبكر على ساقين من الزراعة والتجارة.. بدلا من ساق الزراعة الأحادية، بل ولاتفتح بذلك ويعد ذلك أيضاً.. مجال الصناعة.. كما حدث فى أوروبا، ولتغير باختصار كل تاريخها ومصيرها على الأرجح، ص ١٦).

بهذا يضع يده على جذور المشكلة الاقتصادية المصرية المعاصرة؛ وإذا كانت مصر قد دخلت منذ القرن الماضى.. مرحلة من التطور الجذرى..

هذا شعار المسلمين للمسيحيين، أساس التعايش السلمى بين الديانتين هو الاعتراف المتبادل، الاحترام المتبادل، الإخاء المتبادل، ديفانتان وعالم واحد، ثقافتان وحضارة واحدة، نحن معا ووجدنا فقط الذين صنعنا الحضارة القديمة والحديثة .

جمال حمدان

يسميه الاقتصاد القديم.. بما فيه عصر محمد على وما أعقبه من تغيرات شملت الزراعة والتجارة، وحتى نقطة التحول التى يبدأ بها الاقتصاد الجديد.. ومصوره الصناعة، ويكلف تحليلاته ومتابعاته (الاقتصاد القديم أولاً.. كان اقتصاد زراعة أساساً، وزراعة محصول واحد، بهدف الكفاية ثم التصدير منذ عصر محمد على تحديداً وصناعة مصدولة، صناعة بلا معادن تقريباً، وارادت الاقتصاد زراعياً فحسب.. ولكنه اكتسبائى تماماً.. معظم المرحلة الاستعمارية. أما الاقتصاد الجديد.. فببدا يكون الآن اقتصاد صناعة أولاً.. وزراعة فى المحل الثانى، وزراعته زراعة تصنيع بدلا من التصدير، إلا أنها غدت بعيدة جداً عن الكفاية، أما صناعته فصناعة لإحلال محل الاستيراد، ولأول مرة صناعة وتعدديتاً معاً.. لاصناعة بلا معادن، ص ١٩)، وتنطوى هذه الفقرة المكثفة.. على جملة المنحنيات التى يتابع عليها تطور الاقتصاد المصرى، ويستند إليها فى معظم تحليلاته التالية.. فى

فإنها جاءت متأخرة.. فضلا عن أنها اضطرت (لاقتراض اقتصادها الحديث من أوروبا، ص ١٦).. مما سيؤدى رغم المحصلة الإيجابية.. إلى مشكلات متفاقمة كما سيأتى.

والآن.. وقد بدأ الاقتصاد الحديث منذ أوائل القرن الماضى.. مع انقلاب الرى والزراعة.. فهل يمكن تقسيمه منذ بدأ إلى مراحل متميزة؟، ويجيب.. (.. يمكن أن نقسمه إلى ثلاث مراحل: مرحلة الاقتصاد الانقلابى.. نسبة إلى انقلاب محمد على، فالاقتصاد الاستعمارى.. مع الاستثمار البريطانى والاقتصاد الثورى.. مع ثورة يوليو، ص ١٧)، وقد أدت جميعها إلى تغير الاقتصاد المصرى تغيراً جذرياً.. يصفه بأنه (..يكاد يصل إلى حد الانقلاب الكامل، ص ١٧)، ويفيض بعد ذلك فى تحليل خصائص كل مرحلة منها، ويحدد فى سياقها.. ما يعتبره نقطة التحول الكبرى فى تاريخ مصر الاقتصادى.. تلك هى (الحرب العالمية الثانية وما تلاها، ص ١٨)، هى الحد الفاصل بين ما

فصول الباب الثامن من كتابه، ويعود إلى هذا الاقتصاد الجديد في سياق آخر، يكشف فيه عن مقوماته وعيونه..

.. ويتلخص جوهر الاقتصاد الجديد في أنه جمع لأول مرة بين ثلاثة إبعاد أساسية: الزراعة الكثيفة ذات المحاصيل الجديدة التجارية، والصناعة الحديثة على أسس عصرية عريضة، ثم أخيراً التجارة الخارجية التي تربط بين الزراعة والصناعة، وتربطهما بالسوق العالمية الجديدة، وذلك كله لم يعد الاقتصاد المصري أحاديًا بصورة معوجة تمامًا مثلما كان من قبل، كما كان في ذلك بداية ارتباط الاقتصاد المصري كله بالاقتصاد الغربي أو الأوروبي العالمي (ج ٢ ص ٢١).

فإذا أضفنا إلى هذه الثلاثية الأساسية.. ثلاثية البترول وثروته التي احتلت صدارة الاقتصاد كله، ثم تحويلات المصريين الوافدة من خارج الحدود، فضلًا عن موارد السياحة، لصح أن نقول إن شجرة الاقتصاد المصري للمعاصر.. إن لم تكن بمثابة شجرتين توأمين، فإنها أجد أن تشبه بالنخلة: الزراعة جذورها، والصناعة ساقها، والتجارة فروعها، بينما البترول والتحويلات والسياحة عراجينها. (ج ٢ ص ١١١).

ويوجه عام فإن هذا الاقتصاد الجديد حيواني.. كان على ضخامته أشبه بقطاع عصري فرض فرضًا على قاعدة اقتصادية تقليدية عتيقة، بلا علاقات عضوية وثيقة تمامًا، ولذلك كان اقتصادًا ثنائيًا Dual Economy بمعنى تعايش صرح عصري مع قاعدة عتيقة.. في حالة تجاور أكثر منها حالة تفاعل (ج ٢ ص ٢١).

هذا البناء الضخم يعانى من الأساس إلى الصرح العديد من العيوب والثلثوب والشرخ والشقوق بعضها

تفخيص المصدر في شخصية مصر



فبعدما ينتهى مما قبلها، يتوجه لها.. بفقرة مكلفة تكشف نظرتة ومنطله.. ثم يتابعها تفصيلًا.. (ففى الاقتصاد.. كما فى السياسة.. جاء يوليو بمعطيات جديدة، أقلها ما تحقق.. وأكثرها ما تحقق عكسه، بحيث انقلبت هي على نفسها، وانتقلت من النقيض إلى النقيض تمامًا، (ص ٤٤)، ويضيف.. (لكنها لاتخلو مما يجعلها موضوعيًا.. شبه ثورة اقتصادية حقيقية بمعنى ما، (ص ٤٥). ويقسمها إلى مرحلتين (الانطلاق والانزلاق.. بديلًا عن الانفلاق والانفتاح، (ص ٤٦)، على طرفي النقيض، تشغل كل منهما نصف المرحلة تقريبًا، ويصد إيجابيات الأولى.. فى سعيها نحو الاستقلال الاقتصادى (ص ٤٧).

ومحافظتها على الأمن الغذائى والصناعى (ص ٥٠)، واعتصامها بالاستقلال المالى (ص ٥١)، وهى بذاتها سلبيات المرحلة الثانية، مدعماً مقولاته بالمؤشرات الإحصائية.. المستندة إلى أرقام الجداول، كما يتخذ من الإصلاح الزراعى فى المرحلة الأولى (ص ٥٧) مقياساً يجرى عليه مقارناته، ويربط ما بين دور البترول العربى وبين التحول للمرحلة الثانية (الانفتاح).. أو الانحراف نحوها على حد تعبيره.....

... من المحقق أن البترول العربى - مثلاً فى تحويلات المصريين العاملين فى دوله، فضلاً عن تأثيراته وانعكاسه وعدها هو الذاتية، خاصة بعد طفرة عائداته الخرافية منذ ١٩٧٣، كان أكبر عامل خارجى منفرد أثر فى الاقتصاد والمجتمع المصرى مباشرة وغير مباشرة، مثلما كان أكبر عامل منفرد فى توجيهه - أو إن شئت فقل تحريف - سياسة مصر الخارجية تجاه العدو الإسرائيلى، ويوضح أكثر.. البترول العربى عامه هو أكبر سبب فى انصراف السياسة المصرية خارجيًا نحو السلام،

موضعى ثانوى ويعضها عميم خطر، ولكنها فى مجموعها تتركه مغفلاً، وبعض هذا الخلل كامن فى تركيب وهيكلاقتصاد نفسه، وبعضها تراكمى فى تطوره ونموه غير المتكافئ أو المتوازن، غير أنه على الجملة يترك الاقتصاد كله زائراً بالتناقضات والتشوهات والتقلصات الفريضة، (ص ١١١)، هذه التى تفاقت مع التحول الحاد المفاجئ.. بالانفتاح فى سياسة الدولة الاقتصادية العامة، ويؤكد الصورة (..) وجماع ذلك فى المحصلة العامة، هو أن مصر تحولت ببساطة من الإقطاع القديم إلى الرأسمالية الفريضة، عبر مرحلة انتقالية من رأسمالية الدولة أو الاشتراكية المكمومية، ويتخذ من هذا الميراث للعقد المتناقض.. منبًلاً كما سيأتى.. لتحديد مشاكلها الاقتصادية العديدة.

والواقع أنه يوجه عنايته فى الفصل الأول من جزئه الرابع (فصل ٢٩ ص ١٧ - ١٧٥)، إلى تغيرات الاقتصاد للمصرى.. بعد ثورة يوليو بصفة خاصة (مرحلة الاقتصاد الثورى، ص ٤٤)،

وتحويلات البترول العربى خاصة هى
أكبر سبب فى انحراف الاقتصاد لدخليا
نحو الانفتاح.

وعلى الجملة.. فإن البترول العربى
بحد ذاته وتحويلات.. قلب كيان مصر
راساً على عقب وحتى النضاج مرتين، من
الخارج ومن الداخل.. أفقياً ورأسياً،
خارجياً: إذ قلب مكانة مصر فى العالم
العربى من المصدارة والعروية
والمصراع.. إلى الصلح والعزلة والعراء،
وبدخلياً: حيث قلب جزئياً نظام الطبقات
وترتيبها الاجتماعى، فجعل بعض عاليها
وسطها، وبعض وسطها سافلها، وبعض
سافلها وسطها أو عاليها، (ص ٦٥).

ومع «الإصلاح الزراعى» كمؤشر
إيجابى من المرحلة الأولى، ودور
البترول كمؤشر سلبي من المرحلة
الثانية، يجزئ نوعاً من المقابلة للمقارنة
بين التنمية الصناعية الإنتاجية،
واستولائية الانفتاح الاقتصادى (.. ففى
عصر أصبحت فيه القوة الصناعية هى
نواة وعناد وزناد القوة الاقتصادية
الضاربة، كان من الضروري تحقيق
الأمن الصناعى كجزء من الأمن
الاقتصادى العام، ولعل هذا يفسر
الإصرار على إقامة نواة للصناعة
الثقيلة بحسبانها أساس الصرح
الصناعى برمته، جنباً إلى جنب مع
القطاع العام كصاحب الدور القيادى فى
التنمية جميعاً. ورغم أن الاستقلال
الصناعى الكامل أو شبه الكامل لم يكن
وإزداً، فإن القطاع العام الجديد مع بداية
التخطيط - على علاقتهما - أثبت قيمة
كبرى حين ساعد بصورة عملية على
صمود مصر سياسياً واقتصادياً بل
وعسكرياً.. فى وجه الضغوط الخارجية
النيئة.. خاصة بعد هزيمة يونيو.. ج ٣
(ص ٥١).

ورغم أن سياسة الانفتاح إنما
لرغبت لتنشيط ونهج الاقتصاد الوطنى

التعليم..

- فى كل الدنيا - أوروبا وأمريكا أيضاً -
هناك الآن وحتى اليوم وكان هناك دائماً
تعليم دينى خاص، تخصص لقلة محدودة
جداً من المتعلمين لتغذية الجهاز الدينى (أى
الكنيسة) وهناك طبعاً من التعليم المدنى
الكاسح ويشمل ٩٩ ٪ من المتعلمين لأنها
علوم الدنيا أى الحياة.

جمال حمدان

المتشابكة... (ص ١١٩)، ثم يحصرها فى
خمس مشاكل محددة:

- الانفجار الاستهلاكى (ص ١١٩).
- التضخم: الإنتاج والدخل القومى
والفردي (ص ١٢٥).
- الدين الخارجى (ص ١٣٠).
- المرافق والخدمات (ص ١٣٥).
- الغلاء (ص ١٣٦).

وبعدها يتابع كل مشكلة منها
تاريخياً وتحليلياً ورقمياً.. يضع عنوانه
الختامى فى هذا الفصل (ملائح الأزمة
ص ١٤٦)، مقدراً (.. ورغم كل ما سبق
ذكره.. فإن أزمة مصر الاقتصادية قابلة
للحل.. وذلك فى إطار سياسة قاطعة
صارمة.. تهدف إلى تعظيم الإيجابيات
وتحجيم السلبيات فى الهيكل الاقتصادى
الراهن، تعظيم الاندثار والاستثمار
والإنتاج والدخل القومى والفردي إلى
الحد الأقصى، وتحجيم الإنفاق
والاستيراد والاستدانة، ويمكن أن
نضيف الأسعار بل والسكان إلى الحد
الأدنى ص ١٤٩)، ويؤكد (.. تستطيع

فى مجمله، فإن سياسة الباب المفتوح
والإغراق بالاستيراد، وتشجيع القطاع
الخاص والراسمالية الوطنية ورأسمالية
الشركات متعددة الجنسيات... أصابت
الصناعة الوطنية والقطاع العام.. بنكسة
خطيرة على أقل تقدير، أبسط مظاهرها
مخزون الراكد الصناعى الذى قدر بنحو
٣ - ٤ آلاف مليون جنيه، كما انعكس فى
ترجيع كثير من خطوط الصناعة المحلية
فى التصدير بما فى ذلك حتى غزل
القطن ومنسوجاته، وحتى القليل من
الصناعات التى دخلها الانفتاح اتجه إلى
الصناعات الكمالية ولا نقول الطفيلية
كالفازيات والمرطبات، بالمقارنة إلى
الصناعات المهمة كالنسيج والسكر
والحديد، بينما هوى أكثره إلى
النشاطات غير الصناعية أصلاً،
كالأعمال التجارية والخدمات العامة..
سريعة الربح والعائد ج ٣ ص ٥٥ -
(٥٦).

وتحت عنوان «أزمة مصر
الاقتصادية».. التى يصفها بأنها تبدو
(.. مثل كومة معقدة من الخيوط

والذرة والقصب والأرز والبسبانيات، واستمرار البرنامج كقاعدة.. يستند إليها هرم الزراعة المصرية بأسره، ص ١٨٣)، ويضيف.. (.. كقاعدة عامة يمتاز المركب المحصولي المصري بقدر معتدل من الرقوة، ومنذ اتخذت هيكلها الأساسي.. فإن عناصرها تدور حول متوسطها التقريبي لكنه يتعرض منذ السبعينيات.. لما يشبه الشنود الاتحرافي عن هذه القاعدة، ص ٢٠٧)، ويعود ويقيم وضعها في نظرة شاملة (.. إن أبرز ما يميز المركب الزراعي قيم متغيرة.. إن لم نقل متذبذبة، تضع الزراعة المصرية جميعا في حالة سيولة وانصهار بالغة A state of Flux .. تجعلها في مفرق طرق حقيقي وربما تاريخي بحيث لا يمكن التنبؤ بهيكلها في المستقبل (المطور) ويخصص نظريته بالنسبة للسبعينيات.. (.. ثمة مع ذلك، خاصة في العقد الأخير، تطورات واضحة وقيم متغيرة في مساحات المحاصيل المخططة، وفي أهمياتها النسبية، تضي في مجموعها بانقلاب صامت في الزراعة المصرية والواقع أن زراعتنا تمر حاليا بمرحلة مخاض وتطور وتغير حرجة بقدر ما هي حاسمة، وربما تتسارع وتتصاعد أكثر في المستقبل القريب، ولا ينبغي في كل الأحوال لقريبها مآل أو لقربنا منها أن تخفي عن عين الباحث الملاحظ، ويكمن السد العالي بالقوة أو بالفعل خلف هذه المرحلة، ولكن جزئيا فقط فرغم أنه أحدث ثورة كاملة في الري، إلا أن ثورة مماثلة وعلى المستوى نفسه في الزراعة نفسها لم تراكبه، ص ٢٠٧)، بل إنها تعرضت لثورة مضادة.. أصابتها بما يسميه «الشنود الاتحرافي» عن دورها الأساسي، ويعود بهذا الشنود إلى

تلخيص المصر في شخصية مصر



مصر أن تضاعف دخلها القومي مرات.. وذلك بالتصنيع الكامل لكل زراعته وخاماتها وإنتاجها.. بالإضافة إلى الخدمات العليا..، وهكذا يجعل من التصنيع المفتاح الرئيسي لحل الأزمة، مدعماً ذلك بمقارنة دالة بين الوضع في مصر.. وبينه في كل من الصين واليابان (ص ١٦٠ - ١٦٤)، ويضيف إلى التصنيع.. المجال السياحي (ص ١٦٨)، وتطوير التجارة.. وخاصة في مجال النقل البحري (ص ١٧٤)، وغير ذلك مما يضيف تباعاً وتفصيلاً فيما يعقب هذا الفصل من فصول.

الزراعة المصرية:

يفرد الفصل الثلاثة التالية (٣٠، ٣١، ٣٢، ص ١٧٦ - ٥٢٧) للزراعة المصرية حصداً، يغطي بها تغيرات مركبها المحصولي أولاً، ثم تكتيفها مكانياً ونمو متوسطاتها الإنتاجية (التوسع الرأسي) ثانياً، ثم تغيرات مساحتها (التوسع الأفقي) .. ثالثاً، مستنداً في تحليلاته إلى ما سبق تحديده.. من منحنيات التطور الاقتصادي العام.. في مقوماته وبوافقه، سواء منحنى التطور من الاقتصاد الميشي.. إلى اقتصاد الفائض والتركيب، أو منحنى تغير المرتبة بين الزراعة والصناعة.. في الإطار الهيكلي.

ويأتي الفصل ٣٠ (ص ١٧٦ - ٣٥٠) تحت عنوان «الزراعة المصرية.. من الخريطة إلى التخطيط»، ويعني بذلك تطور الزراعة المصرية من اللقائبة الحرة التي عرفتها مصر طوال تاريخها، لا تضبطها سوى ظروف بيتبها وحدها.. وبها تشكلت عضويًا وإيكولوجيًا معاً، إلى نوع من التخطيط الموجع في إطار سياسة عامة توضع لها، تحدد مساحات محاصيلها ونوعيتها.. بدرجات متفاوتة،

كما تضع لها السياسة التسويقية لبعضها.. في أعلى درجات تدخلها.. في إطار تنظيمها، ويبدأ تاريخياً مع ثورة يوليو.. التي جعلت من التخطيط القومي بعداً ثالثاً في سياساتها للتنمية (ص ٤٦)، والواقع أن الخط الفكري للفصل يتمحور حول مقومات الاستمرارية الأيكولوجية في الزراعة المصرية من ناحية، وبواقع تنظيمها في إطار خطة عامة.. من ناحية ثانية، ومن ثم دار موضوعه حول المركب المحصولي.. باعتباره مرآة عاكسة.. لحصلة الاستثمارية والتنظيم معاً، ومن ثم الكشف عما تنطوي عليه هذه المحصلة.. من مشاكل مزمنة بسبب الاستثمارية أو طارئة متفاجئة.. بحكم التنظيم سواء فكرته أو أجهزته.

ويعد متابعة قصيرة.. لتغير المركب المحصولي في مصر التاريخية إلى عصر محمد علي وما بعده، يفيض في متابعة تغيراته في العقود المصرية الأربعة، ويتمثل أبرزها في إعادة ترتيب مكوناته (.. تراجع القمح، وتقدم القطن

- ليكن أقباطنا هم همزة الوصل أداة الربط ورابطة الصداقة بين المسيحية والإسلام كما بين مصر والغرب .

جمال حمدان

سماك)، أى فقيرة جداً فى الثروة السمكية بالمستوى العالمى، فلإنتاج الفدان المائى عندنا ٢٠٠ كجم سنوياً مقابل ٨ أطنان فى بعض الدول فى الخارج.

ومن هنا فلن الأمل فى توفير الغذاء البروتينى الرخيص الغزير معقود على الأسماك فى الدرجة الأولى، غير أن هذا لا يأتى إلا بتشوير الإنتاجية وظروف الاستغلال وفتح أى غز مصاديد جديدة، والاتجاه الآن هو إلى التوسع فى مزارع الأسماك، خاصة حقول الأرز كالمصين، ومن الممكن أن يصل إنتاجها إلى مثل إنتاجنا الحال على الأقل، ويرى البعض أننا نستطيع وينبغى أن نستزرع ١٥٠ ألف فدان بالمزارع السمكية، مع استخدامها فى الوقت نفسه كمزارع للأرز، تعادل مليون فدان مساحة محصولية، وتنتج ٢٥٠ ألف طن سمكاً سنوياً، قابلة للزيادة، وفى مشروع آخر أن يستزرع السمك فى مليون فدان أرز دفعة واحدة، بمحصول قدره ١٠٠ كجم للفدان سنوياً، وهناك أخيراً فكرة لإنشاء أحواض سمكية معلقة على طول امتداد ضفاف النيل لتربية مكثفة واقتصادية ورخيصة، وخاصة على ضفاف بحيرة ناصر، حيث يمكن للأخيرة وحدها أن تغل ٨٠ - ١٠٠ ألف طن سنوياً، (ص ٦٢٢).

أو تذييل للزراعة والإنتاج الزراعى، غير أنها تغيرت فى عقود السنين الأخيرة.. (.. لقد تضاعفت كثافة الحيوان بالنسبة إلى المساحة الزراعية.. خلال ربع القرن الأخير تقريباً، من ٤١ رأساً لكل ١٠٠ فدان سنة ١٩٤٥، إلى ٧١ رأساً فى ١٩٨١).. ويعقب (.. غير أن هذه الزيادة لا تعكس نمو الثروة الحيوانية.. بقدر ما تعكس جمود الرقعة الزراعية، من ٢٥٧، والأهم أن الفارق بين الإنتاج والاستهلاك.. يعكس استمرار انخفاض الكفاية الذاتية (.. والمشكلة الغربية والمزعجة حقاً.. أن من الأوفر اقتصادياً أن نستورد ما نحتاجه من الإنتاج الحيوانى.. من أن ننتجه، ص ٢٥٩)، ويقدم الحل فى سياق لخر (.. والمفتاح الصحيح.. أن مصر إنما جعلت لتكون مزرعة دواجن عظمى poultry farm، أكثر منها مزرعة حيوان dairy farm، ص ٢٢٥).

وبالنسبة للموارد السمكية (.. فرغم تضاعف إنتاج مصر خلال العقود الأخيرة.. إلا أنه لايزال دون إمكاناتها واحتياجاتها، ص ٢٦١)، ويعد ما يتابع إحصائياً تطور إنتاجها فى السنين الأخيرة يقرر.. (.. ومن الواضح فى النهاية أن مصر رغم كل سواحلها وبحارها ونهرها وبحيراتها، غير

سياسة الدولة الزراعية.. من إخضاع محاصيل بعينها للتسعيرة الحكومية، وفرض نظام التسويق بالثوريد، مما أدى إلى تهريب الفلاح من زراعتها (.. إنها ليست محاصيله.. بل محاصيل الحكومة، ص ٢٠٩)، ومن ناحية ثانية.. فقد حدث تحول (من زراعة الألياف إلى زراعة الأعلاف) استجابة لقوى الطلب الاستهلاكى المتنامية على اللحوم.. فى عصر الانفتاح، مقترنة لذات الأسباب

(.. بموجة غامرة من التحول إلى المحاصيل البستانية.. لتحقيق ربما أكبر ربحية متاحة فى مجال الزراعة، ص ٢١١)، يدل على هذا التحول.. (إنها تحقق نحو ١٠ أمثال القطن أحياناً، ص ٢١١)، ويضع على الفور الخطوط تحت المشكلة الأم فى الزراعة المصرية.. وتتمثل فى (.. اشتداد قصورها عن حد الكفاية الذاتية، وخاصة الكفاية الغذائية، وبرزت بجدّة مشكلة الفجوة الغذائية، وتحولت مصر لأول مرة فى تاريخها الحديث.. وربما تاريخها كله.. إلى دولة مستوردة للغذاء والمصوب، بل لقد وصل الاعتماد على الخارج إلى نصف حاجتنا الغذائية، وإلى نحو ثلاثة أرباع استهلاكنا بالذات، لقد انقضى الأمن الغذائى مثلما انتهى الاستقلال الاقتصادى..) وسيعود إلى هذه المشكلة تكراراً وبالتفصيل.

الموارد الرعوية والأسماك :

ويقضيه مشكلة الغذاء.. أن يتابعها بالنسبة للموارد الرعوية والأسماك، فمصر فقيرة فى مواردها الحيوانية.. (مصر بالجغرافية ليست دولة رعى ومراع، ص ٢٥٧)، ومن الناحية الاقتصادية.. فقد كانت النظرة لإنتاجها الحيوانى.. على أنه مجرد مكمل ثانوى..

تلخيص المحاضرة فى شخصية مصر



الراهنه.. هو تحولها من وحدة منتجة تقليديا.. إلى وحدة مستهلكة باطراد، فيبعد أن كانت القرية تغذى نفسها والمدينة - الاستهلاك المحلى والصائر إلى الخارج - أصبحت تستورد بعض غذائها من المدينة، والمدينة تستورده لها كما لنفسها من الخارج، بما قد يتيح تقسيم تاريخنا الاقتصادي الحديث من حيث الكفاية الغذائية إلى ثلاث مراحل عامة وعريضة: مرحلة فائض غذائى وتصدير إلى الخارج، ثم مرحلة اكتفاء تقريبا مع تصدير.. ولكن لا إلى الخارج.. وإنما من القرية إلى المدينة، ثم أخيرا مرحلة العجز الغذائى والاستيراد من الخارج للمدينة أولا.. ثم لكل من المدينة والقرية على حد سواء، (ص ٢٨٠).

فما حجم هذه الفجوة الغذائية الآن؟ إنه يقدر هذه الفجوة بشتى أساليب التقدير، بالأثمان والأحجام والعلاقة بين الصادرات والواردات (ص ٢٧٠ - ٢٧٧)، ثم يجرى بها فى أبسط صورة ممكنة بما يسميه المساحة المستوردة.. حيث يقدرها بما يعادل المساحة المزروعة فعلا.. أى أن مصر تحتاج إلى مساحة زراعية تعادل مساحتها الراهنة، كى تسد فجوة عجز إنتاجها الغذائى عن كفايتها (ص ٢٧٧).

ومن بعد.. فما هى الحلول المطروحة لحل المشكلة؟ وما هى احتمالاتها؟

تأتى مناقشة هذه الحلول والاحتمالات تحت عنوان "أمل المستقبل" (ص ٢٨٦) ويستبعد منها القمع بداية (إذ لا أمل زراعى، ولا جدوى اقتصاديا فى تحقيقه على أية حال ص ٢٨٦). بل ويضيف إليه بقية الحبوب (.. الكفاية فى الحبوب مستحيلة تقريبا.. ولعلها غير مطلوبة عمليا، ص ٢٨٨) مفسرا، ذلك

ويعود الاختلال إلى تزايد التوجه نحو محاصيل العلف المرتبطة بإنتاج اللحم والألبان، وكذلك إلى المحاصيل البستانية، فى مقابل الهروب من المحاصيل المسعرة عشوائيا، وغير العائلة، والتي لا تؤدى - حتى القطن - إلا إلى هاشم ربيع ضئيل، خاصة هذه التى تشتريها الحكومة من الفلاح بنصف سعرها فى السوق، وبذا لم يعد المركب المحصولى يعبر تعبيراً حراً طبيعياً وصحيا وتلقائيا تماما عن القوى الجغرافية السوية، بقدر ما يعبر عن قوى اقتصادية غير قوية أو سوية (ص ٣٦٥ - ٣٦٨ ج ٣).

وبالنسبة للسكان.. تتعدد أيضا ظواهر الاختلال، يتصدرها الانفجار السكانى، وتطور أنماط الاستهلاك، والهجرة من الريف، والانفجار الاستهلاكى المرتبط بالترول (ص ٣٦٨ - ٣٧٨ ج ٣)، وتعد القرية المصرية نموذجا للمشكلة بأكملها.. وأيضا لظواهر الاختلال (... ولعل أسوأ ما يعبر عن موضوع أزمة القرية المصرية

ويعود إلى القضية المؤثرة (قضية الكفاية الذاتية) ويشبعها تحليلا وتقصيلا إلى نهاية الفصل (ص ٣٦٢ - ٣٥٠).

من الكفاية إلى العجز:

- إنه لا يكف عن وضع الخطوط أسفل قضية (الكفاية الذاتية) .. خاصة الغذائية، محذرا خطورتها فى أن مصر تستورد نصف احتياجاتها الغذائية إجمالا، وثلاثة أرباع احتياجاتها من القمح تقريبا، بينما كانت تقليديا وحتى الحرب العالمية الثانية تتمتع عادة وعامة بالكفاية الذاتية فى معظم محاصيلها، مع فائض قل أو كثر للتصدير، وهى إذ فقدت كلية هذه الميزة.. فقد ضاعت أيضا فرصتها بالعودة إليها، إذ تحولت إلى دولة مستوردة للغذاء نباتيا وحيوانيا بصورة مخيفة (ص ٢٦٣)، إنه الشذوذ الانحرافى الذى سبق وحده.. ويؤكد مرة أخرى متسائلا (.. والسؤال الآن.. من أين وكيف نشأت هذه الفجوة الغذائية؟ ص ٢٦٥).

تتعدد بالطبع الأسباب يتصدرها اختلال العلاقة بين الإنتاج والاستهلاك (.. أوبين الزواجة والسكان ص ٣٦٤)، فقد تعرض الإنتاج الزراعى للجمود.. بحيث لم يعد معدل نموه السنوى يجاوز ٣ ٪ فى الفترة الأخيرة، بينما يتزايد استهلاك الغذاء كل عام بمعدل ١٢,٥ ٪ على الأقل (ص ٣٦٥)، ويعد الجمود تاتى نقطة الضعف الثانية فى الزراعة متمثلة فى اختلال المركب المحصولى، نتيجة اختلال النظام السعري يرمته، مما دفع ويدفع بالمركب إلى التحيز الطاغى إلى محاصيل معينة من جهة، ويخلق اختناقات حادة فى محاصيل معينة من جهة أخرى (ص ٣٦٥)،

بارتفاع تكلفة إنتاجها.. بالمقارنة مع غيرها، ومن العيث إهدار أرض مصر الخصبة في زراعتها، والأولى زراعة غيرها العالية الثمن.. بما يمكن من شرائها واستيرادها.. مع تحقيق وفورات كافية، ثم يرتب ما يراه ممكنا ومحببا، ويتمثل في التوسع الرأسي الذي يمكن أن يسند الفجوة الغذائية (الحبوب) بمقدار النصف (ص ٢٨٨) .

ويضع الخطوط سميكة أسفل **ترشييد الفاقد** (ص ٢٨٩)، حيث تهدر مصر بسببه ما يعادل بضعة ملايين من الأقدنة المصصلية (ص ٢٩٠)، ويعدد بالوعات الفاقد وأسبابه، بداية من سوء التخزين.. إلى القوارض من الجردان.. ولصوص البشر (ص ٢٩٢)، ويقيمه كميا بالنسبة لكل محصول على حدة، متابعا عملية إنتاجه من بذره إلى حصاده، ومن الحقل إلى السوق أو الصومعة، ومن بعد يقرر (..) وكصورة عامة جامعة.. ثمة تقدير حديث لفاقدنا الغذائي والزراعي.. يغطي الإنتاج المحلي والمستورد على السواء، **فالأول..** يضع منه ويثقل ١٠ % على الأقل، حسب هذا التقدير، ويمكن تقدير فاقد الحبوب بقراءة المليون طن، والقمب مثلهما، وجملة المحاصيل الغذائية النباتية بحوالى ٣٨ مليون طن، أما الإنتاج الحيواني والسمكي.. فلا يقل ناقده عن نصف مليون طن، وبذا تبلغ جملة فوادم مصر من الإنتاج المحلي بقراءة ٣٨ مليون طن سنويا، بخلاف قيمة النواتج الجانبية والثانوية لتلك الحاصلات، عدا الواردات الغذائية.. التي لا تقلل في الأخرى من الفاقد والتبديد، (ص ٢٩٣).

وتبعنا لخطته.. يأتي ترشييد الفاقد.. قبل تخطيط الزراعة (..) ذلك الفاقد الذي

.. وهذا ما حدث بمصر تماما كان التعليم الوحيد هو التعليم الدينى الأزهرى التقليدى بكل بساطة لأنه لم تكن هناك علوم علمية وضعية.. ولم يكن هناك «علم»، ولم يكن هناك «عصر العلم»، كان هناك فقط عصر الدين وعلم الدين.

جمال حمدان

ويستدعى هذا الهدف تطبيق المبادئ الأساسية الثلاثة المقررة في استغلال الأرض وتخطيط الموارد عموما.. وهى الاستغلال الأعظم maximum use والاستغلال الأنسب optimum use والاستغلال المتعدد multiple use، وبهذا الشكل تتحدد عناصر تخطيطنا الزراعى فى أربعة تداعى منطقيا كما يلي: (ص ٢٩٦)

- * تخطيط الهيكل المحصولى.
- * التوسع الرأسى.
- * تخطيط الأرض.
- * التوسع الأفقى.

ويستغرق تحليلها فى إطار مبدأ عام يقرره (..) ينبغى أن تكون البرصلة الوجهة.. هى كيفية تحقيق الحد الأقصى من العائد الحقيقى والقيمة المضافة إلى الاقتصاد القومى، وهذا يعنى الحد الأقصى من اثنتين.. الكفاية الذاتية الغذائية والصناعية فى الداخل، والكفاءة التصديرية فى الخارج، وهذا بدوره يعنى الحد الأقصى من الحبوب الغذائية، والحد الأقصى من الحاصلات التجارية.. على الترتيب، (ص ٢٩٩).

يسخر من عملية الإنتاج نفسها، مثما يسخر من عملية تخطيطه.. قبلها أو بعدها، حيث يبدو معها كمن ينفخ فى قربة مثقوبة، (ص ٢٨٩)، ومن ثم يأتى عنوانه « **التخطيط الزراعى** ».. (ص ٢٩٣).. تاليا لتوصيته بترشييد الفاقد كما سبق.

التخطيط الزراعى:

نظريا.. فإن قضية التخطيط للزراعة المصرية.. قضية معقدة مزمنة، أشبه بمعالجة متعددة الأطراف ومتشابكة، ولكنها باعتبارها قضية أمن قومى تستحق المحاولة، فى إطار من الاستراتيجية العلمية المباشرة (.. وتطبيقيا فإن لب استراتيجية الزراعة تتلخص فى التعظيم Maximisation والإنتاج، يعنى تحقيق أكبر قدر من الاستثمار والاستغلال للمواد المتاحة بأكبر طريقة اقتصادية ممكنة سواء ذلك كما أو كيف، سلعيا أو نقديا، داخليا أو خارجيا، وصيغة مكثفة وأكثر تصديدا، فإن المطلوب هو الكيف قبل الكم فى الزراعة، أكبر محصول من أقل مساحة أكبر إنتاج حيوانى بأقل علف، وأكبر عائد بأقل تكلفة.

ويؤكد أركان استراتيجية التخطيط الزراعى فى (.. التكتيف + التتجير + التصدير + التوسيع الراسى، والتتجير - commer- cialisation بالتوجيه إلى المحاصيل النقدية السوقية التجارية.. بدل المعاشية، والتصدير.. بالتوجه إلى السوق العالمية .. لتصريف تلك المحاصيل التجارية الثمينة؛ والتصنيع بالحد الأقصى من تحويل الخامات الزراعية إلى منتجات مصنعة لتصديرها بأعلى ثمن، فضلا عما ينتج عنها من توسيع فرص العمالة داخليا، مع الحد الأدنى من تصدير المحاصيل والسلع الزراعية خاما.. (ص ٣٠١).

ويعد فيخصص للتوسع الراسى والألقى الفصلين التاليين فى عنوان متصل يجمع بينهما، فالأول (فصل ٣١ ص ٣٠١ - ٤٢٨) .. يأتى تحت عنوان (من التوسع الراسى) .. ويكمله الثانى (فصل ٣٢ ص ٤٢٩ - ٥٢٧) (.. إلى التوسع الألقى) .. اتساقا مع تتابع استراتيجيته.. ومع نظريته التكاملية.. السارية، دون أن يغيب عنه فى أيهما ما سبق وضعه من فروض أيكولوجية محددة، وما انتهى إليه من مقولات عن شخصية مصر الاقتصادية التاريخية.. من حيث الاستمرارية وانقطاعها، وما حدده من قسومات إيجابية ومتكلسة جامدة، وما توصل إليه من مشكلات وما اقترحه لها من حلول.. مستندة إلى أوتاد صلبة.. من تحليل التاريخى المكثى الإحصائى.. معا.

من التوسع الراسى..

يعرفه (.. قد لا نقصد أكثر أو أقل.. من مدى تكتيف الإنتاجية فى وحدة

تلخيص العصر فى شخصية مصر



المساحة، أى التكتيف الزراعى بمساحة ص ٣٥١)، ويتابع تاريخيا المسألة.. ثم يوثقها إحصائيا.. بمعامل التكتيف الزراعى (ص ٣٥٢) .. منتهيا إلى (.. الزراعة المصرية على درجة عالية من التكتيف فعلا.. تصل بها إلى أن تعد بحق نوعا من فلاحية البساتين Gardening، ص ٣٥٢)، دفع إليها ضيق للمساحة المتاحة فى الودى والبلتا معا، فهل ثمة إمكانية لاتزال فى تكتيفها؟ والإجابة.. نعم .. لقد تكثفت عبر تاريخها إلى طابقين من الزراعة فوق القطعة الواحدة.. والمطلوب الآن تكتيفها إلى ثلاثة طوابق (ص = ٣، = ١٨ مليون فدان) .. حيث ص تتساوى التكتيف، وس تتساوى جملة المساحة المزروعة بها(ص ٣٥٢)، وذلك تمشيا مع إمكانيات السد العالى الذى لم تستثمر بعد كافة عوائده كما ينبغي، على أن يخصص الطابق الثالث للمحاصيل الغذائية من القمح والأرز والبقوليات.. خاصة الفول والعدس (ص ٣٥٤)، على أن يقتصر ذلك بالوصول بالإنتاجية إلى

حدها الأقصى.. وتقليل الفاقد إلى حده الأدنى، وتتوالى توصياته.. عن الأسمدة وطرق الري ونوعية التقاوى.. ومقاومة الآفات.. ثم الحصاد وتخزينه وتسويقه، ليس لها ككل.. وإنما لكل محصول على حدة (ص ٣٥٤ - ٣٧٥)، بل ويعددها.. حين يعرض لمشكلة الملوحة والقلوية فى التربة المصرية (ص ٢٨١) وكيفية علاجها، وتحسين الصرف (٢٨٤) .. والميكنة (٢٨٨) وكهربية الزراعة (٤٠٧) حتى يصل إلى قوارض الأرض (٤١٥) .. ويعرضها تحت عناوين موحية (الرمل ضد الطين، القوارض الداخلية، الميت ضد الحى، وباء التجريف، مصر المنكمشة، ص ٤١٥ - ٤٢٨)، باعتبارها جميعها أهم ما يواجه تكتيف الأرض.. وأصلا يبددها ويهدده، وكما يرى أن ترشيد الفاقد يسبق التخطيط للإنتاج.. فلن المحافظة على المساحة.. تسبق تكتيفها.. ومن هنا يطالب.. بوضع دستور للأرض.. يحمى استخداماتها (ص ٤٢٩)، وبالتخطيط الصارم للنمو السكى.. (ص ٤٣١) .. سواء فى القرى أو المدن، ويختتم فصله بالتخطيط الصناعى.. (٤٤٤) فى اتجاهي مجهاى بالزراعة من ناحية، وإعادة توزيع وحداتها خارج الزمامات المزروعة من ناحية ثانية (تصحيح الصناعة ص ٤٣٥) .. وسيسعد إليها تكرارا فيما يلى من فصول هذا الجزء، وفى الجزء الرابع أيضا من كتابه.

إلى التوسع الألقى

يأتى تاليا للتوسع الراسى فى خطته.. (لأن الكل يكاد يجمع على أن التوسع الراسى فى خطته.. هو المنفذ المباشر لتوسيعنا الزراعى، أولا لأنه لا يتطلب كالألقى إنفاقات رأسمالية

ضخمة، ولأنه لا أحد لإمكاناته ولا سقف له ثانياً..، إذن فأنهم ما يواجه التوسع الأتقى.. ارتفاع التكلفة، وضيق مجالاته المتاحة في الودى والدلتا معا، ويستدرك في مقدمة هذا الفصل (٣٢٢ ص ٤٢٩) ويقرر .. غير أنه يظل هناك رصيد له) فضلا عن أهميته الفائقة للتخطيط الإقليمى برمته، وتبعاً لمنهجه.. يتابع المسألة تاريخياً.. وصولاً إلى بداياتها، منتهياً إلى وضع خريطة احتمالاتها القائمة.. ويصدها في (شمال الدلتا، الهوامش الصحراوية للودى، الساحل الشمالى الغربى، شرق الدلتا، ضفاف قناة السويس، الواحات المصرية، ص ٤٤١).

ويغيب في تحليل كل منطقة منها.. متوصلاً إلى تقرير لب مشكلاتها.. يتوقف الأمر كله على الماء، (ص ٤٤٥)، ومن ثم يعرض لمصادره الطبيعية في مصر.. عرضاً تقدياً لطرق استخدامها.. والإهمال شبه التام لبعضها (مياه النهر ص ٤٤٨، مياه الصرف ٤٤٩، المياه الجوفية ٤٥٠)، وجمعها تحت عنوان «الموارد المتاحة» (ص ٤٥١) ويقدرها بنحو ٦٠ مليارات يمكن أن تزيد إلى ٨٠ مليارات.. حالة ترشيدها.. ورفع كفاية مصادرها معا، ومن بعد يحلل منحى العلاقة بين الاحتياجات والاستهلاك.. تبعاً لتوزيعها في قنواتها الرئيسية (الزراعة، الصناعة، العمران)، مطالباً بإعادة رسم استراتيجية المياه في مصر.. تبعاً لاقتصاديات من ناحية، واتساقاً مع مواردها منه من ناحية ثانية، ويالنظر إلى أزمة المياه العالمية.. من ناحية ثالثة (٤٥٤).

وتحت عنوان «مسح إقليمي» يعود إلى خريطة احتمالات التوسع الأتقى

.. ولكن الدين ليس علماً بالمعنى المفهوم لكلمة علم.. والتعليم الدينى هو تعليم تخصصى، خاص جداً لقلة محدودة، وتعد خصيصاً لوظيفة محدودة هي الجهاز الدينى، ولقدماً حين لم يكن هناك سوى التعليم الدينى والعلوم الدينية.. ثم يكن هناك تعليم إلزامى للجميع، بل كان التعليم استثناء لقلة محدودة جداً في مجتمع ٩٩٪ منه جاهل إذن حتى التعليم الدينى فى أيام - عز أيامه - كان تعليم القلة المتخصصة جداً لوظيفة خاصة جداً.

جمال حمدان

يحلل تفصيلياً نوعياتها، بمثابة الحن الاقتحاض لها.... يستهله بمقولته .. مصر بطبيعتها لا تنقصها المقومات الأساسية للصناعة الحديثة..، وتقضي هذه الموقلة إثباتها.. جغرافياً واقتصادياً وتاريخياً.. بطول صفحاته، مستخدماً مجموعة من العناوين الدالة المكثفة.. من قبيل ((بين الوفرة والندرة ص ٥٠٢، نقاط القوة والضعف ٥٥٢، مشكلة الجدارة الإنتاجية ٥٥٤)، يناقش فيها هذه المقومات فى إشارات مركزة.. ينتهى منها إلى أن مصر .. تملك أساساً طبيعياً لا بأس به.. لقاعدة صناعية متوسعة، يمكن أن ترتفع إلى صرح.. لا يقل عن الدول الصناعية المتوسطة كما تملك بالفعل بناءً صناعياً لا يستهان به.. وإن لم يزل بعد فى مرحلة بدء الانطلاق، أما أن هذا الصرح ملئاً بالثقوب والعيوب حالياً.. فذلك من

بالتفصيل (ص ٤٦٢ - ٥٣٧) .. أى إلى نهاية هذا الفصل، مؤكداً جذورها.. وبأنها نواة إعادة التخطيط الإقليمى لصمر كلها.

وبهذا تنتهى فصوله الثلاثة، المخصصة للزراعة المصرية، وينتقل من مجالها فى الفصول الثلاثة (٣٣، ٣٤، ٣٥، ص ٥٣٨ - ٨٥٥) التالية.. إلى «الصناعة المصرية» .. وحدها، بل إن الفصل الأخير من هذا الجزء.. كما سيأتى.. عن الصناعة أيضاً.. مما قد يكون مؤشراً عن وزنهما فى نظريته التكاملية كلها.

مصر الصناعية:

بهذه التسمية العامة يعنون الفصل الأول (٣٣ ص ٥٣٨ - ٦٤٦) مسن ثلاثية أورياعية عن الصناعة فى مصر، ويخصصه لصورتها العامة.. قبل أن

الإقليمى.. لحساب المركزية العاتية..
مخلفه الأقاليم رؤساء.. وقد فُقدت
وفورتها.. أو نزحت إلى خارجها بشى
الاساليب، وبذا يصل التركيز إلى نقطة
الانعكاس (ص ٦٣٧) .. وعندها يتحول
التركيز إلى تخمة فانفجار، فضلا عما
ينتج عنها قبلها من تضاعف نمو الكبير..
وطامن الصغير (المبدأ الألوامترى - allo-
metric ص ٦٢٧)، وتعمق الفجوة بين
العاصمة والمدن الكبرى والأقاليم، مطالبا
آخر الأمر بإعادة التوزيع، مدعما طلبه
بما يبرره (..) وعلى مستوى الواقع
العلمى، إذا عدنا إلى جسم الصناعة
المصرية و«لحمها الحى»، فإن من
الثابت أن كثيرا جدا من مصانعنا
الراثة، أغلبها فى الواقع، يمكن ويحسن
ويجب نقله إلى مواقع أخرى دون إبطاء،
ودون هزة فى الكيان الصناعى، بل
ويمكاسب وأرباح لا حد لها اقتصاديا
 واجتماعيا، قوميا وإقليميا، وقد حاول
البعض حصر هذه الصناعات القابلة
للحركة أو التحريك، ولكن عبثا.. لأن
القائمة تكاد تشمل كل مصانعنا إلا أقل
القليل، (ص ٦٢٨).

بل ويقترح قائمة بالمواقع الجديدة
مستقدا فى ذلك إلى مبادئ (الخلقة
de concentration واللامركزية de
Cent ralisation وتدرج المركزية
subconcentration ص ٦٣٩)، ومغلدا
عوائق المسافة والحجم والتفتت - pul-
verisation وغير ذلك، متنبها إلى ما
يسميه تصغير الصناعة (ص ٦٤٤) -

(.. فإذا ما اتفقتنا على هذه الخطة
وبتلك الصناعة من حيث المبدأ، وهى فى
الواقع مسألة مصيرية بالنسبة لمصر،
فإن مشكلة الصناعة عدتنا تغدو وهى
أكثر من مجرد مشكلة مناطق مأزومة

تلخيص العصر فى شخصية مصر



مصر عالم الصناعة الحديثة، إن مصر
تتغير صناعيا، مثلما وجدناها تتغير
زراعيا، وبدا من الصناعات للمعاشية
والتقليدية الأولية أو البسيطة، حلت
أحدث الصناعات العصرية المتطورة،
الاستهلاكية والخفيفة والثقيلة على
السواء، وبدا من ذرات أو حبيبات
الصناعة المتواضعة المبعثرة هنا وهناك،
أصبحت هناك أحجار صناعية ضخمة،
مناطق صناعية كاملة متكاملة ، كالخلايا
العامة المضطربة بالحياة الصناعية، جـ
(ص ٦٣١)

ومن فسوره يضع يده على نقطة
الضعف الرئيسية فى هذا البناء (..) إنه
لم يأت من أسف متوازنا على مستوى
الوطن أو متكافئا على مستوى أقاليمه،
ص ٦٣١)، ومن ثم يفرغ لها بقدر من
التركيز تحت عنوان (خريطة جديدة..
ولكن بالكاد..)، هى خريطة جديدة حقا
ولكنها تفكر إلى عدالة التوزيع .

(اللاإقليمية ضد الإقليمية ص ٦٣٤)،
وهى تستعيز بالتخطيط القومى عن

خصائص مرحلة البداية التى عرفتتها
معظم الدول الصناعية المتقدمة الآن، على
أن المطلوب هنا والآن اختزال هذه
المرحلة بأسرع ما يمكن، جـ ٣ ص
(٥٥٤).

ويعد تحليل التوطن الصناعى تحت
عنوان «الخصوصية المصرية» (ص ٥٥٨)،
يجدد ما يطلق عليه خصائص الصناعة
المصرية العشر (ص ٥٧٨)، وذلك كما يلى
بليجان: (ص ص ٥٧٨ ٦١٦).

* سيادة الصناعات الزراعية.

* صناعة استهلاكية لا رأسمالية.

* صناعة خفيفة لا ثقيلة.

* صناعة اكتفاء لا تصدير.

* صناعة مصنعة لا صناعية.

* التكامل الرأسى والأفقى.

* التنوع والتركز الشديدين.

* التركيز الحجمى.

* للتركيز الجغرافى.

* مناطق لا أقاليم صناعية.

تلك إذن هى قسومات مصر
الصناعية.. فماذا عن أنماطها المكانية؟..

وتبعا لحسابات معينة يجدها فى
(.. قرص الدللا ص ٦٦٦، خيط الصعيد
٦١٩، منطقة القاهرة الصناعية ٦١٩،
منطقة الإسكندرية ٦٢١، خط الاستواء
الصناعى ٦٢٥)، حيث يقرر عنها إجمالا
بعد ذلك (.. تلك إذن فى صورتها
التفصيلية نوعا خريطة مصر الصناعية،
ولا شك أن أبرز ملامحها ومعانيها هى
التحولات الأساسية فى المركب الصناعى
والنمط الجغرافى على حد سواء، إن
خريطة جديدة لمصر تتخلق تحت ناظرنا
فى مجال الصناعة، بقدر ما تقتحم

محروبة ضد مناطق متخمة مكتظة، ولا تعود قضية بعثرة ريفية ضد تشتيت إقليمي، ولا مسألة تريف الصناعة ضد تصنيع المدن حيث (.. لم تعد حياة المدن بالضرورة وظيفة لدرجة النمو الصناعي، بل أصبح ممكناً في ظل حضارة اليوم أن تقوم مدن ضخمة بغير صناعة كبيرة، أو على الأقل أن يسبق نمو المدن الضخمة التنمية الصناعية، ويمكن للصناعة أن تلحق بها وتصحح التوازن، باختصار .. لابد أن نعتبر المدينة المرتفعة بلاثناصنيع نمطاً جديداً من أنماط الحضارة المعاصرة.. ونتيجة طبيعية للتكنولوجيا الحديثة).. كلا إذن ليست ضد المدن، والمشكلة من قبل والحل من بعد أيضاً وأساساً.. هي تصحير الصناعة.

أجل تصحير الصناعة.. أي نقلها إلى الهوامش والتخوم الصحراوية إلى أقصى حد ممكن عملياً واقتصادياً وإنسانياً، ذلك هو الشعار القائد المطلوب الآن، ليس فقط إنقاذاً واستنزافاً للأرض الزراعية التي تفتالها الصناعة.. وغير الصناعة.. ولكن أيضاً إنقاذاً للصناعة نفسها وبغيرها من التكدس المدمر هنا والتفتت المخرّب المجرد هناك، ج، ص، ح، ٦٤٧ - ٦٤٨، ولحسن الحظ فإن خطة مصر الطبيعية برمتها قد جعلت مثل هذا التخطيط بصفاة.. ص من ٦٤٤ - ٦٤٦، وهذه الدعوة ينهى فصله.

الصناعات الأم:

شبكة الصناعة في مصر.. أشبه بشجرة.. والزراعة أمها، منها بدأت وبها نمت.. وتكاثر العائل، ومهما تعددت جذورها.. وتباعدت أصولها.. فستبقى الصناعات الزراعية أقدمها.. وأشدّها رسوخاً وتوطناً، وإذا كانت البيئة قد

.. ثم حين أتى عصر العلم.. العلم الطبيعي والوضعي.. إلخ وأصبح التعليم العام لعموم الشعب ومحو الأمية.. وكان مستحيلاً أن تنصرف الأمة جميعاً، إلى التعليم الديني غير المنتج فكان التعليم المدني منطقياً وحتمياً وضرورة حياة واستجابة لطبيعة الأشياء، قبل كل شيء

جمال حمدان

والوادي.. وقدمت المثل، وخاصة من حيث درجة تركيزها في العاصمتين القاهرة والإسكندرية.. اللتين لا يقل نصيبهما عن ٥٠٪ كما أن هذه الصناعة تستوعب وحدها بين ثلث ونصف العمالة الصناعية في مصر كلها (٦٤٩)، وبعد الانتشار المنشود.. فإنها تتسم بتنوعها.. وكثرة وحداتها من حيث العدد، تتضمن وحدات مجمعة ضخمة بالمقياس العالمي، كما تتضمن غيرها من الوحدات الصغيرة.. نجت عن انتشارها، ويعود اتجاهها نحو الضخامة.. إلى متطلباتها من التكامل الرأسي والأفقى بدرجة فائقة (.. فهي لا تقتصر على الغزل والنسيج فقط.. وإنما تمتد إلى أشكالها التابعة.. من سجاد وكليم ولباد وحبال وغيرها، ص ٦٥٠)، وتسهم وحدها بقرابة ثلث قيمة الإنتاج الصناعي في مصر جميعاً.. وكانت تلك النسبة هي الأولى بين قطاعات الصناعة كلها (٦٥١)، وتتألف خاماتها من (القطن، الصوف، الحرير، الكتان).. وأضيفت إليها الألياف الصناعية مؤخراً.

اتاحت موارد أخرى.. كونهت أيضاً عائلاتها.. الأكثر ثراء منها ربما.. إلا أنها تدنو من الأم من حيث درجة إيكولوجيتها الثابتة المتوازنة، ومن هنا يأتي عنوان هذا الفصل (٣٤)، ص من ٦٤٧ - ٧٤٤) وأيضاً منهجه في ترتيب الدراسة النوعية لهيكل خريطة صناعات مصر الراهنة.. (.. أما عن تسلسل العائلة.. فستبدأ من الصناعات ذات الأصول الزراعية أساساً، وتتقدم إلى الصناعات ذات الأصول المعدنية أساساً، فبعد النسيجية والغذائية.. تأتي الكيماوية فالبناء كحلفتي وصل.. تؤيدان إلى الصناعات المعدنية فالهندسية، حيث تلحق بهما في النهاية الصناعات التعدينية.. مع الثروة المعدنية، ص ٦٤٨).

الصناعات النسيجية:

تحتل بين الصناعات الزراعية الحديثة.. قاعدة الهرم، ترتبط بالقطن.. وتشغل في الصناعة مثل موقعه بالنسبة للزراعة.. وهما معا حجر الأساس وركن الزاوية، سبقت غيرها.. وتوطنت.. وتركزت.. ثم انتشرت في الدلتا

وبالتوجه المكثف نحو سكر البنجر.. من ناحية ثانية (٧٠٨).

تفصيل العصر في شخصية مصر



ومن صناعة السكر.. إلى صناعة إعداد الحبوب (٧١٢)، وتتضمن (علمن الحبوب، ضرب الأرز، الكسور والرجيع، النشا والجلوكوز، الزيوت النباتية (٧١٦)، الحلوى والمشروبات (٧٢٢)، السجائر (٧٢٦)، حفظ الأغذية (٧٣٠)، تعبئة الأسماك (٧٣٧)، صناعة الألبان (٧٣٨)، الأعلاف الصناعية (٧٤٢)، ويتابع كل منها من حيث التوزيع الجغرافي، وعدد الوحدات والعمالة والتسويق.. وغير ذلك.. مما يغطي جوانب إرهابيات المشروع الصناعي.. منهجيا وموضوعيا معا، ومنها ينتقل إلى فصله التالي (٢٥) ص ٧٤٥ - ٨٤٥ إلى مجال صناعة مختلف.

من الصناعات الزراعية إلى المعدنية :

يبدأها بالصناعات الكيماوية.. ويقدمها (إن انفجار الصناعات الكيماوية يعد أبرز معالم تطور الصناعة المصرية في العقد الأخيرة الأربعة، ص ٧٤٥)، وتضم مجموعة عريضة من المواد الوسيطة اللازمة لغيرها من الصناعات، ومن ثم فهي (وسيلة وغاية في آن واحد)، ويصنفها إلى (الغازات والسوائل واللدائن والمواد الصلبة، وتنقسم إلى مجموعتين عريضتين.. الكيماويات الأساسية والكيماويات المركبة، ص ٧٤٦)، وتضم كل منهما العشرات من النوعيات المصنعة، وتتسم لأسباب اقتصادية بتركزها في القاهرة والإسكندرية.. عدا الأسمدة، وتبعاً لمجموعتيها يتابعها تفصيليا.. داخل الإطار المنهجي لاقتصاديات المشروع الصناعي.. كما سبق، يستهلها

غير الطبيعية (٦٨٧)، والتوسع في صناعة الملابس إلى أقصاها (.. من الحقل إلى المستهلك.. ولا نقول للملابس الجاهزة أو الموت، ٦٨٨).

ثم يمرض للصناعات الغذائية (٦٩٢ - ٧٤٤) .. أي إلى نهاية الفصل، حيث يتناولها من حيث خصائصها العامة (ص ٦٩٢) تاريخيا وجغرافيا، ثم نوعيا.. مبتدئا بصناعة السكر.. مطلقا عليه «قطن الجنوب».. تلخيصا لتركز زراعته وتوطن صناعته في الصعيد.. فضلا عما تعنيه التسمية من قيمته الاقتصادية وتعدد جوانبه، ويحقق اتفاق مناطق زراعته مع مصانعه.. توليفة اقتصادية مناسبة، كما يتفق توزيع معامل تكريره.. مع أسواق الاستهلاك والطلب (.. يعني توطن بالسوق، ص ٧٠٢)، وتحدد مشكلته في قصور إنتاجه عن تلبية الطلب (.. في غضون سنوات معدودة.. سوف نستورد من السكر قدر ما ننتج، ص ٧٠٧)، ومن هنا توصيته بالتوسع في زراعته في الأراضي المستصلحة من ناحية

ويتابع كل خامة منها تاريخيا.. في سياق من المقارنة.. الأدمية بالجدول المتتابعة (ص ٦٥٢ - ٦٥٦)، ثم يتناولها نوعيا في صورتها المعاصرة، مبتدئا بالقطن (٦٥٦) بعملياته المتعددة (الحلج، الكبس، الغزل، النسج)، وأيضا نمط انتشار وحداتها (.. هذه التي ترسم خطا من الشمال إلى الجنوب.. أي نحو الصعيد.. بلا ارتداد تقريبا، وذلك من بعد تركيزها في الإسكندرية والحلة وكفر الدوار في مرحلة، ص ٦٦١)، اتساقا مع مقتضياتها من الجفاف المناسب لها.. إلى جانب عوامل بشرية مساندة، ورغم أنها تستهلك نحو ٦٠٪ من جملة إنتاج مصر من القطن الطويل القيلة وتصدر بقيته، فقد اتجهت منذ عقود قليلة إلى استيراده بنوعية منخفضة من السودان والهند.. في نوع من الموازنة بين استمرار تصديره.. تلبية للطلب العالمي، وبين مستطلبات نموها، والمنشود (.. التصنيع للتام له في مصر.. في إطار الهدف النهائي لسياسة من الألياف إلى المنسوجات، أو تصنيع الخامات المصرية من الفها إلى ياتها، ص ٦٦٣)، خاصة مع تطور التكنولوجيا.. وتساعد أرباح السلع المصنعة.. في مقابل تذبذبها وهي خامات أو نصف مصنعة.

وتحت عنوان أحسن قطن وأسوأ صناعة (٦٧٩).. يلخص متناقضة القطن في مصر زراعة وصناعة.. ويتابعها في بعديها من وجهة النظر الاقتصادية، وخاصة من الناحية التسويقية داخليا والقدرة التنافسية خارجيا، وينتهي منها إلى التوصية بالتوسع في استيراد الأقطان قصيرة القيلة الرخيصة.. وتصنيعها، والتوسع في تصدير الأقطان طويلة القيلة الغالية (ص ٦٨٥)، وتخليط صناعتها بالألياف

بالكيمويات الأساسية (٧٤٩)، وبعدها الأسمدة (٧٥٧)، ثم صناعة الورق (٧٦٩)، فالخشيب الصناعاتي (٧٧٤)، فصناعة الجلود والأحذية (٧٧٦)، ثم الصابون والمنظفات الصناعية (٧٧٨)، وبعدها صناعة الأدوية (٧٨١)، ثم اللطاط والبلاستيك (٧٨٣)، ثم ينتقل إلى مجموعة أخرى متكاملة.. هي «صناعات البناء» (٧٨٦)، وتضم الأسمنت والطوب الطلي والرمل، والجبس، وغيرها من توابعها.. مثل الخزف وأخوته (٨٠٤) والحراريات والزجاج (٨٠٧) ويختم بالصناعات المعدنية فصله.. (ص ص ٨٠٨ - ٨٠٤).

الصناعات المعدنية :

ويصنفها بداية إلى (الصناعات التكريرية.. التي تشمل الصهر والتكرير، والصناعات التشكيلية النهائية وتعنى المنتجات المعدنية (ص ٨٠٨) التي تتضمن أساسا الحديد والصلب ثم الألومنيوم.. وأخرى هامشية من النحاس والزنك والرماس وغيرها، وبالطبع فإن صناعة الحديد والصلب.. تستغرق جل عنايته، ويتابعها تاريخيا (قبل الصناعة الثقيلة، ٨٠٩) وبعدها (٨١٠)، ثم يطلها اقتصاديا.. وخاصة من زاوية موقع المصنع (طوان) ومناجم خاماته، ويجري مقارنة سريعة بين هذه الصناعة وصناعة الألومنيوم.. ينتهى منها إلى (.. أن كليهما صناعة خاسرة اقتصاديا، إذ تحقق سنويا خسائر جسيمة. تعدد أسبابها، ومن ثم تحتاج إلى ترشيد شديد (٨١١).

ويفيض بعد ذلك في دراسة صناعة الحديد والصلب (ص ص ٨١١ - ٨٣٢)، وتحت عنوان (استراتيجية الموقع، ص ٨١٢)، يعقد مقارنة دالة وشيقة بين

أسوان وطوان كموقعين شهدا مولد هذه الصناعة ونموها، ينتهى منها.. إلى (.. أنه وإن بدا موقع حلوان موفقا للغاية.. فقد كان ذلك نتيجة المصادفة الحسنة.. وليس لحكمة التخطيط المستقبلي، المصادفة الجيولوجية التي أنت بحيد البحرية وغاز أبو الغراب.. في الزمان والمكان المناسب كليهما تماما، بل في اللحظة الحرجة واليقعة المواتية.. لطوان دون غيرها، ص ٨١٦)، ويتابع مرحلته الأولى في أسوان، ثم مراحلها التالية، مختتما دراسته لها بعنوان «النمو المستقبلي» (ص ٨٢٩) ويقدم توقعاته استنادا إلى إمكانات الصناعة.. وقلرتها على تحقيق الكفاية الذاتية، مقدرا أن الاستهلاك المتوقع سنة ٢٠٠٠ يقارب ٣٠ مليون طن، لن تعمق الخطة الموضوعية منها سوى نصفها، فإذا كان الإنتاج الفعلي في سنة ١٩٨٠ لا يجاوز ١٠ مليون طن.. فلن هذا يعنى أن الخطة الموضوعية تهدف إلى مضاعفة الإنتاج بعشرة أمثاله في عقدين فقط (من ١٠ مليون سنة ١٩٨٠ إلى ١٥ مليون سنة ٢٠٠٠) بما يعنى إضافة ٥ مجمعات للصلب إلى الحالية، وتتعدد الروايات حول ذلك.. تبعا لتعبيره (ص ٨٣٠)،.. على أن إنشاء مجمع النخيلة سنة ١٩٨٥.. قد يكون بداية.. ولعل وعسى..

ويأتى دور صناعة الألومنيوم (ص ص ٨٣٢ - ٨٤٢)، ويتابعها تاريخيا تبعا لنهجه، ثم اقتصاديا من زواياها المتعددة، يناقش خلالها قدرته التنافسية (وهي عالية لشدة نقاوته) وتكلفته (وهي عالية أيضا لاعتداله.. على الطاقة الكهربائية حيث تستهلك ٢٥٪ من الكهرباء المباعة للصناعة في البلد كلها، ص ص ٨٣٧)، ويطلب أخيرا.. بالتوقف عن

تصديره نصف مصنع، وبالتحول إلى تصنيعه كاملا.. بما يستوعب التكلفة ويحقق ربحية عالية، (ص ٨٢٧).

وتأتى عائلة الصناعات الهندسية (ص ٨٤١)، وتتضمن الميكانيكية (ص ٨٤٢)، والمكينات (٨٤٨)، والصناعات الكهربائية (٨٥٠)، وبها ينهى فصله، بعد أن يشيعها تحليلا تبعا لنهجه.

صناعة التعدين :

هذا هو العنوان الثانى لهذا الفصل (٣٦ ص ص ٨٥٥ - ٩٧٣)، أما عنوانه الرئيسى فهو «ثروتنا المعدنية»، ويستلته بهذه العبارة المكثفة (..تقرر بصيغة التوكيد.. أن ثورة معدنية مؤثرة قد حدثت في مصر في العقود الأخيرة من تاريخها، ص ٨٥٥)، ويقتضى إثبات ذلك نوع من المتابعة للتاريخية والإحصائية.. يقرر بعدها أن هناك في مصر مرحلتين.. (ما قبل المعادن، وما بعدها.. ص ٨٥٦)، ومن هنا تميز هذا الفصل عما سبقه.. من الفصول الثلاثة المتصلة بالصناعة وحدها، هذا فصل الموارد المعدنية أولا.. ثم للصناعة ثانيا.

وينتهى تحليله لما قبل الثورة المعدنية وما بعدها.. إلى تحديد أبرز خصائص الخريطة المعدنية الراهنة.. في هذه الثلاثية القاعدية (ص ٨٦٠) المنطلقة في (الحديد + الفوسفات + البترول).. والتي اكتشفت بكميات اقتصادية مناسبة، بما قد يعد باعثا على معاودة التنقيب عن غيرها.. من الموارد المعدنية.. والتي بقيت طويلا ثروة مهملة.. وتحت عنوان خريطة معدنية جديدة (ص ٨٦٤) - يتابع توزيعاتها وتطورات إنتاجيتها، كما يحدد مناطق الثقل المعدني (سينا، وعلى جانبي خليج السويس + وسط وجنوب الصحراء الشرقية + خط الواحات في

على فصول أخرى سبقت.. كما يستمد منها ما يوضح المعنى، ويستكون هناك إشارة إلى هذه الصلة مستمرة.

ويتكون هذا الجزء (ص ١٣ - ٦٦٦) من ثلاثة أبواب (١٠٩، ١١٠، ١١١)، تعقبها القائمة الجغرافية لكتابه كله (ص ٦٦٧ - ٩٧٧)، موزعة بين المراجع العربية (٢٤٥ عنواناً) والأجنبية (٧٩١ عنواناً)، وجملة فصوله سبعة.. ثلاثة للباب التاسع (فصول ٣٧، ٣٨، ٣٩)، ومثلها للعاشر (٤٠، ٤١، ٤٢)، أما الأخير الحادي عشر.. ففصل واحد.. (٤٣)، وبهما ينهى الجزء وكتابه كله. (٤ أجزاء، ١١ باباً، ٤٣ فصلاً)، يربط بينهما ما يحاول تجميعه من سمات مصر الحضارية (المركزية + تعدد الأبعاد + الاستمرارية والانقطاع).. كمحصلة لعمله كله.

خريطة المجتمع المصري

بهذا يعنون الباب التاسع (الأول من هذا الجزء، ص ١٣ - ٣٩٨)، قاصداً أن يصبط هذا العنوان الفضاض بما يريد طرحه.. وأن يكمل ما سبق عرضه منها.. ويبلور نتائجه، ويشتمل كما سبق على ثلاثة فصول، يخصص اثنين منها لمقابلة موضوع سكان مصر (ص ١٣ - ١٣٠).. وتحليل مشكلاتها.. واستعراض الطول المقدمة لها (ص ١٣٠ - ٢٥٠)، أما ثالثهما.. فيخصصه لمدينة القاهرة تحت عنوان «مركزية رغم الامتداد.. القاهرة مصر» (ص ٢٥١ - ٣٩٨) مكثفاً لموضوعه.. بمبانية مفتاحه وبذا تنصص مكونات الباب.. عن توجهه لدراسة «السكان + العاصمة».. باعتبارهما بنية وبوصله خريطة المجتمع المصري.. كما يعبر عن ذلك العنوان الرئيسي للباب، وتستند الفصول

تلخيص العصر في شخصية مصر



الفصل بدراسة إمكانات حوض الصحراء الغربية (ص ٩٦٦) باعتباره أفق المستقبل البترولي لنا، وبه ينهى هذا الفصل كما سبق.. ومعه الباب الثامن.. الذي استغرق الجزء الثالث من كتابه.

رأبعا: شخصية مصر الحضارية

تتعدد مفاتيح الجزء الرابع من كتابه.. الذي يخصصه لدراسة «شخصية مصر الحضارية» (٦٦٦ صفحة)، فهو ليس «البساطة» وحدها.. كما في جزئه الأول (شخصية مصر الطبيعية)، أو «التجانس والوحدة».. في جزئه الثاني.. (شخصية مصر البشرية)، أو «التكاملية».. بالنسبة لجزئه الثالث (شخصية مصر الاقتصادية).. تعددا يعود إلى تنوع موضوعاته وتشعبها، وإلى تشابك جوانب شخصيتها الحضارية، وأيضا إلى اتصاله بالأجزاء السابقة عليه.. يستكملها ويتوجها، ومن هنا.. فإن لكل فصل به مفتاحه الذي يخصه.. يعقونه به مباشرة، ويلقى بدلالته

الصحراء الغربية)، بما يكون شبكة تعدينية متكاملة، تحيط بالوادي.. حيث يمكن تصنيع ما تنتجه، وتحت عنوان المركب المعدني (ص ٨٦٨).. يتابعها نوعيا.. ويصنفها إلى خماسية المعادن الأساسية (البترول، الفوسفات، الحديد، الفحم، النيجينز) ثم مجموعة المعادن الثانوية.. وهي شامية.. النحاس والتينكل والروصاص والزنك والقصدير والكبريت والأحجار الكريمة والذهب، ثم مجموعة الصخور الصناعية من الكواكين والطين والرمال والجبس والتلك وغيرها، وأخيرا.. مجموعة المعادن النادرة.. من اليورانيوم وغيره، (ص ٨٦٩)، ويعدما يحدد الخريطة والمركب المعدني، ينتقل إلى الدراسة المسهبة لكل معدن منها على حدة، يستهلها بالفوسفات (٨٧٠) ثم الحديد (ص ٨٧٩)، ثم الفحم (٨٨٢)، ثم الصخور الصناعية (٨٨٧)، في دراسة منهجية تبدأ بالتوزيع فالإنتاجية وتنتهى بالاحتياطي المحتمل.

وبنال «البترول» جل عنايته.. فيفرد له الصفحات (ص ٨٩٠ - ٩٧٣).. أى إلى نهاية هذا الفصل المعدني، يتناول خلالها التطور التاريخي لإنتاجه (ص ٨٩٠)، ثم تطورات النوعية.. من البير إلى البهر (٩٠١) ومن الزيت إلى الغاز (٩٠٣)، ويتعمق في اقتصادياته (بين الإنتاج والاستهلاك والفاوض، ص ٩٠٤)، منتقلا إلى صناعته (٩١٢).. صناعة التفكير أولا، ثم شبكة الانابيب (٩٢١) كعنصر مكمل يتصل بنقله، ويطل إحصائيا العلاقة بين منتجاته واستهلاكها (٩٢٥) ويعود إلى جغرافية الحقول (خريطة متغيرة، ص ٩٣٦) مع دراسة مسهبة لحوض خليج السويس (٩٣٦)، ولاتفوته مرحلة استنزافه من إسرائيل بين ١٩٦٧ - ١٩٧٣، ويختم هذا

الثلاثة.. إلى ما سبق وروده في الجزء الثاني من الكتاب (فصل ١٧).. تحت عنوان التجانس العمراني (ص ١٦٦ - ٢١١، ج ٢)

كثافة بلا هجرة

يتابع تحت هذا العنوان.. ماسبق له بذره عن نمو وكثافة السكان في مصر.. باعتبارهما وراء تجانس الغطاء البشري بها، ويضيف إليهما زوايا متعددة.. تمهد لعرض المشكلة، ويتحدد ما أضافه في دراسته المسببة من زوايا التركيب الديموجرافي لبنياتها خاصة، يستعملها بما يسميه الثورة الديموجرافية (ص ٢٣).. من حيث جذورها ومراحلها وأسبابها، كما يحدد دينامياتها في (الزيادة الطبيعية ص ٥٥، ضوابط المواليد ص ٥٦، ضوابط الوفيات ص ٦٠، خريطة الحياة وقرص الموت ص ٨٦، التركيب الجنسي ص ٩٢، تركيب السن ص ١٠٥، خريطة الأعمار ص ١٠٩)، وذلك في صياغات كمية دقيقة.. تستند إلى جداول التعدادات المصرية المتتالية (١٨٨٢ - ١٩٧٦).. أي طوال قرابة قرن من الزمن، بل ويتابعها بعد ذلك.. تبعاً لحسابات معينة متنها إلى (لقد أضافت مصر إلى نفسها في ربع القرن الأخير.. أكثر مما أضافت في قرن وثلاث قبلها، لقد أضافت إلى نفسها مصر ثمانية.. ص ٥١)، لقد تضاعف سكان مصر من ٢٢ مليوناً سنة ١٩٥٦ إلى ٤٦ مليوناً سنة ١٩٨٢، وتتمو بعدما بمعدل ١٠ مليون نسمة كل سنة (ص ٥٢).

وحين يأتي دور الكثافة (ص ١١٦).. يضيف إليها تفصيلياً دواعيها وأسبابها.. متمثلة في (الأرض والماء + الري + نمط الزراعة والتركيب

المحصولي)، متابعاً مراحلها وتغيراتها، ويقرر بشأنها (.. إن السكان حبيسة الوادي، والوادي حبيس الصحراء، والوادي أصبح قالباً حديدياً لا تملك منه .. procrustean bed.. والسكان أصبحت مصنفة remboitée.. ومن ثم يتحول برمته من زجاجة مغلفة.. إلى عنق زجاجة مختلفة مثلبها هي مسدودة، ص ١١٧)، والنتيجة الحتمية أن التعدادات السكانية المتعاقبة.. لا تفعل سوى أن ترفع الكثافة بصورة آلية من عقد إلى عقد.. إلى أن تبلغ مستواها الخطير الراهن (.. وهكذا مرة أخرى.. على المستوى الديموجرافي.. يعد الطبيعي والمائي والزراعي والاقتصادي نجد مصر جوفرياً كثافة لا مساحة، ص ١١٧)، وهنا يكمن لب المشكلة.

ويختتم الفصل بما يسميه بروفيل مقارن (ص ١٢٩)، يجري عليه عدداً من المقارنات للحياة الدالة.. بين مصر وبريطانيا واليابان.. من حيث مقومات الكثافة ودواعيها في كل منها، منتهاها إلى وجود درجة من التقارب بينها، خاصة من حيث تتابع مراحل النمو الديموجرافي، وإن تفاوتت من حيث التوقيت والمدى، بما قد يفيد في مجال التوقع السكاني المستقبلي، وبهذا البروفيل ينهى فصله.

المشكلة والحل؟

كما سبق فإنه يحدد مشكلة السكان في مصر.. في الكثافة المفرطة.. وليس تركيبها الديموجرافي بصفة خاصة، ويضيف إلى الكثافة هنا.. في الفصل (٣٨ ص ١٢١ - ٢٥٠).. الهجرة بانواعها (الداخلية، الداخلية الخارجية) مع الاهتمام بالآخرية منها خاصة.. باعتبارها مخرجاً، وبالنسبة

للأولى.. أي الداخلية بين مناطق مصر ذاتها.. فهي ظاهرة قديمة ومستمرة بها، قد تمثل الحل الطبيعي للكثافة.. بما تؤدي إليه من إعادة توزيع السكان بينها.. بصورة حرة تلقائية معاً.. وتبعا لقوى الطرد والجذب السارية، ولكنها أفرات بحيث أدت إلى تركيز حضري مفرط (الإفراط ثم فرط التركيز).. ونجم عنها تريف المدن، بما زرعت من جيوب الفلاحين وأنصاف الريفيين بها، وأمسحت أحجامها دليلاً على توربها وانتفاخها، وإذا انقلب من ظاهرة صحية.. إلى مرضية مزمنة، وهي على كل حال بسبب الكثافة.. وضيق الوادي وتكسبه بذاته معه، وتساعد النمو السكاني وتفجيره، تقصر عن حل المشكلة السكانية المتفاقمة. أما الهجرة الداخلية.. فإنه يقرر بشأنها (.. في الأغلب الأعم من تاريخ مصر.. لم تصدر الرجال.. وإنما الحضارة وأعمالهم، بل وكانت بانتظام مصبا لهم، لم تكن مصر بعبارة أخرى.. منطقة هجرة خارجية، على العكس كانت بوجه عام منطقة هجرة داخلية، فيقدر ما كانت منبعاً للحضارة.. كانت مصباً للبشر، وفيما عدا ذلك.. فإذا كان ثمة هجرة قوية عرفتها أو مارستها مصر.. فهي الهجرة الداخلية بين أجزائها المختلفة، كثافة الهجرة الداخلية، ضعف الهجرة الخارجية، قوة الهجرة الداخلية، تلك إن هي السمات الأساسية تاريخياً في تركيب الهجرة في مصر، ص ١٢١)، ومن هنا يوجه اهتمامه للثلاثة.. أي الهجرة الخارجية وحدها.. خاصة بعدما فرضت نفسها حديثاً.. كمثلاً شديدة البروز ومؤثرة، ومن ثم يفرد لها مساحة واسعة من صفحات هذا الفصل (ص ١٢٥ - ١٩٠)، أما بقيتها.. (١٥٠ - ٢٥٠) فيخصصها للمشكلة السكانية بأبعادها وحلولها.

تلخيص المصر في شخصية مطر



يمهد لها بنبرة قصيرة عن الهجرة الداخلية، هذه التي تعرضت لها تاريخيا.. من جيرانها وغيرهم ويشير إلى ما سبق له تنبيهه في الجزء الثاني من كتابه (فصل ١٩ من ٢٥٥ - ٣٥٨) من اجتذابها لهجرة عناصر بشرية متعددة، منتهيا إلى أنها قد شهدت في العقود الأخيرة.. خروج معظم من وفد إليها بعد الاستعمار البريطاني واستقر بها، ويسميه الخروج الأبيض.. (ص ١٣٤) .. باعتباره أوروبا في معظمه.. بعد سنة ١٩٥٦ خاصة.. كما يرصد (.. وهذا هو الأهم إرغاصات الخروج المصري.. وبزاد الهجرة الخارجية بعيدة المدى، والمصلة.. أنه في الوقت نفسه الذي رحلت فيه الجاليات الأجنبية عنها، تحولت هي نفسها إلى الهجرة الخارجية، بعد الهجرة إليها.. أصبحت الهجرة منا.. انقلاب تاريخي بأى مقياس، يفتح صفحة جديدة تماما في كتاب مصر، ص ١٣٥)، ولأيدع رصده دون أن يؤكد، ويضيف مفسرا هذه الحقيقة التاريخية في تاريخ مصر السكانى، مضيفا لمسة لها دلالتها إلى شخصيتها بعامه (.. إن مصر بلد جعل للهجرة من.. لا إلى، للهجرة الخارجية لا الداخلة، وإذا كان العكس تماما هو ما حدث تاريخيا وكثر واقع، فإن العكس تماما هو التعبير الحق والواجب عن شخصية مصر للكامنة الحقيقية، ذلك أن البديل الوحيد عن الهجرة من مصر المتناحية الرقعة الزراعية هو، كلما زاد عدد سكانها عن قدراتها الطبيعية والاقتصادية القصوى المزيد من تعظيم الإنتاج، أى التوسع الرأسى، إلى أن تاتى النقطة التي لا مزيد عليها من التوسع، وعندئذ تحتم الهجرة إلى الخارج، وإلا فإنه انخفاض

مستوى المعيشة باطراد إلى خط الجوع ونقطة ماتحت الصف أو الأمية ثم للمجاعة فحاجز الموت جوعا في النهاية، ٤ هـ، ص ١٤٢)، وإذا كانت الهجرة الخارجية قد تآخرت... فريما يكون ذلك مع الكثافة الطافحة.. من أسباب (طمس الشخصية المصرية السوية.. كما حدث، ص ١٤٢).

ومن هنا ترحيبه بها.. وتوقعاته الإيجابية لها.... (.. إننا نعيش الآن انقلابا حقيقيا وتاريخيا في عملية، أكاد أقول في عقلية الهجرة المصرية، فلاول مرة في تاريخنا الحديث، وربما في تاريخنا المعروف، تخرج من مصر موجة هجرة بالجملة، تنتشر في إطار جغرافى عريض، صحيح أنها حديثة ليست دائمة .. بل مؤقتة.. لكنها متجددة، ويبقى بعض الوقت كى نحكم على طبيعتها النهائية، إلا أنها غالبا جاءت لتبقى، بل لها لا تدعو مجرد البداية، وطلائع مد مستقبلها أعظم، ٤ هـ ص ١٤٢).

ويعد توصيفها يصنفها كمادته إلى مراحل ثلاث (جنينية، تكوينية،

انفجارية)، وقد بدأت الثالثة مع منتصف السبعينيات، حيث وصل الخروج المصرى إلى أبعاده، مثل كرة تلج مليونية، بل وفقرت بين ٧٣ - ٨٣ إلى ٣٥ مليون، وبوصيفة نسبية إلى مجموع سكان مصر، تحرك حجم الهجرة من ٣٪ سنة ١٩٦٥ إلى ٣٧٪ سنة ١٩٧٦ إلى ٧٧٪ أى نحو الضعف سنة ١٩٨٣ (ص ١٥٣)، وكما لا تكاد أسره فى أى مدينة أو قرية أو عزبة.. إلا ولها عضو مقرب فى الخارج، فقد كونت تجمعاتهم المتزايدة فى العالم العربى أكثر من مصر صغرى Little Egypt فى عدد من دوله، (جـ ٤ ص ١٨١)، وإذا لم يعد المصرى يمكن أن يوصف بأنه قعيد بيته seadentee، وتضع نهاية تصوره إنسانا نباتيا مفروس جذره فى طمس النيل (.. درس الهجرة والمهجر بعبارة أخرى هو أن الإنسان المصرى مجرى لا ميلادى فحسب، ص ١٨٣)

ورغم حماسه الفائق للهجرة (.. التى ينبغي أن تتضاعف أضعافا، ٤ هـ ص ١٨٤)، ليس فقط كمساهمة فى حل مشكلة مصر السكانية، وإنما كاتساقا نحو العالم المعاصر البالغ السبيلة والدينامية)، لكنه لا يطلق دعوتة دون محاذيرها، ويضعها للدراسة النقدية تحت عنوان «الهجرة فى الميزان» (ص ١٨٤ - ١٩٠)، ويضيف إلى ماسبق من إيجابياتها (.. إن الهجرة هي أحد الجوانب المشرفة فى ثروة مصر البشرية، وإذا كانت فى معظمها مادة خاما لا تزال، فإنها بالتعليم والعلم والتكنولوجيا جديرة بأن تتحول إلى سلعة تصدير مصنعة رابحة ورائجة، وبذلك يحضده يمكن تعظيم الهجرة المصرية إلى الخارج إلى أقصى حد، وهذا التعظيم قد يأتى - دون تناقض -

المشكلة الآن:

والآن يصل به الحطاف إلى «مشكلتنا السكانية». (.. هي واحدة من أخطر ملامح الكيان للمصري المعاصر، إنها المشكلة الأم.. حتى ليصح أن نضعها قاعدة عامة في كل مشاكلنا.. فقتض عن السكان (ص ١٩٠). ويبدأ بتشخيصها تحت عنوان «سباق السكان والموارد» (ص ١٩٠)، مستخدماً مؤشرات (الفرد والأرض + الفلاح والأرض + الكفاية الغذائية + اتجاه الدخل)، منتهياً إلى تشبيهه بسباق السلحفاة والارنب (١٩٦)، السلحفاة للموارد والسكان للارنب بالبداهة.

أما أعراض المشكلة فتتمثل في (العمالة والبطالة، الريف والزراعة + المدن والتحول المهني + هجرة العقول + دولة للموظفين + مستوى المعيشة + التلوثية والركب الغذائي + الصحة والركب الباثولوجي).

منتهياً إلى إثارة سؤال مهم حول معنى الإفراط السكاني؟ باعتبار أن الإفراط يبدأ حين يخل التوازن بين السكان والموارد.. فهل حدث ذلك في مصر؟ وما هي نسبة الإفراط فوق الحجم الأمثل بالضبط وتقتضيه هذه الأسئلة تقديم وجهات النظر المختلفة حول الموضوع (ص ٢٢٠ - ٢٢٧)، حيث يقر أن لب القضية كمية وكيفية معا.. أناس أكثر مما ينبغي.. من نوعية أقل مما ينبغي، (ص ٢٢٧)، وتحت عنوان «حلول أربعة» (ص ٢٢٤) يقدم تصوّره العام لحل المشكلة:

* إعادة توزيع الدخل:

(لا بد من إعادة توزيع الدخل القومي توزيعاً عادلاً على الجميع، فهذا من شأنه أن يخفف من الاستهلاك غير العادي وغير العادل للطبقات الغنية الطفيلية من

بتحجيمها، تحجيمها بتخفيفها لا بتقييدها، وتخفيفها كيفيا لا كمياً..)، وهو يتجاوز ما أحاط بها من حسابيات وتشوهات، بل ويستخلص من ذلك إيجابياته (بان الهجرة قد أعادت تقديم العرب إلى العرب عامة.. ومصر إلى العرب خاصة، وذلك بعد طول ابتعاد في عصر الاستعمار..)، ويتصاعد بالفكرة ويرى في الهجرة المصرية (.. أداة مجسمة من أدوات عملية تصدير العرب..)، كما يراها تجربة عملية في تطبيق الوحدة العربية (.. فإن التجربة كايح واقعي للأوهام، متعلما في حافز منه ضد أخطار الإقليمية الضيقة..)

أما صيحته التحذيرية فتتلخص في سؤاله من «مستقبل الهجرة»، مبعثها وما أصبح يحيطها من شكوك عميقة مثقلة (.. فبينما كانت أوائل السبعينيات هي بداية المد، بدت أوائل الثمانينيات وكأنها بداية الجزر وربما تنفجر فقاعاتها في التسعينيات، ذلك الانفجار المدوي الذي سيكون له نتائجه وآثاره التي تفوق خطر لوقته ودويه (ص ١٧٦)، ويرى بضرورة الإعداد والاستعداد من الآن لعودة الطيور المهاجرة، وترتيب الاتفاقيات مع دول البترول على جداول زمنية تدريجية لعملية التيسير التجميعة، حتى تخف صدمة التيار الراجع والتوازن الجديد إلى الحد الأدنى.. (.. فإن متاعب خطيرة متفجرة لابد من انتظامها) غير أنه يجند دعوته إلى رفع مستوى العمالة المصرية.. بحيث تبقى دائما محل الطلب في الأسواق الخارجية وليس بالضرورة الأسواق البترولية.

وهكذا بعد تقليب الهجرة الخارجية على وجوها.. يصل إلى المشكلة الأم.

ناحية، ومن ناحية أخرى يرفع مستوى معيشة الطبقات المعوزة، بما يؤدي في النهاية إلى خفض معدلات نموها سكانية، (ص ٢٢٦).

* زيادة الدخل القومي:

(.. أيا كان الفاعل والمفعول به بين طرفي المعادلة، فلا بد من الاستناد إلى استراتيجية للتنمية، وليس من حق أحد أن يدع إلى غير ذلك من حلول.. قبل أن يرتاد ويستنفذ الحل الاقتصادي تماما، (ص ٢٣٦).

* الهجرة:

(.. من المؤكد أنها قد ساهمت بعوانها في حل المشكلة السكانية.. أو تخفيفها، ولا مجال للخوف من سلباتها، وبالحجم المناسب لن تؤثر في الاقتصاد المصري مطلقا.. (ص ٢٤٠).

ضبط النسل:

(.. واقع الأمر.. أن ضبط النسل.. مفتاح تخطيطنا القومي لحل المشكلة، (ص ٢٥٠).

وإذا كانت المشكلة السكانية.. هي مشكلة مصر بهامة، فإنها تتمثل في أعقد تداعياتها في عاصمتها القاهرة، هذه التي تجسد في حد ذاتها.. مشكلة مصر الثانية، ليس فقط من حيث ما تعاني في منها، بل وأيضا فيما يؤدي إليه تضخمها من مشاكل.. تصيب لها.. (فصل ٢٩ من ص ٢٥١ - ٣٩٥).

المركزية العاصمية

(قاهرة مصر).

يفسر بالمركزية الجغرافية تفرد موقع القاهرة، فهي تقع عند رأس التل.. عقدة مصر العظمى (.. مقدمة خاصرة الوادي بكل معنى، تؤدي كل الطرق

الجنوب، وهذا هو هيكل الأرض السوداء في مصر عموماً، هي إذن تختزل شكل مصر الجغرافي أيضاً، بل هي فوق ذلك تختزل تاريخها في تركيبها، حيث تقع بين قوسين معلقين من التاريخ القديم.. الفرعوني غرباً والإسلامي شرقاً، في حين ترقد المدينة الحديثة في القاع المنخفض بينهما، هي ثالثاً إذن (.. خير نقطة في مصر تختزل تاريخها، ص ٢٦٨).

ولأن المركزية تورث الحجم.. فقد نمت القاهرة وأفرقت في تضخمها، من مدينة مليونية سنة ١٩٢٧ بنسبة ٨٪ إلى جملة سكان مصر، إلى أكثر من ٥ مليون سنة ١٩٧٦، دون حساب هوامشها العشوائية، وفاضت خارج كرونها (٢٦٤ كم^٢)، وأفقرشت عملياً قرابة ٢٩٠٠ كم^٢، متضمنة إقليم العاصمة المدني بمعناه الواسع، وفراغاتنا المحيطة، والقرى والعزب القريبة، وأجزاء من بعض المراكز الريفية في الجزيرة والفيلوبية، هذه التي دخلت أو أوشكت ضمن نسيجها المتروبوليتاني (ص ٢٩١)، وتبعاً لأرقام ١٩٨٢ بلغت نحو ٩٣ مليون نسمة، أي نحو ٢٠٪ من جملة سكان الدولة، أي ضعف نسبة العاصمة في الدول الناضجة حضرياً (ص ٢٩٢)، وصفوة القول إن حجم القاهرة ليس فقط أكبر جداً مما يتناسب مع حجم سكان البلد، ولكن أيضاً مع أحجام سائر المدن في البلد عدا الإسكندرية.

ويتابع إحصائياً نموها (.. لقد أصبحت «القاهرة» مدينة مليونية منذ تعداد ١٩٢٧، بنسبة ٨٪ إلى جملة سكان مصر، ثم تضاعفت بعد نحو عقدين .. وترتفع نسبتها إلى ١٠٪، وأضافت للمليون الثالث قبل أقل من عقد.. وتزيد نسبتها إلى نحو ١٢٪، وفي

تلخيص العصر في شخصية مصر



منه امتداده الخطي طولاً بلا عرض، أحادى الحركة والتوجه، لا تتميز فيه نقطة عن أخرى، وكذلك البقعة التي تخلق من بؤرة حاسمة، فلئن كان بها حزمة من خطوط طبيعية على المحور الشمالي الجنوبي، متمثلة في فرووعها وترعها، فإنها تعد أي مصادر طبيعية عرضية تعامد عليها، وتؤدي إلى عقدية طبيعية Nodality فعالة (ص ٢٥٢)، وقد اتسق مع هذا الامتداد والانسياع.. توزيع العمران والمواصلات.. مؤكداً صورتها العامة (.. الصعيد كالبقعة تقريبا.. هذا خط بلا بؤرة.. وهذه رقعة بلا عقدية). وهكذا يفسر عنوانه.. «مركزية رغم الامتداد».. ويوضحه، منتقلاً إلى مقولته الثانية (تكاد القاهرة تلخص كيان مصر البشرى) حيث هي تحكم مواقعها المركزي بين الدلتا والصعيد.. تستمد سكانها بتوازن معقول من كل أقاليم الدولة، وبالتالي تؤلف بحق عينة ممثلة لمصر (ص ٢٦٩)، بل هي تلخص كيانها الطبيعي أيضاً، بل إنه الأسبق، فالقاهرة مروحية الشكل، ضيقة طولية في

إليها، عنق الزجاجة، عنق مصر، مركز الثقل الطبيعي هندسياً، ونقطة الارتكاز ميكانيكياً، ومركز الثقل بشرياً، ص ٢٦٥). وبذا يفصح عنوان الفصل عن دلالاته، وتقدو هذه الدلالة مدخلة لدراسة القاهرة.. وكشف خصائصها الناجمة عنها، على أن القاهرة.. ليست وليدة الجغرافية فقط، بل هي من اختيار التاريخ أيضاً، فرغم تغيرات موقع عاصمة مصر عبر تاريخها، فقد استقرت رأس الدلتا عامة.. قرابة ٢٥٠٠ سنة متقطعة.. بما يعادل نصف تاريخ مصر (ص ٢٦٥).

ومع تعدد مناهجه.. إلا أنه يتخذ من التحليل المكاني محوراً.. يفسر به مركزيتها الصارمة.. كخاصية أساسية دعت لظهورها.. وتظلت نسيجها.. وافضت إلى إيجابياتها وسلبياتها في المحصلة.. لها ولصغر كلها، ومن ثم يصدرها.. ويجعل منها العنوان الرئيس.. لفصلها، ويصنيفها في مقولة مكثفة (مركزية رغم الامتداد) تخص القاهرة، كما أن لها دلالتها العرضية عن جانب مهم من شخصية مصر الإقليمية.. (.. لعل من أبرز ملامح شخصية مصر، المركزية الصارخة طبيعياً وإدارياً وحضارياً، وهي صفة متوطنة مزمنة حتى اليوم..)، يفسرها ويتابعها (.. وترقد الطبيعة بوضوح خلف هذه الظاهرة، فنحن ابتداءً إزاء مركزية مورفولوجية، أي تركيبية، أي جغرافية صريحة، فتيلور الوادي الضئيل داخل شرقية الصحراء الشاسعة.. وتجهمه حول النيل، يجعله جسماً ملموساً ونسبياً ضاماً، ص ٢٥١).

ولكن هذا التجسيم حول النيل.. يجعل داخله امتداداً.. يجعل من مصر المعمورة (مسافة لا مساحة ص ٢٥١)، فالصعيد يفتقر إلى قلب طبيعي، يجعل

أكثر قليلا من نصف عقد أضافت المليون الرابع، وزادت عن ٥ مليون في أرقام ١٩٧٦، دون حساب هوامشها العشوائية للكسرة، وفاضت خارج كاردونهاما للمسلم (٢١٤ كم^٢) .. الذى لم يعد سوى القاهرة الصغيرة بملايينه الخمسة، أما القاهرة الكبرى، فقد افترشت عمليا أكثر من عشرة أضعاف هذه المساحة (٢٩٠٠ كم^٢) متضمنة إقليم العاصمة المدن بمعناه الواسع، وبراغاتها المصيطة والقرى والعزب القريبة وأجزاء من بعض المراكز الريفية فى الجزيرة والقليوبية.. هذه التى نطقت أو أوشكت ضمن تسميتها للتروبوليتانى.

تضم تبعا لأرقام ١٩٨٣ نحو ٩٣ مليون نسمة.. أى نحو ٢٠٪ من جملة سكان الدولة، أى ضعف نسبة العاصمة فى الدول الناضجة ريفيا وحضرى، وفى الرتبة السادسة بين أكبر مدن العالم حجما.. سابقة بذلك بكين الصين ذاتها (ص ٢٩١).

وتصل التوقعات بها فى ١٩٩٠ إلى ما بين ١٣ — ١٦ مليوناً (٢٦٪ من الحجم المتوقع لسكان الدولة، ويقدر أن تبلغ دائرة ٢٠ مليوناً مع سنة ٢٠٠٠ ربما ٢٨ مليوناً.. وبذلك تستوعب أكثر من ثلث حجم الدولة المتوقع لها أيضا آنذاك.

وصفوة لقول إذن إن حجم القاهرة ليس فقط أكبر جدا مما يتناسب مع حجم سكان البلد، ولكن أيضا مع أحجام سائر المدن فى البلد.. عدا الإسكندرية فقط.

المركزية الوظيفية:

ليس هذا فحسب.. فقد اقترن بالمركزية العاصمية منذ وقت تركن شديد للوظائف الحضرية فى شتى أشكالها،

تمثل أولا فى الوظيفة السياسية. (.. لقد كان لمصر دائما دور خارجى، غالبا بدرجة أكبر من إمكانياتها، بدت معه كراس كبير ينوء به جسم صغير، تركزت بها كل المسئوليات والتطلعات الخارجية، ومن هذا التناقض نشأت مقتضاة العاصمة الكاسحة والجسم الكسيع، ص ٢٨٦)، واقترن ذلك بدور الحكومة الطاغى، وأرسى نواة الموظفين الثقيلة، وأصبحت الليبروطراطية المركزية عنصرا أصيلا فى تركيب الحضارة المصرية (ص ٢٧٠)، ولقد نما عدد الموظفين الحكوميين فى العقود الأخيرة نموا هائلا، قاربت دائرة ثلاثة المليون، تعادل أكثر من ٢٠٪ من مجموع القوة العاملة فى مصر (ص ٢٧٥)، ورغم الحكم المولى، يظل جيش الموظفين فى العاصمة، لقد كانت القاهرة دائما كما يصفها جاك بيرك قلعة قديمة لمركزية الدولة (ص ٢٧٦).

وهكذا تخرجت مركزية العاصمة مثل كرة الثلج، لتصبح القاهرة فى اللاندسكيپ الحضرى المصرى أقرب لأن تكون الورد الأكبر (.. لقد تحولت القاهرة من مجمع مدنى إلى كائن يتص دم الأقالييم..)، ليس فقط أراضيها المزروعة، بل وروس أموالها أيضا كانت (.. بعدما كانت الأرض الزراعية بالوعة مصر الإقطاعية، أصبحت القاهرة بالوعة مصر الرأسمالية)، ولئن كانت القاهرة لا تتعدى خمس الدولة من حيث العدد المطلق، فلعلها تزيد عن النصف من حيث الوزن والثقل الفعال، فلو أننا قيمنا الدخول المرتفعة والعقارات والأملاك والصناعات والمرافق والخدمات الرافية، وكذلك ما لا يمكن تقييمه رقميا كسلطة والنفوذ، فلقد ترجع العاصمة كفة بقية البلد، (ص ٣٣٧):

ولقد امتد ذلك إلى صدرها هى نفسها، لقد تجاوز التضخم حد التخم

المرضية إلى التفجر الباثولوجى، فباتت كل مؤسسات العاصمة تئن وتتأكل وتتهار تحت ضغط سكانى متفانم، وإذا كان لذلك من معنى فهو بلا شك أن مصر باتت تتألف من مدينة كبرى وقوية كبرى، المدينة الكبرى هى العاصمة، والقوية الكبرى هى الأقالييم، ولم يكن تضخم العاصمة hyperirophy سوى نتيجة لضمور الريف atrophy (ص ٢٨١).

وقبلا يفسر الآليات التى أدت إلى هذه الثنائية المرضية، يحدد مؤشرات تقاوم مشكلات العاصمة فيما يلي:

* تلتهم القاهرة ١٤٤٠ هكتارا كل سنة من الأراضي الزراعية.

* تبلغ كثافتها العامة نحو ٢٤ ألف/كم^٢ (أكثر من ٢٠٠ نسمة/ فدان)، وتصل إلى ٦٠٠ ألف نسمة فى أحياء روض الفرج وبياب الشعرية. (ص ٣٥٤).

* يخس الفرد من المساحات الخضراء والمفتوحة ٦٠ م^٢ مقابل ١٢ - ٤٠ مترا فى المدن المتوازنة.

* تتدفق إليها هجرة الفقراء وللمدمنين النازحين من الريف، فتتحول هوامشها إلى معسكرات انتظار ومدن وعيش الصفيح - shanty towns, bi donvilles تمثل الريف فى العاصمة أو عملية تريف المدينة.

* أكثر من ٢٥٪ من المنازل أيلة للسقوط وقد تجاوز ٤٠٪ منها عمره الافتراضى، ونسبة ثالثة لا تصلح للأسيين (٤٩٪ من سكان حى الخليفة، ٢٨٪ من سكان الجمالية، ٣٣٪ من سكان الدرب الأحمر.. يقطنون للقابر. (ص ٣٥٦).

* اختناق حركة المواصلات، وبغياپ التخطيط بين مواقع السكن والعمل.

* التلوث.. الرصاص عشرة أمثال المتوسط العالمى.

وينفى أن تكون الجغرافية وحدها (المركزية المكانية) وراء تلك الثنائية المختلة، هي قد تؤدى إليها فى نسبة معينة. ولكنها تعود بعدها لغيرها، عوامل تاريخية واجتماعية وسياسية وحضارية، بل وإلى (.. عوامل آلية بحثة كامنة فى ميكانيزم نمو المدن.. تتداعى بها مثل كرة الثلج، ص ٢٨٢). فثن كانت المركزية ثورت الحجم، فإن الحجم أيضا يورث الحجم، والكل يرتبط فى النهاية بصورة أو بأخرى بسياسة «دع يد يره» التى ترك الأمور تجرى عشوائيا فى اعتتها، ويفض بعد ذلك فى تحليل هذه العوامل غير الجغرافية (البحتة)، فى متابعة تاريخية يهرن بها على مقولته، كما يستخلص منها دلالاتها الأخرى (جاء ص ص ٢٨٢ - ٢٩٠)، مستندا انعكاساتها الأخرى هذه التى تكاد تتطابق معها شكلا ومضمونا مثل.

- الهرم الطبقي الاجتماعى.
- النظام التعليمى.
- مورفولوجية العمران والبناء.
- البيروقراطية الوظيفية.
- الاستثمارات الرأسمالية.
- الدور السياسى الإقليمى.
- الهجرة الريفية.
- التركيز الصناعى.

وتحت عنوان «حماقة العاصمة الجديدة» (ص ٣٦٠).. يضع مناقشته للحلول المطروحة لحل مشاكل القاهرة، ويفصح العنوان عن رأيه المبينى فى هذا الاقتراح.. بإنشاء عاصمة بديلة لها، مفندا المواقع المقترحة كبدائل لها، منتها إلى أن (.. القاهرة .. ليست نيتا

تفصيل العصر فى شخصية مصر



شيطانيا، بل ليس فى الدنيا عاصمة أكثر منطقية وطبيعية من القاهرة..). إذن فموقعها ليس المشكلة، ويتبعه مناقشة اقتراح «العاصمة المقلقة» (ص ٣٧٠) ويراه حلا مناسباً.. على الأقل لوقف التفجر الزاين فى نموها، ويفضل غيره، وقد يؤدى إلى تثبيت حجمها، مذكرا بما اقترحه يوما.. من تثبيت حجم القاهرة عند دائرة (٧ مليون نسمة، ص ٥٢) كمنسقف أعلى لنموها.. وكذا بالنسبة لغيرها من العواصم الإقليمية المتنامية.. ولكن بما أن ذلك قد فات.. ولم ينتبه أحد لدعوته.. فإن تثبيت الحجم بإغلاقها.. لم يعد كافيا. بعدما تضاعف حجمها عما اقترحه، وفى مقابل ما يسمى بالقاهرة الكبرى (.. وهى عتد حطة تضاعف من حجمها ومشكلاتها.. ومن ثم فهى قطعة من جنون الضخامة.. سوف تؤدى كالكيناصور إلى انتهائها، ص ٣٧٢). ويستبدل بها حطة مناقضة.. لتحدد بعد (الخلق+ التثبيت) فى تصنيفها، مستندا فى ذلك إلى مبادئ الإقليمية المتوازنة.. التى ترى الصورة ضمن إطارها الأوسع.. بهدف التوصل إلى شبكة

حضرية فعالة بقدر ما هى متوازنة، ويتوجه نحو وضع بنود تصنيفها عليها كما يلى:

* تحويل القاهرة إلى عاصمة سياسية فقط.

* إيقاف النمو الصناعى فوراً بها.

* تخطيطها مما يحيطها من أحياء الصفيح والعشش.

* التوقف عن إنشاء المدن الجديدة. بالقرب منها وحولها.

.. (.. باختصار ليس المطلوب منا جديدة.. ولكن مدينة منصفة، لا للقاهرة الكبرى هى المطلوب، وإنما القاهرة الصغرى.. جنباً إلى جنب وشرطاً مع الإقليمية الكبرى.. نقطتنا التالية، ص ٣٧٨).

وهكذا يتحدد اقتراحه (الخلق+ التثبيت+ التصنيف).. مستندا كما سبق.. إلى مبادئ الإقليمية Regionalism الراسخة، والرامية إلى تفكيك المركزية الصارخة.. لحساب عواصم بقية أقاليم مصر كلها، ومن ثم فليس تخطيط القاهرة.. عملية منفصلة بذاتها.. ولا يجب (حسناً إذن.. كيف الآن نعيد بناء أقاليمنا؟ ص ٣٨١).

وتستغرق إجابة هذا السؤال .. بقية صفحات هذا الفصل (ص ٣٩١) ص ص ٣٨١ - ٣٩٥)، يحدد رؤوس إجابته عن التنمية الإقليمية فيما يلى:

● إعادة بيعت وإحياء المدن والعواصم الإقليمية.

● إعادة بناء القرية.

● إعادة تخطيط هيكل التقسيم الإدارى (ص ٣٨١).

وفصل فى كل منها كما ينبغى، كما يقدم اقتراحه بشأن خريطة التنمية

الإقليمية (ص ٣٩٥)، هانغا في المحصلة.. إلى إحيال اللامركزية.. محل المركزية للورثة المتوطنة.

ويها ينهى هذا الفصل الذي خصصه لمشكلى السكان والقاهرة.. باعتبارهما أبرز أمراض خريطة مصر الاجتماعية، منتقدا بعده (فصل ٤٠، ص ٣٩٩ - ٤٧٩) إلى تحليل عدد من سماتها الحضارية المتميزة.

تعدد الأبعاد:

كما سبق.. فإن لكل فصل من فصول الجزء الرابع من كتابه.. مفتاحه، يضعه كمنوال له، يحدد به ما سبق بذره في فصول أجزائه السابقة، يستلهمه بتعدد الأبعاد في شخصية مصر، ثمرة للجزء الثاني عامة، ولنظريته السارية عن الموضع والموقع خاصة، وكما أن «التجانس» في شخصية مصر خاصية للموضع، فإن تعدد الأبعاد في كيانها وظيفة للسوق (... تعدد الأبعاد والجوانب في كيان مصر وتوجيهها نتيجة متوقعة للسوق البؤري في قلب مثلث القارات، فمصر حلقة الوصل بين العالم المتوسطي وبين حوض النيل برمتها، وعلى النجلاء بين أفريقيا وأوروبا، وتتحدد لنا في المحصلة العامة أبعاد أربعة في توجيه مصر، الآسيوي الأفريقي على مستوى القارات، والنيلي المتوسطي على المستوى الإقليمي، جء (ص ٣٩٩) وكلاهما «التجانس» + تعدد الأبعاد من أدوات فحصه لشخصيتها.. واستخلاص مكوناتها.. وتحديد هويتها.. (...) على أن الشكل يتداخل مع الإطار العربي الكبير، بيد أن الإطار العربي ليس مجرد بعد توجيهي، وإنما كيان الجوهري في ذاته.. هو الوجه والهوية، ص ٤٠٠)، والهوية عنده ثقافية في جوهرها، ومن هنا فلا تعارض بين هذا الطرح وبين تقريره (مصر هي

النيل).. فرغم أنه أقوى وأعمق ما يربط مصر بخارجها.. بما يجعل من البعد النيلي في طبيعة أبعادنا الخارجية أولا.. ومحوريا في بعد مصر الأفريقي ثانيا، إلا أنه لم ينل إليها مع مائتته وتربته ثقافة أفريقية، بل كان وسيلة نقل الثقافة العربية إلى داخل أفريقيا، وبما أنه يصعد تصديد ملامح شخصية مصر الحضارية.. فالثقافة هي أول ما يهيم.

فإذا كان النيل هو مصر ذاتها.. والعربية هويتها.. فما دور البحر المتوسط في شخصيتها الحضارية؟ وتقتضية إجابة هذا السؤال بحثا مطولا في حضارة البحر المتوسط، ومناقشة مسهبة لكافة الآراء التي عرضت لعلاقة مصر بحضارته ينتهي منها إلى... (وأن البحر المتوسط من أبعاد التوجيه الحضاري المصري.. قضية لا يمكن بداهة أن تكون خلافة، فالنيل إذ ينحدر شمالا ليصب فيه، والحيوة المصرية إذ تجرى مع النيل نحوه، فإن مصر برمتها تتوجه إليه وتتطلع نحو الشمال، والبلد إذ يطل عليه بجهة مشرفة مترامية نوعا، وإن يمثل البحر أحد ضلوعه الأربعة، أو بالأصح الضلع الوحيد الذي يتصل مباشرة بالمحور المصري، باعتبار الضلع الغربي ميّزا.. والجنوبي والشرقي شبه ذلك، نقول إن البلد بهذا لا يملك إلا أن يتفاعل مع البحر ويتعايش، أي أن إحاطة الصحراء بمصر.. كما بالشام والأناضول وجهتها كما وجهتهم نحو البحر المتوسط، كما ريطهم ببعضهم البعض، وريطهم بأوروبا من خلفه، كما يرتبطون بأفريقيا وآسيا، إن مصر وفورا.. ولا ترد.. متوسطة أكثر مما هي مدارية أو أفريقية، جء (ص ٤٤١).

ويتساءل عن وزن أبعاد مصر في شخصيتها؟ وعن نسبها في تكوين هويتها؟ وعن دورها بالنسبة لكل منها؟

(ص ٤٥٩)، ويجب.. (قد يكن من المفيد أن تفرغ أولا.. من أن الأبعاد البحرية تأتي في المحل الثاني بالضرورة.. إذا ما قورنت بالأبعاد القارية، ويتحدد المجال البحري المصري تقليديا بالبحرين المتوسط والأحمر، والنقل الأكبر في الأهمية للمتوسط، وإذا كان كل منهما يستمد جزءا أساسيا من قيمته العالية من الآخر، ودون تناقض.. فدور مصر في البحر الأحمر أكبر نسبيا من دورها في البحر المتوسط واليوم فإنها بلا نزاع محور استراتيجية البحر الأحمر الأساسية والحربية، ص ٤٥٩ - ٤٦١).

وتحت عنوان له دلالة «تعدد لا انفصام» (ص ٤٥٩) يقرر (... ودخل هذه النواتج.. لم تصب مصر عادة بدوار جغرافي، ففيماء عدا الانتماء العربي المؤكد.. فنحن مصريون قبل أن نكون أفريقيين أو آسيويين أو أوروبيين، نحن في أفريقيا ولنا منها، ومن أوروبا ولنا فيها.. ولنا في آسيا.. ولكن إليها، ذلك أننا في أفريقيا بالجغرافية والأرض، ومن أوروبا إلى حشد، وإلى آسيا بالتاريخ والثقافة، ص ٤٦٨)، ودخل هذا الإطار.. فإن لمصر علاقة خاصة بكل من السودان والشام.. يحددها في سياق سابق.. حيث يقرر (... ولا يمكن أن نتكلم عن البعد النيلي لمصر.. دون أن نضع أكثر من خط تحت السودان: قمع موقع الجوار الجغرافي، ووحدة النيل الهيدروالوجية.. أصبح من أشد الإقليم ارتباطا بمصر طوال التاريخ، شأنه في ذلك شأن الشام.. حيث الرابطة هي موقع الجوار والوحدة الاستراتيجية، أي بين مصر والسودان.. كما بين مصر والشام علاقة خاصة.. بمعنى ما، وكلتا العلاقتين قديمة.. وسابقة للعروبة كما هي لاحقة عليها، ص ٤٧٧ - ٤٧٨).

تلخيص المصر فى شخصية مصر



مكاننا وسطا، وسطا بين خطوط الطول والعرض، وبين المناطق الطبيعية وأقاليم الإنتاج، بين القارات والمحيطات، حتى بين الأجناس والسلالات والانحسارات والثقافات، وبغير فكرة التوسط المحورية هذه - لن نفهم روح مصر أو شخصيتها، بل يمكن القول إن هذا التوسط هو مصرنفسها، (ص ٤٨٢).

ثم يمجها مع نظريته العامة عن «الموضع والموقع»، ويقدرها وقد انبثقت من توازنهما العام فى مصر (.. نجد فى الموقع والموضع توازنا وتقاربا عاما من حيث القيمة والأهمية، ونجد بناء حضاريا يتكافأ مع قوة الأساس الطبيعي، ونجد فى الحضارة عطاء يعادل الأخذ أو يزيد عليه، بالمثل فى الموقع والمناخ، فى الجنس والسكان وحتى فى الثقافة واللين، (ص ٤٨١)، أى أن التوسط والاعتدال يستند إلى قاعدة راسخة من التوازن الطبيعي يفصلها (..) يمتاز الموضع بتوازن ملحوظ فى الهيئة، وذلك بتناظر البحرين والصحراوين والهضبتين على جانبيه، كما يمتاز «بالتوازن فى درجة الاتصال.. حيث تقسم

وبين هذه الأبعاد.. فإن مصر فى البوصلة الراسخة، ومقياس الأبعاد كلها يتحدد فى انتمائها القومي (..) أى العروبة.. الكيان والجسم نفسه.. قبل أبعاده.. فالقومية العربية وحدها تحفظ توازنها.. ويضع عنها الإصابة بالدوار الجغرافى بينها، ذلك هو المصل المضاد لخطر الدوار الجغرافى فى قلب العالم، (ص ٤٦٩)، وسيعود إلى تأكيد هذه الحقيقة مرارا وتكرارا فى بقية صفحات هذا الفصل.. وما يتبعه.. إلى نهاية كتابه.

ويعد تعدد «الأبعاد» ينتقل إلى «التوسط والاعتدال».. كسمة بارزة فى قسمة شخصية مصر الحضارية، يخصص لها الفصل التالى (٤١) من ص ٤٨١ - ٥٥٠) من هذا الجزء الثانى من كتابه.

التوسط والاعتدال:

وتأتى مقولاته عن «التوسط والاعتدال» لتتكامل مع سابقتها (التجانس المركزية: تعدد الأبعاد) هذه التى تميز مع ما يأتى بعدها.. شخصية مصر الحضارية، وجعلها بمثابة أدوات لفحص جوانبها والكشف عن أسرارها العميقة، حيث تثبت تطبيقاته لها تخلقها نسيم هذه الشخصية.. وتجليها بدرجة أو بأخرى فى عناصرها المكونات (.. ليس من قبيل التبسيط.. أن نعد التوسط والاعتدال من أبرز السمات العامة فى شخصية مصر والشخصية المصرية، فالوسطية والتوازن سمات رئيسية عريضة فى كل جوانب الوجود المصرى تقريبا، الأرض والناس، الحضارة والقوة، الأخذ والعطاء، جاء (ص ٤٨١).

ويوجد فيوصل هذه السمة فى المكان.. شائها شأن غيرها (.. سواء من حيث للموضع أو الموقع، تمثل مصر

مصر بفضل عزلتها النسبية الخفيفة بالاعتدال والتوازن بين العزلة الجغرافية النطوية والانسياح أو الانفتاح الكاسح، أيضا فإن مصر كشبه واحة نهري فى وسط الصحراء، تعد أيضا شبه واحة ساحلية تجاور البحر وترتكز إليه وتنتفع عليه، وبالموضع نفسه فإنها بمثابة جزيرة أو شبه جزيرة نهري ساحلية بين الصحراء والبحر، إلا أنها بمقياسها الضخم وإحاطة الصحراء.. تعد فى الوقت نفسه جزيرة قارية من الخارج، ولكن الغريب بعد هذا أنها من الداخل تبدو كإرخبيل نهري يتألف من آلاف الجزر من كل حجم ومقياس، وذلك بحسبانها بيئة نهري تختلطها وتقطعها مئات الترع والمصارف والقنوات من كل حجم ومقياس، (ج ٤ ص ٤٨٥).

وتتمو الفكرة وتتصاعد من مستوياتها البسيطة إلى مستوياتها الأعلى، حيث يؤدى التوازن الطبيعي القاعدي.. إلى توازن البنية الحضارية فوقه، بما يتضمنه ذلك من تفاعل بين شتى العناصر، يؤدى إلى تركيبة قوامها التوسط (..) والواقع أن هذه التركيبة الفريدة تقودنا خطوة أخرى إلى الأمام نحو أخص خصائص موضعنا الطبيعي، فهو فى الحقيقة إنما يمثل إحدى الحالات النادرة مما يمكن أن نسميه «تراكب البيئات»

Superimposed environments

.. فليد استطاعت الحضارة الحديثة ووسائل النقل بالجملة أن تخلق أخيرا بيئات تركيبية منقولة تتوابع فى نقطة واحدة عن طريق الاحتكاك الحضارى، ولكن الطبيعة خلقت فى مصر منذ البداية بيئة طبيعية تركيبية تركيبة حين أوصلت النيل من منابعه وبخصائصه الموسمية من قلب إفريقيا إلى عتبة البحر المتوسط

.. وهكذا جمعت مصر بين عدة مزاياء نادرة استعملتها من موقعها هي كعصب ومن منبعها كمصدر، بحيث جمعت بين محاسن كل منهما دون أضرار أى منها، حتى ليكن القول إنها جغرافية مقطرة مشرحة.. تلك التي ظفرت بها مصر من الطبيعة، فهي أولا قد أخذت موقع البحر المتوسط المتقدم.. ولكن ليس موقع الحيشة السحيق المتخلف، وهي قد أخذت من أثيوبيا الجبلية الوعرة المضروسة.. بيئة سهلية مبسطة كإفضل ما يكون الاستواء، واستجذبت منها تربة رسوبية بركانية.. ولكن دون أن تعاني من البركة والزلازل، ثم هي أخيرا قد أخذت مائتي الموسميات.. دون أن تأخذ منها رطوبتها الوالدة ومناخها القاسي، بالاختصار وصبغة جامعة، مصر صحرابية المناخ.. ولكنها في الوقت نفسه موسمية الهندولوجيا، غير أنها أيضا متوسطية الموقع، (جء ص ٤٨٦).

وهكذا تتجمع خاصية المتوسط في شخصية مصر مما لا يحصى من الجزئيات.. التي أخذت من كل منها بقدر، جنبها ظواهر التطرف بآية صورة، فمن المستحيل أن تكون شخصيتها تركيبية ومتطرفة في أن واحد، فالأخيرة تعنى الأخذ من جانب واحد.. بكمية ولوغية.. تحجب غيره، أما التركيبية فتعنى تناسب المكونات في بنية معتدلة متناسبة التكوين، يؤكد للحنى باقتباس من المقرئ عن مناخ مصر.. مصر متوسطة الدنيا، فقد سلمت من حر إقليم الأول والثاني، ومن برد إقليم السادس والسابع ووقعت في الإقليم الثالث.. فطاب هواؤها وضعف حرها.. وخف بردها.. وسلم أهلها من الأمراض، (ص ٤٨٨).

وبالنسبة للتطور المادي والاقتصادي (ص ٥١٢).. فقد سبقت مصو إلى الأخذ

بأسبابه منذ أوائل القرن الماضي، وبتد رائدة في كثير من وجوه التحضر، ولكن أين تقع بالضبط من خريطة العالم؟ .. ومهما يكن من أمر.. فإن الباحث يحار فيما إذا كانت مصر اليوم دولة شبه نامية أم شبه متقدمة، فقيرة هي بالتأكيد بمتوسط الدخل الفردى بالقياس إلى الدول المتقدمة، وبعك تماما من دول البترول الحديثة، بحيث يمكن أن تصنف شكلا كدولة انزلت من العالم الثالث إلى الرابع، غير أنها بمستوى التطور الحضارى والمادى وهيك البناء التحتية والصرح للفوقى.. تقع بلاشك فوق دول العالم الثالث الجديد، إن لم تقرب من صفار الدول المتقدمة، أما للمقارنة مع الدول العربية وغير العربية البترولية، فهي إن لم تكن طالة قصيرة النظر حقا.. فإنها على الأقل تبجح أو تعاني من انكسار خطير في الرؤية، فالأمر كله شذو بحت، حالة بترولية خاصة، تكاد تقول حالة بترولية مرضية petro-pathology أكثر منها أى شيء آخر، (ص ٥١٥). والواقع أنها تملك قدرة فائقة على التجانس، تستعدها من خاصية المتوسطية، التي صارت أداة كما هي سمة، تتجاوز بها التناقضات الطارئة.. وتتوازن وتتعدل بملكة خاصة.. فما هي؟

ملكة الحد الأوسط :

يفرق بين المتوسط والاعتدال .. (المتوسط دراسة في عبقورية المكان، والاعتدال دراسة في عبقورية الإنسان، ص ٥١٧)، وما الاعتدال والتوازن في شخصية المصرى.. إلا الوجه الآخر لمتوسط مصر..، وهما معا.. الاعتدال والمتوسط.. ليسا التوازن الخامل.. بل ملكة الحد الأوسط بمعنى عدم التطرف والتطور وقرين الحيوية والتكيف أو كما يقول ويلسون عن مصر القديمة (.. فمرونة الأسلوب المصرى والوسائل

التي حققوا بها الأمن والسلام.. على أساس التوازن بين القوى المتعارضة .. تدل على عبقورية شعبه، ص ٥١٦).

ويبدى تصريحه من دراسة بروفييل الشخصية المصرية.. على الأساس السيكلوجى وحده، خشية تهمة التعلق عند ذكر المحاسن.. والإساءة عند تحديد أضعافها، ولكنه يتجاوز حرجه.. ويتساءل : «هل هناك شخصية قومية مصرية؟» ص ٥١٨، وينتهي في تحليلاته كدأبه.. بهدف المساهمة برأى فيما أصبح يعرف بقضية إعادة بناء الإنسان المصرى، وتتعدد إجابته .. (.. تتم إعادة بناء الإنسان.. في إطار من إعادة الديمقراطية.. ص ٥٢١). وبعك مما تشتهر به الشخصية المصرية.. من سمات اشتهرت بها عبر تاريخها كالوداعة والبشاشة والحفاظ وروح النكتة، فجميعها من طبيعته ولبه، وإن تعاد هذه الشخصية إبداعها.. إلا بالديمقراطية.. وبدوها يتعمق ما أصاب شخصيته السمحة من تشوه، وتأخذه هذه مباشرة إلى فرضيته التالية «عن الاستمرارية والانقطاع» .. يستكمل بها ما بدأه من سمات شخصية مصر الحضارية (المركزية، تعدد الأبعاد) في الفصول السابقة من هذا الجزء، ومؤصلا لها بما سبق ترسيخه منها في أجزائه الأخرى (فصل ٤٢ ص ٥٥١ - ٦٢٧).

الاستمرارية والانقطاع :

ثم تأتي مقولاته الأساسية عن «الاستمرارية والانقطاع» مدعما جدارتها وموضحا دلالاتها (.. ما من كاتب تعرض لتاريخ مصر أو حضارتها.. دون أن يصير على عنصر الاستمرارية في كل مقوماتها وبقدراتها، ولهم هو مدى صحة تلك المقولة، وإلى أى حد بالدقة تذهب هذه الاستمرارية،

إلى ذلك تدريجياً، وانقلبت مصر
الزراعية من الرى الحوضى إلى الرى
الدائم.. وتغيرت هيدرولوجيتها.. ومن
بعدها معمورها، وتضاعف حجمها
السكانى.. بحيث أصبحت أضعاف ما
كانت عليه فى تاريخها، ويفيض فى
متابعة كافة ظواهر الانقطاع الأخرى.

ويعود إلى فصوله السابقة فى الجزء
الثانى من كتابه، خاصة هذه التى
يتضمنها الباب الخامس (ثوابت
جغرافية ومتغيرات تاريخية، من ص
٣١٢ - ٦٠٢)، وبالأخص هذه التى تحمل
ذات دلالة مقولته عن الانقطاع
والاستمرارية، مثل الفصل العشرين (من
السبق الحضارى إلى التخلف، من ص
٣١٢ - ٤٥٦)، والثانى والعشرين (من
الطفيان الفرعونى إلى الثورة
الاشتراكية، من ص ٥٣٦ - ٦٠٢)،
وكذلك الفصل ٢٣ (من إمبراطورية إلى
مستعمرة) فهذه هى التى أسبغت
بمقولاته.. وهى مصنفها.. ورصيد
براميه وأدلتها، ومنها يتوصل ويقرر
تحت عنوان «السياسة والقوة» (ج ١ ص
٥١١).. إلى أن مجموع نتائج
الاستمرارية فى تاريخها.. يتأدل
مجموع نتائج انقطاعه.. بفعل الحضارة
الغربية.. ولهذا فإن مصر ومعها منطقة
الحضارات القديمة.. تواجه أوروبا بنوع
خاص من ندية الأمالة ومزقة التحدى،
ولعل هذا هو السبب الدفين فى شراسة
العداء الغربى لها.. رغم مكانته العالية،
ورغم ما يبذل على السطح الآن من
انعدام التكافؤ تاماً، ولا شك أن كل
هذه الخصائص.. تصل إلى قمتها فى
مصر، ص ٥١١).

وتقتضيه معابله (الاستمرار/
الانقطاع).. أن يتعمق فى نسبها فى
كافة مجالات الحياة، ويرى أن التغير فى
اقتصاد مصر.. يبدو أوسع من غيره..

تلخيص العصر فى شخصية مصر



جديتها الخاصة (..) وبها يفسر
صعوبها فى البداية.. كما يفسر الهيوط
فى النهاية.. ثم الاستمرار أو الانقطاع
فيما بين الطرفين، فعلى الجانب
الصاعد.. مثل المركب الحضارى الذى
نمت مصر منذ البداية.. حالة تلازم
بينى Symboisis محكمة، وعلاقة فعالة
workable connection مع ظروف البيئة
الطبيعية، ومن هنا بدت غير قابلة
للتجويد عليها، وبهية أخرى فإن
التفسير الأساسى للاستمرارية.. إنما
يكن فى ضخامة البداية.. هذه التى
وصلت إلى سفك البيئة.. وإلى قرب
أعلى أفاق إمكانياتها الحضارية، وعلى
الجانب الأخرى.. فلم يكن تاريخ مصر
يعد البداية إلا استمراراً لها ويعددها
تدهور تدريجى نسبى، ص ٥٨٨، وهى
نظرية بدورها خصبة وثرية.

إن فالاستمرارية قد تصحقت
للحضارة المصرية.. من وثبتها الأولى
المبكرة.. التى استوعبت بها بيئتها..
واستوعبتها بيئتها، فكيف انقطعت؟ (ص
٥٩٢)، وإجابته - أن قوى الحضارة
الغربية - منذ الحملة الفرنسية قد أدت

وعند أية نقطة بالضبط يظهر نقيضها..
الانقطاع؟ (ص ٥٩١). ويضيف محمداً
مجالاتها (..) ولكى نضع معادلة
الاستمرارية - الانقطاع فى ميزانها
الصحيح، لابد أن نذكر أنها معادلة
مركبة متعددة الحدود، فهى إذ تشمل
الأرض والناس ابتداءً، فإنها تضم
النواحى المائية واللامائية جميعاً وبذا
تطوى الحضارة والثقافة معاً، غير أن
الاستمرارية تتركز خصوصاً فى
النواحى المادية، بينما الانقطاع الصق
بالجوانب اللامادية، بصيغة أكثر
تحديداً.. الاستمرارية للحضارة
أساساً.. والانقطاع للثقافة أساساً، ص
٥٩١ - ٥٩٢).

ويتابع دلائل الاستمرارية فى الأرض
والمناخ والفيضانات وال عمران والزراعة
وأسماء الأماكن ونظم الحكم (ص ص
٥٥٥ - ٥٦٢) وغيرها، حيث يتوصل إلى
قانون الاستمرار القاعدى (..) بأن
الاشياء تميل فى مصر كقاعدة إلى أن
تستمر فى اتجاهها الواحد وعلى خطها
المستقيم دون تغيير أو انحراف، ما لم
والى أن تصطدم بقوة مضادة لها فى
الاتجاه ومساوية لها فى القوة.. فيحدث
الانقطاع، ص ٥٨١).

ويعد توصله إلى هذا القانون الثرى
القابل للتطبيق، يحدد خصائص هذه
الاستمرارية.. بأنها تراكمية لا تكرارية،
تضبطها البيئة الطبيعية.. خاصة الموضع
والموقع، فعناصر الموضع (النهر، المناخ
وبغيرهما) تعمل بانتظام وباستمرار ودون
تغيير، كما وفر لها المواقع قدراً من
العزلة.. والحماية الصحراوية.. حفظتها
من الهزات العنيفة أو الانقطاعات الحادة
الغضبانية (ص ٥٨٦)، أفضى - أى
الموضع والموقع - إلى تجانس البيئة -
والى عملى متواصلة من بناء الحضارة..
يطلق عليها «أيكولوجية الحضارة».. لها

في الزراعة والصناعة على حد سواء، ويصف بأنه في حالة انصهار وسيولة تامة وإعادة تشكيل، (ص ٩٨)، ولكنه يظهر في المجتمع.. أثقل خطى وأقل مدى، ولكنه يتغير. حتماً بتأثيرات دالة.. يصدها في (مد التمددين الصناعيين والتجارب والتحولات الأيديولوجية-الحراك الطبقي- الخروج المصري الكبير، ص ص ٥٩٨ - ٦٠٢)، أما مصر السياسية.. فعلى طرف النقض من مصر الاقتصادية.. (مصر السياسية.. آخر وأقل ما يتغير في مصر، إنها قمة الثروات والاستمرارية، وخصيصة الانقطاع والتغيرات، ص ٦٠٣)، وتوالى العناوين.. يفند بها ظواهر التغير السياسي-الشكلية الوريقية.. التي توهم بها الحكمة شعبيها.. ويُقنع بها ديموكتاتوريتها (ص ٦٠٨) - يشتي الاقتنع - ولا مزيد (.. لا السكان ولا الفكر، ولا حتى الاستعمار في الماضي أو إسرائيل أو البترول العريض، هي المشكلة الأم في كيان مصر، وإنما مشكلة للمشاكل.. هي قضية الديمقراطية الليكثاتورية أو نظام الحكم المطلق، إنها جماع مشكلة مصر كلها، ص ٦١١)، ويتوجه من بعد إلى اعتصار ما يسميه بالجرمية التغير المصري؟..، أشبه بالنظرية عن كيفية حدوث التغير في بنيتها (ص ص ٦١٨ - ١٢٧) يصدها في ست قواعد أساسية (تغير لا إرادي أكثر منه اختياري، تغير جزئي أكثر منه جزئي، تغير من الخارج قبل الداخل، تسلسل التغير من المادي إلى اللامادي، حتمية التغير، وجهة التغير، ص ٦١٩)، ينتهي منها إلى هذه المقولة الناصعة.. (.. الشكافة هي الثوابت.. والحضارة للتفسيرات، الأصالة للشكافة والحضارة المعاصرة، ص ١٢٧)، وبها ينهى هذا الفصل المهم، ومعها الباب العاشر، ويتنقل إلى موضوعه النهائي

«مصر والعرب».. ويخصص له الباب الأخير.. من هذا الكتاب.. (ص ص ٦٢١ - ٦٦٦).

تحتل العروبة من فكره وقلبه موقعاً أثيراً تدل على ذلك مقولاتها عنها في العديد من الفصول وذاتاً ما تنطوي عليها تحليلاته عن مصر والمصريين، وهو حين يتوج بها كتابه.. فإنه يضع بذلك لمسته الأخيرة.. فوق شخصية مصر الثقافية.. التي يمنحها شائق الاهتمام، ويستكمل أيضاً بناء نظريته العامة.. عن «شخصية مصر».. بعدما أشبعها تحليلاً وتظهيراً.. بطول ٤٠ فصلاً ومئات الصفحات.

ويستهل هذا الباب باستدراك أو توضيح.. (.. لقد كان التصور الأصلي عند تخطيط هذا العمل أن يأتي هذا الباب الختامي.. تتويجاً وقمة له جميعاً، يستلصق ويستقطر أعقق وأخطر نتائج النظرية والعملية، ثم يرسم أم وأبق دروسه.. ومؤثراته التطبيقية والمستقبلية.. في مجال العلاقة العضوية.. التاريخية والمصرية بين مصر والعرب، وعلى هذا الأساس كان المفروض أن يشمل الباب.. فصلين على الأقل أو ثلاثة؛ أولها بعنوان «بين الوطنية المصرية والقومية العربية»، وثانيها هو «مصر في عالم عربي متغير»، وثالثها عن «مستقبل مصر والعرب»، ورغم أن المادة الأولية والأفكار الأساسية والتخطيط العريض لهذه الفصول.. تم إعدادها بالفعل منذ أمد ليس بالقصير، إلا أن المؤلف بكل الأسف والأسى.. يستأن في أن يقدم اعتذاره لقارئة.. عن استحالة الكتابة والنشر.. في ظل الظروف القهرية القاهرة التي يعرف، أنه لن يصل إليه حرف منها بحال لو حاول، ومع استحالة الكتابة والنشر هذه، ولكن أيضاً مع استحالة حذف الموضوع برمته

من الكتاب تماماً، فقد رأينا أن نعيد نشر الفصل الأصلي.. كما ورد في طبعته الأخيرة سنة ١٩٧٠، وذلك بالطبع رغم كل التغيرات الانقلابية المحزنة والمخزنة التي طرأت.. لتجعل من الحقائق المادية الصلبة أخطاء علمية بحة، وأسوأ منها.. لتترنل كثيراً من الآراء والأحكام القومية والسياسية الأساسية.. وتجعل منها سفرية مريرة ومفجعة..

وإنما عذرتنا.. وهو أيضاً رجائنا.. أن يكون النص بصورته الأصلية.. وثيقة تاريخية دافعة مثلاً هي صافعة.. لكل من كان له قلب لم يزل.. أو ألقى السمع وهو شهيد، وتذكرة وبيرة لمن لم يفقد بعد آخر قطرة من حسنة الوعي والقومي، فلفل القارئ وأجداً نفسه في النهاية متفقا معنا في أن جوهر الدراسة ولب القضية.. كما هو وارد ما زال سليماً في مجمله، وإن النص القديم على علته وتصوره وقصره أقرب إلى الحقيقة العلمية الخالدة.. منه إلى الأمر الواقع الزائل.. الذي بالمقابل لا مستقبل له.. وإنما المستقبل للحقيقة مهما طال الانتظار.

بين الوطنية والقومية..

وتتواصل تطبيقاته لمساعدة (الاستمرارية والانقطاع) في شخصية مصر، ويغوص بها في عمق وجهها الثقافي.. ليفسر بها مسألة شائكة.. تتصل بقسمتي الفرعونية والإسلامية في هذا الوجه العريق، يصدها كما يلي تمهيداً للتحليل (.. الانقطاع الثقافي الذي أحدثه الإسلام والتعريب، هو بلا مبالغة.. أخطر تغير طرأ على كيان مصر، منذ نشأة الحضارة الفرعونية قبل الفرعونية.. وحتى قدم الحضارة الفرعية الحديثة..، (ص ٦٣٢)، ويخصص بأن التغير لم يصب الجوانب المادية..

أوروبا» (ص ٦٥٥)؛ ثم باتجاه آخر.. يتمثل فيما عرف بوحدة وادي النيل فقط ولكن بإعلان إسرائيل كدولة.. جرف كل ذلك، وتصدت له مصر مع العرب، وبرز المشروع القومي.. دون أن يعنى ذلك تعارضاً بين الوطنية وبينه (.. فإذا القومية العربية.. محصلة الأوطان العربية.. بقوة متناهية، ص ٦٥٨) .. ومن هنا استهدفتم.. ووجبت تصفيتهما بأى ثمن..

ويختتم الفصل والباب والجزء والكتاب.. بمناقشة قضية شائكة.. هي قضية زعامة مصر للمنطقة (ص ٦٥٩)، ومن قبل طاماً ذكر أنها بوصلتها وحجر الزاوية، ويضيف هنا.. فى لسة أيضاً إلى شخصيتها الحضارية عامة (.. وهذه أيضاً قضية مزيفة، لأن الجغرافيا حسمتها مرة واحدة وإلى الأبد، فإن دور مصر القيانى والريادى فى العالم العربى لم يقطع أبداً.. حتى فى الفترات التى آلت فيها الزعامة للشكلية إلى غيرها، ص ٦٥٩)، ويؤكد ذلك مقتبساً من ساطع الصبرى (.. لقد زودت الطبيعة مصر.. بكل الصفات والمزايا التى تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة.. فى إنهاء القومية العربية، لأنها تقع فى مركز البلاد العربية بين القسمين الأفريقى والآسيوى منها، كما أنها تكون أكبر كتلة من البكتل التى انقسم إليها العالم العربى.. بحكم السياسة والظروف، وكل ذلك من الموقع الجغرافى إلى الكثرة والثروة العامة ومستوى الثقافة وتشكيلات الدولة.. مما يجعل مصر الزعامة الطبيعية للقومية العربية.. ص ٦٦٠)، ويؤكد الآراء التى تنكر عليها ذلك، وهذه التى تخوفها من العرب.. وتخوف منها العرب، وي طرح بدائلها التى ترى القومية قوة لمصر والعرب (.. ومع ذلك.. فإن مصر أكثر من غيرها ربما، تدرك أن لا ضمان ولا

تفصيل العصر فى شخصية مصر

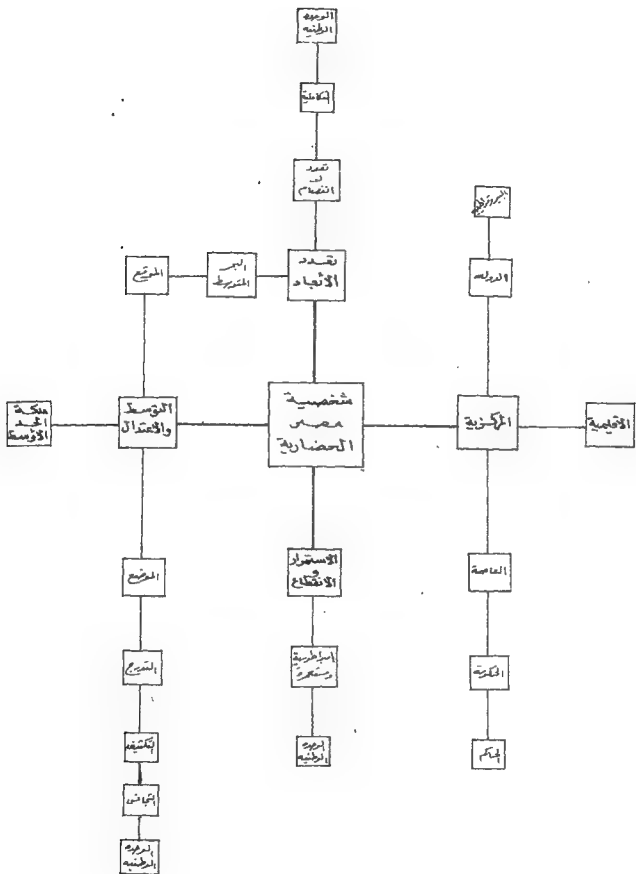


وهى بحكم موقعها ملتقى العرب (٦٤٨)، وهى بلا حدود مع غير العرب، وإذا كانت بهذا وبغيره قد تميزت.. فإنها تاريخياً لم تتعزل (.. ودع عنك دورها.. فى صئ الصليبيين، ص ٦٤٩)، بل هى قد تصدت للدولة العثمانية فى عهد محمد على.. وبذرت مع حروبه وحدة العرب، وإذا كانت قد انزعزت بعده.. بعد إجهاض الغرب لمشروعه، وعكفت على ذاتها.. معظم فترة الاحتلال البريطانى لها.. فإنها قد عاينت المشاركة بقد الحرب العالمية الثانية، ودعت إلى تأسيس جامعة الدول العربية.. وأصبحت عاصمتها مقراً لها، غير أن فترة عزلتها هذه.. قد غدت فكرة الوطنية بها.. كما أن العالم العربى.. وسوريا خاصة.. قد شهدت تبلور الفكر القومى بها (ص ٦٥٤)، فبدأ وكان هناك فرقاً ومسافة.. بين مصر والعرب، ضاعف منها ما كتبه بعض المصريين عن مصر الوطن.. وما سعى إليه الغرب من فصلها عن جسمها.. خاصة والمشروع الإسرائيلى يجرى تثبيت أوضاعه، وارتبطت فكرة الوطنية.. بمشروع «مصر قطعة من

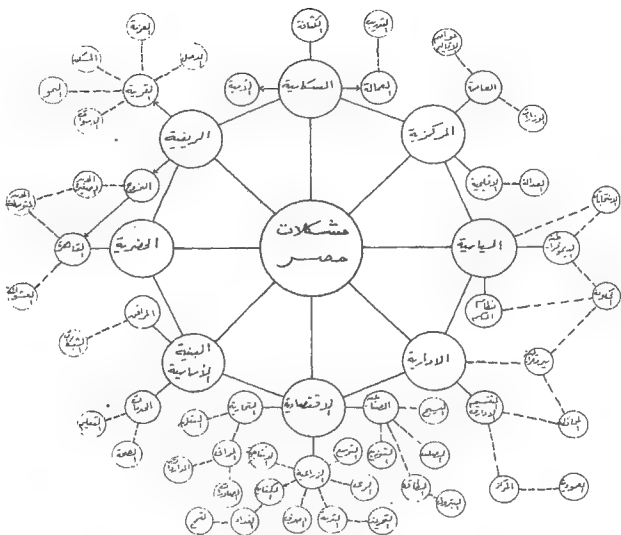
وانصب على اللامابية.. أى الثقافة على وجه التحديد، ويكاد يجزأ رايه فيما تم فى هذه الصورة الزاخرة بالذلات (.. ولا شئ.. يرمز إلى الجمع بين تلك الاستمرارية وهذا الانقطاع.. كلقاهرة.. يجناحيها الفرعونى الحفرى المحط فى الغرب، والإسلامى الحى المضطرب فى الضرق.. الأول وإن كان ميتاً إلا أنه يشير إلى الاستمرارية المائية، والثانى وإن كان قائماً يدل على الانقطاع اللامادى، ص ٦٦٣)، وإذا كان قد سبق له متابعة جوانب الاستمرارية المائية (الزراعة، العرق، العمران) .. فإنه يفرغ الآن لجوانب الانقطاع.. متسانلاً : «فرعونية أم عربية؟» .. هذا هو السؤال (ص ٦٦٤) .. ورغم وضوح الإجابة عنده (عربية بالحياة والوجود) .. إلا أنها تتشعب.. ويخوض من أجلها المناقشات، لا يدع سؤالاً دون أن يطرحه.. ويفند ما أثاره من آراء وإجابات، ثم يقدم رايه مرقئاً (ص ص ٦٦٤ - ٦٦٥)، ثم يضع إجابته لمن يشكك فى عروبة مصر (مصر.. سامية العرق.. عربية اللغة.. شأن معظم العرب..)، ويجمع بين مصر والعرب فى رؤية ثابتة (.. ومن ثم بالتالى كان مصير مصر عربياً من الناحية السياسية، يمثل ما أن مصير العرب مصرى.. من الناحية الحضارية، ص ٦٦٩)، فماذا عن العلاقة بين الوطنية والعربية فى هذه المعادلة؟.

مصر قسم عضوى كبير لدخل دوار العرب، هى منه بالتاكيد.. ولكنها أيضاً متميزة، متميزة بجسمها السكانى داخله (أكثر من ربع جملة سكان العائلة)، ولا مجال للمقارنة من هذه الناحية.. بينها وبين غيرها، ويضاف للحجم تجانسها ووحدتها (.. وفى النتيجة فإن مصر أقوى مرتين.. مرة بطلق حجمها.. ومرة بتجانسها المطلق، ص ٦٤٩)، ومصر قد سبقت الدول العربية إلى المجال العالمى،





شكل رقم (٤)



شكل (٥)

ملحوظة :

المقولات المنشورة هنا لـ جمال حمدان -
 مأخوذة من مجلة المصور ١٥ أبريل ١٩٩٤ -
 العدد: ٣٦٢٧
 والرسوم البيانية من تصميم : عمر الفاروق

مشكلات مصر



المراجعات

جورج قنواتي الراهب الفيلسوف الإسلامي

١٤٩١ قدسية الإنسان عند الأب جورج شحاته قنواتي الدومنيكاني، كريستيان
بان بيسن. ١٤٩٧ جورج قنواتي بين منابع الحضارة الإسلامية ومضامينها،
بمحمود عرب. ١٥٠٢ رجل الحوار بين الشرق والغرب وبين العقل والإيمان،
جوزيف سكاتولين. ١٥٠٥ الأب قنواتي ودور همزة الوصل، زيلب
لخضير. ١٥٠٧ علم الكلام الإسلامي وعلم الإلهوت المسيحي، جورج
قنواتي، ترجمة : كاميليا صبحي. ١٥٠٢ مدرسة الإسكندرية بقلم: جورج
قنواتي، ترجمة وتقديم : ه. ل. ١٥٠٧ الراهب الفيلسوف الإسلامي، ه. ل.

يونسكو الموت يواجه الضحك

١٥٠١ يوجين يونسكو، عبدالمعتم سليم. ١٥٠٥ يونسكو: العبث والرجعية
الطهيونية، وليد الخشاب. ١٥٠٦ يونسكو : كل الركاب يسرعون إلى
لمقاعد الفردية، ترجمة : عبدالقادر التماسي. ١٥٠٧ يوجين
يونسكو : أوروبا .. تسلسل عمليات ناقطة، حوار : اليسون براونج.
١٥٠٨ ترجمة : ملى التماسي. ١٥٠٨ أن تتعلم السير، يوجين يونسكو.
١٥٠٩ ترجمة : ع.س. سيناريو فيلم الغضب. يوجين يونسكو. ترجمة
وقديم، ع.س. ١٥١٣ النقد وأنا. يوجين يونسكو. ترجمة، ع. س.

چورچ قن واتس

إعداد
هاني لبيب

من أواخر الصور في باريس [اللويسكو]



الراهب الفيلسوف الإسلامي



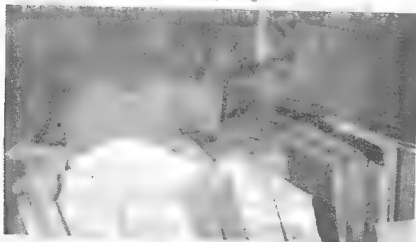
مع ابنا / يوحنا مولس الثاني [في العاتيكان سنة ١٩٨٥]



مع رفاقه في الدير ١٩٩٠



بمناسبة مرور ٥٠ عام على الكهنوت
[في سنة ١٩٨٩]



صورة في مكتبه [في دير اللومنيكان سنة ١٩٩٢]

جورج شحاتة قنواى الدومنيكانى تدسية الإنسان عند الأب

قا عندما توفى الأب جورج قنواى فى يوم عيد زميله فى الرهبنة ومعلمه فى الفكر، القديس توما الأكوينى (١٢٢٥ - ١٢٧٤)، يوم ٢٨ يناير الماضى، ختم حياة مكرسة للدفاع عن الإنسان، عن كل إنسان وعن الإنسان كله فى جميع أبعاده وهذا باسم تكريسه الرهبانى، تكريس كل كيانه وقدراته لله سبحانه وتعالى فكان الأب قنواى فى اهتماماته المتعددة يبحث دائما عن قضية الإنسان ويبرز كرامة كل إنسان - أيا كان - لأنه إنسان، كما كان يعتبر أن للإنسان قدسيته فى كل أبعاده، الروحية والدينية، الحضارية والثقافية، الاجتماعية والمادية، وهذا لأنه خليفة الله فى كل أبعاده هذه، ومخلوق على صورة الله ومثاله، كما يقول الكتاب المقدس . وباسم قضية الإنسان هذه، كان الأب جورج قنواى يتعمق فى الآن ذاته فى الفكر المسيحى والفكر الإسلامى؛ كما كان يبحث فى تاريخ الحضارة العربية والحضارة الأوروبية وفى العلاقة بينهما؛ وكان يشترك فى الحياة العامة بمشاركته فى المجالس العلمية والثقافية - المصرية منها والدولية كما نراه يلعب دورا بارزا فى اللقاءات بين الديانات - وخاصة بين المسيحية والإسلام - وكذلك فى لجنة العدالة والسلام المصرية. وكل ذلك دون أن تهمله هذه الاهتمامات الفكرية عن الانتباه إلى الإنسان الواقعى الذى أمامه - كبيرا كان أم صغيرا، فكان يصغى إليه بكل احترام و«كان يابه دائما مفتوحا»، كما قال أحد معاصريه

فى الدير (بمناسبة الاحتفال بذكره فى دار الأوربا المصرية يوم ١٧ مارس الماضى).

بالنسبة إلى الأب جورج قنواى، كان هناك ريط وثيق بين كفاحه فى سبيل قضية الإنسان وبين تكريسه الرهبانى . فهو الخريج فى كليات العلوم والصيدة بكل ما كان عنده من إمكانيات النجاح الاجتماعى، قد قرر أن يكرس حياته وقدراته لربه . فكان حبه الكلى لربه يدفعه إلى مشاهدة صورة الله فى الإنسان، الذى هو قمة خليفة الله والذى من أجله خلق الله كل شيء . ولذلك اقتنع اقتناعا عميقا بكلمة القديس إريترانوس (المتوفى حوالى سنة ٢٠٠م) القائلة : «إن مجد الله هو الإنسان الحى» . فكل ما يخدم حياة الإنسان ويجعله ينمو نموا حقيقيا، يفيد تعجيد الله سبحانه وتعالى . وعلى هذا الأساس كان الأب جورج يؤمن بما يمكن تسميته «الإنسية المؤمنة» (أو النزعة الإنسانية المتأسسة فى الإيمان). يقدر ما تمثل «الإنسية» (humanism) التيار الثقافى الذى يعتبر الإنسان محور الاهتمام، كان الأب قنواى يرى أن «الإنسية» هذه لا تتطلب إطلاقا إقصاء الله إلى هامش الاهتمام، أو تحويل الإنسان إلى نوع من العنصر؛ بل على العكس تعتبر هذه الإنسية أن الإيمان بالله هو بعدها الأساسى، فبدونه تصبح النظرة إلى الإنسان ناقصة ومبثورة؛ كما أنها تعتبر أن البحث عن الله وخدمته تعالى لا يتحققان إلا من خلال الالتزام غير المشروط بالإنسان . فليست هناك أية منافسة بين الله وخليقته،

استيعاباً لكل العناصر المختلفة التي ساهمت في تكوينها . فيمكن غنى الحضارة العربية في أنها استوعبت ما ورد من منابع ثقافية كثيرة واستمرت في التفاعل الحي الخلاق مع كل ما يحيطها من حضارات .

لذلك حارب الأب جورج قنواى كل انغلاق ثقافى ، واعتبره خيانة للإنسان كما يريد الله . وفى هذا أيضاً كان الأب جورج تلميذاً وفياً لمعلمه القديس توما الأكوينى الذى استوعب الكتاب المقدس وتقليد الكنيسة وراثت آباء الكنيسة ، الغربيين منهم (خاصة القديس أوغسطينوس) والشرقيين ، كما استوعب الفلسفة اليونانية (خاصة أرسطو ، ولكن دون إهمال أفلاطون وأفلاطون) والفلسفة العربية (الفارابى وابن سينا وابن رشد الذى اعتبره أفضل مفسر لأرسطو) . وظهرت عبقرية القديس توما في أنه لم يقع في فخ نوع من التلقيفية بين عناصر غير متجانسة ، بل من خلال انفتاحه الكبير على كل القيم الإنسانية مهما تكن الجهة التى ترد منها إليه ، جمع توما كل هذه العناصر في وحدة شخصية وديناميكية عميقة . ولقد أصل الأب قنواى - التوماوى العربى المصرى - هذا المجهود الخلاق في داخل إطار واقعنا الثقافى المصرى اليوم .

وإن كان دفاع الأب جورج قنواى عن الإنسان يتطلب منه الدفاع عن الحضارة وعن الحوار الحضارى - وهذا خاصة في إطار « الإنسية ، المومة » - فكان هذا يتطلب أيضاً بالنسبة إليه الحوار



كل جوانب الحوار الثقافى الذى تم في الماضى بين الحضارة (أو الحضارات) الأوروبية والحضارة العربية (بكل مقوماتها) ، من بدء ازدهار الحضارة العربية إلى العصر الحديث . وكان يخدم من خلال هذه الدراسة الحوار الحضارى ذاته في عصرنا هذا ، لأنه كان مقتنعاً أن كل إبداع حضارى جديد يجب أن يعتمد على جذور في الماضى . يعلمنا تاريخ الحضارة العربية (مثل تاريخ معظم الحضارات الكبرى) أنها وصلت إلى عظمتها وخاصيتها بفضل انفتاحها وبقدرة على استيعاب الحضارات الأخرى ، مثل اليونانية والبيزنطية ، والفارسية والهندية . فتكشف بذلك أن الحوار الحضارى البناء لا ينفى الشخصية الحضارية الخاصة بل ينميها ويقويها .

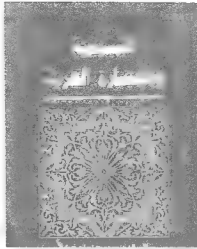
وإذا كان الأب قنواى يفتح أن الحضارة العالمية في جوهرها متعددة ومتنوعة ، فكان يرى أن التعددية هذه ليست ضرورية فقط بين الحضارات المختلفة بل أيضاً داخل كل حضارة . فتزيد كل حضارة عمقاً وغنى كلما تزايد

بين بذل الذات الكلى لله وخدمة الإنسان . وانطلاقاً من هذه الرؤية ، تجد كل أبعاد الإنسان قدسيته ويعدها الإلهى ، الفردية منها والجماعية ، وهذا في صميم كونه أبعاداً إنسانية .

وما يميز هذا الإنسان - وقد أراد الأب قنواى خدمة نموه وحياته - هو أنه كان حضارى . إن كان من خصائص الإنسان أنه يواجه حياته ويوجهها بعقله وحرية ، فتجسد مجهده العاقل والحر هذا في الحضارة ، فيعبر عن كل ما في داخله وعن علاقاته بإخوته البشر بل عن علاقته بخالفه ، بالنظم والقوانين ، وبالعلوم والفلسفات والمذاهب ، وبالعادات والطقوس ، أى بكل ما يكون الحضارات البشرية . وإن كان الإنسان - خلاف الحيوان - يفضل عقله وحرية ، يتميز بالتفكير خلال الأزمنة وبالاختلاف بين الشخص والشخص وكذلك بين الجماعة والجماعة ، فكان من طبيعة الحضارة البشرية أن تكون متغيرة ومتنوعة ومتعددة مختلفة حسب المكان والزمان . وكما كان الإنسان الفردى لا يصل إلى ملء حقيقته إلا من خلال علاقاته بالإنسان الآخر المختلف عنه ، فذلك إن الحضارة البشرية لا تنمو ولا تزدهر إلا من خلال التفاعل بين الحضارات ، من خلال حوارها وتبادلهما ، وتأثيرها وتأثرها المتبادلين . ولذلك كان من صميم اهتمام الأب جورج قنواى الحوار بين الحضارات ، فكان يعتبر هذا الحوار عنصراً أساسياً من « الإنسية » التى يقصد خدمتها . فكان يدرس

بين الديانات. فما كان، الاختلاف الدينى يمثل للأب جورج خطراً على الإنسان وعلى الحضارة الإنسانية ، ما دام الناس يعيشون هذا الاختلاف فى الاحترام المتبادل الصادق والصريح ، بل وفى التكامل والإخاء ، فكان الأب قنوائى مقتنعاً أن المسيحيين والمسلمين فى بلادنا حضارة واحدة و «إنسية مؤمنة، مشتركة ، انطلاقاً من كل ما هو مشترك فى موقفنا الإيماني الواحد والمختلف فى آن واحد . فلا نستغرب إذ نجده ضمن مؤسسى جماعة الإخاء الدينى التى تريد أن تشيد العلاقة بين المسيحيين والمسلمين على كونهم جميعاً متدينين مؤمنين بالله ، دون المساومة فى شأن الاختلاف الحقيقى بين الديانتين .

فلا عجب أن يكون الأب جورج قنوائى عضواً من أعضاء لجنة المجمع الفاتيكاني الثانى (١٩٦٢ - ١٩٦٥) التى صنعت النصوص التى تعبر عن نظرة الكنيسة إلى المسلمين ، وقد وافق عليها آباء المجمع (أى جميع أساقفة الكنيسة الكاثوليكية وعددهم كان يزيد عن ٢٠٠٠ أسقف) . وفى هذه النصوص يتكلم المجمع فى



غلاف كتاب للمسيحية والحضارة العربية

المسلمين «الذين يعيدون معنا الإله الأوحد ، الرحيم ، الذى سيدين البشر فى اليوم الأخير . فإن كنا نحن المسيحيين والمسلمين نختلف اختلافاً حقيقياً فى عقيدتنا الخاصة بالله ، فلا يمنع هذا أن يكون من نعبده جميعاً هو الإله الأحد خالق كل الأشياء وخالق الإنسان ، والذى يعلو كل الأشياء والذى يعلو نطق كل إنسان وفهمه ، ففى موقفنا المشترك هذا ، وفى موقفنا «معاً أمام الله ، نجد الأساس الراسخ لنظرتنا المشتركة إلى الإنسان ، واحترامنا المشترك لقدسية الإنسان فلأننا «معاً أمام الله ، تكون «معاً فى الدفاع عن الإنسان ، أيضاً ، عن شخص الإنسان وقيم الإنسان .

هكذا يظهر لنا الأب جورج شحاتة قنوائى مناصلاً فى سبيل قضية الإنسان كل إنسان وكل الإنسان - وشاهداً فى العالم كله لأهمية الحوار بين الحضارات ، كما أن كان منادياً بإمكانية الإخاء الحق بين المتدينين المؤمنين فى سبيل المسؤولية الواحدة تجاه المجتمع الإنسانى . وكان مقتنعاً بمبدأ «الإنسية المؤمنة» ، هذه اعتماداً على جذوره العميقة فى أرض مصر وعلى رغبته الشديدة فى أن تتجسد هذه الإنسية المؤمنة ، أولاً فى وطنه المصرى بجهود الجميع معاً ، مسيحيين ومسلمين ، على أساس كونهم جميعاً مؤمنين مصريين ، يستمدون من إيمانهم حبهم لهذا الوطن وحبهم لكل إنسان فى آن واحد . فلم نجد قط عند الأب قنوائى أدنى تناقض بين حبه الكبير لمصر أرض الكنانة ، وبين حبه للإنسان فى بعده الجامع الشامل لكل البشر . حقاً كان وما زال «معلم الإنسية المؤمنة المصرية ، والشاهد بلسانه وحياته للمساهمة المصرية فى تشييد حضارة الإنسان المبنية على قدسية الإنسان ، خليفة الله ، المخلوق على صورة الله ومثاله . حقاً كان الأب قنوائى عبداً لله ، وكذلك عاشقاً للإنسان . ■

الإسلامية ومصادباتها جورج قنوتى بين منابع الحضارة

قا من الصعوبة بمكان أن نتحدث عن شخصية ثرية عالمية، من موقع قريب، مثل أن تكون صديقاً أو قريباً من هذه الشخصية فأنت تخشى أن تكتب تحت تأثير عين الإعجاب والرضا..

وعين الرضا عن كل عيب كيلة

ولكن عين المسخط تهدى

المساوي

وهنا أتذكر طرفاً من هذا النوع حدث إذ كان طه حسين يقدم أحمد أمين فى أحد كتبه وإطله كتاب فجر الإسلام إن لم تخطى الذاكرة، وتكلم طه حسين عن عتبة أن تقدم صديقاً أو عمل صديق، فتخشى إن أنت مدحته أن تكتم بالمحاباة! وهل الصحيح إذن أن تخلق له عيوباً غير موجودة، أو على الأقل عيوباً لا تراها أنت، حتى تكون موضوعياً أو محايداً، وأن تسكت على حقائق جيدة تطعمها فنفعض العلم والتاريخ والفن.

أكاد أقول إننى واجهت هذه المشكلة - مع الفارق الكبير فطست طه حسيناً - وأنا أحاول أن أتحدث عن العالم الفيلسوف جورج شحاته قنوتى.

أما عن كونه عالمًا وفيلسوفًا وراهبًا كبيرًا فهذا مما لا يطرق إليه أدنى شك.. فطلابه وأتباعه وأصدقائه وكتبه ومقالاته، بمحاضراته فى المؤتمرات العلمية فى العالم كله، وجهوده فى مجال الفلسفة وتاريخها والتصوف الإسلامى، فكل ذلك واضح وضوح الشمس ويكفى أنه كان رسولاً أميناً لنقل الفلسفة الإسلامية فى أحسن إطار وعلى أروع صورة إلى ملتديات العالم الثقافية وجامعاته، ودور بحثه..

وأما عن موقع كاتب هذه السطور منه، فإن الألفاظ قد تضيق عن تعريفه وتصديده... هل هو موقع التلميذ من الأستاذ؟ أم هل هو موقع عناق الأجيال؟ لقد كانت السنوات السبع من أواخر ١٩٨٧م وإلى آخر الربيع الأول من هذا

العام ١٩٩٤ قليلة فى اتساع مداها الزمنى غنية مترامية الأطراف فيما حملت من مشاعر وحوار ورغبة فى القرب ومحاولات للهمم وعشق للمعرفة..

كان المتحدث يسعى فى حرص شديد على المعرفة والقيس من جبل النار بشغف من يوقى إلى السباحة فى بحر النور، وكان المتحدث عنه يسعد بهذا القرب ويعين عن مساعده تلك التى أقصت إلى حب أطل علاقة الحوار، وعمق مجراه وأمدته وكثير من الروافد وأثره.

كان جورج قنوتى دوماً شجاعاً مرحاً خفيف الظل هاشاً سلس اللسان عذب اللغة ينتقل بمحدثه من عربية سهلة معبرة جذلة إلى فرنسية رقيقة ذات إيقاع جميل، إذا كان محدثه على معرفة بها أو يشاركه هذه الاندواجية اللسانية.

أما علمه فكان يصاب فى دعة وهذوه وثقة أنسياب النول الدهوب اللائق الصبور، وكان يمس أبعاد تكوينه الثقافى وعياً تبيلاً يمحور عن نفسه فى شكل الأشكال حين السوار وحين الكتابة، ويقابل كل طريق الإطريقاً واحدة كان وجهه يحمز خجلاً حين يجده تدفله خللاًها فيتلعلم ويتعثر ويحاول الهروب ألا وهى طريق المديح والثناء عليه، فقد كان بيده وبين الكبرياء والرياء والفسطرة بون بعيد..

ولم يكن الحوار معه حوار علم وفلسفة وتاريخ وثقافة فحسب بل كان حواراً أشمل وأعم الاتجاهات واسع الأفاق.

فالقائات المتكررة فى مكتبة النور مرات خلال الأسبوع تطول كل منها إلى ساعات.. كانت تجعلى أشقى عليه من تعب قد ينتابه ويحاول إخفائه، أن أعطيه من حين لآخر فرصة لإنهاء الحوار ليستريح أوليتاً.. أو.. وكثيراً ما كان يصبر على الاستمرار هادئاً مستريحاً عاشقاً لهذا الحوار..

وكثيراً ما كان الحوار يقفز من جانب علمي إلى جانب إنساني إلى فكاهة خفيفة مرحة لا تتعارض مع مايتجمع به من روح العالم والراعب ولا تخدش من هيبته .. عندما كان يتحدث عن علاقته الإنسانية - وهي واسعة مترامية الأطراف لا يحدها جنس ولا لون ولا دين ولا مستوى معرفي - كنت تجد انسياً ودعابة وجباً.

فمن أي جانب وفي أي طرف تريدني أن أبحثك؟ إن الحديث عن هؤلاء الكبار لن ينتهي أبداً.. فهم ملح الأرض، وهم ميزان الحق والخير والجمال، وهم مشاعل النور في دروب الحياة، فهم متجددون على الدوام، تضيء الأجيال والحديث عنهم ثر، حلوا، عذب لا يمل ولا يشبع منه، ما دامت الحياة عاشقة للعظمة، باحثة عن القمم متعلقة بأمداب الحضارة، توافقه إلى الفكر، نزاعة إلى الحقيقة.

قنواتي: والحضارة العربية الإسلامية

ولابد أن نوضح بدءاً ماذا تعني هنا الحضارة العربية الإسلامية، أو بالأحرى بالفلسفة العربية الإسلامية. فحين نقصد هنا المعنى الاصطلاحي الذي يشمل جميع الشعوب والأمم الذين سكنوا الممالك والبلاد الإسلامية والذين استخدموا العربية لساناً في أكثر أو في كل تأليفهم العلمية، فالسجال إذن مجال ما أنتج في هذا الإطار العام بكل أبعاده وفي كل أشكاله وألوانه.

ومرة أخرى أجدني مولياً وجهي * شطر تاريخ الأمم القريب لأستغني تلك الحضارة العربية الإسلامية أين تضع نتاجها من العلماء ممن نبتوا في ظلها وشربوا من رحيقها ثم أمدها بعد ذلك بروافد ثرة معطاء، من أخذوا منها ثم اعترفوا لها فأعطوها بلسانها ومناهجها



وفي إطارها، وعلى وجه الخصوص من أولئك الذين لا يدينون بالإسلام ديناً، ولكنهم ينتمون إليه ثقافياً وحضارة ومناهج وطبيعة وشكلاً وإطاراً؟

يقول جيوم توفيق لثمان المترقي سنة ١٨١٩م: في كتابه «المختصر في تاريخ الفلسفة:» أهم من حمل مذاهب العرب الفلسفية إلى المسيحيين هم اليهود الذين نقلوها من بلاد الأندلس، حيث كانت لهم مصصرة بقوة إلى مدارس العلوم. على أن اليهود أنفسهم ساهموا بخصط ظاهري في عالم الفكر والعلم، ونشأ فيهم غير واحد من ذوى العقول الفلسفية. منهم الحبر موسى بن ميمون، الذي تخرج بدروس ابن طفيل وابن رشد، ودرس بنفسه كتب أرسطو، ومن أجل ذلك كان ظلياً لدى المتعصبين من أبناء ملته وقد تعقبوه بحقدهم حتى أدركه الموت في سنة ١٢٥٥م.

ويواصل ثمان «وعلى الجملة فقد كان اليهود في القرنين الثاني عشر والثالث عشر سفراء بين عرب الأندلس وبين الغربيين، بما ترجموا من كتب كثيرة عربية إلى لغتهم العبرية التي كان الغربيون أعرف بها، ونقلت هذه الكتب نفسها إلى اللاتينية في تراجم أكثرها مشوه جداً

وفي إطار محاولتنا لتوضيح موقع هؤلاء العلماء غير المسلمين ديناً ولتتاليهم الحضاري الثقافي الفكري، وكيف تدفقوا منبعاً ومصباً... مما يوضح من جانب آخر عظمة هذه الحضارة العربية الإسلامية التي تعترف وتعرف منابعها ومصانها وتحتضنها وتخصبها. نجد العالم الشيخ مصطفى عبد الرازق وهو راية بارزة على صرح الفلسفة الإسلامية يقول: «بل إنني ممن يجطون ابن ميمون وإخوانه من فلاسفة الإسلام، وقد قلت كلمة أقيمتها في حفلة ابن ميمون بدار الأوبرا في أول أبريل سنة ١٩٣٥ مانصه: «أبو عمران موسى بن ميمون فيلسوف من فلاسفة الإسلام، فإن المشتغلين في ظل الإسلام بذلك اللون الخاص من ألوان البحث النظري مسلمين وغير مسلمين من يسمون منذ أزمان فلاسفة الإسلام، وتسمى فلسفتهم فلسفة إسلامية، بمعنى أنها نبتت في بلاد الإسلام. وفي ظل دولته، وتميزت ببعض الخصائص من غير نظر إلى دين أصحابها ولا جنسهم ولا لغتهم، وهذا الكلام ينطبق شام الانطاق على النصارى واليهود معاً، فما هو الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل»، يقول: «والمتأخرون من فلاسفة الإسلام مثل يعقوب بن إسحاق الكندي، وحنين ابن اسحاق... الخ، ونحن هذا بصدد الحديث عن جورج قناتى الفيلسوف المسلم (إن تبعبير الشيخ مصطفى عبد الرازق في الأسس القريب، وتعبير الشهرستاني قبله في الأسس البعيد... لذلك على هوية هؤلاء العظماء من جانب، ولأنك على سمو هذا الوعي في الحضارة العربية الإسلامية كحضارة عالمية إنسانية، على وعى كجبر بروفاندا ومناهجها ومصانها... ممن أخذت ومن أعطت... على وعى كجبر بذاتها وبغيرها... فهي حضارة إنسانية عالمية من حيث لا تعرف الحدود، ولا

الذى يحدد لكل من الطرفين ميدانه؟ أى
من الذى يفصل بين العلم والدين؟
ويضمن عدم جور أى منهما على الآخر؟

أنها الفلسفة وإنه العقل

ولابد فى ذلك من الرجوع إلى رسالة
«ابن سينا» فى تقسيم العلوم والفلسفة
معرفة الوجود كموجود، والميتافيزيقا
أعلى درجات المعرفة الإنسانية، والوحى
مصدر من مصادر المعرفة، والعقل قادر
على المعرفة، وعلى الوصول إلى الحقيقة
فى الميدان الإنسانى فى عالم الطبيعة
وإذا بقى العلم فى ميده فلا خوف منه
ولا خوف عليه، أما إذا خرج عن ميدهاته
فقد بدأ الانحراف.

ويخلص بنا جورج قناتى بعد حوار
طويل حول هذه النقطة إلى أن الفلسفة
حكم بين العلم والدين، ذنبك الطرفين
الأساسيين فى حياتنا الإنسانية، ودين
دور الفلسفة هذا تصنيع علامات الطريق
بين العلم والدين، فيطلى كل منهما على
الأخر فى زمان ما أو فى مكان ما فيختل
التوازن.

وهو يرى أن حضارة كبرى
كالحضارة الإسلامية ازدهت وأثمرت
وأفادت البشرية كلها حين استطاعت
الحفاظ على هذه الأطل، وعلى العلاقات
بينها فى داخلها، فكان الدين، وكان العلم
وكانت الفلسفة وقد كانت تلك الحضارة
ومازلت تراثا إنسانيا عاشا تنهل منه كل
البشرية، ولم تنطق ولا يجب لها أن تنطق
على المسلمين، ولا أن ينطق المسلمون
عليها وحدها، وإنما هى تدخل دائما
ويجب أن تدخل فى ميدان تصانفر
الحضارات، وفى مجالات التأثير والتأثر
والحوار والافتقاس.

وأما المحور الثانى: فهو المسيحية
الشرقية والعربية على وجه الخصوص
فهى مسيحية متميزة، ويظهر تميز هذه
المسيحية فى حدود وأبعاد وطوايع



طه حسين

ومجتمعها، وإذا قال الكتاب المقدس إن
الشمس تدور أو إن الأرض تدور، فهذه
هى المشاهد الإنسانية، وليس العلم
المطلق. لأن الكتاب المقدس ليس كتاب
علم طبيعى خالص، ولكنه موجه إلى
الإنسان بتصورات الإنسان، وعقلية
الإنسان هى مستوى التعامل من خلاله،

«والنص ليس خالداً ولكنه متغير
بالنسبة لنظرة الناظر إليه، فالعلم
بالكيمياء مثلاً يختلف عنه فى وقت نزول
الوحى،

والعقل يدخل فى القانون الأخلاقى،
فمثلاً إذا كان هناك سائق سيارة كبيرة
تقل ستين راكباً على حافة جبل وممر
أمامه فجأة طفل معرض للموت، فماذا
يفعل السائق؟ أيقبل ركباه السفين أم
الطفل؟!

والعقل مرجع كل شىء. ولكن له
حدود فى هذه المرجعية، «وإن فلا دين
بلا ثقافة ولا ثقافة بلا دين»

ومن الخطر أن يتجاوز العلم حدوده
ويدخل فى مجال الدين، بالقدرفنسه من
الخطورة تجاوز الدين حدوده وإصاقتنه
لمسيرة للعلم.

قليل من العلم قد يبعد الإنسان عن
خالقه، أما كثيره فيقربه منه. ولكن من

تقيم السدود بين كل ما يمكن أن يصب
فى صالح الإنسانية عامة من أنهار علم
ومعرفة.

وانطلاقاً من المفهوم نفسه أيضاً وعى
العالم الجليل جورج قناتى انتماءه
لمصروطن، وللشرق أفقا، وللعرية لسانا
ناصعا خلال كدبه وأحاديثه وإسلامه
حضارة ومنهج تفكير.. وانطلق من كل
ذلك إلى رؤية عالمية واسعة الأفاق لا
تنتفى مع انتمائه للوطن والفكر واللسان،
بل تثريه وترتفع به، فكان ممن قدسوا
للإنسانية صورة مشرفة عن الإسلام
وفلسفته وتصوفه ورجاله وحواره مع
غيره عبر التاريخ، وكان أحد أعظم
المدخل إلى الشرق، وأبعاده وأعماق
روحته الفكرية وعندما تقترب من رؤية
جورج قناتى نجدها تقوم على ثلاثة
محاور ذات أهمية بالغة، تميزت بها
خلال النصف الأخير من هذا القرن
المنصرم وهى:

المصور الأول: الجمع المتناغم بين
العلم والدين والفلسفة، ويتكلم قناتى عن
هذا التناغم - وهو ضرورى فى نظرنا،
وفى نظر القسائى - بلا شك فى هذه
المرحلة من مراحل حياتنا الثقافية
والمعتقية بل والروحية أكثر منه فى أى
وقت مضى - فيشير إلى إجماع العلماء
قائلا: «لكن كبار العلماء مؤمنون». وتأتى
أهمية الدراسة الدللية عنده لتحديد
إمكانيات العلم لكن الدين وحده لا يكفى
إذ يجب أن تكون عالما لتفهم، وترى إلى
أين يتوحد العلم... إلا أننى بدأت بالعلم
حتى أكون متدينا أكثر.. وأخذت النظام
الدومينيكانى لأنهم نهج العلم بحرية..
وهنا نرجع إلى ضرورة التقريب بين
العلم والدين بطريقة عملية علمية.

«والكتاب المقدس أعطاه الله الإنسان
بطريقة إنسانية بواسطة اللغة التى تخضع
لتوازنين لغوية بشرية، لها بيلتها

وطبائع تجعلها مختلفة عن المسيحية الغربية، وهذا أمر طبيعي جداً، فقد ولدت في شرق ذي ديانات سابقة وله مذهبها الخاص به ورأيتها ذات الجاذبية الخاصة أيضاً، اليمن وجزيرة العرب، وسيناء وفلسطين وأرض الرافدين والهلال الخصيب، تلك البقعة السماة بالسامية - مهما اختلفنا حول هذه التسمية - والتي شهدت مولد ثقافات لها نسجها الخاص بها... وتمازجت هذه الثقافات مع ثقافة مصر تاريخياً..

وعندما نحال عناصر الأديان السامية من يهودية ونصرانية وإسلام إلى أصولها الأولى، أو قل عندما نربطها بسياقها ويتداخل معها نجد جذورها منارية في أعماق هذه المنطقة..

أفلا تكون المسيحية الشرقية العربية والصالة هذه ذات طعم ولون ورائحة خاصة بها وهي منتظمة في سلك هذا التاريخ الشرقي، ألا تكون المسيحية في الشرق قد تفتتت تفكسا جديداً مع ظهور الإسلام في هذه المنطقة من العالم..

بلى.. ولا شك أن الزخم العلمي والحصاري الذي شغ على الإنسانية بإشعاع الإسلام قد أثر في المسيحية العربية الشرقية التي كانت مهدا الشرق جغرافياً والتي تعربت لساناً ومنهجاً واستمرت مسيحية تربية ديناً... ولغة دورها في صلب الفكر والعلم والشعور، ودورها تميز تاريخي وجغرافي أو قل إن لهذه العلاقة الجدلية بين اللغة والفكر والعلم والشعور دوراً متميزاً تاريخياً وجغرافياً وثقافياً وفي طرائق الفكر والحوار والصياغة.

بل إن المسيحية العربية ساهمت في بناء صرح الحضارة في الشرق، وقد أشرنا إلى الدور الرائع للمترجمين والفلاسفة المسيحيين إبان عصر النهضة والترجمة لدى الخليفة المأمون.. كما



نهبنا على اعتبار هؤلاء المترجمين والعلماء والفلاسفة العرب لغةً والمسيحيين ديناً جزءاً لا يتجزأ من هذه الحضارة العربية الإسلامية داخلها عبر سداها ولحمتها. وهذا يؤكد جورج قناتى على هذا اللون الخاص للمسيحية الشرقية وعلى نجاحها المتميز من أدب وفكر فلسفة وكيف لا وهو المتخصص في الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامى.

إنك إذا كتبت كتاباته من مراجع وموسوعات أنجزها وحده أو ساهم فيها مع غيره من عرب وغير عرب، مسلمين وغير مسلمين تجده يبتدأ بالإسلام وعلمه وفلسفته وينتهي بالمسيحية العربية وعلمها وفلسفتها وهذا الوعى له أهميته حتى لا نقذف عن طواعية وبعدم فهم تراث هذه الأرض التي نعيش عليها والذي هو نتاجها الطبيعي عبر تاريخها الطويل إلى الطرف الآخر من الكرة الأرضية إذ تفصل هذا الفصل التعمفي بين جوانب الحضارة الشرقية وأصولها وروافدها...

وقد بدأت حركة علمية لتحقيق ونشر ودراسة التراث المسيحي العربي الذي نشأ في ظل الحضارة الإسلامية أو هو جزء منها نبت في أرضها وأخذ طعمها وألونها ونهج مناهجها وسلك سبل تعبيرها ونطق بلغتها العربية بل واتخذ

مفرداتها ومصطلحاتها العلمية التي أبدعتها، وهذه الحركة العلمية ينسك فيها باحثون وعلماء مسيحيون عرب كان في مقدمة ركبهم جورج قناتى ويستمر بعده بحلات جادون من أمثال سمير خليل وغيره... والتأكد على تميز هذه المسيحية العربية لغةً الإسلامية منها... للشرقية أرضاً ومسرحةً يفتح نواياها جديدة على أبعاد الفكر والفلسفة الإسلاميين... ويقدم شواهد جديدة - لمن لم يكن يعرف بعد على مدى اتساع هذا الفكر وهذه الفلسفة وعظمتها وشمولها وأخيراً على عبقريتها المتميزة في الأخذ والعطاء والحوار، والمقام هنا ينضيق عن تسمية كتب التراث المسيحي العربي في علم الكلام والفلسفة خاصة والإشارة إلى مصادر منه محققاً وموقفه - من داخله - من الإطار العام الذي ولد ونشأ فيه... وكيف يراه وكيف يحاوره وما أدوات حديثه وتوجيهاته وحواراته. وسوف نتحدث عن ذلك في موضع آخر مناسب له.

وأما المحور الثالث: والذي تبرز أهميته أكثر من غيرها فهو محور الحوار بين الإسلام والمسيحية.. وقد كان قناتى فيه علماً في رأسه نار.. فقد كان يدعو إلى الحوار ويعرف قواعد الحوار بما يجعله وفقاً على أرض صلبة وإصا بذاته وبالأخر ومقنناً لكل حق قدره.. إذ كيف يدرس الفلسفة الإسلامية ويتخصص فيها ويطلق الوقوف في محطات ابن سينا وابن رشد ثم ابن عربي وابن طفيل وابن باجة.. ثم يعرج على توما الإكزيلي فلا يشم رائحة ابن رشد.. بل.. إن جورج قناتى يرى ويعلم ويربط ويرقرن ويؤمن بالتميز والتمازج والإبداع والتأثير والتأثر.. وتكتمل في نظره الدائرة فيسمى الأشياء بأسمائها، ويربط الأجزاء بجسمها، ويرى الألوان كما هي... ثم يرى بينها تنادماً وإنسجاماً، وتانسقاً، ويقدم لنا رويته تلك في كتب ومقالات

ومؤتمرات حوار.. لقد عاش الحوار في التاريخ ورأى التعانق في محطات العظم.. وشاهد التأثير والتأثر في فيضانات الأنهار بل سبح فيها.. فإذا عاد من التاريخ إلى الواقع وحدث عما رأى فليحدث ولا حرج.. ولسمعه وناقشه وحصاورة، وحوار العلماء شيق فرواهم ورويتهم متكاملة متعاسكة لا يخشى منها بتر ولا تمزق.

يقول جورج قزويني إن الدافع الأول لدراسته لفلسفة الإسلام هو البحث عن أرضية للحوار! فلماذا الحوار مع المسلمين؟ يقول: لأنني في بلد مسلم وفي حضارة إسلامية وأنا جزء من هذا البلد وهذه الحضارة.. وكيف تصاور من لا يعرفه؟ وكيف يحاورك من لا يعرفه.. وكان في ذلك تنبيه على أن تطرح الحوار فد يأتي من عدم اكتمال المعرفة والوعي بالذات وبالأخر.. وكلاهما وجهان لعملة واحدة.. أو متلازمان يوجد أحدهما بوجود الآخر بشكل إلى...

دريس جورج قزويني الصبغة في الإسكندرية وفي بيروت، والدين في فرنسا والفلسفة في فرنسا وفي مصر..

ويحدثنا بعد عودته ويتحدث عن يوسف كرم ويسميه أستاذ الجيل ومنه خرج يوسف مراد وعبد الهادي أبو ريده وعثمان أمين وغيرهم، وكان يشبه سقراط وقد نشر تعاليمه في ثلاثة كتب معروفة ولكن للأسف لا توجد الآن في السوق. وهي

(١) المدخل إلى الفلسفة اليونانية.

(٢) العقل والوجود.

(٣) كتاب في الطبيعة.

وهي تمثل التحليم الأرسطي الأصيل مع إضافات ليوسف كرم.. وكان يوسف كرم يدرس في الإسكندرية ويتصل بالأب جوسن الذي أسس دير الدومينيكان وقد تصاور أبناء هذا الجيل يوسف كرم وتلاميذه والأب جوسن وناقشوا الفلسفة الإسلامية وترجموا المدينة الفاضلة وعملوا قاموساً عربياً فرنسياً للفلسفة وكانت حركة الحوار العلمي هذه مؤثرة في الإسكندرية أكثر منها في القاهرة ويقول قزويني «وعندما وصلت إلى فرنسا سألت مدير الآباء الدومينيكان: لماذا دخلت إلى الدير؟ فقلت له: بسبب الحوار المسيحي-

الإسلامي.. وبما أن حياتنا الفلسفية المسيحية قائمة من ابن رشد فلا بد من دراسة الفلسفة ثم تأسس معهد الدراسات الشرقية بدير الدومينيكان بالعنابية عام ١٩٥٨ وهو يهتم أساساً بالحوار ويصدر دوريات علمية في هذا الإطار وفي الفترة نفسها لنشاط هذا المعهد كان هناك إقبال من علماء الدين الإسلامي والمثقفين المسلمين وأذكر منهم على وجه الخصوص الشيخ محمد يوسف وكان أستاذ علم التفسير في الأزهر وكان يترجم كتباً من الفرنسية إلى العربية، وكان يسألني ويحاورني، كما أذكر الشيخ محمد بن فتح الله بدران الذي كان يعد رسالة دكتوراه عن الشهرستاني، وأتى إلى وأخذ المصادر العلمية عن المسيحية، وأذكر أيضاً وخصوصاً الشيخ أحمد حسن الباقوري أحد أهم مؤسسي جماعة الحوار والإخاء الديني في مصر.

وقد عاش جورج قزويني عاملاً في سبيل هذا الحوار داخل مصر وخارجها وعرفته المؤسسات العلمية العالمية واحداً من أبرز من أسسوا هذا الحوار وأثروه وساندوه حتى آخر نسمة حياة لفظوها. ■

وبين العقل والإيمان رجل الحوار بين الشرق والغرب

قا

أ. المرشد الحكيم

لأشك أن رحيل الأب جورج شحاته قنولتي ترك فراغا لا يعمد كثير من أصدقائه الذين اعتادوا على مر السنين أن يروا فيه الصلابة المرشدة، والصديق الأمين والمرجع الثابت في العديد من المشاكل الفكرية، والشخصية، التي تواجههم مرة بعد مرة.

وإنني لأرى واجبا على أن أضيق صوتي إلى أصواتهم لكي أذكر بعض السمات لهذا الرجل الذي لَوَّنَ حياتي لونا جديداً ووجهها بجدا منذ عرفته.

ولقد عرفت الأب جورج قنولتي وأنا طالب في إحدى الكليات اللاهوتية بروما حيث حضر ليلقي بعض المحاضرات في الدين الإسلامي - فأثر كلامه فينا، إذ كان يفتح أسامنا بأسلوب هاديء مفتوح عالمياً جديداً، ظلُّ في تصورتنا حتى ذلك الحين بعيداً غريباً.

ولا شك أن ذلك اللقاء معنى خاصاً في حياتي إذ إنني انطلقت منذ ذلك الحين إلى دراسة الحضارة المصرية والإسلامية فبدأت أفتح على العالم الذي يمدد على الشاطئ المقابل في البحر الأبيض المتوسط.

فظل شخص الأب جورج قنولتي المشعّ ذلكما، علماً ومودة، دافعا قويا لكي أتقدم خطوة خطوة برغبة وحماس في هذا المجال الجديد الواسع.

ولقد انتهى تجوالي هذا تحت إرشاده الحكيم إلى التخصص في التصوف الإسلامي برمالة عن الشاعر الصوفي المصري البقرى «عمر بن الفارض».

ولا يصعني الكلام لكي أعبر عن شكرى لهذا الرجل الذي وقف بجانبى طوال سنين عديدة مرشداً حكيماً وصديقاً آميناً.

لكن هناك بعض سمات من شخصيته أحب أن أشير إليها، وإن موجزاً، إذ هي بمثابة أعلى وصية تركها لي ولغيري من المفكرين هذا العلامة العظيم والمرشد للحكيم.

ب - رجل الحوار بين الحضارات:

عرف الأب جورج قنولتي بصيرة فريدة ينفذ بها دائماً إلى كل ما هو إيجابي ويناء سواء في الأشخاص الذين كانوا يقابلونه كما في الأحداث الواقعة حوله.

وقد ظن بعضهم أن هذه المزية لم تكن إلا ثمرة طليعية لمرواجه للفنائل. ولكن أغلب الظن عددي أن هذه المزية نمت وتقرت فيه من جراء تجواله الطويل المتسع في تاريخ الحضارات الإنسانية.

إن التاريخ بالنسبة له هو أسأذ عظيم في تربية إنسانية الإنسان.

وإن هذا الأستاذ يعلمنا أولاً وأخيراً أن الثقافة والحضارة. والعلم والفنون على مختلف أشكالها وألوانها ليست في حوزة شعب دون شعب أو جنس دون جنس أو دين دون دين.

إننا جميعاً مديونون لمصنارة إنسانية مشتركة تضرب جذورها في عمق التاريخ البشري وتمتد أطرافها إلى كل أقطار المعمورة.

فلا مجال هنا للتفاخر القبلي أو للتأخر القومي.

ومما أذكره أن الأب جورج قنولتي كان يتأسف، خاصة في هذه السنوات الأخيرة، على هذا التيار الرجعي الظلامي المتعصب والمتطرف والجارف في العالم العربي والإسلامي بصفة خاصة.

إن هذا التيار متطيش بشعارات دينية براقة لكنه يرفض في الحقيقة تقدم الفكر

ج - رجل الحوار بين العقل والإيمان

وهناك وراء هذا الحضور بين الحضارات في فكر الأب جورج قنواي حوار آخر له أهمية وخطورة: هو الحوار بين العقل والإيمان.

إن العقل والإيمان عنصران أساسيان في تكوين الحضارتين المسيحية والإسلامية.

ولا شك أنه كان من أبرز سمات الأب جورج قنواي هذا التوافق الفريد والتوازن المتميز بين البعد العقلي والبعد الإيماني.

لقد كان يعطي لكل طرف حقه ودوره. فلا العقل فيه ينفرد عن الإيمان، ولا الإيمان فيه يكثر العقل.

وكما يقول قول روماني قديم: «العقل السليم في الجسد السليم»، كذلك يمكننا أن نصف شخصية الأب جورج قنواي بأنه مثل مكمل للقول الأول، والذي يقول: «الإيمان السليم في العقل السليم»، وكان يريد دلالة: «لا دين بغير ثقافة ولا ثقافة بغير دين».

إذ إن الإنسان إذا فقد البعد الإيماني يتره في حيرة الشك وعدم اليقين وكذلك إذا فقد العقل فيه يجد نفسه موحلا في مستنقعات اللغزات والأساطير، ويهوى في هاوية الخصب القبلي الأعمى المدمر.

ومن الملاحظ أن الأب جورج قنواي كان قد تكلم على يد أكابر المفكرين من الشرق والغرب الذين حققوا هذا الحوار بين العقل والإيمان على مستوى فكري رفيع، من أمثال ابن سينا وابن رشد في الشرق، والقدوس أغسطينوس والقدوس توما الأكويني في الغرب.



المضاري والفكرية ونهضته وتقدمه إلى آفاق العلوم والفنون الحديثة.

وكان الأب جورج قنواي يرى أن هذا الحوار الحضاري هو من أهم المميزات لشعوب حوض البحر الأبيض المتوسط، فلا بد من مواصلة في عصرنا هذا، ضد كل التيارات للرجعية والظلامية التي تحاول أن تنفث في قلوب أبناء جيلنا روح الحقد والتخوف على الذات وقطع الحوار الحضاري.

إلا أننا نمتدح عمل الأب جورج قنواي نفسه نموذجاً حياً وحلقة متصلة مشمرة في هذا الحوار الحضاري بين الشرق والغرب. وهو المصيرى للشرقي المسيحي الذي لستوعب مناهج البحث العلمي الحديث من الغرب ثم طبقها في مجال الدراسات العربية والإسلامية فساهم بعمله مساهمة مثكورة في إحياء التراث الفلسفي الإسلامي حتى أصبحت أعماله مرجعاً لا غنى عنه في الدراسات الإسلامية.

تلك الأعمال سوف تظل دون شك خير تركة تركها لنا هو لكي نواصل نحن كفاحه من أجل حوار حضاري أوسع يرجع بالفائدة المرجوة على كل شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط وغيرها.

الإنساني الحضاري ويكاد يهوى بالإنسانية، إلى هاوية العصبية القبلية يضربها في أصولها الحضارية التي قامت عليها منذ بدانيها.

وكان الأب جورج قنواي يرى أن عمله الطويل في مجال الفلسفة العربية والإسلامية هو كفاح طويل يحذر من كل أنواع الانغلاق الفكري والحضاري. ولقد حاول في كل ما كتب أن يرفع الإنسان إلى كامل إنسانيته بكل القيم التي اكتشفها عند أكابر المفكرين من الشرق والغرب. وكان بذلك العمل يعبر عن إيمانه العميق بالإنسان كإنسان ومع كل قيمه الإنسانية، حسب قبول الكاتب الروماني للقدوس ترنيسيوس: «إن الإنسان قيمته كل ما هم الإنسان».

تظهر هذه السمة الإنسانية واضحة جلية في آخر كتاب تركه لنا وعنوانه «المسيحية والحضارة العربية»، حيث استعرض مساهمة المفكرين المسيحيين في بناء الحضارة العربية.

وكان الأب جورج قنواي يحب أن يصف العلاقات بين الشرق والغرب كملاقات حوار حضاري متصل وممتد عبر القرون والأجيال فتارة يأخذ الغرب من الشرق وتارة يأخذ الشرق من الغرب.

إن الحضارة المسيحية التي كانت الوراثة في الحضارات القديمة، اليونانية والرومانية خاصة ساعدت في إقامة الحضارة العربية والإسلامية في طورها الأول أما بعد ذلك بقرون فإن الحضارة للربية والإسلامية كانت هي التي ساعدت الحضارة الأوروبية في نهضتها الأولى.

وأخيراً في عصرنا الحديث فإن الحضارة الأوروبية الحديثة ساعدت العالم العربي الإسلامي في صحوته من التجمد

ويمكننا أن نكتشف في أعمال الأب جورج قنواتي حواراً مستمراً مع هؤلاء المفكرين الذين يمثلون صنيع العقل المقترب بوضوح الإيمان.

إلا أن هذا الحوار لا يصح أن يكون شيئاً ثابتاً متجمداً في الماضي غير قابل للتطور والتغيير. فلم يكن الأب جورج قنواتي من الداعين إلى مجرد التقليد الأعمى للماضي وتكراره الممل.

والواقع أن الفكر البشري يعيش في حركة دائمة هي حركة الحياة التي إذا لم تتم تموت.

وهناك في مسار التاريخ البشري مسائل جديدة للإنسان في كل جيل، وتحديات جديدة لفكره إذ إن التاريخ لا يعيد نفسه.

وإذا فقد الإنسان الصلة بالواقع التاريخي يدخل إلى دائرة معيكة هي دائرة الانفصام الداخلي بين عقله وإيمانه، ولهذا الانفصام نتائج خطيرة جداً على المستوى الفردي والجماعي.

لقد دخل الإنسان منذ قرنين في طور جديد من تطور عقله ألا وهو العقل النقدي، وقد استطاع هذا العقل أن يخلق لنفسه منهجاً جديداً للبحث والمعرفة أعاد به النظر في الكثير من المسلمات القديمة. ولا أحد ينكر أن هذا العقل النقدي فتح أبواباً جديدة وانطلق إلى آفاق واسعة لم تخطر ببال أحد من القدماء، ولقد نفذ هذا العقل النقدي في أقصى أبعاد الكون وإلى أصغر مكونات المادة، وكذلك التقى ضوءاً جديداً على أكثر عصور الماضي غموضاً وغماساً في أخفى أسرار النفس، وإزاء هذا التطور الهائل، فطى الإيمان أن يصر



ابن رشد

ويتسع حتى يلائم التطور العقلي فلا يزال الإيمان مسجناً في دائرة خرافات عقيمة.

ومن الملاحظ أن الأب جورج قنواتي مع إعجابه البالغ بالمفكرين القدامى كان واعياً بأنهم لم يقولوا الكلمة الأخيرة في المعرفة البشرية - إنما هم حلقة في سلسلة التطور الفكري والتقدم الحضاري.

وقد رأينا هذا الراهب المفكر في أسفار مستمرة وتحوالات دائب بين دور العلم ورجاله في كل أنحاء العالم، فليس هناك مكتبة أو جامعة أو رابطة فكرية إلا زارها أو حاضر فيها.

وكذاب الزلازلين في مكتبته يحفظ عدداً لا حصر له من أسماء المفكرين الكبار على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية والهندسية الذين كانوا يزورونه بصفة مستمرة حتى أصبح ديره ملقى عالمياً يجد فيه لكل الترحيب الراسع والمساعدة المخلصة.

وظل هو يصغى ويبحث ويناقش ويكتب حتى آخر حياته حيث توفي وكان قد كتب على الكمبيوتر الصفحات الأخيرة في كتاب عن الأسماء الإلهية.

فما أحوالنا نحن في أيامنا هذه إلى أمثال الأب جورج قنواتي! نقول في أيامنا هذه حيث تتحول قيادات عديدة من العصبية الرجعية الظلامية أن نخمد تقدم الفكر الحر المستنير، إننا في أمس الاحتياج إلى مفكرين مستنيرين يتمعن بالوضع العقلي والوضع الإيماني على مستوى من التوافق والتوازن اللذين نملأ في الأب جورج قنواتي.

فلا أمل هناك لتقديم حقيقي ومستمر إلا على أساس مثل هذا الفكر المستنير المتفتح إلى حوار مستمر بين الحضارات المختلفة وبين العقل والإيمان.

إن مصر لتفتخر بالأب جورج شعاعه قنواتي كواحد من أبرز أبنائها؛ بل بأعماله الفكرية سحراً عالمياً منيراً لأجيالها المقبلة. وقد استطاع أن يعبر حدود الثقافة القومية الضيقة إلى آفاق الثقافة العالمية الواسعة.

إلا إن هذا الفكر العظيم بقدر ما أثرى وطنه فخراً وشرفاً فإنه كان مثلاً يحذق في الأمانة والالتزام.

فطى أبناء وطنه أن يواصلوا عمله نحو عالم أوسع أفقاً وأعمق اتصالاً بغيره من الحضارات والثقافات، وإلى الكفاح ضد التيارات الرجعية الظلامية بشتى أنواعها.

إن الأب جورج قنواتي سيظل مثلاً عالمياً للعمل الإنساني المميز بقوة عقله وروسخ إيمانه المفيد للأجيال المقبلة في بلاده وفي غير بلاده ■

ودور همزة الوصل

الأب

قدّر للأب قنوائى أن يلعب فى عصرنا الملىء بالصراع والذى تتكازعه المتناقضات دور همزة الوصل الساعى للمصالحة حتى تكتمل الجهود بدلا من أن تتعطل وتضيق هباء. واعتبر الراحل العزيز هذا الأمر رسالته فى الحياة فأخلص لها كل الإخلاص وتغنى فى ألدائها ونجح فى ذلك نجاحاً منقطع النظير فيما اعتقد. ورحل الأب قنوائى تاركا سؤالا محيرا يتردد من بعده.. هل يمكن أن يجود الزمان مرة أخرى بمثل هذا الرجل ليكمل المسيرة والرسالة فى زماننا المصيب هذا؟

اعتبر الأب قنوائى أن رسالته هى تحقيق للصالح بين طرفى مجموعة من الثنائيات تبدوان متناقضتين فإذا عنى بهما الأب قنوائى اتصالهما وتمازجا. وعلى رأس هذه الثنائيات ثنائية الشرق والغرب، وثنائية الإسلام والمسيحية، وثنائية القديم والحديث. ولقد شجرت برسالة الأب قنوائى هذه منذ زمن بعيد، وإن حال مسخر سلى وقلة إدراكى وفَتْخَاك عن إدراك كلهما وعن تعقُّلها الأمر الذى تحقق فيما بعد مع تقدم العمر والانخراط فى درس الفكر. شجرت بهذه الرسالة بقوة وبعُمق وأنا أراه يسير فى جاذبة أبى فى قريتنا الصغيرة باكوا شأنه شأن أقرب الأقارب غير حائل بدخشة سائر المشيعين الذين كافوا بلا شك يشهدون لأول مرة راهبا يشيع أحد ذويهم. فقريتنا ليس بها كنائس ومنذ العدوان الثلاثى على مصر لم يمد بها مسيحيون ولخضيري أيوه رجل تقرب لله بأن بنى جامعاً كبيراً على به والذى طوال حياته إصلاحاً وترميماً وتجديداً فما علاقته بهذا الراهب؟ أما أنا فقد شعرت أن هذا الراهب المختلف عني فى أمور كثيرة يمكنه أن يلعب دور الأب بالنسبة لى. فصحيح أنه مسيحي وأنا مسلمة، ولكنه يستطيع ذلك.

وصحيح أنه يبدو نصف أوروبى، بينما أنا نشأت على الالتزام الشديد بمصريتي، بالرغم من أن أبى استكمل تعليمه فى باريس وأبنتى أدرس فى مدرسة فرنسية.. ولكن الأب قنوائى يستطيع ذلك. وصحيح أنني كنت لا أراه فى بيتنا مع أبى إلا وهو متكب معه على دراسة المخطوطات القديمة وأنا بطبعى أعشق الجديد ولكنه يستطيع ذلك. وترسب فى نفسى وقتذاك أن الأب قنوائى يستطيع ذلك للإنسانية الطاغية الحانية الحاصنة. أما (كنه) هذه الإنسانية المبهرة فهو ما عجزت فى حينه عن إدراكه وإن استطعت ذلك فيما بعد مع اتساع تجريئى ومداركى ومع انخراطى فى دراسة الفلسفة. لقد حقق الأب قنوائى هذه الإنسانية المبهرة فى ذاته تلك الإنسانية التى تذيب الفوارق والاختلافات والفواصل بفضل الفلسفة التى تمكنه الذى يشقها ويصل بها من التعايش مع الآخر بالرغم من الاختلاف معه ومن العوار مع المختلف ومن محبة المغاير.

أما نظليه على تعارض قطبى ثنائية الشرق والغرب وتحقيق المصالحة بينهما فى وحدة حقيقية فمرجعه فيما اعتقد لجمعه بين أصله الشرقى وميلاده على أرض مصر التى عشقها وتشبع بقيمتها الودودة وبمفاهيمها الحريقة الأصلية، والى حدثت اتجاهاته الجذرية من جهة، وبين تكوين عقلى غربي فى مدارس الفرير الفرنسية فى الصغر ثم فى جامعات فرنسا وكندا من جهة أخرى، وهو ذلك التكوين الذى مكّنه من أدوات منهجية علمية عصرية على النمط الغربي. قيم الشرق ومفاهيمه ومناهج الغرب الحديث أمور اجتمعت فى الأب قنوائى وبدلاً من أن تتصارع فيه وتجمعه يعانى ثنائية أو على الأقل ازدواجية تضاعفت. ولا بد أنه بذل جهداً هائلاً

لتحقيق ذلك .. تضاعفت لتجعل منه
«إنساناً» : لا شرقياً ولا غربياً إنما هو فى
المقام الأول إنسان . فيه تعالقت الثقافتان
الشرقية والغربية بشكل بديع مما وسع
من أفق الرجل ومن مداركه إلى أقصى
حد ومما جعله قادراً على الإحاطة بكل
جوانب أية قضية يعرض لها . والأب
قنواتى فى هذا نموذج شائع تكرر كثيراً
على أرض مصر لأن مصر بطبيعتها
ويتأريخها تكيح ذلك منذ أن بفت أول
حضارة «إنسانية» عرفها العالم . ولقد يسر
له هذا الجمع بين الثقافتين المشاركة فى
صنع الانثنين . ولعل أكبر دليل على هذا
مشاركته فى تحقيق أجزاء الشفاء
موسوعة ابن سينا الشهيرة التى ظهرت
فى القاهرة تحت إشراف عميد الأدب
العربى الدكتور طه حسين فى بداية الأمر
ثم تحت إشراف أساتذنا الشيخ الرئيس
إبراهيم مذكور؛ ثم قيامه بترجمة إلهيات
هذه الموسوعة إلى الفرنسية فى جزئين
(١٩٧٨ - ١٩٨٥) بعد أن شارك فى
تحقيقها فى أصلها العربى . أما تلك
الترجمة ففى اعتقادى أنها ستخلد تذكرو
صاحبها بما بذله فيها من جهد رسين
مخلص مبدع لا يستطيعه إلا راهب علم .
ولعل العبارة التى يفتتح بها مقدمته لهذه
الترجمة تعبر عن وعيه وإيمانه بوحدة
الإنسانية الروحية عبر للتاريخ بالرغم من
أن البشر يحول لهم تقسيمها إلى شرق
وغرب ثم أصبحوا فى السنوات الأخيرة
يتجهون إلى شطرها شطرين شمال
وجنوب . يقول إن أهمية مصالحة الفلسفة
العربية فى أرض الإسلام فى تكوين
الفكر الفلسفى واللاهوتى للغرب الوسيط
قد اعتبرت به مؤرخو الفكر الوسيط
المسيحى منذ زمن بعيد . فالحضارات
الإنسانية كلها عند الأب قنواتى تكون
وحدة تتكامل بعضها بعضاً عبر التاريخ .
وفيما يتعلق بالجانب الفلسفى معها كان
يعتقد أن الفلسفة بدأت عند اليونان ثم



استكملها للحرب وأضافوا إليها من
إبداعاتهم ثم تلقفها الغرب المسيحى وقطع
بها شوطاً انتهى إلى الفلسفة المعاصرة .
إلا أن عقل الأب قنواتى وقّبه تعلقاً بحقبة
واحدة من مسورة الحضارة الإنسانية
الشاملة هى حقبة الحضارة الإسلامية اذ
«بهره إزواها» وقدر دائماً عظمتها
«وأهميتها بالنسبة للحضارة الإنسانية
الكليّة» على حد تعبيره فى كتابه عن
«المسيحية والحضارة العربية» ويخطئ
من يظن أن علاقة الأب قنواتى بالشرق
كانت مثل علاقة المستشرقين به لأن
هؤلاء درسوا هذا الشرق وحضارته
باعتبارهم أبناء حضارة أخرى أما هو فقد
درسه باعتباره ابناً من أبنائه .

وكما حل الأب قنواتى ثنائية الشرق
والغرب حل ثنائية المسيحية والإسلام .
وهذا الحل عبر عنه فى عبارته التى سبق
لى الإشارة إليها والتى جاءت فى مقدمة
لكتابه عن المسيحية والحضارة العربية .
فهر بنعت الفلسفة لثتى أنتجها المسلمون
ومعهم إخوانهم المفايرين لهم فى العقيدة
بأنها فلسفة عربية حتى يحفظ لغير
المسلمين حقهم الذى لا يمكن إنكاره فى
صنع هذه الفلسفة ولكه يحرص على
ذكر أن هذه الفلسفة العربية ظهرت على

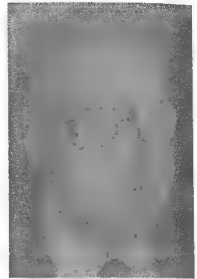
«أرض الإسلام» أى أن الإسلام كان هو
الإطار الذى أتاح الفرصة للفلسفة لتظهر
ولتتجدهم ولولاه لما تصقق ذلك . ومن
الجدير بالذكر أن الأب قنواتى كان يكثر
من نعت الفلسفة التى ظهرت على أرض
الإسلام لا بالعربية فحسب بل بالإسلامية
أيضاً . وإذا كانت العقولة التالية والتى كان
يعان عنها فى كثير من المناسبات «لادين
بلا حضارة ولا حضارة بلا دين» من
المفاهيم الجوهرية فى فكر الأب قنواتى
فإننى أعتقد أن أساتذنا آمن بمقولة أخرى
باعتبارها الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة

ولن لم يعان عنها أبداً فقد كرس لها جزءاً
كبيراً من حياته لرصدها ، ألا وهى أن
الإسلام لم يقصر بذاء حضارته على
أبنائه فحسب بل احتضن جهود كل من
عاش على أرضه وفى رحابه ، أياً كانت
ملتهم وأصولهم العرقية . وفى هذه
القاعدة التى آمن بها الأب قنواتى بالقطع
والتي لمستها من تعاملى معه منذ أن
بدأت أدرس الفكر تتجلى كل قدرته
العبقريّة الإنسانية الفذة على الجمع بين
الإيمان العميق بعقيدته المسيحية التى
كرس حياته لخدمتها بفهم نادر وإخلاص
لا نظير له بحسب له وبين إعجابه الشديد
بالإسلام الذى كرس جهوده العلمية
لدراسة حضارته فى مظهرها الفلسفى
والعلمى . وعندى أن الأب قنواتى يلمس
بذلك التقليد مسيحى مستنير بدأ فى القرن
الثالث عشر مع فلاسفة المسيحية العظام
من قبيل توماس الأكوينى الدومنيكانى
ودوجر بيكون الفرنسيسكانى وهو ذلك
التقليد الذى جعل أصحابه يجمعون بين
إيمانهم بلاهوتهم ورغبتهم الواقعية
للافتتاح على الفلسفة الإسلامية .

أما ثنائية القديم والحديث فقد فض
الاشتباك بين طرفيها فى ذاته بأن جعل
من نفسه كما يقول فى مقدمته لترجمته
الفرنسية للإلهيات الشفاء جسراً بين

علم الكلام الإسلامي وعلم اللاهوت المسيحي

ترجمة : كاميليا شحاتة فتاوى



إبراهيم بيومي منكدر

الأصل العربي (للمصنف الفلسفي) غير متوفر لعلماء العصور الوسطى الغربيين المائلين وبين الترجمة اللاتينية التي تمت في العصور الوسطى، الأمر الذي إذا تصقح ساهم في تمكين الباحثين من دراسة أثر فلسفتنا الإسلامية في الفلسفة الحديثة.

كان الأب فتواي من القوة بحيث لم يشعر أنه في مصر ينتمي للأقلية بل هو وإخوانه المسلمون يربط بينهم حبهم لمصر، وكان من سعة الأفق أنه أدرك أن الإسلام لم يقف حائلا دون مساهمة المسيحيين في بناء حضارته فقدم دراسة

تلك الحضارة بكل علمه، وكان من صفاء البصيرة أن تبين أن التاريخ متصل يجمع بين البشر جميعهم ولذا لامن الاهتمام بالتقديم والتحديث على السواء لأن الله الواحد الحي القيوم خالق السموات والأرض والمحب للبشر الغفور الرحيم يريد ذلك .. وصفات الله هذه هي الصفات التي اعتقد أن ثمة اتفاقا بين المسيحيين والمسلمين بصندهما. ليرحم الله الأب فتواي رحمة واسعة وليكن جزاؤه عما فعل في دنياه كبيرا عند الله بإذنه ومشيئته. ■

ملحوظة تهديدية

ق ١- حينما تنصدي لمقد مقارنة بين علم الكلام الإسلامي وعلم اللاهوت المسيحي، يجب أن ننتبه إلى أن استخدام المصطلحات التقنية الخاصة بكل عقيدة ليس بالأمر الهين بل تحفه المغاطر؛ ذلك أننا حينما نتناول العقيدة الإسلامية من منظور مسيحي فقد نميل ليس فقط لاستخدام المفردات اللغوية الخاصة بالفكر المسيحي وإنما أيضا لاستخدام الدلالات الخاصة بها بحيث نجد أنفسنا دون أن نعي مدفوعين لمقد مماثلة سهلة . غير أن تلك المماثلة من شأنها تزيف الرؤية من خلال نظرة ظاهرية للحقائق.

٢- ويمكننا دراسة علم الكلام الإسلامي من خلال زاويتين:

(أ) زاوية تقنية خالصة تتعلق بدراسة علم الكلام ، أو «الوحدانية الإلهية» وتتركز أساسا على دراسة الله، وجوده، صفاته، وكذلك على دراسة النبوة والخلافة والغايات.

(ب) زاوية تشتمل على بحث أوسع وذلك من خلال دراسة العلوم الدينية بشكل عام مثل معاني القرآن أي التفسير وكل ما يتعلق بالنبى من أحاديث وسنة، كذلك الشريعة الإسلامية ومصادرها من فقه وأصول الفقه، وأخيرا التصوف.

أما بالنسبة لحديثنا هذا فمستوف يقتصر على تناول الفكر الإسلامي بالتحديد من الناحية التقنية البحتة.

منايع العقيدة الإسلامية

يعرف الإسلام بأنه دين موحى به، ويأنه الدين الحق الأرحم . أما محمد فهو ليس مجرد مؤسس ديانة «جديدة» بقدر ما هو مصطلح ومجدد للدين الذي آفره الله منذ بداية الخليقة ثم ما لبث مكر الإنسان أن شوهه وأسد معالمه . وقد اتخذت هذه

الديانة شكلها النهائي من خلال «الكتاب» المتمثل في القرآن، كلمة الله الموحاة لنبينا محمد ليصبح منذ ذلك الحين ميثاق المؤمنين الحق. إذن فالفكر الإسلامي فكر قرآني أساسا. وبالنسبة للعقيدة الإسلامية، يعد القرآن «الكتاب المقدس» ذا السيادة المطلقة. وترتكز مهمته في الدفاع عن الحقائق التي يحض عليها في تعاليمه من خلال أسانيد جدلية.

٢- أما المصدر الثاني للعقيدة الإسلامية فهو الأحاديث المتمثلة في الكلمات المنسوبة إلى محمد أو في الأفعال التي قام بها ورواها عنه مجموعة كبيرة من الشهود الأصليين المعاصرين له. وقد أسهمت العصمة المنسوبة للنبى المسلم ومهالة القداسة المحيطة بشخصه في اعتبار أى كلمة أو لفظة تصدر عنه معيارا عقائديا وأخلاقيا.

٣- وعلى الرغم من أن الإسلام لا يندو على سلطة لا هوية حقيقية بما أنه لا يتبع كنيسة إلا أن به نظام قائم على الشورى والاجماع. وقد وعد النبى أسسه بأنها لن تجمع أبدا على دعم المعصية. وربما كان الهدف من مبدأ الإجماع إحداث توازن في مواجهة أى نزعة فردية للاستبداد بالرأى أو لملته تأكيد على تلك «الحدائث» التي أصبحت مبدأ عاما قويا بعد.

٤- وعبر القرون، أسهمت بعض العوامل التاريخية إلى جانب المصادر المباشرة في تحديد ملامح إشكالية الفكر الإسلامى. ويمكننا أن نذكر من بين تلك العوامل:

(أ) الديانة المسيحية.

(ب) الفلسفة اليونانية.

(ج) المناقشات السياسية.

(د) السياسة المناهضة للمناوئة والمجوسية.

(هـ) وبالنسبة للقدرة الحديثة: احتكاك العلم ببعض الجماعات الماسونية ذات الميول الإنسانية.

الفكر، والوحي، والنبوّة

١- ترتكز العقيدة الإسلامية على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، مما يوضح جليا أن الإسلام يدنى عقيدته على الجهر بوجدانية الله. وترجع تلك الشهادة بوجدانية الإله إلى الأزل وقبل خلق الأجساد حينما خلق الله آدم وذريته وأشدهم على ألوهيته.

٢- ومع الوقت بدأ الوحي الأول الخاص بوجدانية الله يحى من الأذهان، وبدأ الإنسان يحيد عن ذكر الله، ويصنع آلهة زائفة، ووقع في تصدئة الآلهة. فبدأ الله على إرسال العديد من الأنبياء لمختلف الشعوب كل بلفته، لتذكيرهم بوجدانيته. وقد ورد في القرآن ذكر بعض هؤلاء الأنبياء مثل نوح وإبراهيم وموسى ويوسف ودود وسليمان وشعيب وإشع والمسيح. كما جاء بالنسبة ذكر آلاف الأنبياء.

٣- أما كلمة الله فأرسلت من خلال عدة كتب، فقد ذكر القرآن صحف إبراهيم وتورا موسى ومزامير داود والإنجيل الذى نزل على المسيح. غير أنه لم يبق لنا أية نسخ أصلية من تلك الكتب. ففى نظر السواد الأعظم من علماء الدين أن الكتب المتداولة بالفعل بين يدي اليهود والمسيحيين قد تم تحريفها على أيديهم عبر القرون بحيث لم تعد تمثل الكتب التي أوحى بها فى صوريتها الخالصة أى كما أنزلت.

٤- ولكن لله الرجيم دائما بعباده، أرسل «خاتم الأنبياء»، محمدا، نبيا عربيا، قدم لأمتة، ومن خلالها قدم للعالم أجمع، القرآن، كلمة الله. وفى هذا الصدد، هناك ملحوظة رئيسية، وهى أن ذلك الدين الذى ختم الرسالات السابقة، لم

يتنزل على أنه خدام تعاليم سابقة أو نهاية «تدبير إلهي»، يقود المؤمن شيئا فشيئا إلى حضرة السر الإلهي، وإنما تنزل كرسالة مستقلة تشتمل على كل ما أوحى به من قبل. لقد جاء خبرا عاما خاصا بتلك الأمة، فكان خير رباط يوحد المسلمين.

٥- ولعلنا لا نبالغ أبدا حينما نتحدث عن أهمية القرآن، فهو يد المسلمين بأسس إيمانهم، وبالقواعد الأخلاقية التي تحكم سلوكهم، وبالتعليمات الدقيقة الخاصة بالعبادات، والمعاملات التجارية، والإرث. وهو يحتوى كذلك على ملخص لتاريخ العالم، وعلى فلسفة للحياة تنبع للمؤمن اتخاذ الموقف الدينى الصحيح إزاء المصاعب التي قد تواجهه. أما النص القرآنى فهو فى آن واحد منبع وغاية حكم علماء الدين.

٦- وبخلاف التأكيد على البعث، وبعض التفاصيل الخاصة بالعبادات، لا يحتوى القرآن سوى على حقائق يمكن إدراكها بالعقل المجرد. فلا أمور غامضة تتطلب قوى خارقة، ولكن يبقى فقط السر المتمثل فى كنه الله أمرا مؤكدا يمتدز لإجلاؤه. وعلى هذا فجميع الحقائق الخاصة بالدين الإسلامى، على الرغم من كونها موحاة إلا أنها «طبيعية»، لذا يمكننا القول إن الإسلام دين «طبيعى»، بمعنى أن كل الحقائق التي يتناولها سهل إدراكها بالعقل ولكنه من ناحية أخرى دين موحى به بمعنى أن الحقائق التي يتضمنها قد بلغها الله إلى الإنسان من خلال الأنبياء.

٧- وللوحي فى العقيدة الإسلامية مفهوم خاص. أما فى المسيحية فإن كلمة الله الموحى إليه هو دأع يملك أداة حرة يتصرف بحسب الطبيعة الحرة التي اختصه بها الله، اللة الأولى، وباعث الوحي «لكلمة الله الموحى إليه» أن يستخدم أسانيد بشرية بحيث يكتب وثائقه بأسلوبه ولفظه الخاصة، بما أن ما يوحى

وهو كذلك متسامح، حلیم، أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد.

٣- وقد خلق الله العليّ التقدير العالم بحرية كاملة . «والله خلقكم وما تعملون» (الصافات، آية ٩٦) .

وفيما يخص بأفعال الإنسان وبمسؤوليته، فقد وردت نصوص في القرآن تؤكد قدرة الله الواسعة، وأبرزت نصوص أخرى مسؤولية الإنسان. أما النزعة الغالبة عند الأشعرين فتركز على التأكيد على أن الله خلق الخير كما خلق الشر وأن الإنسان خلق ككائن حر ولكن أفعاله تنسب إليه بشيء من الغضب.

ولنلاحظ في كل الأحوال أن الشيء يرغم على تفسير هذه النصوص على هذا المحمل التقديري.

وهناك بالفعل نزعة عند المفكرين الإسلاميين المحدثين للتأكيد بشدة على حرية الإنسان ومسؤوليته عن سلوكه في الحياة .

٤- حاول المعتزلة ثم الأشعرين تصنيف المعطيات التي وردت في القرآن بشأن الله:

(أ) فدللوا على وجوده باستخدام الأسانيد المأخوذة عن الفلاسفة، والمبنية على الحركة والممكن والضروري .

(ب) أما بالنسبة لأسماء الله فقد حاولوا تجنب الإفراط الشديد في تنزيهه بحيث لا يصل هذا الإفراط إلى حد نفى كل صفة وتثبيته من شأنه إضفاء صفات محسوسة إلى الله. وقد حاولت المدرسة الأشعرية أن تقف موقفاً وسطاً فأكدت من ناحية على حقيقة تلك الأسماء مع توضيح أنها تكمن في الجوهر الإلهي، فتلك الأسماء ليست «الله» ولكنها لا تخص أحداً غيره .

٥- وقد اتفق بشكل عام على ترتيب تلك الصفات كما يلي:



أما علم الكلام فيقوم أساساً على إثبات المعتقدات الخاصة بالقوانين الدينية الموحى بها والدفاع عنها. فالوحي هو معيار المعرفة بالله وبما أن العقل يحكم تلك المعرفة بشكل تام ومباشر فتكون المعرفة بالناس هي المرشد الأساسي لعلماء الدين (إضافة إلى بعض المعايير الثانوية مثل الكلمة والسمع والبصر) .

الله من خلال علم الكلام الإسلامي

١- تركز مساحة القرآن على أفكار ثلاث هي:

(أ) الله واحد أحد .

(ب) الله خالق، وهو الحكم ويبدع الثواب والعقاب .

(ج) الله عليّ قدور رحيم .

٢- على الرغم من عدم إدراكنا لكثرة الله إلا أنه من خلال عملية الخلق والقرآن، أوحى إلى الإنسان ببعض صفاته، وقد استخلص من القرآن والاسنة ٩٩ صفة هي أسماؤه للحق التي يسبح بها المسلم الورع مستعماً منها ثقاته. وهكذا وعلى الرغم من أنه سبحانه لا تدركه الأبصار إلا أنه كائن بذاته يمدنا بالحماية، بيده الخير، يصغي إلى صلاة مخلوقاته ويعلم حاجاتهم، يغفر للعاصي،

به إليه ناجم عن الوحي الإلهي، مما يكفل له أن كل كلمة يستخدمها إنما يملأها عليه الروح القدس .

أما بالنسبة للإسلام فلا يوجد كلمة لله موحى إليه، وإنما أنبياء ومرسلون ينزل عليهم الوحي. فكل شيء في القرآن، كل كلمة، قد أوحى بها الله إلى النبي من خلال الملك جبريل. وما للنبي إلا أداة بسيطة وأمينة تردّد الكلمات التي أسمع إليها أو قرأها خلال تلقينه للوحي. وعلى هذا فقد يجد الفكر والتفسير الإسلامي بعض الصعوبة في التوافق مع العلم والشارع وهي ذات المشكلات التي أحدثت أزمة الحداثة بالنسبة للديانة المسيحية.

العقيدة، الإيمان، والعقل

١- يقوم علم اللاهوت المسيحي أساساً على فهم حكمة الإيمان الذي يعتمد ضمناً على الوحي بما أن ذلك الفهم هو الذي يجعلنا ندرّكه كنه الله كما هو بذاته بصورة مبهمّة. وعلى هذا ينتهي المومن إلى الوصول إلى الكون الإلهي من خلال «المعطيات للعقائدية» .

أما بالنسبة لعلماء الدين الإسلامي فإن الإيمان لا يجعلنا ندرّكه كنه الله كما هو بذاته، ذلك أن السر الإلهي يبقى أمراً لا يستطيع المرء أن يدركه. أما الإيمان، فيتركز أساساً على عملية الحساب التي تتم على أساس ما جاء ذكره في القرآن أي بكلمة الله كما أراد لها أن تصل إلى خلقه .

٢- ويتصاحب علم اللاهوت إدراك معطياته (وهو جانب إيجابي) في محاولة إيجاد تفسير لاوهوتي لها، (وهو الدور التئوي للتفسيرات العقائدية) وذلك من خلال امتداد نور الوحي الإلهي الذي يتسم بالمرسوعية، وكذلك من خلال العقل الذي يضيئه وحى الإيمان.

(١) الصفات الخاصة بالجوهر :
فكثيرة الله لا تنفصل عن جوهره
(ب) الصفات الأساسية والتي يمكن
تقسيمها إلى:

ـ صفات «لا تدعى لغيره» مثل تلك
التي تدل على أنه خالد، أبدي، لا شبيه
له، وأنه كائن بذاته

ـ الصفات التي تحمل معاني
وتصنيف مفهومها ما إلى الجوهر مثل:
القدرة، المشيئة، العلم، الحياة، السمع،
البصر الإدراك.

(ج) الصفات المعنوية وهي تشبه
الصفات السابقة مثل القادر، المقدر،
العليم إلى آخره.

(د) الصفات المتعلقة بالفعل والتي
تشير إلى ما يمكن لله أن يفعله أو يتركه :
الرؤية، الخلق، الأمر، القضاء التحديد
المسبق للأعمال، القبول.

٦- أما الرؤية والقول والسمع
والبصر، فقدم من السمعيات ولم تعرف
إلا من خلال الوعي، بينما وردت
الصفات الأخرى في القرآن، ويمكن
للعقل أن يستدل عليها، ولذا فهي من
«العقليات»

علم الكلام الإسلامي والسر المسيحي.

١- من الناحية العقائدية يمكننا القول
إنه فيما عدا إنكار المسيحية لذوية محمد،
فإنها تقوم على مبدأ التأكيد. بينما نجد أن
الإسلام قد ينكر أو يتجاهل - أو يهين
آخر، يعد الإسلام تبسيطاً للمسيحية
وعسوة لدين ليس به غموض، وهو
تبسيط تعتبره المسيحية نوعاً من اللفس.

٢- والإسلام أساساً دين «الكتاب»، أما
المسيحية فهي حياة مع شخص على قيد
الحياة هو المسيح، رب حقيقي وإنسان
حقيقي. ولذا أردنا التعبير عن وجهة نظر



الديانيتين في كلمات لقلنا إن «الكلمة»
كانت بالنسبة للمسلمين «الكتاب» أما
بالنسبة للمسيحيين، فكانت «الحما
وعظما».

٣- إذا كان الإسلام يعترف بسقوط
آدم وحواء فإنه ينكر أن خطاهم قد امتد
فانتقل للإنسانية. وهذا الإنكار جزء
لا يجزأ من تعاليم العقيدة الإسلامية.

٤- وإذا كان ذكر التثليث في القرآن
يبدى عن عدم فهم لمعنى السر (بما أن ما
أنكره هو التثليث الذي يتضمن الله
والمسيح ومريم) فإن هذا لا يمنع أن
العلماء المسلمين اعتبروا دائماً أن في
التثليث محاولة للتوحد من الوجودانية
الخاصة التي وردت بالقرآن. ومن هنا،
فإن كثيراً من المسلمين غير العارفين
يعتبرون المسيحيين مشركين يؤمنون
بثلاثة آلهة.

٥- إن الشرف الذي يعطيه القرآن
للمسيح، واعترافه بأن ولادته من السيدة
العذراء مريم كانت معجزة إلهية واعتباره
نبياً يشفي المرضى ويحيى الموتى مع
التأكيد على أن ذلك إنما يتم بمشيئة الله،
يجب ألا يخذلنا فلفظ عارض الإسلام
مذ بدليته أية فكرة للتجسيد، وأكد على
أن المسيح ليس إلا بشراً مثل البشر
لجميع يرضع لبن الأم واحتياجات، وأنه
أبداً ما كان مماثلاً لله. ونفى ألوهية

المسيح إنما يأتي على أساس فرض
أساسي وعميق في الإسلام يلزم من
معنى الصمو الإلهي الذي لا يتلهم مع
فكرة وجود بشر - إله.

٦- أما الأمر الذي لا تغيبه العقيدة
الإسلامية تماماً فهو فكرة الخلاص على
يد المسيح. ويرجع هذا إلى أسباب عدة.
ذلك أن الإسلام ينكر أساساً الخطيئة
الأولية. وثانياً لأن مفهوم الخطيئة، أنها
إساءة للحب الإلهي، غير وارد في
القرآن. فحلالاً لما جاء بالعهد القديم، لا
نجد في الإسلام تذكيراً دائماً للخطيئة،
وضرورة إصلاحها، وتقديم أضحية. وإنما
كل شيء يبدو كاملاً منتهياً، فإله يغفر
مباشرة. وكل إنسان ليس بمسؤول سوى
عن خطاياهم. ويعد التناول، غريباً على
الإسلام. كذلك، ليس للصليب أي دور.
أما الصورة القرآنية الوحيدة التي تأتي
بذكره، فإنما تنفي أن عملية الصلب قد
تمت.

عقيدة وفلسفة

١- للحكمة في المسيحية ثلاث مراتب
يمكن للإنسان بلوغها، وهي:

(أ) الحكمة الميتافيزيقية الطبيعية، التي
لا تتعدى قوة العقل ولا تعرف الله
بذاته وإنما كلمة للوجود.

(ب) الحكمة العقائدية، وهي طبيعية في
نمطها، خارقة في موضوعها ونورها
تمثل في الوعي الإلهي. فهي تلمز
«بطي يحكمها العقل» وتهتدى إلى
الله ليس بصورة استدلالية ولكن كما
تجلى بذاته وكما أوحاهم أو إلنا مع
الحفاظ على غموض ذاته الإلهية
وحياته الخاصة.

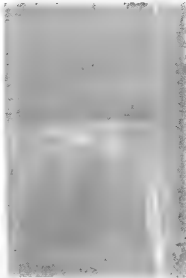
(ج) الحكمة الصوفية والتي تبلغ الله من
خلال أسلوب تجريبي خارق للطبيعة
لا يعتمد على جلاء الرؤية وإنما
يمكن في التوحد بالحب، أي من
خلال حب الذات الإلهية.

رؤية فلسفية جامعة. أما ابن رشد فقد سعى إلى التوفيق بين الدين والفلسفة وذلك باستبعاد علم الكلام فلا يبقى سوى الدين والفلسفة فتكون الفلسفة للصفوة ممن لديهم القدرة على البرهنة على الأشياء ويكون بإمكانهم وحدهم فهم مجاز النصوص القرآنية التي تحمل أكثر من مدلول، أما الدين فلعامة الذين يأخذون بالنصوص القرآنية بمعناها السطحي.

فكر وغايات

١- يؤكد رجال الدين والفكر التقليديون مستندين إلى نصوص القرآن والأحاديث على ثبوت الغيبيات مثل حياة القبر والبعث ونار جهنم والميزان ويوم الحساب. وقد جاء وصف دقيق للجنة ومباهجها وللنار وعذابها الأنيم. والفكرة السائدة في تلك النصوص تركز على وجود إله بيده القواب والعقاب.

٢- أما حياة الخلد التي بشر بها المسم فليس فيها مشاركة للحياة الإلهية. وإنما هي شمع يخلق الله ويفضله، يضاف إليها شيء أقرب «لرؤية الذات الإلهية» .. ولكن بصورة غير دائمة أو محسوسة. وعلمنا ألا نفع في خطأ مطابقة تلك الرؤية مع الـ Visio Beatifica التي جاءت في اللاهوت المسيحي وهي رؤية حديثة لجوهرة الرب، ومشاركة تامة، وإن كانت غير كاملة، في معرفة الرب عن ذاته، رؤية ممكنة من خلال نور المجد. ■



أولا مذهب الذرية Atomisme. ويقوم على إنكار قدرة المخلوقات، ثانياً مذهب المناسبات Occasionalisme. وهو نفى لفاعلية السبب الثانوية.

(ج-) وأخيراً استلهم عدد من المفكرين والفلاسفة من أمثال الفارابي وابن سينا وابن رشد، أفكارهم من الفلسفة الإغريقية وأعطوا للفلسفة الغلبة على المعطيات الدينية. فالفلسفة بالنسبة لهم هي ملكة العلوم المتوجزة. وقد حاول ابن سينا وضع رؤية تطمح إلى مزج الحقائق الدينية للخلوص إلى

٢- أما في الإسلام فلا يوجد مثل هذا التمييز. فبالنسبة للفكر التقليدي الأشعري، يتحدد أي تمييز بين ما هو طبيعي وما هو خارق للطبيعة أمام التأكيد على وجود الله وعدم قدرة المخلوقات على للكون بذاتهم. وإذا استعملنا الألفاظ المستخدمة في اللاهوت المسيحي فسوف نقول إنه لا يوجد في العقيدة الإسلامية إجلال لأسرار خارقة للطبيعة، وإنما فيها تأكيد على السر بمعناه الواسع، ذلك السر الذي يحيط بكنونة الله وسموه وتعاليه والذي لا يمكن أن يصل إليه إلا بالإيمان ولا بالتقريب.

٣- أما فيما يتعلق بالفلسفة، فقد اختلف المفكرون الإسلاميون حول النقاط التالية:

(أ) بعض رجال الدين المذاهبين بشكل حاد للمفكرين بطرحون الفلسفة وعلم الكلام تماماً جانباً ويمسكون حرفياً بالقرآن وبالحديث.

(ب) أما بعضهم الآخر، وكذلك أغلبية المفكرين الأشعريين، فقد أقروا استخدام العقل في الدفاع عن الحقائق الدينية غير أنهم وضعوا لتلك الغاية فلسفة خاصة تصافى إلى أقصى درجة من وجهة نظرهم، على سمو الله وتعاليه وقدرته. وترتكز تلك الفلسفة بشكل خاص على فكرتين:

مدرس الإسكندرية

ترجمة وتقديم: جورج شحاتة قنوتى

الغسزو الفكرى ... أسطورة
كبيرة، ولا خوف على ثقافتنا
العربية ولا على شخصيتها العربية
من الانفتاح على ثقافات الأمم
الأخرى..

هكذا كان يقول جورج شحاتة
قنوتى.. هذا الرجل.. الإنسان..
العالم.. المفكر.. الذى أعطى
حياته للعلم والحضارة، ولخدمة
المثل العليا والقيم الإنسانية
النبيلة.. نجد له الآن أحد
النصوص التى لم تنشر من قبل،
وهو عن مدرسة الإسكندرية..

فالإسكندرية منذ تأسيسها على
يد الإسكندر الأكبر ٣٣١ ق م
وحتى الفتح العربى وهى مركز
للحضارة لا مثيل له، وذلك من
خلال مدرستها الشهيرة (المكتبة
والمتحف) التى أثرت التاريخ
البشرى بسمات تطوره لألف سنة..
وقد كان أزهى عصورها فى عهد
البطالمة والرومان حيث أثمرت
الفلاسفة والعلماء..

والعلم النص.

يقول أحمد أمين فى كتابه
الشهر «فجر الإسلام»: [إذا نحن
وصلنا إلى اليونان فقد وضعنا أيدينا على
كنز لا ينفى وثروة لا تقدر وعنى عظيم
فى كل ما يندج العقل والماطفة والذوق،
فى الفلسفة والرياضة والفلك، فى علوم
الطبيعة والحياة والطب، فى الأدب، فى
التاريخ، فى السياسة، فى الفنون الجميلة.
لقد نفخوا فى كل ذلك من روحهم، وغذوا
العقول بأرائهم، وأمدوا العالم بأفكارهم و
آدابهم وعلمهم وأساطيرهم، وروا الذوق
بنفهم، ونحتهم وتصويرهم... وهكذا فى
كل فرع من فروع العلم..

١- ملتقى الحضارات :

هذا التراث الكبير قدر لشهره فى
العالم رجل بمستواه طموحاً وعزيمة
وشمولية فكر، وهو الإسكندر المقدونى
الكبير، الذى كانت فتوحاته للعديد من
بلدان آسيا وأفريقيا سبباً وسبيلاً لانتشار
الحضارة اليونانية والتفاعلها مع مختلف
الحضارات الأخرى: الآرامية والفارسية
والهندوسية.

من السبعين مدينة التى أسسها
الإسكندر وحملها اسمه، خمس وعشرون
إسكندرية معروفة بحسن اختيار موقعها لا
تزال حتى اليوم مراكز تجارية مهمة. إنما
لاشك فى أن إسكندرية مصر كانت بينها
أهم مراكز اللقاءات الحضارية، بل من
أهم البلاد اليونانية ثقافة وإشعاعاً. وبقيت
على هذه الأهمية عدة قرون متتابعة.
وكان قصد الإسكندر منها - كما كان من
غيرها - إدخال الثقافة الهلينية إلى مصر.
بل إلى أوسع من مصر، إلى الشرق
البعيد.

وبالحقيقة لقد أثبتت «الهلينية» فيه
ومهرته بطابع لها لا يمحى، كما أنها فى
تفاعلها معه أخذت منه ما أسبغ عليها
صبغة خاصة. إذ إن لغة الهلينية، إثر
لقاتها مع إيران والهند، تحولت عن
كلاسيكيتها الصافية إلى بساطة «العامة»
(وهى اليونانية المسماة koiné).

كما أن الفن الإغريقى تخطى عن
مقاييس الاعتدال والانجمام نازعاً إلى
الغلو الشرقى فى التزيين وفى الضخامة،
وهذا ما تظهره المنشآت الجديدة فى
«الأقصر وفى بابل».

إن أول من جعل من الإسكندرية
عاصمة الحضارة الهلينية - وسبقى على
هذا، حتى نهاية البطالمة - هو بطليموس
الأول سوتر (Ptolemy I^{er} Soter)،
(er) مؤسس سلالة اللاغيين (Lagides)،
الذى تملك، بعد وفاة الإسكندر، على
مصر وسوريا وآسيا الصغرى (٢٨٣ -

٢٣٥ ق.م]، فاهتم بحركة البناء في الإسكندرية، فأصبحت مقر البلاط الملكي، وملكة التجارة العالمية. كما أنها أصبحت مركز الثقافة اليونانية بسبب المؤسسات العديدة المثل، المتحف والمكتبة، اللذين أنشأهما بطليموس فيذب إليهما الفلكانيون والعلماء، رياضيين وفلكيين وأطباء.

على أن نهاية سلالة اللاغيين كانت نعمة بسبب ضئف ملوكهم وانتهيارهم الأخلاقي، ولا مبالاتهم بالشعب المصري، وتصفهم الإلادى، وثورات السكان والمرترقة، ومؤامرات الموظفين. كل هذا قاده إلى حتفه.

لقد كانت الإسكندرية غاصمتهم لا تزال وحدها خارجة على النظام الذى أحكمه الفتح الرومانى فى الشرق.

وإذا نشب الخلاف فيها بين كليوباترا الشهيرة ويطليموس الثالث عشر، الذى هو أخوها وزوجها، نزل يوليوس قيصر، مؤسس الإمبراطورية الرومانية، فى الإسكندرية على رأس قوة مؤلفة من أربعة آلاف رجل وحاصر حتى القصر حصاراً طويلاً، وهو الذى أحرق الأسطول الإسكندرى، خشية على مراكبه الراسية فى الميناء الأكبر، دون نظارة، فامتد الحريق إلى المكتبة فالتهمها، وكانت تعدّ حوالى خمسين ألف كتاب.

وقد أعاد أنطون، الرجل الأول بعد مصرع قيصر، بناء المكتبة وزودها بمائتى ألف كتاب، وافتتحت الإسكندرية من جديد فى العهد الرومانى، فشهدت فيها المبانى واتسعت صلاتها التجارية حتى الهند، وبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة وأصبحت المدينة الثانية، بعد رومة، من حيث الأهمية فى الإمبراطورية الرومانية.

وللإسكندرية شأن عظيم فى تاريخ الفكر المسيحى. فالكيسة المصرية تعتقد أن القديس مرقس، وهو أحد الرسل



وصاحب الإنجيل المعروف باسمه، هو مؤسس كنيسة الإسكندرية. وهى تحرص على أن يلقب خلفاؤه من بعده حتى اليوم بلقب:

«بابا الإسكندرية وسائر الكرازة المرقسية».

ومما لا شك فيه هو أن المسيحية انتشرت بسرعة منذ بدايات عهدها فى الإسكندرية، وهى أكبر ميناء شرقى فى البحر المتوسط، ومنه فى جميع أرجاء وادى النيل.

وأن ما يشهد ذلك هو الآثار الأدبية التى عثر عليها فى مصر مكتوبة على ورق البردى، وفيها الدليل على أن المسيحية كانت قد تنفخت فى مصر الوسطى ومصر العليا منذ القرن الثانى، هذا بالرغم مما لاقى الدين الجديد، على أيدى أباطرة الرومان، من منصف التحذير والتنكيل، لأن أصحابه كانوا يستنكرون ممارسة شعائر الديانة الرسمية، فلا يقبلون الأباطرة ولا يشتركون فى عبادة روما الوثنية.

وأن أشهر اضطهاد أصابهم هو ذلك الذى شنه عليهم الإمبراطور ديوكسيانوس (٣٠٣ - ٣٠٤) وكان يقصد إبادةهم جميعاً. فحمرت على يده الكنائس وأحرقت الكتب المقدسة واستشهد الآلاف

من المؤمنين. ولا تزال الكنيسة القبطية فى مصر تؤرخ أحداث الأزمات بزمين ديوكسيانوس، أو «زمن الشهداء».

ولكن المسيحية لم تمت، بل شاء الله لها أن تحيا وتتصير ويزدهر إيمانها. فإذا كانت الوثائق البردية تصور لنا مصر، عام ٢٠٠، بلقاً وثقياً فى جوهره فإننا نرى بعد جيل واحد من ذلك العين بلقاً يدين معظم أهله بالمسيحية. وأن السبب الأول لهذا التحول، على ما يرتكى أحد مؤرخى هذه الفترة، كان «مرسوم ميلانو» الشهير الذى أصدره الإمبراطور قسطنطين عام ٣١٣، وفيه يقر مبدأ التسامح الدينى، فوقف الاضطهاد عن الكنيسة، مما أدى، بعد عشرة أعوام فقط من إعلان المرسوم، إلى أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية الوحيدة فى جميع أنحاء الإمبراطورية، والإسكندرية، كما قلنا، ثانى مدنها.

كانت اللغة اليونانية سائدة منذ البداية، فى الإسكندرية، إذ إنها كانت لغة الدولة الرسمية. فلا عجب إذا كان الإمبراطور / أفسطوس خاطب سكان المدينة، حين زارها، باليونانية. ولكن يجب ألا يغرب عن ذهننا أن اللغة التى كان الشعب يستعملها فى حياته اليومية، هى المصرية، أى لغته القديمة. هذه كانت تكتب أصلاً بالخط «الديموطيقى» الذى تمخض فيه حروف محدده من الحروف الهيروغليفية، مما كان يحكم على اللغة بالجمود ويمنعها من مسايرة التطور والتجديد.

ولكن الأقباط عرّفوا أن يتخذوا الحروف اليونانية.. فكتبوا لغتهم بها. وهكذا ولدت اللغة القبطية فى القرن الثالث الميلادى، وترعرعت وشبت وأنجبت أدباً حياً، ونقلت الأنجيل إلى المصريين بلغتهم وبشوب مصرى، فتأملت العقيدة فى الشعب.. ورست فى أعماق إحساساته.

٢- موعد العلماء والفلاسفة :

هذا في الشأن الديني. أما فيما يخص الحياة الثقافية في العهد الروماني، فقد بقيت المكتبة الشهيرة ودار الحكمة (المتحف) ركيزتي الثقافة. فدار الحكمة، التي لم تكن جامعة تدريس، بل أشبه بأكاديمية للأبحاث، يعمل فيها علماء وفلاسفة على حساب الدولة، ويجدون بجوارها المكتبة الحافلة بالمؤلفات المختلفة.

وهكذا ظلت الإسكندرية تسهم في عمل الحضارة، على غرار ما فعلته في العهد البطلمي، ولكن مع فارق مهم: وهو أن المدرسة في العصر القديم أنجبت عدداً من كبار الشعراء أمثال: كاليبماخوس (Collimaque) حوالي (٣٣٥ - ٣١٠ ق.م) وفيوكريس (Théocrite) حوالي (٣١٥ - ٢٥٠ ق.م) وعدداً من كبار العلماء أمثال: أفقليدس (Euclide) القرن الثالث ق.م وإيراتوسينوس (Eratosthène) حوالي (٢٧٥ - ١٩٥ ق.م) وأرخميدس (Archimède) (٢٨٧ - ٢١٢ ق.م) وغيرهم من أهل الرياضة الحسابية والفلكية والهندسة التي قمت لها الإسكندرية، في أبهى أيامها، خير العطاءات، منذ القرن الثالث والثاني قبل المسيح إلى القرن الخامس بعد.

أما إسكندرية العهد الروماني فلم تحافظ على تقدمها في المجال الأدبي، ولكنها في مجال العلم قد واصلت الجهود الذي كان يبذل في العصر السابق.

وأشهر علماء هذه الفترة هو بطليموس (Ptolomé) من أبناء مصر في القرن الثاني الميلادي، وقد ترجمت موسوعته الفلكية إلى العربية تحت اسم: «المجسطي» (Almageste) كما أن كتابه في الجغرافيا احتفظ بالصدارة الكاملة حتى نهاية القرون الوسطى. وهناك غيره عدد من الأطباء ستحدث عنهم بعد أن نكون أشرنا إلى تيار آخر على غاية من الأهمية

هو ذلك التيار الفلسفي المزودج الذي يمثل بامونيوس سكاس (Ammonius Saccas) (القرن الثالث) مؤسس الأفلاطونية المستحدثة Néo plat-onisme ويتلمذه أفلوطين (Plotin) (حوالي ٢٧٠ - ٢٠٣)، ومن قبلهما فيلون (Philon) (١٤ ق.م - ٥٤ ب.م) السدني ينتمي إلى الجماعة اليهودية المغامرة المنفتحة على النظريات الفلسفية المهمة المصحلة في الإسكندرية، والذي شرح التوراة، إنطلاقاً من ترجمتها اليونانية المعروفة بالمسيحية (Septante)، شرحاً يخطي الحرف إلى الرمز، حاشراً فيه آراء الفيثاغورية في الأعداد والرقاقية في الأخلاق وأفلاطون وأرسطو في الكون.

ومن جهة أخرى هناك نخبة من المفكرين المسيحيين الذين تأثروا بهذا النسق الرمزي في التفسير الروحاني، وهم الذين تعاقبوا على مدرسة الإسكندرية المعروفة برمزيتها الروحانية الخاصة بالتراث اللاهوتي للعريق الذي خلفه للكنيسة أولئك القديسون على إدارتها، وأولهم بانتونيوس (Panténe) عام ١٨٠، ومن بعده تلميذه أقليمطس (Clément) (حوالي ٢١١ - ١٥٠) الذي خلفه تلميذه الشهير أوريجانوس (Origene) [١٨٦/٥١ - ٢٥٥/٤]. ثم جاء بعدهم أنطاسيوس وغوريلوس الإسكندري، وليس لنا هنا أن نعرض نظرياتهم في اللاهوت والفلسفة وعلم التفسير.

وبينما كانت الدراسات العلمية تتابع ولو على خفوت في القرون التالية، فتحفظ لنا روائع اليونان القدماء ويسام في شرحها وإغفالها، كانت هناك في القرن الخامس مدرسة فلسفية بالمعنى الحضري تضاهي مدرسة أثينا.

يخبر المؤرخون أنه كان يوجد، بجانب متحف الإسكندرية الذي أُنشئ في القرن الثالث الميلادي، مدارس لها

مكتباتها، مثل «القصيرية» (Cesareum) التي نهبت سنة ٣٦٦، حين أُحيل هذا المعبد إلى كنيسة. وقد حدث مثل هذا لمكتبة «السمرا» بوم (Serapeum) التي أُلقت سنة ٣٩١. وبالرغم من ذلك فقد استمرت المدارس والمكتبات الخاصة، بشهادة أوراق البردي البيزنطية التي تحدثنا عن متاحف الدراسة والأكاديميات في الإسكندرية. كما أن أحد المتفجرين ترك لنا وصفاً لحياة الطلاب في المدارس العليا هناك: إنه زكريا المدرس (Zacharie le Rhéteur) الذي اختبر الحياة الدراسية، حوالي نهاية القرن الخامس، هو وصديقه سايروس (Sévère d'Antioche) الذي أصبح فيما بعد بطريرك أنطاكية. وكان هذان الصديقان ينتسبان إلى جماعة «محبى الاجتهاد» (Philoponoi) التي كانت تقوم بحماية أعضائها من الطلاب الوثنيين.

إن مجرد ذكر أسماء الأساتذة والتلاميذ العديدين الشهيرين الذين أنجبتهم الإسكندرية يبين بوضوح نشاط مدرستها. لقد كان هناك أمونيوس (Ammonius) بن هرمسياس (Hermias)، تلميذ أفرقليس، أحد الأفلاطونيين المحدثين، رئيساً لإحدى مدارس الفلسفة وشارحاً لبعض محاورات أفلاطون وتفسير أرسطو، ذا شهرة واسعة، في بداية القرن السادس. والعرب يعرفونه وأسماء تلاميذه: سنبليقيوس (Simplicius) ودمسقيوس (Damascius) والألفيدورس الأصغر (Olympiodoros) (مولود حوالي ٥٠٠) الذي وصلت لنا منه الآثار الفلسفية الأكثر عدداً: ثلاثة شروح على أفلاطون والثان على أرسطو. وقد اشتهر أيضاً في النصف الأول من القرن السادس بحبى النحو (Jean Philoponos) كما يسميه العرب وقد أحصى بين التفرعين مع أنه كتب في

علم اللاهوت والفلسفة. وأهم من خلفه في الجهد الفلسفي كان أسطفن الإسكندراني، فيلسوف بلاط الإمبراطور هرقل، وأشهر المعلمين في الإسكندرية. ومن تخرج منها في القرن السادس في الطب والفلسفة يوحنا الأمامي (Jean d'Apmeé) وأطيموس (Aetios) الأمدي، وسرجس الرأس عيني (الرشعيني) الذي يقول ابن العبري فيه إنه أول من أوقف السريان على آثار أرسطو بسبب ترجمته لها وشرحه عليها. وكان لكتب هؤلاء تأثير كبير على دراسات العرب الأولى.

من المؤكد أن مدرسة الإسكندرية ظلت قائمة لزمان طويل بعد أن أغلق الإمبراطور / يوستينيانوس مدرسة أثينا عام ٥٢٩، مما أهل الإسكندرانيين للمساهمة في نقل التراث اليوناني إلى العرب الذين فتحوا مصر سنة ٦٤٠. وبالفعل فقد احتفظ هؤلاء بتقسيم الساعات المسبوبة إلى أفليدوس الذي يربطه التقليد الأثيني ببدائيات مدرسة الإسكندرية. كما أنهم احتفظوا بالجمموعة الصغيرة لعلم الفلك، التي تحتوي على مقالات الفلكيين عن النجالي والنهارات وطلوع وغروب النجوم، والمسافات بين الشمس والقمر. ثم إن الفلكيين العرب اعتمدوا الحسابات الفلكية المبينة على نظام عددي ستيلى، المتخذة من الترتيب البابلي، وقد وصلت إليهم عن طريق الإسكندرية رجوعاً إلى الفلكيين إيسقاروس (Hypsicles) وخاصة أبرخس (Hipparchus).

غير أن المصادر التي تثبت هذا التأثير الإسكندراني غير متوفرة لدينا، مما يجعلنا لا نعرف إلا القليل عن حالة الحياة العقلية في الإسكندرية بعد القرن الخامس الميلادي. فليس بين يدينا سوى بضع وثائق في مجموعة «كتب الآباء الشرقيين»، وفيما يشبهها، تشير إلى وجود



أكاديميات ومدارس في الإسكندرية في القرن السادس الميلادي.

٣. شهادات العرب للإسكندرية:

إنما لحسن الحظ أن بعض المؤرخين والفلاسفة والأطباء العرب ألفوا كتباً في تاريخ الحكماء زودتنا بمعلومات قيمة. وهذه الكتب، وإن كانت ترقى بمعظمها إلى أواخر القرن التاسع والعاشر الميلاديين، غير أنها تسمى معلوماتها من الكتب اليونانية التي قام بترجمتها في العصر الإسلامي الأول مترجمون سريان، فجمعت فيها أقوال وأخبار الفلاسفة والأطباء والرياضيين الأقدمين عرضت في شكل نواذر وأقاصيص.

أجل لم يفدنا المؤرخون العرب الأولون شيئاً عن الإسكندرية. فلا خبر عن مدرستها عند اليعقوبى (توفى سنة ٧٨٤ هـ / ٨٩٧م) على الرغم من بعض المقدمات، في مؤلفه «كتاب البلدان»، عن الكتاب اليونانيين. كما أن لا إشارة لمدرسة الإسكندرية في تاريخ ابن عبدالحكم (توفى سنة ٢٥٧ هـ / ٨٧١م) الذي يتكلم عن فتح العرب لمصر. والقول عينه يطبق على المسعودى (توفى سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٦م) مع أن له في كتاب الجغرافيا الذي ألفه أخباراً في تاريخ العلوم.

على أن كتاب الفهرست الذي جمع فيه ابن النديم (٣٢٥ هـ / ٩٣٦م ٣٨٥ هـ / ٩٩٥) أخبار الفلاسفة والعلوم القديمة والكتب المصنفة في ذلك، يذكر أسماء وتصانيف العلماء الإسكندرانيين: منهم (الكيميائيون والصنعيون) «صنعة الذهب والفضة من غير معادنها»، مثل أسطافس الرومي الذي له ألف كتاب ورسالة: «وكتب هؤلاء القوم مبنية على الرمز والإلفاز»، «الفهرست ص ٢٥٣». ومنهم الحكماء مثل مارية القبطية وكتبها: «مع الحكماء الذين اجتمعوا إليها».

ويحيى النحوى في تفسيره: «الكلام مع السماع الطبيعى»، وتلخيص الإسكندرانيين: «لكتاب النفس، في نحو مائة ورقة... الخ».

وأكد ابن النديم أن حركة تدريس الطب بالإسكندرية على أيدي الأساتذة المسيحيين كانت ناشطة قوية قبل دخول العرب، فذكر: «أسماء جماعة من الأطباء القدماء مثقلين ولا يعرف أوقاتهم على صحة: أسطفن، جاسيوس (Gésios)، أنقيلالوس (Nicolous Alexondrinus)، مارينوس (Marinus)، هؤلاء إسكندرانيون، وهم ممن فسر كتب جالينوس وجمعها وأخصرها وأبرز القول فيها، وسما كتب جالينوس الستة عشر».

ويقول ابن القفطى في كتابه «تاريخ الحكماء»: «والإسكندرانيون هم الذين رتبوا بالإسكندرية دار العلم ومجالس الدرس الطبى. وكانوا يقرءون كتب جالينوس ويرتبونها مع هذا الشكل الذي تقرأ عليه اليوم. وعملوا لها تفاسير وجوامع اختصر معانيها ويسهل على القارئ حفظها وحملها في الأسفار. فأولهم، على ما رتبته إسحق بن حنين، أسطفن الإسكندراني ثم جاسيوس وإنقيلالوس ومارينوس. فهؤلاء الأربعة عمدة الأطباء الإسكندرانيين، وهم الذين عملوا

«الجوامع والتفاسير». هذا في الطب، أما في الفلسفة فقد ذكر ابن أبي أصيبعة في كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» «بيروت ١٩٦٥». نصا من كتاب مفقود للفارابي (في ظهور الفلسفة) قال فيه: «إن أمر الفلسفة اشتهر في أيام ملوك اليونانيين، وبعد وفاة أرسطوطاليس، بالإسكندرية، إلى آخر أيام المرأة (كليوباترا) .. ولما غلبها أغوستوس الملك الروماني، ونظر في خزائن الكتب فرجد نسخًا لكتب أرسطوطاليس

وإشروحات الفلسفة عليها، فاستنسخها وحملها معه إلى رومية. وهكذا قصار التعليم في موضعين، وجرى الأمر على ذلك، إلى أن جاءت النصرانية فبطل التعليم من رومية وبقي بالإسكندرية، إلى أن نظر ملك النصرانية في ذلك واجتمعت الأساقفة وتشاوروا فيما ترك من هذا التعليم وما يبطل. فرأوا أن يعلم في كتب المنطق إلى آخر الأغكال الوجودية، ولا يعلم ما بعده لأنهم رأوا في ذلك ضررًا على النصرانية، وأن فيما أطلقوا

تعليمه ما يستعان به على نصرته دينهم. فبقى الظاهر من التعليم هذا المقدار. وما ينظر فيه مستورا، إلى أن كان الإسلام بعده بمدة طويلة، فانتقل التعليم من الإسكندرية إلى أنطاكية، فيبدو بالتأكيد، في الأخبار التي أوردها المؤلفون، أنه كان ثمة بالإسكندرية، قبل دخول الإسلام إليها، مدرسة أو أكثر. وفي أخبار يحيى النحوى أنه:

«عاش إلى أن فتحت مصر على يد عمرو بن العاص، فدخل إليه وأكرمه ورأى له موضعا، ■

قا

١ - ١ مدخل :

مفتاح حياته أنه رجل دين مسيحي ، يعيش في حضارة عربية إسلامية ، لذا لم يقف عدد حدود اللاهوت المسيحي وإنما جعل من هذا العلم عنواناً للحضارة التي ينتسب إليها ويفخر بها، تلك هي الحضارة الإسلامية التي تمثل عقلائية الأمة التي أنجبت.. «جورج قنوتى» ..

تلك هي كلمة المفكر الإسلامي محمد عماره عن الراهب الدومنيكانى الأب/ «جورج شحاته قنوتى» ،

إنه الإنسان .. للعالم .. المفكر .. الذى بذل حياته فى سبيل العلم والحضارة، ومن أجل خدمة المثل العليا والقيم الإنسانية السامية .. إنه الراهب المصرى الشهير الذى تخصص فى الفلسفة الإسلامية حتى أنه صار من أبرز علماء العالم فى الحضارة العربية الإسلامية ...

١ - ٢ نشأته .. دراساته :

ولد «جورج قنوتى» فى ٦ يونيو ١٩٠٥ بمدينة الإسكندرية، وقد كان والده «شحاته بك قنوتى» يعمل موظفاً فى مصلحة الموانئ، وقد أنجبه والده أشهر مدارس الإسكندرية فى ذلك الوقت وهى مدرسة الفرير ولتى أتم بها دراسته الأولية والثانوية .

بعد ذلك التحق (بكلية الصيدلة - جامعة اليسوعيين - بيروت) وقد درس فيها لمدة أربع سنوات حتى حصل على دبلومة الصيدلة فى ٢٦ يونيو ١٩٢٦، ولم يكتب بها بل أكمل مسيرته فى (جامعة لوزن - فرنسا) وحصل منها على دبلومة الهندسة للكيميائية فى يوليو ١٩٢٨ .

ثم رجع «قنوتى» إلى الإسكندرية ، وظل يعمل فى معمل تحاليل هناك لمدة

ست سنوات وذلك حتى عام ١٩٣٤ ، وفى العام نفسه التحق برهبانية الآباء الدومنيكان فى باريس، وذلك حتى أصبح كاهناً فى عام ١٩٣٩ .

ومن خلال هذا الاتجاه درس علم اللاهوت ، وحصل على الدكتوراه فيه سنة ١٩٤١ من جامعة الدومنيكان، وفى عام ١٩٤٢ سافر إلى الجزائر، والتحق بمعهد الدراسات الشرقية ، ومن هناك حصل على «ليسانس الآداب» - قسم اللغة العربية، وذلك سنة ١٩٤٤ ، وقد عاد إلى القاهرة فى العام نفسه، وعقب عودته التحق بالمعهد الفرنسى للأثار الشرقية. ولشغف «قنوتى» الشديد بالدراسة والعلم وعلى وجه الخصوص الفلسفة .. سافر إلى كندا ، وحصل من هناك على للدكتوراه فيها سنة ١٩٥٠ من جامعة مونتريال .

١ - ٣ حياته .. درجاته العلمية :

لقد جمع «قنوتى» بين الثقافة العلمية والثقافة الفكرية الأدبية - الميثاقية .. مما جعله يحتل فى تاريخنا الفكرى والثقافى والعلمى مكانة رفيعة جداً . فقد كان «قنوتى» يجيد عدداً من اللغات مثل «اللاتينية - الفرنسية - الإنجليزية - الألمانية - الإيطالية - الفارسية بالإضافة إلى العربية بحوها وبلاغتها ... ويسبب إدراكه لكل هذه اللغات جعلت أمامه طريق المعرفة ممهداً لقراءة أمهات الكتب والمعاجم فى شتى المجالات الثقافية . ورغم ذلك فقد كان بعيداً عن الأضواء والشهرة .. إلا أنه كان يحظى بشهرة واسعة فى العالم كله ، خصوصاً أنه كان على صلة مستمرة بأكبر الهيئات العلمية العالمية الكبرى ، ولذلك كان حريصاً على حضور المؤتمرات التى تقيمها تلك الهيئات فى كل مدن العالم وأرجائه ، مما جعله يعطى حقاً أعظم

- جامعة سان تومازو- روما سنة ١٩٦٤ (عن الفلسفة العربية والإسلامية).

- طولوز- تونس- المغرب- الرباط .. سنة ١٩٦٤ .

- جامعة أوريانينا سنة ١٩٦٤ (عن الإسلاميات).

وقد شارك «قنواتي» في كثير من البعثات والمؤتمرات العلمية والأكاديمية ، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر الآتي:

- أرسلته الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية) في بعثة علمية لتحقيق مسخوطات ابن سينا سنة ١٩٤٩ لاسطنبول - تركيا ، وأيضاً في بعثتها ل طهران - إيران سنة ١٩٥٤ .

- شارك في مؤتمر المستشرقين بتركيا سنة ٥١ ، وفي ميونيخ سنة ١٩٥٧ .

- في مارس ١٩٥٣ شارك في مؤتمر بن سينا في بغداد ، وفي أبريل من العام نفسه شارك في مؤتمر الصداقة العرب بالقاهرة .

- شارك في مؤتمر تاريخ الأديان بروما سنة ١٩٥٥ .

- وفي سنة ١٩٥٨ حضر أيام الدراسات بقرية توميلين براكش - المغرب ، وشارك أيضاً في المؤتمر الدولي لفلسفة القرون الوسطى بلوقان - بلجيكا ، وفي العام نفسه أيضاً شارك في المؤتمر الفلسفي الدولي ببغيسيا .

- شارك في المصادقات الفلسفية العربية سنة ١٩٥٩ في كولونيا - ألمانيا .

- وفي فبراير ١٩٦٠ شارك في مؤتمر الصداقة العرب .

- وفي مايو ١٩٦١ شارك في محادثات للفلاسفة العرب في بيروت .



صورة مشرفة لمصر أمام العالم كله . ولم يكن «قنواتي» صاحب دكتوراه في اللاهوت والفلسفة فقط ، ولكن بسبب شهرته الأكاديمية منحه جامعة لوقان في بلجيكا سنة ١٩٧٧ ، وأيضاً الجامعة الكاثوليكية في واشنطن سنة ١٩٨٤ درجة (الدكتوراه الفخرية) ...

ولا يغوتنا أن نذكر هنا أن «الأب «قنواتي» هو أول كاتب عربي ينال جائزة نادي البحر الأبيض المتوسط في باليرمو بإيطاليا سنة ١٩٨٣ .

٢ - ١ مكانته الدولية :

وقد كان «قنواتي» يملك مكانة فكرية رفيعة مما أهله ليكون عضواً في عدد من الهيئات الكبرى المحلية والدولية ، وعلى سبيل المثال لا الحصر :

- لجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة .

- لجنة «ابن سينا» .

- اللجنة الدولية لنشر مؤلفات «ابن رشد» .

- المجمع العلمي المصري .

- المجمع الدولي للدراسات الفلسفية بجامعة لوقان - بلجيكا .

- المجلس البابوي للحوار المسيحي - الإسلامي .

ولقد اكتسب «قنواتي» شهرة فلسفية دولية دعمتها نشاطاته المتواصلة ، ومشاركته المستمرة في المؤتمرات العالمية ، مما جعل له علاقات وطيدة بأبرز المشتغلين بالفلسفة في جامعات أوروبا وأمريكا .

وقد توج «قنواتي» عضويته الدولية بأن أصبح أول عربي يُعين في (المجلس البابوي للثقافة) ، والذي يضم ٢٢ مفكراً من كبار مفكري العالم ...

فإنه حقاً أستاذ من جيل كبار الأساتذة ، وفيلسوف من جيل كبار الفلاسفة ...

٢ - ٢ إسهاماته الفكرية : ١

وبسبب مكانة «قنواتي» العلمية نجد أن كثيراً من أشهر جامعات العالم قد طلبت إليه إحاضار فيها ، فقد عمل كأستاذ زائر في :

- جامعة مونتريال - كندا سنة ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ١٩٥٦ .

- جامعة لوقان - بلجيكا سنة ١٩٥٩ .

- معهد الدراسات العليا العربية - القاهرة سنة ١٩٦١ .

-- وقد قام بتدريس تاريخ الصبغة في جامعة الإسكندرية منذ سنة ١٩٥٥ .

بالإضافة إلى ذلك فقد أعطى محاضرات في كثير من الجامعات والمعاهد الكبرى .. مثل :

- المعهد العربي الأسباني والمعهد المصري بمصر في فبراير ٥٦ أكتوبر ٥٧ .

- معهد الدراسات الإسلامية بمغريد - أسبانيا سنة ١٩٦٢ .

٣-٢ خاتمة :

وهكذا رحل «قنوتى» بعد رحلة فكرية وثقافية طويلة... تبدأ يومياً من السادسة صباحاً وتنتهى تقريباً فى الثانية بعد منتصف الليل ، ويعد حوالى أربع عشرة ساعة من البحث والتأمل .. والقراءة والكتابة رحلة قاربت السنتين عاماً ، ويعد حياة شارفت على التسعين عاماً ، وذلك يوم الجمعة ١٩٩٤/١/٢٨ .. ذلك العالم الجليل والفكر البارز الذى امتزج بقراب وطنه وعرويته .. ورفع اسم مصر عالياً فى شتى أنحاء العالم ..

فقد كان حقاً صاحب ضمير إنسانى يقظ ، مما جعله شعلة نشاط ومركز إشعاع ثقافى وعلمى لمن هم حوله ، حقاً تحية احترام .. تقدير .. حب واعتزاز .. للرابب الدومينيكانى .. المصرى العربى .. الفيلسوف .. الأب الدكتور / جورج شحاته قنوتى .

عاشق الحضارة الإسلامية ■

مؤلفات جورج قنوتى :

ساهم الأب / قنوتى بكثير من الكتب للمكتبة العربية ، وقد ساعد على إثراء الفكر العربى بكثير من إسهاماته الفكرية ..

وهاى قائمة بمؤلفاته مقسمة على أساس ثلاث مجموعات متنوعة ، ومزينة حسب صدورها تاريخياً ..

* المجموعة الأولى : (الكتب الخاصة به) .

١- «الكنيسة الحية» دار السلام - القاهرة ١٩٤٩ ، ٧٢ ص .

٢- مؤلفات ابن سينا «قائمة بيبليوجرافية» دار المعارف - القاهرة ١٩٥٠ ، ٥٠ ص عربى - ٢٠ ص فرنسى ، (بتكليف من الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية) .

أعلام الفلسفة الإسلامية، فضلاً عن قضايا هذه الفلسفة ومساائلها الميتافيزيقية وعلاقتها الفكرية والتاريخية بالفلسفة القديمة من جهة والفلسفة المسيحية الوسيطة من جهة أخرى .

٣ - ١ إسهاماته الفكرية ٢ :

شارك «قنوتى» فى تأسيس معهد الدراسات للشرقية بالقاهرة ، وأصبح مديراً له منذ عام ١٩٥٣ ، وأيضاً رئيس تحرير مجلته MIDEO وذلك حتى رحيله . وعلى مر حياته الفكرية شارك كبار المستشرقين المتخصصين فى الفلسفة ، ومن أهمهم لويس جاردييه فى المجلد الضخم : (فلسفة الفكر الدينى بين المسيحية والإسلام) .

وقد شارك أيضاً لويس جاردييه فى إعداد كتاب : (المدخل إلى علم الكلام) .

وذلك بالإضافة إلى مشاركته فى معجم (أعلام الفكر الإنسانى) ، وأيضاً فى مجلد عن يوسف كرم . وأيضاً فى الكتاب الأخير الذى صدر عن المجلس الأعلى للثقافة عن ابن رشد .

وهكذا ساهم «قنوتى» فى كثير من المجالات العلمية سواء بمشاركته الدائمة للمؤتمرات الفلسفية على مستوى العالم ، أو من خلال مناقشته للرسائل العلمية الفلسفية فى الجامعات المصرية .

وقد رحل عنا «قنوتى» وتوقفت مسيرته العلمية والأكاديمية بعد محصلة مرهقة (ثقافية) بلغت ستة وعشرين كتاباً وثمانين مقالة باللغتين لنفسهما وفى مجلات مختلفة محلية وعالمية... على أن الموت لم يمهله أن ينتهى من عمله الموسوعى الضخم : (علم الكلام)

وهو مجلد كبير بلغ عدد صفحاته حوالى ٨٠٠ صفحة تقريباً كما أنه شارك فى دائرة المعارف اللاهوتية واللى سوف تصدر قريباً فى إيطاليا .

.. وفى مايو ١٩٦٢ شارك فى مؤتمرات الدراسات العربية بقرطبة - أسبانيا ، وألقى أيضاً عدداً من المحاضرات فى معهد الدراسات الإسلامية بالعاصمة الأسبانية مدريد .

.. وفى يوليو ١٩٦٤ شارك فى مؤتمرات فلسفة القرن الوسطى .

٢ - ٣ آراؤه .. أفكاره :

كان «قنوتى» يعتز جداً بأفكار أرسطو، وكان يفضل ابن سينا على ابن رشد فى بعض جوانب علمه وفلسفته، وكان يرى أن أبأ بكر الرازى أفضل أطباء العرب على وجه الإطلاق وكان يعتبره أعظم من ابن سينا ...

لذلك فقد اهتم «قنوتى» بأرسطو وأبأ بكر الرازى من العصر القديم، وبالقدس توما الأكوينى فى العصر الوسيط، وبالدكتور طه حسين وبسوف كرم حديثاً.

ولقد دعا «قنوتى» للحوار بين الأديان واهتم بالتفوية على أن الحضارة الإسلامية العظيمة تنسج للجميع وقد قامت على المسلمين والمسيحيين معاً.

وقد دعا أيضاً إلى الانفتاح على الثقافات الأخرى والاستفادة من أفكار الآخرين ... فقد كان يمتدح أن الفوز الفكرى أسطورة كبرى !!! وأنه لا

خوف على ثقافتنا العربية ولا على شخصيتنا العربية من الانفتاح على ثقافات الأمم الأخرى.

وبسبب شغف «قنوتى» للكبير بالفلسفة .. قدم لها الكثير والكثير وعلى الأخص للفلسفة المقارنة، وقد كان يهتم اهتماماً خاصاً بالحضارة الإسلامية وفلسفتها ، لذلك فقد شارك بكتابة الفصل الخاص بالفلسفة وعلم الكلام والتصوف فى موسوعة تراث الإسلام .

وقد شارك أيضاً فى أبحاث وتحقيقات حول الفارابى والسهورردى وغيرهما من

the critical text established by G.CANAWATI. and S. ZAYED (Al-Ahram Center for Scientific Translations, Cairo 1986, 500 p.)

* المجموعة الثالثة : (بالاشتراك مع آخرين في تحقيق النصوص القديمة).

٢١- «ابن سينا (الشفاء، المنطق)»، بالتعاون مع محمود الخضيري وفؤاد الأهواني، القاهرة ١٩٥٢، ٤٥٠ ص
فرنسي، ٧٧ ص مقدمات، ١٥٩ ص نصوص النقد، تمهيد طه حسين، مقدمة عامة للشفاء ومقدمة خاصة للمدخل د / إبراهيم مذكور .

٢٢- «ابن سينا (الشفاء، المنطق) ٢»، بالتعاون مع محمود الخضيري وفؤاد الأهواني وسيد زايد، القاهرة ١٩٥٩، ٢٨٠ ص، مقدمة / إبراهيم مذكور .

٢٣- «ابن سينا (الشفاء، الإلهيات)»، بالتعاون مع سيد زايد، القاهرة ١٩٦٠، ٢٨٥ ص، طبعه نقدية للنص العربي، مقدمة إبراهيم مذكور .

٢٤- «المظني في أبواب التوحيد والعزل - الإزالة»، بالتعاون مع عبد الجبار، وزارة الثقافة والإرشاد - القاهرة ١٩٦٣، ٣٥٦ ص .

٢٥- «ابن سينا (الشفاء، الطبقات) كتاب النفس»، طبعة نقدية للنص العربي، بالتعاون مع سيد زايد، القاهرة ١٩٧٥، ٣١٩ ص .

٢٦- «رسائل ابن رشد الطبية»، بالتعاون مع سيد زايد، هيئة الكتاب - القاهرة ١٩٨٧، ٤٥٣ ص .

* من المصادر البعيدة التي ساعدتنا كثيراً في عمل هذا الملف وتولى الأخص البيوجرافيا، والنصوص التي لم تنشر من قبل هو الأب .

ريچيس مولون.

مدير معهد الدراسات الشرقية بمدريد / قرواني، والذي لولاه لما حصلنا على جزء كبير من تلك المادة .. فلا تكفى الكلمات للشكر ولتقاء على جهد ..

الفلسفية . باريس ١٩٤٨، ٥٤٣ ص فرنسي .

للترجمة العربية : «فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية»، في ٣ أجزاء، دار العلم للملايين - بيروت ٦٧-١٩٦٩، ٣٨٠ ص، ٤٤٨ ص، ٤٦٤ ص .

قام بها : فريد جبر وصحبي صالح .

١٤- «بيولوجيا المؤلفات العربية المطبوعة في مصر ٤٢-٤٣-٤٤»، بالاشتراك مع تشارلز كوفيتز، القاهرة ١٩٤٩، ٦١٣ ص، ٤٧ ص .

١٥- «كتاب (النفس) لـ أرسطوطاليس»، بالاشتراك مع فؤاد الأهواني، (ترجمة ومقدمة وملاحظات)، القاهرة ١٩٤٩، ١٦١ ص .

١٦- «هجرة التوحيد (شعر)»، بالاشتراك مع لويس جارييه، تونس ١٩٥٠، ٦٦٩ ص .

١٧- «كتالوج الكتب العربية المطبوعة»، القاهرة ١٩٦٠، ١٤٤ ص .

١٨- (avec LOUIS GARDET) : *Mis-tica islamica. Aspetti e tendenze. Esperienze e tecnica* (trad. dal francese di N. M. LOSS. Coll. «Storia e Scienza delle Religioni». Società Editrice Internazionale, Torino 1960, XII + 325p.)

١٨- Original français de la version italienne ci-dessus: *Mystique musulmane. Aspects et tendances. Expériences et techniques* (Tome VIII de la Coll. «Études Musulmanes». Librairie Philosophique J. Vrin, Paris 1961, 310 pages)

١٩- «تاريخ الصيدلة عند العرب»، بالاشتراك مع حفني صابر وعبد الحليم مختصر، اليونيسكو - القاهرة ١٩٧٦، ٢٠١ ص .

٢٠- (avec P. GHALIOUNGUI) : *Med-ical Manuscripts of Averroes at El Escorial*, translated with an Introduction and Commentaries from

٣- الترجمة الفرنسية لـ «De causis» المجمع الطبى لدراسات القرون الوسطى، مونتريال ١٩٥٢ .

٤- «ابن سينا، الشفاء، الميتافيزيقا (الإلهيات)»، ترجمة فرنسية، المجمع الطبى لدراسات القرون الوسطى، مونتريال ٥٣-١٩٥٥، ٣٢٠ ص .

٥- «دموح إيليس»، ترجمة فرنسية لـ فحى رضوان، طبعة مجلة للقاهرة ١٩٥٧، ١٢٥ ص .

٦- «تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعصر الوسيط»، دار المعارف - القاهرة ١٩٥٩، ٢٠٩ ص عربي، ٦ ص فرنسي .

٧- «دراسات فلسفية إسلامية»، المكتبة الفلسفية - باريس ١٩٧٤، ٤٣٢ ص فرنسي .

٨- «قائمة ببلوغ جرافية عن ابن رشد»، الجزائر ١٩٧٨، ٤٣٠ ص .

٩- «الميتافيزيقا في الشفاء» (مقدمة .. ترجمة وملاحظات)، الجزء الأول - باريس ١٩٧٨، ٣٧٩ ص فرنسي .

١٠- *Tendances et courants de l'Islam arabe contemporain. Vol. I: Égypte* (Kaiser Grinewald, München 1982, 160 p.)

١١- «الميتافيزيقا في الشفاء» (مقدمة .. ترجمة وتطبيق)، الجزء الثاني - باريس ١٩٨٥، ٢٣٨ ص فرنسي .

١٢- «المسيحية والحضارة العربية»، الطبعة الأولى : المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٨٦، ٢٧٦ ص .

الطبعة الثانية : (مزيدة ومنقحة) دار الثقافة - القاهرة ١٩٩٢، ٤٠٨ ص .

* المجموعة الثانية : (بالاشتراك مع آخرين) .

١٣- «مقدمة في علم الكلام الإسلامي» (علم اللاهوت المقارن) «بالاشتراك مع لويس جارييه .. وقدم له المستشرق/ ماسينيون»، المكتبة



يوجين يونسكو

عبد المنعم سليم

ليس هناك زمن موضوعي يمكن القياس عليه، أو بمعنى أصح ليس هناك إدراك موضوعي للزمن.. فحين أصاب بالمشجر، وهو ما يحدث في غالب الوقت، فإن الزمن يطول بشكل مرعب زمن يمر، هناك زمن لا يمر أبداً. الانتظار حتى لو استمر عشر دقائق فقط فإنه يكون أطول من ساعة لا نضمر خلالها بالمشجر.

ثم تكلم يونسكو عن سنيوخ وعن المعائن، فقال: إن الشيوخ يتعرضون كثيراً للأذى، أما المعائن فهن ساحرات إن كل اهتمامهن ينصب على الأعمال الشريفة. هذا هو الاتهام الذي يوجه إليهن، ولكنني أستطيع أن أعلق على ذلك بقولي: يا المعائن المسكينات، نحن لا

على تماماً.. ولم يعد ينصب إلى.. ومع ذلك فإنني أنا الذي كتبت مسرحية «المغنية الصلحاء» ومسرحية «الكراسي».. وأنا الرجل الذي له زوجة اسمها ريكا وابنة اسمها ماري - فرانس. لكن المامني (الذي كان) لا يمت بأي صلة إلى ذاتي.. ذلك أن الذي يعيش الحاضر، فإن هذا الحاضر يلتهم كل شيء بما في ذلك المامني.

ويستمر يونسكو قائلاً: الساعة الزمنية ليست هي نفسها الساعة الزمنية بالنسبة لكل الناس.. ذلك أن هناك إدراكات حمية للزمن.. فالساعة يمكن أن تكون أحياناً عشرين دقيقة أو أقل ويمكن أن تكون أيضاً أكثر من ساعة.

فكأنما الكاتب المسرحي الكبير يوجين يونسكو كان يتنبأ بموته، وذلك عندما أدلى بحديث في فبراير الماضي لجريدة الفيجارو الفرنسية، وتكلم عن الشيخوخة التي كان قد اقترب منها بشكل واضح. في هذا الحديث قال يونسكو: في سن الشيخوخة هذه التي أمر بها ليس مفروضاً أن نتظر أي تحسن فيما يتعلق بالصحة. حتى لو وصف لنا الأطباء كثيراً من الأقراص والحبوب والحقن والمقاهير.. إن ذلك كله لا يجدي نفعا.. ذلك أن الحالة الصحية - برغم ذلك كله - تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. ويجب على أن أقدر أن هناك أناساً كثيرين يصنعهم ماضيهم، وفيما يتعلق بي فإنني أشعر أن ماضيّ قد انفصل

نبراً من الشيوخوخة تماماً كما نبراً من نزالة برد.. وإذا ما برئنا من مرض ما، فإننا رغم ذلك نكون في غاية التأكد من أن الشيوخوخة سوف تواصل تخریبها لأرواحنا وأجسادنا، وإننى أتذكر أننى منذ أن ولدت كان هذا الصراع بين الروح والجسد، وكان الخوف والتعجب يستويان على لأننى كنت دائماً أتساءل: من الأقوى؟..

الآن، فى منى هذه، وفى هذا الوقت بالذات، أستطيع أن أقول إن الأقوى ليس شيئاً من هذا كله. ثم يقرر: الأقوى هو الخوف، ويقول: إن الشيء الوحيد الذى يدهشنى هو: الألم. لماذا نألم إلى هذا الحد إذا كنا مؤلمين؟! هذا الألم هو الذى يهزنى.

إننى أعيش بين الدهشة والخوف.. بين التعجب والربع بالأمس، وقبل الأمس، واليوم - وربما غداً - تقول لى زوجتى: إننى أحبك أكثر مما يظن الناس، وإذا مت فىلانى أريد أن أسوت معك، فقلت لها إننى سوف أرحل أولاً.. لأننى لم أعد أشعر بالرغبة فى الحياة.. انظرى إلى الیسدين.. الأصابع.. القدمين.. المساقين.. كل شيء فى جسمى يسبب لى مشكلة لاتحل إلا بصعوبة. وكأنما یونسكو لا يريد أن یخلى عن عبثه، فيقول: إن أهم شيء فطعه فى حیاتی هو أننى طمعت فى السن.. هو أننى شفت، ومات بعدها أساذ مسرح العبث طوال الخمسين سنة الأخيرة، وكان التاريخ ٢٨ مارس سنة ١٩٩٤.

وكان موته خبراً مهماً فى كبریات الصحف العالمية، وفى الإذاعات، والتلفزيونات، وأقررت مجلات متخصصة كثيرة مثل مجلات: المسرح فى بريطانيا وأمريكا وفرنسا وألمانيا.. إلخ صفحات كثيرة عن المسرحى الكبير..

وحركة العبث فى المسرح التى رفع لواءها یونسكو فى أولخبر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات واستقرت بعد ذلك إلى الآن.

الناقد (ريتشارد كو^(١)) يكتب: يقول یونسكو إن تعبیر (المسرح الواقعى) يناقض نفسه، فالمسرح فى ذاته عملية إحياء فنى، والمسرح الواقعى مبنى على مهارة الكاتب فى أن یوحى للجمهور بأن ما يراه أمامه هو من واقع حیاته، ولكن یونسكو يرى أن للمسرح الواقعى یحدد نفسه بالواقع الخارجى للحياة، وهو يعتقد أن هذا الواقع ليس إلا جزءاً محدوداً جداً من واقع الإنسان.. بل إنه تشويه كبير لهذا الواقع.. لأنه يركز على الجزء غير المهم من الحياة ويفرك الجزء الأهم.

يقول یونسكو: إن الواقعية لا تستطيع أن تضم الواقع كله، إنها تخضعه لمعالية انكماش.. تهذب وتقدمه فى صورة كاذبة. إن الواقعية لاتدخل فى اعتبارها الحقائق الأساسية فى حياة الإنسان. إن الحقيقة تكمن فى أحلامنا وخيالنا..

معنى هذا أن الحقيقة الأساسية هى أحاسيس الإنسان الداخلية.. هى واقعه النفسى وليس ما یحيط به من حياة مادية ملموسة.

ویجب أن نقرر هنا - والكلام للناقد الإنجليزى - أن یونسكو لم یكن یقف هذا الموقف من الواقع الخارجى وحده، بل كان یشارك فى هذا الموقف كل أصحاب مدارس النحت والتصور والرسم الحديث. أن الفن الحديث ومدرسه المختلفة تبحث عن الحقيقة الدقيقة التى تكمن وراء الحقيقة الظاهرة.. لذلك نجد فى مسرح یونسكو كثيراً من خصائص المدرسة السیريالية، وأهمها الاعتماد على الأحلام كنقطة بدء لعمله، ولكنه یرفض أن یقبل

غموض الحلم وفوضى الشكل الناتج عنه، فهو يريد الوضوح بجانب حقيقة الحلم.

إن فقد ثار یونسكو على المسرح الواقعى كما ثار أيضاً على التمثیل الواقعى، وما كان يشده فى عبثه عن المسرح الجديد.. مسرح يستطيع من خلاله أن یطهى الحقيقة المادية، وأن یجبر عن الحقيقة الكبرى التى تكمن وراء الحقيقة الظاهرة: حقيقة النفس البشرية.. حقيقة الأحلام.. حيث لا مطلق ولا عقل.

ونتيجة لهذا المفهوم للإنسان والحياة أخذ المسرح الجديد صفات معينة، وبدأ یونسكو خطوته. كيف؟

يرد الناقد: إزاء فقدان المنطق یصبح العالم عبارة عن ظواهر متناوبة لاصلة ببعضها وعالم من المصادفات التى لا تنتهى، وفى مثل هذا العالم لایجد معنى للتجربة. إن أية ظاهرة يمكن أن تعال بالآلاف الأسباب. كل شيء جائز. إذن كل شيء جديد، أى لم يحدث مثله من قبل. إن قراءة الجريدة اليومية حدث تعويته كل الغرابة وكأنه تفتت القنبلة الذرية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى.. ما دام لكل شيء هذه الهدية یصبح تحول إنسان إلى حیوان أمام المتفرج حدثاً لا یختلف فى جوهره عن قراءة الجريدة اليومية.

وفقدان مفهوم التجربة تفقد الذاكرة. وكثير من شخصیات یونسكو نصاب بفقدان الذاكرة.

ولنقرأ هذا الحوار:

الزوج: إنى أسكن فى شقة نمرة ٨ بالدور الخامس.

الزوجة: يا للعجب.. يا للعجب.. يا للمصادفة الغريبة.. أنا أيضاً أسكن فى الشقة نمرة ٨ بالدور الخامس.

الزوج: (بتفكير عميق) يا للعجب..
يا للعجب.. يا للعجب.. يا للمصادفة
لغريبة.

ويستمر الناقد: ونتيجة حتمية لذلك
يبتل المفهوم الكلاسيكي للشخصية،
مادامت التجربة لا تتكرر.. إذن فليس لنا
سوقنا من الحياة.. ولا منطق وراء أية
شخصية وتصرفاتها. وفي ذلك يقول
يونسكو: إن التناقض هو أساس الشخصية.
ل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول إنه
يس هناك شيء اسمه الشخصية. إن
لفردية تفقد، ففردى الشخص الواحد يليس
شخصيات أخرى فى المسرحية.. فتتغير
سلامحه، وقد يصبح أنثى بعد أن كان
ذكرا. ويتغير عمله ومركزه الاجتماعى
ثم يعود إلى أصله أولا يعود.. مادام ليس
هناك منطق.. ومادامت الحقيقة الكبرى
هى إحساسى الشخصى فى هذه اللحظة،
وفى هذه اللحظة فقط.. فحين أحس أنثى
ملك أصبح كذلك، وحين أحس أنى
مستول أصبح كذلك، وهكذا.. فالفرد
ليست له ديمومة.

ويشرب على ذلك أبعثا موقف
الكاتب من الزمن. إن عجز الإنسان ليس
ثابتا. إن إحدى الشخصيات فى مسرحية
(القتلة) تقول: «قد أكون بلغت الستين أو
الثانية.. كيف لى أن أعرف.. إن الزمن
مسألة شخصية بحتة».

فمادامت اللحظة هى كل شيء..
ليس لها ماض ولا يترب عليها مستقبل.
فقد أصبح الزمن لا يوجد له. ويضرب
الناقد مثلا لذلك فيقول: فى مسرحية
(فى انتظار جودو) لىسمويل بيكيت نجد
أن الشخصيتين الرئيسيتين تتلظزان
(جودو) إلى مالا نهاية. وفى مسرحية
المغنية الصلعا لىونسكو تدق الساعة ٢٩
دقة.

إن الإنسان يخرج بعد قراءة هذه
المسرحية وقد سيطر عليه إحساس بوجود
كابوس فى العالم الذى نعيش فيه. ذلك أن
يونسكو قريب فى مسرحياته من كافكا فى
قصصه.

ويستمر الناقد فى الحديث عن مسرح
يوجين يونسكو فيقول: ومن أهم ما يميز
مسرح فلسفة العبث ذلك التفكير القوى
الذى تكتب به المسرحيات. وهنا يقول
يونسكو. إن اللغة لا تستطيع أن تنقل إلينا
إلا المعانى المادية.

ويقول أيضا إنه حين بدأ يتعلم اللغة
الإنجليزية بدأ عن طريق كتب للمحادثة،
وصنع للعبث الذى يقوله الناس فى هذا
الكتاب، ولكنه سرعان ما انتبه إلى أن
٩٩٪ من أحاديث الناس لا تخرج عن هذا
العبث. لقد ابتذلت للغة وأصبحت عاجزة
تماما عن توصيل شيء من الحقيقة
الكاملة.

ثم يقول الناقد المعروف: لو أن فلسفة
يونسكو وقفت عند هذا الحد لظل هناك
شيء اسمه الحقيقة، وهى الحقيقة النفسية،
ولكن يبدو أن يونسكو يريد أن ينكر حتى
هذه الحقيقة.. فإذا كان العالم الخارجى
حقيقة زائفة، والعالم الداخلى حقيقة كاملة
كان هناك شيء يستند إليه الفرد.. ولكن
المأساة هى أنه حتى هذه النفس قد تكون
زائفة.. ومعنى ذلك أن فلسفة العبث ليس
لها قرار.

وهنا يقول يونسكو فى مقال له بعنوان
(نقطة البداية):

هناك حالتان من الوعى ألبى حولهما
مسرحياتى.. إحداهما إحساس بالفراغ
للتام، والأخرى إحساس بالوجود الزائد.

ما معنى ذلك؟

معناه أن فى قرار النفس: الفراغ.
وفى الحياة الخارجية للمادية: الزيادة

والفائض. لذلك فإن يوجين يونسكو لا
يجد أى معنى لأى شيء فى الوجود.

ولكن: لماذا يكتب إذن؟

الإجابة: لأن محاولة فهم هذا
(لللامعنى) هو العمل الوحيد الذى يحمل
معنى.

لذلك فمسرحياته هى الشيء الوحيد
الذى يحمل معنى.. لأنه من خلالها
يحاول أن يفهم (للامعنى) الوجود.. فالن
- فى رأيه - هو العمل الوحيد الذى يجد
فيه الإنسان: معنى. ولا يعنى ذلك أن
يهرب من الحياة ويتحاشاها ولكنه يحتج
على نوع الحياة التى تحياها.

وهنا يصرح يونسكو: إنى فعلا أشعر
أن الحياة كابوس مؤلم لا تحتمل. انظر
حولك ترى الحروب والمأساى والكراهية
والظلم، والموت يقترص بنا من كل
جانب.. إن هذا قطع.

كانت هذه هى نظرية يونسكو بالنسبة
لمسرح العبث الذى كان رائده لستين
طويلة.. ولطه من المناسب أن أنقل إليكم
بعض أسئلة سبق أن أبلى بها فى
الصحف الأدبية الفرنسية والإنجليزية
وغيرهما لتتعرف على أبعاد هذه
الشخصية الغدة.

فى حديث مع مجلة (الأدب الجديد)
الفرنسية سأأوه:

● لقد قلت يوما إن الحقيقة وحدها
يمكن أن تتحول إلى كابوس.. فماذا تعنى
بذلك؟

فأجابه: من وقت لآخر تقوم
شخصياتى بالتعبير عن نفسها عن طريق
النكتة وبطريقة ضاحكة. أيضا فإنها تقول
أشياء سخيفة.. وهذه الشخصيات فى
الحقيقة لانفهم نفسها. هذه الشخصيات
بطريقتها السخيفة تحاول أن تعرف نفسها.

إنهم يشبهون تماماً أغلبية الناس. إنهم لا يلفظون لأنى الحكمة فى كل وقت ويفتحون فمهم أفواههم. إنهم أيضا يتناقضون مع ما أفكر فيه أو ما تتناقض معه أفكار الشخصية نفسها. لست أنا الذى أقول: إنها الحقيقة وإيست الأحلام التى تتحول إلى كابوس. واحد من شخصياتى هو الذى ذكر هذه المحلولة. ولذلك فإنيك يجب أن تعرف شيئاً عن هذه الشخصية.. أن تعرف ما إذا كانت تقصد بما تقول: هل كانت جادة أم تصطع الكتكة؟ فى أى وقت قالت ما قالت؟ وماذا؟ وماذا تعنى به.. وفوق ذلك: هل هى قادرة بالفعل أن تقول ما تعنيه؟ يجب أن تمان شخصياتى نفسها هذا السؤال.. وعندما أطلب منك هذا فإننى أضى ذلك بالفعل.

● وعلى سؤال آخر من مجلة المسرح أجاب: لماذا ولمن يكتب الفرد؟

لو كتب شخص ما خطاباً أو ألقى محاضرة أو درساً أو التماساً.. إنه يفعل ذلك ليبر عن أفكاره أو ليبر عن مشاعر شخص ما.. ليطلب.. ليتعلم.. ليعلم.. ليتقن.. ليحتج.. وللهدف من مهنة الكتابة تتحقق خارجها. للكتابة وسيلة.. - إننا نكتب من أجل ولأجل الآخرين.

سؤال: إن فانت تهتم بالآخرين؟

جواب: إننى أنا نفسى واحد من الآخرين، ولذلك فإن مشاكل بالضبط هى مشاكل الآخرين. إننى أشابه مع الآخر. وسواء أحب الفرد أو كره فإن الفرد فى الوقت نفسه هو الفرد الآخر.. ولكن هذا الآخر لا يدرك ذلك.

وجواب آخر عن سؤال: إننى لست أعرف ما إذا كانت الدراما عموماً، أو الكوميديا خصوصاً أكثر إلزاماً من الموسيقى أو الرسم. الذى أعرفه أنه أكثر

صعوبة للمرح أن يكون مسرحاً.. وهذا يختلف تماماً عن الموسيقى. الموسيقى انكاس مباشر فى حد ذاتها.. ثم إنها دون حدود.. دون زمن.. دون وقت..

سؤال آخر: نظرتك إلى الدنيا كما عرقلها.. ونظرتك إلى الناس وإلى الحياة.. وبالتصور القائم المضحك.. ألم يدفعك هذا إلى أن تفكر فى أن تتسرك الكتابة؟

اجاب: أترك الفن؟.. هل أستطيع؟.. بالرغم من تشاؤمي ومزاجي المتقلب.. هل أستطيع ألا أكتف؟.. الشعر.. الحاجة إلى التصور وإلى الخلق.. شيء أساسي تماماً مثل الحاجة إلى التنفس.. أن تتنفس معاً أن تعيش وألا تهرب من الحياة.

● ولكن الحياة هربت من بوجون يونسكو فى مارس الماضى. ولعل الحديث الذى نشر فى جريدة الفيجارو فى فبراير الماضى يؤكد أن نظرتي إلى الحياة وإلى الناس وإلى الفن لم تتغير أبداً حتى آخر لحظة من حياتي.

عن مسرحياتي

ولكن هل بوجون يونسكو هو كل هذا الذى قيل وكتب عنه؟ الإجابة: لا.. ذلك أنه من المستحيل أن تختزل حياة صيغت وجه الحياة المسرحية على مستوى العالم فى صفحات، ولذلك فإننى أحاول أن ألقى أضواءً أخرى بشكل أوسع إلى حد ما. بعبارة أخرى: هذه النظرة العامة عن فلسفة يونسكو وإلى عرضها بعض النقاد تحتاج إلى بعض التفاصيل، ومن أقواله هو شخصياً عن بعض مسرحياته لدرى إلى أى حد كان النقد كاشفاً أو غير كاشف لوجهة نظره.

عن (المغنية الصلحاء) يقول يونسكو، وذلك فى مجلة Cahiers des Quatre (Saisons No 1, 1955) إن المغنية

الصلحاء واحدة من مسرحياتي التى يعبر النقاد أنها كوميدية تماماً Purely comic. ومع هذا فإن الكوميديا تبدو لي بمثابة تعبير عما هو غير عادى. ولكن من وجهة نظري فإن غير العادى هذا يمكن أن يقفز فقط من أسففل وأكثر المسائل العادية اليومية الروتينية من نشرنا اليومى إذا سألنا أن يلحق بما وراء حدوده. لكى تشعر بالعنفية وعدم القدرة على احتمال التجارب اليومية ومحاولتنا للتواصل فإن معنى ذلك أنك قد وصلت إلى مدى أبعد.. وقبل أن تفعل ذلك فإنه يجب أولاً أن تتسبب أنت نفسك. الكوميديا هى الشيء غير العادى والفنى والبسيط. لاشيء يدفعنى أكثر من الأمور الغامضة.

ومن المصدر السابق نفسه يتكلم يونسكو عن مسرحيتي: إميديه وضحايا الواجب فيقول:

هاتان المسرحيتان تعتبران.. أكثر مسرحيتي درامية. إن كلا منهما حالة عقلية.. كلمات.. العالم غير المحرى استبدل به أشياء تبدو سحرية استبدلت الكلمات والمعتقدات.. فى شقة إميديه ومادلين.. جسد ميت يعانى من مشكلة أن للجسد الميت يتمدد إلى أن يكسر الدوافذ ويلطخ بالأشياء مما يضطر معه السكان إلى الخروج من البيت. وفى (ضحايا الواجب) عندما تقدم القاهرة لشخصيات ثلاث فإننا نجد كومة من الفناجين. الأثاث فى مسرحية (السكان الجديد) يسد كل سلمة من سلم الصارة ثم ترحم المسرح، وفى النهاية تلغى على السكان نفسه الذى يجلس وسط المقاعد والدواليب والمضاد.. الخ لدرجة أنه لم يعد قادراً على الحركة من مكانه على الإطلاق. لقد أصبح هو نفسه قطعة من الأثاث.

يونسكو: الميثاق والجمعية والصحف اليومية

وفي مسرحية (الكراسى) نرى المسرح وقد امتلأ عن آخره بعدد لا حصر له من الكراسى لصنيوف غير مرتبين. وفي مسرحية (جاك) أنوف كثيرة تظهر على وجه الفتاة الشابة.

عندما تبلى الكلمات فإن معنى ذلك أن العقل قد تمزق . العالم محمل بمسائل في فراغ الحاضر: مسائل كثيرة مرتبطة بمسائل غير كافية، والأشياء هي ترجمة لمادية الوجود.. لانتصار القوى التي ضد الروح.. لكل الأشياء التي تناضل ضدها، ولكن في المواقف المعلقة فإننى لا أتوقف عن الصراع، وإذا ما حدث، وأمل، إن استطعت بالرغم من العذاب أن أدخل في هذا العذاب شيئاً من الفكاهة.. تلك الفكاهة التي هي علامة من علامات وجود الآخر فإن هذه الفكاهة هي ما أضيفه. إنها إرتياحي وخلاصى.

هذا وليست لدى أى ذية لأن أحكم على مسرحياتي. ليس هذا هو عملي، وكل ما أحاوله الآن هو أن أقدم بعض التلميحات ■

(١) من كتاب Jonesco. By Richard
Writers And من سلسلة Critics, London 1961

في برحيل يوجين يونسكو عن عالمنا، في نهاية مارس للماضي، يكتمل اختفاء مسرح العبث الشهير: بيكيت، أداموف، يونسكو. إذ يعدبر ثلاثتهم طلائع ما سمي في حينه «المسرح الجديد» أو «بمدرسة باريس ١٩٥٠»، حيث ظهرت أولى مسرحياتهم في ذلك العام بباريس لتكون علامة فارقة في تاريخ المسرح الغربي، وإذنا بميلاد تيار متباين، يتميز أساساً بالقطيعة مع المسرح التقليدي السابق عليه، واصطلح على تسمية المولود الجديد «بمسرح العبث».

بعد رحيل يونسكو، أفاض العديد من الكتاب في الحديث عنه والإشادة به، في مصر كما في فرنسا وللعالم كله. واتسمت الكتابة عنه في مصر، باستدعاء بعض الخطوط المريضة لمسرحه، مع الإشادة بإسهامه المجدد^(١)

من جانبنا، سنحاول إلقاء الضوء على جوانب أخرى من كتابات يونسكو وإبداعه، مركزين على فكره وخلفيته إتناجه الشخصية والسياسية. هذا إذن مقال عن فكر يونسكو، لآعن مسرحه وتقنيته، لتصور أنه يسهم في استكمال صورة عالم أحد أعلام المسرح في القرن العشرين، وفي فهم إنتاجه الفني وفي رفع ما قد يلتبس في هذا الخصوص.

التجديد في المسرح

كان يونسكو مجدداً في مسرحه على مستوى التقنية، لاسيما في المرحلة الأولى من إبداعه، حتى منتصف الخمسينيات وصاحب ذلك التجديد إثارة قصصاً لم تكن مطروحة من قبل على المسرح. نقد يونسكو بنية المسرحية التقليدية وبناء الشخصية النفسي الواقعي، وقدم مسرحاً يعتمد على الإيقاع والتأثير بالصورة واللفظ لا بأحداث منطقية متسلسلة أو متصاعدة، إذاستبدل بتصاعد الإيقاع تصاعد الحدث، وقدم منطقاً

مزعجاً لأنه أكثر صراحة من المنطق المتعارف عليه اجتماعياً، قدم منطقاً عيبياً لأنه يعرى العنف والقهر والسيطرة ويكشف عيبية البواعث عليها ولا جدوى للهروب من وطنها.

في مسرحية «الدرس»، مثلاً، نجد أستاذاً يلقي درساً غريباً على تلميذته، ويصمم على تعليمها إياه، لأن همه هو الطاعة لا الفهم، فحين ترفض التلميذة استيعاب الدرس، يخصصها الأستاذ ويقلها. وفي مسرحية «صحايا الواجب»، يتعرض شخص للعذيب ليعترف بصلاته بأسرة لا يعرفها. ثم يتدخل شخص لا تدرى من أين جاء ليخلصه، ثم يتولى تعذيبه بنفسه. يمثل هذه الخيوط البسيطة، يكشف يونسكو عن أن القهر لا منطق له (وكذلك العالم)، كما أنه لا فكاك منه. ويصمم الإيقاع في التعبير عن تصاعد يشبه طوقاً يضيق خناقها على عنق البطل، أو قللاً جنسياً ينتهي بالفلمة، على حد تشبيه جان هيرفيه دوتار (٢) واصفاً إيقاع «الدرس».

غداة الحرب العالمية الثانية، ظهرت خرائط جديدة للعالم وللجتمعات على الأنقاض. كذلك ظهرت خريطة للمسرح، ساهم يونسكو في وضعها، طارحاً بقوة تساؤلات حول (لا) جدوى العنف والقهر (الفاشي/النازي) الذي تسبب في اندلاع الحرب، وعن اللغة والمنطق (للذين استخدمهما الجميع لتبرير الصراع والتدمير وليثبت بهما كل طرف أنه على حق) وعن الموت الذي يفرض نفسه كحقيقة أولى في الحرب قدر صحاياها بالملايين (ما جدوى الحياة؟ ما الذي يستحق أن نموت من أجله؟).

كثيراً ما تناول النقاد مسرح يونسكو، ومسرح الميث عموماً، من الزاوية الميتافيزيقية المجردة، زاوية التساؤل عن معنى للحياة وجدواها. لكن الحقيقة أن مسرح يونسكو تحديدًا يتضمن أبعاداً

اجتماعية وسياسية، مرتبطة بظروف إنتاجه، وهي أبعاد أشد وضوحاً منها لدى بيكيت مثلاً.

عادة ما يكون الموت عند يونسكو نتيجة لأشكال مختلفة من القهر: قهر الأستاد الفكري للتلميذة في «الدرس»، أو القهر البوليسى الذى يمارسه المغش وهو يحقق مع شربير في «صحايا الواجب»، أو قهر المجتمع للفرد مثلاً في «جاك» أو الخضوع، حيث يضطر جاك لأن يقر بحبه للبطاطس بشحم الخنزير، بناءً على إلهام الأسرة، ثم يضطر للزواج كما تفرضه تقاليد الأسرة. وقد يكون القهر ممثلاً في تراكم المادة الذى يخلق البشر ويجعلهم آلات مستهلكة، مثل تراكم البيض على المسرح في «المستقبل فى البيض»، الذى يشبه تراكم السلع الذى تسبب في اقتتال الرأسماليات الكبرى فى ١٩٣٩، بحثاً عن السيطرة على الأسواق، لخصريف منتجاتها (٣).

بين اليمين واليسار

كان يونسكو يدعى فى حواراته وكتاباتاته أنه يتبنى مسرحاً غير مسيس (٤). إلا أن مسرحه كان يتضمن دائماً إشارات سياسية واجتماعية عديدة. ورغم أنه كان يعنى بأن تكون مسرحياته عامة، بحيث تهاجم القهر والفساد وعموماً على سبيل المثال، دون الإغراق فى تحديد المسميات، إلا أن شروحه ومواقفه ومقالاته تكشف لنا مقاصده ومواقفه وتحددنا مدلولها فى سياقها التاريخي وترفع اللبى الذى طالما تسببت فيه بعض الإشارات، لاسيما الإشارات التاريخية المعنوسة فى مسرحياته يونسكو.

فى بريطانيا بالذات، دافع نقاد اليسار عن يونسكو ورأوا فيه ناقداً لاذعاً للبرجوازية التى تمنى وقتها فى ثرثرة فارغة (مثلاً فى «المغنية السلعة») أو فى تليفزيون زيجات المصالح (مثلاً فى

«جاك») ورأوا فيه مهاجماً لطغمان الفاشية (مثلاً فى «الدرس»، حيث يخرج المدرس فى النهاية صليبا معقرواً) أو لطغمان الدولة البوليسية (مثلاً فى «صحايا الواجب» بل إن الجبال الألبس فى المسرحية يحمل اسم «نيقولا الثانى»، آخر القياصرة الروس الذى أطاحت به الثورة البلشفية).

ثم قدر حماس بعض نقاد اليسار تجاه يونسكو بل وهاجموه عندما اكتشفوا أنه لا يقف معهم فى الخندق نفسه (٥) واشتدت الخصومة على وجه الخصوص، بين أنصار المسرح «التعليمي»، والبريختي، وبين يونسكو (٦). وقد انضمت الهوة الفاصلة بين الموقفين، بعد ظهور مسرحية «أميدية»، التى تمكى موت حب بين زوجين، دون اهتمامات سياسية. هنا كسر يونسكو عن أنيابه، وبدأ المعارك الأدبية التى كان يجيدها، وأعلن أنه لا يكتب مسرحاً ليوصل به رسالة ما، كالرسالة الاجتماعية والسياسية لمسرح بريخت، ولكن ليعبر عن نفسه بصق. وقد «مسخر» يونسكو نقاده البريختيين فى مسرحية «ارتجالية الألمان»، حيث صورهم على أنهم عقائدون يحاربون تعليم المؤلف كيف يبدع، مسترشدين بكتابات «بريخت»، التى يتعاملون معها على أنها كتاب مقدس (٧).

الواقع أن هذه المعركة التى دارت فى منتصف الخمسينيات، تآتى فى إطار المعركة الأدبية والفكرية التى اجتمعت غداة الحرب العالمية الثانية، واتخذت شكلاً تبسيطياً مغلاً، بين أنصار الفن المتلذذ (بصحايا المجتمع) وبين أنصار الفن للفن، ويصف فيه الطرف الأول على أنه تقدمي يسارى والثانى على أنه رجعي يميني. كان لتلك المعركة جوانب تبسيطية، تعكس تعصب المقيدين إلى قطب دون آخر، فى عالم كان مغلاً على الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتي، زعيم الاشتراكية آنذاك وبين الولايات

المتحدة، زعيمة الرأسمالية حتى الآن.

ولعل سر اللحاس في معركة يونسكو، التي هي جزء من معركة الالتزام في الفن، هو أن إطارها المضمهر كان تأييد أحد طرفي الحرب الباردة. ولو أخذنا يونسكو مثالاً لاكتشفنا خلل التبسيط في معركة الالتزام الفني، فمعظم مسرحياته بها هموم سياسية واجتماعية، وهي هموم مشروعة، بل ويمكن القول إنها تعبر عن موقف يلتزم بقضايا المجتمع، رغم أن يونسكو ينادي بتقديم الصدق الفني على الرسالة المضمونية الهادفة ورغم أن موقفه في معسكر اليمين المحافظ^(٨).

هاجم يونسكو اليسار بجميع فصائله، هجوماً خليفاً بظروف الحرب الباردة التي دعت أغلب كتاب اليمين للهجوم على كل يسار خوفاً من استئجاب الأمر أقصى اليسار. فنجده يهجم على الزعيم النشلي ألياندي حقه ويكاد ينشفي في وفاته، ولا يستدعي انتباهه أن الزعيم الاشتراكي المنتخب انتخباً حراً قد أزعج بانقلاب دموي عميل لأمريكا، بل يروح يقارن بين ألياندي وكاسترو^(٩) وهو طبعاً يهاجم كاسترو وحكمه العسكري في كوبا ولا يستدعي انتباهه محاولاته أمريكا لإقصائه بالعنف، لدرجة أنها استأجرت جيشاً كاملاً من المرتزقة الكوبيين وأنزلتهم بأسطولها على سواحل كوبا. ويهاجم يونسكو ثورة البرتغال الاشتراكية في مطلع السبعينيات، ويعلن ديكتاتورية سالازار، قائلاً إنها كانت مرة أو «طرية» في آخر أيامها، على حد تعبيره^(١٠) وهو لا يلتزم توازناً معينا بحيث يفر بمحبوب النظامين، بل يندفع دائماً في الدفاع عما هو يميل، دون أن يلتزم حتى بحدود منطق نفسه. أما عن الاتحاد السوفييتي وتجرته فهو لم يكف عن سبها دون أية نظرة موضوعية. ويلخص موقفه منه عنوان مقاله: «الثورية هي أكبر فشل في تاريخ البشرية»^(١١) أما عن تجربة

الصين، فهو يصف ماوتسي تونج غير مرة بأنه «صنم» و«شيطان»^(١٢) وأما جيفارا فهو يصفه بالقاتل^(١٣).

على منوه خطاب يونسكو المرواني لإينصاته، يمكن فهم هجومه على البروجوازية على أنه هجوم على ثقافتها، على طبقة ما^(١٤) هجوم على أسلوب في التفكير - أو عدم التفكير - وعلى التعامل مع الأمور، يجعل صاحبه يتساق وراء الآخرين ولا يتعامل إلا بمنطق المرض والطلب في كل أمور الحياة، وهو هجوم يمثل امتداداً للهجوم على نموذج البروجوازي الصغير في الثقافة الفرنسية، منذ القرن للتاسع عشر (لدى جول فاليس مثلاً).

كما يمكن فهم هجوم يونسكو على الفاشية والدولة البوليسية، بوصفه هجوماً على الشمولية، انطلاقاً من موقف ليبرالي يعطي شأن للزعة الفردية، لا من موقف اشتراكي.

لقد جاءت مسرحية يونسكو «خرايت» دون إشارة في النص للملاقة بين قطمان الخرايت المدمرة وبين فرق النازية الألمانية، لكن اختيار ألمانيا بلداً للعرض الأول، وتعليقات النقاد والمخرجين في بروجرام العرض وفي وسائل الإعلام، كانت توجه تفسير المتفرج وجهة واحدة: للخرايت هم الدايون^(١٥) رغم أن النص يشير للتمسب الإيديولوجي الذي يجعل من البشر قطعاً شرساً وغير متميز ويعد عرض المسرحية بعدة سنوات، قال يونسكو إنه قصد النازية بخرايته، لكنها يمكن أن تسحب على النظام في الاتحاد السوفييتي أو الصين أو في بعض بلدان الشرق الأوسط^(١٦) لكنه لم يذكر أمثلة لأنظمة شمولية يمينية، رغم أن تفسير المسرحية يمكن أن ينسحب على الجنون المكارثي في أمريكا، الذي يهاجم كل ما هو يساري تقدمي، على سبيل المثال.

أحياناً، يكتب يونسكو أو يصرح أن جميع الأنظمة فاشلة، يمينا كانت أو يساراً^(١٧) وزراه يضع على أمتة شخصيات مسرحية: «هذا الماحور الرائع، نقداً لليمين واليسار على السواء وزراه يفسر مسرحيته «ماكبت» بأنها نقد للظلم السياسي إلى السلطة ويعتبر هذا الظلم سبب فساد اليمين واليسار معاً. وإن كان فيما يقوله شيء من الوجهة، إلا أن نظره واحدة للكتب التي جمع فيها مقالاته، مثل «ترياقات»^(١٨) و«رجل في موضع المسألة»^(١٩)، تكشف لنا أن هذه العدمية السياسية، أو نفاذ البصيرة السياسي هذا ليس سوى فطرة في محيط من الضلال من موقع اليمين المحافظ والزعزعة للفردية. وما هو يونسكو يصرح في أحد حواراته أنه لا يخشى أن يعتبر رجعيًا^(٢٠) والواقع أنه، بسبب محافظته يعترض على مبدأ «الثورة» و «تحرك الجماهير»، هذا هو صلب انتقاده للرفيقين المفلطحين، اللذين يمثلان كاريكاتور اليمين واليسار، في مسرحيته «هذا الماحور الرائع» ونظراً لظوه في المتعلق بالزعة الفردية، فهو يفضل الأنظمة الفردية التي تحمي تلك الزعة. وهكذا ينتهي قوله «إن كل المجتمعات، ثورية كانت أم لا، فاشلة»^(٢١) بقوله بعد صنع صفحات: «ما يمكن أن نقننا هو الزعة الفردية»^(٢٢) أي أن ما يجب نقده لأي نظام هو تفضيله للزعة الفردية في الديمقراطية الغربية الرأسمالية.

ضد النازية.. مع الصهيونية

لم يكن عساده يونسكو للنازية وللشيوعية مجرد وليد نزعه للفردية الليبرالية واعتباره أن كلا النظامين شمولي، يخفي الفرد لحساب الجماعة ويقيد الحرية التي يقدها يونسكو ونال عنها جائزة «القدس» الإسرائيلية، بل كان هذا العداء جزءاً لا يتجزأ من عقيدته الصهيونية. أما عن النازية، فالصراع

بيدها وبين الصهيونية صراع وجود بين إيديولوجيتين قوميتين متعصبين وأما عن الشيوعية، فهي عقيدة مساواة وعدالة تتناقض مع العقيدة الصهيونية القائمة على التمييز والعصب وأوامم تقوى الجنس اليهودي وسيطرته الواجبة على شعوب المنطقة، بالإضافة إلى أن الصهيونية، تاريخياً، لعبت دور رأس حرية الغرب في منطقنا العربية، فكان لزاماً أن تصطدم ببلد الشيوعية الأم، المناهضة للغرب.

ربما كان سهلاً أن نفهم توجه يونسكو الليبرالي الفردي، فهو مبدع حريص على حريته واستقلاله، يشعر بتميزه لأنه مغرب الحساسية، لديه إحساس متضخم بذاته، بالإضافة لوضعه المختلف عن عامة مواطنيه، حيث إنه من أب نبي جنسية وديانة مختلفين عن جنسية وديانة الأم. لكن ليس من السهل أن نفهم نزعة يونسكو الصهيونية، ونطرقه فيها، دون أن نلقي نظرة على تاريخ حياته.

لسنا من أنصار الربط المبسط بين بيئة الكاتب وأفكاره وبين تاريخ حياته وأعماله، لكن إذا عرفنا أن يونسكو قد كتب ثلاثة كتب يعرض فيها سيرته الذاتية، بالإضافة إلى أجزاء من كتابين آخرين نشر فيها يومياته، وهو ما يمثل نصف كتبه النثرية غير المسرحية، بالإضافة إلى عشرات المقالات المنشورة في الصحف عن مذكراته، وذكرياته وأحلام رآها، وإشاراته العديدة لحياته في العشرات من لقاءاته وحواراته الصحفية، وتركيزه على علاقته بأبيه وأمه وزوجته، فإنه لو عرفنا كل ذلك لأدركنا تأثير حياة يونسكو وبالأخص طفولته الخمسة، على فكره وموقفه المؤيد بحساس للصهيونية (٢٣).

ولد يونسكو لأب روماني مسيحي ولأم فرنسية يهودية. وكان أبوه على

خلاف دائم مع أمه ويسى معاملاتها «يعيرها، يبدنها، وانتهى الأمر بانفصالهما ويزواج الأب من امرأة ثانية. عاش يونسكو طفولة مصدومة، يتعامل مع أمه ومع كل ما يعيرها به أبوه، ثم عاش صدمة انفصال والديه وحمل أمه مأساوية ذلك الخطاب، ثم عاش تجربة الحياة مع زوجة أبيه وكان يشكو سوء معاملة أبيه وزوجه الجديدة وانتهى الأمر بأن ترك بيت أبيه. أثرت تلك التجارب على يونسكو أيضاً تأثير وأورثته تعاطفاً شديداً مع اليهودية وعطشه يماهى بين اضطهاد أبيه وأمه وبين الاضطهاد الذي يتعرض له اليهود في العالم، ثم يتخذ موقفاً عنيفاً على المستوى الشخصي؛ يتشاجر مع أبيه ويقاطعه وعلى المستوى العام؛ يتبنى أطروحات الصهيونية ومواقفها.

ورغم أن يونسكو يعتبر يهودياً طبقاً للشريعة اليهودية، إلا إنه لم يكن يهودياً، وكان يجاهر أحياناً بإلحاده أو بلا أدريته أو بانتماذه للمسيحية دون ممارسة الشعائر، حسب تقلباته لكن يونسكو يذكر في كتابه «حاضر ماض، ماض حاضر» أنه أضح أباه في جدل بينهما قاتلاً له: «من الأفضل أن أكون، «متهوداً» عن أن أكون عبوراً أحمق»، بنبذة تقيي بؤس من القصر «بهوره»، ويبدو لنا حبه الصهيونية لليهود مطلقاً من أسباب عرقية، لتعاطفه مع أمه، لا من أسباب دينية أو فكرية أو ميولوجية.

وتفسر كراهية يونسكو لأبيه جانباً أساسياً من كراهيته للأنظمة الشمولية ومن نقده لكافة الأنظمة السياسية، فقد كان أبوه مؤيداً دائماً للسلطة، أيا كانت: كان عضواً في الحزب المحافظ المحافظ لأماني، أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم عضواً في حزب الفلاحين القومي ذي الميول الماسونية ثم عضواً في الحرس

الحديدي النازي ثم عضواً في الحزب الشيوعي بعد الحرب العالمية الثانية (٢٤) ولطالما استشهد يونسكو بهذا المثال دليلاً على أن كافة الأنظمة مجرد أدوات للسلطة واعتناقها مجرد وسيلة للوصول للسلطة أو للانخراط في القلبي وفي الحالين هي أداة لإشباع غرائز ولتقيق طموحات معينة.

وربما كانت كراهية يونسكو للاتحاد السوفيتي لا ترجع فحسب لزعامته على العالم الاشتراكي سابقاً، بل كذلك لما ذكره من أن رومانيا كانت دوماً تقارم الإمبريالية الروسية، سواء كانت قيصرية (في طفولة يونسكو) أو شيوعية (في رجولته). (٢٥)

المناضل الصهيوني

إذا ما فهمنا سر انتماء يونسكو الصهيوني، ندرك الدافع الذي أدى به لأن يكيل السباب للعرب وأمصر خاصة، وبالأذات في مرحلة تسدين الموقف في الشرق الأوسط، التي سبقت عدوان خصيصاً أيوب مصر ويمجد في إسرائيل ويردد ادعاءات الصهيونية وقتها عن الفطر المحيق بإسرائيل وانتماء العرب محوها، لتبرر العدوان، بالتوازن مع استدعاء شخرات من سيرته الذاتية، يستدر فيها التلطف على أمه اليهودية التي اضطهدتها أبوه المسيحي وهي صورة مصغرة للعب الصهيونية على عقدة الذنب لدى الغرب المسيحي تجاه اضطهاد اليهود، وهو يذكر صراحة في هذا الكتاب: «حاضر ماض، ماض حاضر» (٢٦) أنه سأل مسولاً إسرائيلياً عما يمكن أن يقدمه لإسرائيل في تلك «الحنة» التي سبقت عدوان ١٩٦٧. فجاءه رد المسؤل: «يمكنك أن تكتب» وقد كان هذا الكتاب، الذي شكل واحداً من عناصر البروباجندا الصهيونية التي

صورته إسرائيل بمظهر البريء المهدد بالفتنة لتجبر العدوان واحتلال الأراضي العربية.

وقد كتب يونسكو العديد من المقالات في الصحف والمجلات التي تجري في اتجاه الدعاية لإسرائيل وإثارة التعاطف معها، جنبا إلى جنب مع وصف العرب بأشنع الأوصاف، ووضعتهم مع الاتحاد السوفييتي في سلة واحدة، ليسهل عليه الهجوم على كل أعدائه مرة واحدة.

هكذا نجد في مقالات متفرقة نشرت في «الفيجارو» و«لوموند» أكبر جريدتين يوميتين في فرنسا، بعد حرب ١٩٧٣، يكتب عن الأخطار المحدقة بإسرائيل وكيف أنها جزء من العالم الغربي، سياسيا وثقافيا، يدعى على أوروبا الأم أن تدعمها حيث إنها راحة الديمقراطية في المنطقة وحيث إنها تتعرض لخطر شتات جديد على يد العرب المتحمسين، وماذا يصير العرب أن يتركوا فلسطين للصهيانية وقد بقي لهم ما بين المحيط والخليج، إلى آخر الحجج الصهيونية المحفوظة. (٢٧)

ونلاحظ في هذا كله أنه لا يذكر شيئا عن الشعب الفلسطيني الذي طرد من أرضه ولا عن عدم مشروعية احتلال أراضي للغير ولا عن أن منع اضطهاد اليهود لا يعنى اضطهاد الفلسطينيين وسلبهم وطنهم. باختصار، تعامل يونسكو مع المسألة كمناضل صهيوني شرير، لا ككاتب موضوعي، ولذلك توارى تشويحه لصورة الفلسطينيين والعرب والمسلمين، مع إثارة التعاطف مع إسرائيل.

كان يونسكو سباقا لخدمة إسرائيل: يشرع في كتابته «حاضر ماض» في ١٩٦٧، ويشتر مقاله «إسرائيل وما بعد منها...» في «الفيجارو» بعد أيام قليلة من حرب أكتوبر، ويقول إن العرب والمسلمين يهددون إسرائيل والغرب مثلما يهدد هما الاتحاد السوفييتي، وهو قول كان ذا وقع قوي في أوج اشتداد الحرب الباردة.

ويقول يونسكو في المقال نفسه إنه لا يفهم سر إصرار العرب على تدمير إسرائيل، كان حرب أكتوبر لم تكن حربا لتحرير سيدها المحتلة. ويقول كذلك «هل أن يزرع (الإسرائيلي) حديقته ضرب من الاستعمار؟» كأن الإسرائيليين لم يطردوا أصحاب الأرض ليجدها في زراعتها، وكانهم مزارعون مسالمون لا محبثون بقوة السلاح وكان يونسكو لم يسمع عن فظائع ميليشيات للمستوطنين. (٢٨)

وفي حوار ألقى به يونسكو لجمعية «الأرض» اليهودية الصهيونية ينتقد اليهود الفرنسيين الذين يقدمون انتماءهم الوطني على انتمائهم الديني ثم يقول «في النهاية، هؤلاء هم الذين يتصردهم الاضطهاد ويزرع عليهم أقتعتهم. لذلك يدعى عليهم أن يتحدوا، وأن ينظروا صفوفهم في إطار بلدهم. وهذا البلد هو إسرائيل. أن ترتكب الدولة بعد تأسيسها أحيانا، بعض الأعمال المستهجنة، مثل سفك الدماء، فهذا أمر يؤسف له. لكن هذا البلد مهدد بالإبادة في كل لحظة وسكانه مهذبون بالمتابع، كما كان حال الأمة اليهودية في الشتات، فيما مضى». (٢٩).

هكذا يبرر يونسكو جرائم إسرائيل ويخفف من إثمها ويؤيد حق إسرائيل في الوجود على حساب أصحاب الأرض، بحجة حماية لليهود. وفي أكثر من موضع نجد بصم على أن معاداة الصهيونية تساوى بالضبط معاداة السامية، وهي مغالطة فادحة يروج لها الصهيانية ليصوروا معارضى سياستهم العنصرية الاحتلالية على أنهم يضطهدون قوما لأسباب عرقية دينية.

ليس بمستغرب إذن أن يدين نجاح يونسكو بجزء من الفصل إلى تعاون مع الصهيانية ومؤيديهم. ويصف عامة كثيرا ما تعاون يونسكو مع فنانين يهود. تأكدت شهرة يونسكو عالميا بفضل مسرحيته «خراييت» التي عرضت في العديد من بلاد العالم، وكانت عروضها الأولى

تتزامن في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا وأمريكا ولأته على بها الهجوم على النازية فقد أخرجها ومثلها كبار النجوم في العالم، مثل أوريسون ويلز ولورنس أوليفيه في إنجلترا وموريتي في إيطاليا وجان لوى بارو في فرنسا.

حصل يونسكو بعدها على كامل اعتراف المؤسسة المسرحية الفرنسية، عندما أخرج بارو «خراييت»، وقام ببطولاتها في فرنسا، على مسرح «الأوديون» مسرح فرنسا، وهو واحد من أكبر مسارح فرنسا. ثم قدم له بارو على ذات المسرح عمله التالي: «الماشى على الهواء» رجان لوى بارو، إلى جانب أنه عملاق من عملاقة التمثيل والإخراج في المسرح الفرنسي، فهو كذلك من كبار المتعاطفين مع الصهيونية، كما سجل ذلك في كتبه وحواراته الصحفية.

بعد مسرح الأوديون، عرضت مسرحيات يونسكو على مسرح «الكوميدي فرانسيز» وهذا غاية ما يتناها مؤلف مسرحي من اعتراف المؤسسة الفرنسية، إذ يعنى ذلك أن أعماله دخلت في عداد الكلاسيكات.

كذلك في إنجلترا، يدين يونسكو بجزء من شهرته للناقد والإذاعي البريطاني مارتن إسميلين المعروف باتحياز له للصهيونية.

وربما لم تكن مصادفة أن يدخل يونسكو الأكاديمية الفرنسية، عام ١٩٧٠، بعد عامين من صدور كتابه المنشور الصهيوني «ماض حاضر» مرة أخرى تعد تلك العضوية تكريما مهما من المؤسسة الرسمية لفرنسا.

مع ذلك، ظل يونسكو يتسنى الحصول على جائزة نوبل. لكنه لم يحصل عليها. وزاد من خيبة أمه أنها ملحت لصمويل بيكيت، زميله في قيادة طلائع مسرح العبث. ونزع أن يونسكو

كان يغار من منافسة بيكيت، فإن وصفه تارة بأنه «أهم كاتب بالفرنسية في يومنا هذا» (٣٠)، فإنه يصف مسرح بيكيت تارة أخرى بأنه عمل وثارة يشهر من طرف خفي لإحلال بيكيت (٣١)، في سياق يدين هذا الموقف. ثم نشر يونسكو صراحة في إحدى يومياته أنه محبط لمنح نوبل لـ «بيكيت».

الفن والسياسة

عندما نلتفت الأنظار للصهيونية يونسكو وعدائه للثقافة، فنحن لا نهدف لإثارة الحق عليه. (٣٢) وعندما نحاول تفسير هذين الموقفين ورصدهما لا نقصد لإثارة التعاطف معه ولا التقليل من قيمته كمؤلف مسرحي مجدد وعبقري. فالن لا يتجسم بالأخلاق أو المواقف السياسية والفكرية. إنما يسهم فهم المواقف السياسية في تفسير الفن ويسهم في توضيح (أو التعتيم على) المواقف السياسية. هكذا حاولنا أن نفهم يونسكو وهكذا نميز بين إيجابنا بعبقريته وبين رفضنا لمواقفه السياسية، لا سيما صهيونيه.

لا نلتصق الصهيونية من قيمة يونسكو الفنية، وإن انتقصت من قيمته الفكرية في نظرنا، تماماً كما أن انضمام «بيرندتلر» للحزب النازي، بموجب خطاب مفتوح موجه «لأميراليين» لا ينفي أنه كان مؤلفاً مسرحياً قذاً وألماً ننقم عليه انخراطه تحت لواء «الدوتشي».

الهوامش :

(١) توفى أوجين يونسكو في ٢٨ مارس ١٩٩٤. وظهرت في الأيام التالية مقالات كل من «فريدة النقاش» - الأهالي ٩٤/٤/٦، وطلعت الشايب - أخبار الأدب ٩٤/٤/٣ - «فخمي المصري» - الأهرام ٩٤/٤/١٥، إلخ.

(٢) جان هيرفيه دونار: يونسكو كتابا مسرحياً أو الصناع والتشيلان، باريس. دار إيتز مودرن. ١٩٦٦ (بالفرنسية).

(٣) في كدابة، يونسكو غانما قلبه، يقدم جيلادير طرب قروامة سوسيو لوجية ممثلة لملققة مسرح يونسكو بالواقع التاريخي الذي أُنشج فيه. دار سيركل دي ليفري فرانس. مونتريال ١٩٧٠. (بالفرنسية)

(٤) انظر مقاله **peut. Le théâtre ne évoluer sans être dépolitisé**

الفجارو الأدبي ٧٢/١/٢٤.

وسلر فيما يلي أنه يعطي نزع الاتجاه اليساري عن المسرح، مثل الاتجاهات البريختية، لا نزع السياسة فصب.

(٥) انظر «المركبة اللغنية» في كتاب يونسكو «ملاحظات وملاحظات مضادة» باريس. دار جاليمار ١٩٦٢ ص ٦٩ - ٩٠

(٦) انظر مقالات رولان بارت ورنار دورت عن مسرحيات يونسكو في مجلة «المسرح الشعبي»

(٧) كتب يونسكو مقالاً بعنوان «لا أحب بريخت» في الفجارو الأدبي ٧١/٣/١٢

(٨) راجع المحدث الذي أدلى به يونسكو لـ «كراسات الشباب للكرة» عام ١٩٦٠

(٩) يونسكو، الفجارو، ٧٢/٩/٢٨: «أولندي أو لشركاية الآخرين» كتب هذا المقال ولم الشهيد أيلندي لم يزل يد حاراً.

(١٠) يونسكو: «سراب الثورة»، جريدة الجورنال، يونيو ١٩٧٥.

(١١) يونسكو، الفجارو، ٧٦/٧/٨.

(١٢) انظر مثلاً: يونسكو، «كروكاً أسماً مارو»، الفجارو ٧٦/٩/٣٠.

(١٣) يشير يونسكو لقوله هذا في الحوار المنشور معه بمجلة إكسبريس ١٩٧٠/١٠/٥، بمد استهزاء جيفارا.

(١٤) راجع مثلاً ما نُشر على لسان يونسكو بعنوان «مأساة اللغة» في مجلة Tulane Drama Review ربيع ١٩٦٠.

(١٥) انظر العدد ٩٧ من «كراسات روتو» - بارو، باريس. دار جاليمار ١٩٧٨ بعنوان «يونسكو خرقته».

(١٦) نفسه.

(١٧) حديث يونسكو للإكسبريس - سبق ذكره

(١٨) Joneso, Antidotes, paris, galimard, 1977

(١٩) Ionesco, un homme en question, Gallimard, 1977

(٢٠) حديث يونسكو للإكسبريس - سبق ذكره.

(و) في كتابه «ترياقات» يقول إن الأنظمة الملكية أفضل من اليمين واليسار لأن للحاكم معروف مقدماً ويزيل الأعباء الساسة البالحين عن الوصول للحكم.

(٢١) نفسه.

(٢٢) نفسه.

(٢٣) عن سيرة حياة يونسكو، انظر مثلاً:

Journal En Miettes - Present Passe, Passe La Photo Dv Colonel Decouvertes - Un homme En Question.

(٢٤) انظر حديث يونسكو للإكسبريس - سبق ذكره.

(٢٥) نفسه.

(٢٦) Ionesco, Present Passe Mercure De france 1968

(٢٧) جمعت هذه المقالات في كتاب يونسكو «ترياقات» Antidotes ص ٤٦ - ٧٠.

(٢٨) يونسكو، الفجارو، ٧٢/١٠/٢٩.

(٢٩) حديث يونسكو لمجلة «الأرض» - مارس - أبريل ١٩٧٣.

(٣٠) يونسكو، ترياقات، ص ١٠٢.

(٣١) نفسه ص ٥٢.

(٣٢) كانت فريدة النقاش هي الوحيدة التي أشارت في عجلة لتعاطف يونسكو مع إسرائيل ولوقوفه المائل. الأهالي. سبق ذكره.

إلى المقاعد الفرجية يونسكو : كل الركاب يسرعون

هذه ترجمة لحوارين أجريا مع يونسكو، لم يسبق نشرهما بالعربية.

ترجم الحديث الأول عبد القادر التلمساني، وهو حديث أدلى به يونسكو لمجلة «كراسات الشباب الحرة» ثم نشر في كتاب «ملاحظات وملاحظات مضادة»، ويطرق موضوعات عديدة تفسر عالمه الفني وتحدد نظريته لوظيفة الفن الاجتماعية.

أما الحديث الثاني، من ترجمة مي التلمساني، فقد أدلى به يونسكو لأليسون براوننج، المدرسة بالمعهد العالي للدراسات العلمية بجنيف وصاحبة أبحاث هامة في العلوم السياسية.

نشر الحديث في كتاب «أوروبا ومفكروها.. إلى أين»، الذي ضم حوارات أجرتها الباحثة مع عدد من المثقفين الأوروبيين حول تصورهم لوحدة أوروبا الفكرية والثقافية. يكشف الحوار عن نزعة إنسانية ووحدية لدى يونسكو، تتكامل (وتتناقض) مع تعصبه للغرب في مواجهة الشرق، الذي اتسلخ منه، إذ هو روماني الأصل.

● لقد قلت مرة: إن الواقع وحده هو القابل للتحويل إلى كابوس. ماذا تعني بذلك؟

— إن شخصياتي تهزل من حين لآخر، أو تمر عن نفسها بطريقة هزلية ضاحكة. وهي أيضا تقول حماقات، أو حتى تسيء التعبير ولا تعرف نفسها جيدا، وتبحث عن ذاتها من خلال أعمالها الخرفاء وتخطئاتها للخاصة. إنهم رجال، كتابلية الرجال، لا يتحدثون في جد ووقار كلما فتموا أفواههم، وهم يقولون أيضا عكس ما أفكر، أو يفكر البطل المقابل.

لم أقل أنا نفسي إن «الواقع، على عكس الحلم، يتحول إلى كابوس». لقد نطق أحد الشخصيات بهذه الجملة، وعليه يجب أن نرى من هو صاحب هذه الشخصية، وإن كان قد تكلم في جد، أو كان يسخر، وفي أي موقف قال ما قاله؟ ولماذا؟ وما الذي يقصده بذلك؟ إلخ... وعلى الخصوص هل هو يعرف جيدا كيف يقول ما يريد أن يقوله؟ عليكم أن تلقوا بهذه الأسئلة على شخصياتي وليس على.

● ولكن ما هو نصيب الفرد في هذا «الكابوس» الواقعي؟ وهل معنى هذا أن الواقع هو حلم؟ أو أن الحلم واقع؟

— الآن، إذا سألتوني رأيي الشخصي عن هذا «الكابوس الواقعي»، فأنا أعترف لكم - فيما بيننا تماما - أنني أشعر حقاً أن الحياة ذات طابع كابوسي مزعج، وأنها مؤلمة، وغير محتملة، كطعم سيء. أنظروا حولكم: حروب، كوارث وفراغ، أحقاد ومظالم، بليلة وأرتباك، ثم هذا الموت الذي يترصدنا. نحن نتحدث دون أن نفهم بعضنا بعضاً، نحن نقاوم بعضنا البعض قدر طاقتنا في عالم يبدد مضايبا بحمي هائلة. أليس الإنسان، كما قيل، هو الحيوان المريض، ألا نحس أن الواقع مزيف وأنه لا يلاكمنا؟ وأن هذا العالم ليس هو عالمنا الحقيقي؟

المشغول دائما هو ذلك القائم في مقدمة العربة حيث يجلس عليه الراكب بمفرده. إن النمل والنحل والطيور مخلوقات اجتماعية. أما الإنسان فهو على الأرجح لا اجتماعي. وهو مع ذلك اجتماعي، فليس في الإمكان غير ذلك.

وكون المرء لا اجتماعيا يعني في نهاية الأمر أنه، رغم ذلك، اجتماعي بطريقة مختلفة. فقط ينضوي اليوم تحت كلمة اجتماعي - سواء عن قصد أو عن غير قصد - عدد عظيم من المعاني التي أسوء فهمها. وهكذا فهم يقولون إن أي فعل أو عمل فني لا بد أن يكون له أهمية اجتماعية، وغالبا ما يعني هذا أن يكون له هدف سياسي (وإن يعبر عن اتجاهات حركة سياسية محددة) أو يكون له هدف دعائي، أو عملي. ولعند إلى المظهر الظهي لأعماله، مادامه تتكون على بالسؤال، وأقول لكم إنني حينما أعمل لا أحس بأنني أتخلى عن التفكير. بل على العكس أحس أنني أرى، وأنا أعلم، حقائق تبدو لي غاية في الوضوح والجلالة وفي ضوء أشد نضاعة، وبحدة أشد عفا مما يحدث لي في حالة اليقظة، حيث غالبا ما تخف حدة كل شيء وتضع معالجه الذاتية ويتحول إلى أشكال ثابتة جامدة. ولهذا السبب أستعمل في مسرحي صورا من أحلامي وحقائق واقعية من نسج الأحلام .

Mealites reveés

● أنت تقول أيضا إنك لا تقدر ولا تقول، ولكنك توضح أفكارك وتشرح نفسك. ما هو الشاهد الذي يشرح نفسه؟

- حينما أقول إنني شاهد فأنا أعني على الخصوص أنني لمت قاضيا. أنا لمت رئيس المحكمة ولا وكيل النيابة ولا المحامي. وإذا كان الشاهد قد اختاره الدفاع أو الاتهام فهذا من شأنهم هم. أما الشاهد فهو أساسا لا يتخذ موقفا معينا ولا يحاز. وإذا كان نزيها يجب عليه أن يكون موضوعيا... في نظرتي الذاتية.



يونسكو

على التنظيم الاجتماعي، على الآلية الاجتماعية، ولا يكتفى بها. ولقد قلت من قبل، أنا أيضا، إن المجتمع المعين هو اجتماعي فوق العادة extra Social ليست لحلامنا الجوهرية واحدة؟ ألاكتشف عن قلقنا المشترك، ورغباتنا المشتركة؟ والتنظيم الاجتماعي أليس هو ذلك الشيء الذي خرج من أفئدتنا ثم استقل عنا وأصبحت من عبئنا؟ وهذا هو فعلا ما يجعل هناك أناس لا اجتماعيين. وحينما أعمل إلى أعماق أعماق نفسي أجعني ألتقي مع وحدة جماعية (كوميون) مشية.

وكثيرا ما يفصلني المجتمع (الخارجي) عن نفسي وعن الآخرين في ذات الوقت. إنني أفضل كلمة للجماعية، (كوميون Coumunauté) على كلمة اجتماعي، وعلم الاجتماع (سوسيولوجيا) إلخ... إن هذه الجماعية الخارجية الخارجية عن نطاق التاريخ extra Historique تبصر لي جوهرية... ونحن نستطيع أن نلتقي معها ونصل بها فيما وراء الفروايج والفتايريس، والطوائف والطبقات إلخ...

لقد قالوا وأعادوا القول إن الإنسان حيوان اجتماعي... ولكن أليس عليكم سوى أن تفهموا ما يحدث في عريات المترو: كل الراكب يسرعون إلى المقاعد الفردية، وفي الأوتوبيس نجد أن المقعد

ويعني آخر، أننا ليس فقط لا نريد تغيير أي شيء فيه، وإنما ليس لدينا حتى مجرد الوعي بأن هذا العلم ناقص وغير كامل. وأعرب الغرائب أننا مريبوطون إلى هذا الكابوس الواقع، وأن زواله يبدو لنا أشد هولاً من شفاعته. لقد خلقنا للنهف كل شيء، ونحن لانفهم أنفسنا إلا قليلا، ولا يفهم بعضنا البعض مطلقا. لقد خلقنا لكي نعيش معا، ونحن نمزق بعضنا البعض فيما بيننا. نحن لا نريد أن نموت، ومعنى هذا أننا خلقنا لتكون خالدين... ولكننا نموت، هذا شيء مخيف وغير جاد. أي تقدير أستطيع أن أحمله لهذا العالم الذي ليس له أي صلاية والذي يختفي من الوجود؟ أين أرى كامو Camus، إنني أرى أتلان Atlan وفجأة لا أراها بعد ذلك. إنها مسخرة. وهذا الأمر يكاد يحتملي على الضحك. وباختصار، لقد استنفذ الملك سليمان، من قبل، الكلام في هذا الموضوع.

تسألون عما إذا كان العالم ليس سوى وهم؟ أنا لا أستطيع إجابته. اسألوا حكماء الشرق الميتافيزيقيين (علماء ما وراء الطبيعة) لمستنبطوا في هذا الموضوع. والواقع أن ليس لهذا أدنى اعتبار. إنه يبدو لنا كواقع، ومن الواضح أننا نكافح مع هذا الواقع (ولو أنه زوال) ونصارع معه.

● هل الأسر يتعلق بواقع اجتماعي؟ وفي هذه الحالة، هل هو ذلك الطابع الحلمي والاجتماعي معا الذي يسمح لك بالاستفادة من هذا الواقع كفنان؟

- طبعا الأمر ينطبق بواقع اجتماعي، وفردى، وبيولوجي، وفيزيكي، إلخ... بواقع اجتماعي، كما يمكن أن يبدو هذا الواقع للناس. وبأي واقع آخر يمكن أن يتعلق الأمر.

ثم إن كل شيء اجتماعي بمعنى ما. ومع ذلك فأنا أعتقد أن المرء لا يقتصر

فوكيل النيابة الذى ينحى على المتهم (وهذا هو دورهم) والحماسى الذى يدافع عنه (فهذه مهنته) مغرضون ومتحيزون. إنهم يقومون بأفعال... سياسية وإستراتيجية. ورئيس المحكمة هو البابا، هو رئيس الدولة، هو كل أولئك الذين يمسكون فى أيديهم بالكتاب، المقدس، والقانون، وبالمذاهب الجامدة Dogmes. ولديهم الجرأة على الحكم.

إن الشاهد يروى قصة، بل لعله يفعل ذلك بالضبط، وإنما هو يعرض كيف بدت له الوقائع. إنه يقول الحقيقة... الذاتية طبعاً. وهو على الرغم من كل شيء قاضٍ بقدر يسير، وهو كذلك عن خطأ. فالشاهد المطلق لا يجب أن يكون كذلك مادام لا يجب أن يكون له موقفاً معيناً ولا يجب أن يخاص.

نعم أنا لا أفسر ولا أوول. أنا شاهد أى خاضع لتفسيرات وتأويلات الآخرين. ولكى أوضّح أفكارى وأشرح نفسى، بمعنى أنه حينما يجد القضاة أن عرضى الموضوع غير واضح فأنا أحاول تحديده بدقة. وهذا بالضبط ما تجعلونى أفعله الآن. إنى أحاول توضيح نفسى بدقة وخاصة حينما يريد البعض (وهذا يحدث لى كثيراً) أن يجعلنى أقول أشياء أنا لم أقولها.

إن الشاهد (أى: الشاعر) يروى إذن كيف يبدو العالم لمضمره ووجدانه. ولكن كل شهادة هى نوع من إعادة الخلق، أو الخلق، ما دام كل شيء ذللاً. ونحن نظم أيضاً أن النظرات الذاتية تتلاقى. وعلى ذلك تكون الموضوعية هى اتفاق عام شامل can sensus للظنرات الذاتية.

وهكذا، ولكى نعود إلى سؤالكم السالف، لن نغامر كثيراً إذا قلنا إننا نعلم كلنا، وبشكل جماعى، للواقع نفسه، الحقيقة نفسها، ما دام الواقع ليس سوى ما تخال أنه كذلك.

وفى المحكمة، يكون الشاهد هو أكثر الناس حرية. ويأتى بعده المتهم، ولو كان

مكبلاً بالعديد. إن السجناء الحقيقيين هم القضاة، سجناء قوانينهم ومعتقداتهم الجامدة. وليس لديهم حرية ذاتيتهم، ماداموا خاضعين للمقاييس القضائية.

ومن الأمور التى تضايق المرء أن يحاكم وبعد المحاكمة هناك الاستئناف ثم النقض... وإذا اختلفت الأحكام فإن الشهادة المسجلة، تظل كما هى. وبينما المحاكم تمر الواحدة بعد الأخرى، وتتناقض فيما بينها تصبح الشهادة (وهى طبعاً شهادة لشئ ما) فى نهاية الأمر نوعاً من الشهادة فى ذاتها، لأصاحب لها، ودائمة أما القوانين فتختلف، وكذلك وجهات النظر. إن الشهادة كما فهمتم، هى العمل الفنى والمحاكم هى المجتمعات، هى الروح التاريخية Historicité. إن المحاكم ليست بالأمر الجاد: إنها مسرح، احتفال مسرحى.

● إن مسرحك إذن مع ذلك دور المرأة لجمهورك. على أية صورة يجب أن يعيد اكتشاف نفسه فيه؟

— طبعاً أنا أرجو أن يكون لمسرحى هذه القيمة. مادامت — وأكرر ذلك — كبقية الناس فى أعماق أعماق نفسى، مع بقاءى فى ذات الوقت أنا نفسى. ويجب على الاجتماعيين على الأقل أن يعرفوا أنفسهم فى.

ولكن حينما أكون على السطح الاجتماعى لنفسى أصبح غير شخصى أو أكون نفسى إلى حد قليل جداً.

لقد ظنوا أنهم عرفوا الرجل البورجوازي، والرجل البروليتارى، والصانع المصرفى، والرجل المسمى، والزوج إلخ... ألا ترون معنى أن الرجل العرفى والرجل العسكري إلخ... ليس كل الرجل، وأنكم تجردونه من إنسانيته بوضعه فى القالب الاجتماعى؟ ألا ترون أنكم تشوهونه بتحديدته هكذا؟ وأنكم تشوهون بالضبط ما هو جوهرى فيه؟ إن

هناك جماعية أخرى غير محددة فى قالب اجتماعى معين، تلك التى أنشأتها منذ قليل؟

● إنك تقول إن جمهورك يجب أن يحسن بالضيق النفسى. ليس هذا هو الدور التثريوى لأعمالك الذى تتكره أنت مع ذلك؟

— لقد قلت ذلك فيما أنظر مرة: فى الملاحظات الموجهة للممثلين فى مسرحية «جاك... أو الضئير». لقد كنت أريد أن يكون تفهيمهم، متجاً وثقلاً، حتى ينفقوا للمستعرجين القلق والضيق واضطراب النفس.

إنكم ترون فى ذلك هدفاً تربوياً. ولكننا بالطبع نستطيع أن نستخلص دروساً من أى شئ وحتى من الدرس نفسه إذا أردنا ذلك، ولا شك أنه أمر حسن. وعلى ذلك إذن نستطيع أن نقول إن كل شئ هو درس مباح، وكذلك نستطيع أن نقول إن الكرسي هو مضئفة إذا ما استعملته كمنضدة. بل نستطيع أيضاً أن نقول إن هذا الكرسي نفسه طائفة، وليس على إلا أن أضيف له مروحة وأجنحة وموتوراً. ومع ذلك فسوف يصبح من الصعب على أن أقول إن الكرسي هو قطعة من اللادن أو قالباً من السكر على الرغم من أنه يمكن أن يوجد سكر على هيئة كرسي. ومن الممكن إذن أن نقول إن كل شئ تربوياً، وأن كل شئ اجتماعى، حتى الاجتماعى لأنه لا وجود لشئ إنسانى خارج المجتمع كما لا يوجد شئ خارج الكون وإن كل شئ سيكولوجى، وكل شئ هو عدد، وقابل للهتسة، إلخ...

ومع ذلك، فهناك سماء بريد، ورجال بوليس، ووجود مرتزقة، ومدرسون وشعراء. والمدرس يحكم مهنته هو أساس تربوياً. وإذا أردتم أن تجعلوا الشاعر مدرساً فلن يصبح بعد ذلك شاعراً وسيصبح مدرساً. وإذا كان هناك الشاعر، إذا كان هناك الشعر، فلا شك أن



جان بول سارتر

يعبر عن رأى أولئك الذين لا يوافقون: وبذلك فقط يمكن تجنب أسوأ ما فى الوجود.

ومع ذلك فيبرانجيه هو على الخصوص، فيما أرجو، شخصية. ولذا قارم الزمن فيما بعد فذلك لأنه شخصية، وعليه، إذا كان حقاً شخصية أن يعيش حتى بعد أن تكون رسالته قد اندثرت فليس المهم من الناحية الشعرية فكره، وإنما روحه المتألقة وعواطفه المتأججة، وحياته المتخيلة هي المهمة، لأن رسالته يمكن أن يقولها اليوم أيضاً كاتب صحفى أو فيلسوف أو رجل أخلاق إلخ...

إن الأهمية الزائدة لموقف ما، رغم أهميته الإنسانية، تصبح ثانوية بالأسبة للأهمية الدائمة للفن.

● كيف لا تستطيع إذن فى هذه الحالة ألا ترفض الفن نفسه؟

— أرفض الفن؟ وهل أستطيع — رغم تشاؤمي وسوء المزاج أن أرفض التنفس؟ إن الشعر، والحاجة إلى الخيال والتخيل والخلق، هي أساسية تماماً كالحاجة إلى التنفس (التنفس هو أن تنفّس، لا أن تهرب من الحياة) أو يعتبر هرباً أن يؤلف الموسيقى سوناتا؟ وفيم تستخدم هذه السوناتا؟ وفيم تستخدم لوحة مصورة؟ هل اللوحة الفنية اتخاذ لموقف عملى ما؟ إنه أمر اجتماعى طبعاً، ولكنه ليس عملياً.

إن الخلق الفنى يستجيب لأجاجة ضرورية جداً وحيتمية فى النفس البشرية. وهؤلاء المحرومون من هذا، والذين لا يسمح لهم بحرية الاختراع، واللعب، وخلق الأعمال الفنية، فيما وراء كل «التزام» يعانين فى عقم. حتى ولو لم يتبينوا ذلك على الفور بوضوح.

إنى أعسرف من هذا النوع كثيراً. وعلمنا أن نساعدكم حتى لا يفتنوا.

(الكراسات الحرة للشباب، ١٩٦٠)

مع نفسى، وأنى قد حاولت كتابة «مسرح ملازم، وأن أدافع وأتهم. ولكننا جميعاً نتناقض ونتعارض فى الحياة. إن أعظم الفلاسفة يتناقضون فى داخل منهجهم نفسه. ولكن الشاعر الذى يكتب أحياناً عملاً ما، وأحياناً عملاً آخر؟ لا أعتقد أن من واجبه التغلب على المتناقضات وإيجاد الحلول لها. إن هذا يقلل من خصوصية العمل ويفقده. يجب أن ندع المتناقضات تكفح (وتطلق) بمثلها الحرية وربما اتحدت المتناقضات من نفسها، مع استمرار تعارضها، فى توازن ديناميكى وسوف نرى ماذا يعطى هذا الوضع.

أنا أستطيع أن أكتب مرة مسرحاً حرّاً ولا أدفع له ولا هدف ثم أكتب «قاتل بلا أجر» و«الفرثيت» ولكنى فى هاتين المسرحيتين أيضاً لا أصدر حكماً ولا أقاضى، إننى أرى قصة حدثت «ليبرانجيه» وأتلمس تفسيرات لها (ربما لا أوافق عليها) ولكن، هل أنا حقاً لا أحكم؟

ربما فطعت ذلك.. فالدفاع هو أيضاً إصدار حكم. وفى هذه الحالة أعتقد أن ليبرانجيه بطل «الفرثيت»، هو تماماً كما قال جان-بول سارتر واحد من أولئك الذين يعيشون «فى مجتمع إرهابى فى شكله السياسى، حيث الديكتاتورية قائمة والناس كلهم يتدو عليهم الموافقة، وهو

الشاعر هو شيء آخر غير المدرس وأن ما يقوم به هو شيء آخر غير الدرس. من الممكن أن نستخلص من «أوديب ملكاً» درساً مؤداه أنه إذا خرج المرء على القوانين الأخلاقية لا يمكن أن تحدث له أسوأ الكوارث والمضايقات. ولكن إذا كانت هذه المسألة ناجحة فلأنها قصة خيالية، قصة متوهمة ولها القدرة إلى حد تصديقها، ولأننا نعيش أيام الشخصيات مع الشخصيات، ولأنها عالم كامل أوجدته القوة الخالقة لدى الشاعر القديم، ولأن الأبطال أحياء، ولأن ذلك العلم المختصر يندمج فى العالم الحقيقى ويصبح حقيقياً، بينما هو لم يكن موجوداً من قبل، وكان من الممكن ألا يوجد على الإطلاق.

ومع ذلك، وفى الوقت نفسه نجد أن هذا العمل أيضاً هو شهادة ما: كتعب ربما من معطيات واقعية معينة، ولكنها تتجاوزها، وتبحث فيها الحياة، وتغير وجهها. إنها «شهادة»، بالخيال، ولا وجود للتناقض العميق فى الفن بين أن «نشهد» وأن «نتخيل».

إن الغيال الخلاق يكشف عن الحقائق كحكم واضح ناقد. نحن لا نكاد نستطيع الكذب. كل واحد يكذب بطريقته الخاصة، وهذه الطريقة تعبر عنه.

المدرس ليس شاهداً. إنه قاض. قاض وخضم وهو كذلك لا يتخيل.

إن الضرورية هي على الخصوص من صفات العقل، وهي تعبير عن إرادة للسيطرة.

● ألا يسمح «ليبرانجيه» للمترجمين على مسرحياته ألا يدخلوا بعد ذلك من أن يقبلوا أنفسهم على علاقتها كما هي؟ ثم أليس «ليبرانجيه» وهو يقام هو نفسه بونمكو الرافض للحياة؟ لماذا؟

— حسناً. ولنفرض أنك قد «متبطموني فى حالة تلبس، وأنا أناناقض

توبنوكو : أوربا .. تسلسل عمليات ناقصة

حوار : أليسون براوننج
ترجمة : م. التهامي

ق • من خلال كتاباتك نشعر
وطئك، لماذا؟ وما الذي تعنيه لك
كلمة «أوربا»؟

— كانت أوربا في القرون السابعة
وحدة حضارية ووحدة ثقافية، لكني لا
أعرف الآن إطلاقاً ما هي أوربا، إذ إنها
أصبحت شيئاً آخر لا يبدو لي مستقلاً عن
العالم.. الموجة الأمريكية والأيدلوجيات
الشرقية والتكنولوجيا الحديثة كلها
اجتاحت أوربا، حتى إنني كثيراً ما
أشعر إن كانت أوربا قد حافظت جيداً
على هويتها وشخصيتها.. كانت موحدة
حين كانت لدول أوربا الغربية لغة
مشتركة هي اللغة اللاتينية، كما حققت
اللغة الفرنسية لفترة ما وحدة أوربا حين
كانت هي لغة الأوروبيين الثقافية. هكذا
كانت الوحدة التي أحدثك عنها.. أما
الآن فهناك خليط من كل شيء خاصة
في الساعات التعليمية.. انخفضت الحركة
الإنسانية Humanisme وإن تعود أوربا
إلى سابق صحتها إلا إذا عادت الحركة
الإنسانية الروحية إلى الازدهار.. لكن
هل تعود الإنسانية، بشوب جديد، من
طريق جديد، في بلد آخر؟ هل تعود في
إحدى الأمريكتين؟ أشك في ذلك، بل
وأعتقد أن أوربا مهددة بمجزأها عن
تحقيق ذاتها.

الواقع أن مكونات الثقافة الأوروبية
وفدت إلينا من الخارج، من آسيا مع
دخول المسيحية، الآن اندمجت الروح
المسيحية مع الروح الأوروبية غير أني لا
أعلم ماذا سيكون مصير هذه المسيحية
الإنسانية. كما أن علينا أن نذكر أن أوربا
امتدت لتسع أجزاء عديدة من العالم مثل
روسيا التي لا اعتبرها أوروبية، والصين
عن طريق الماركسية والبلدان المستعمرة
في أفريقيا.. الماركسية نشأت في أوروبا
وتبدلت كثيراً في كل من روسيا والصين
إلى حد اكتساب صفات غير أوروبية..

خول إلينا أننا غزونا الصين وبعض أجزاء
من العالم بأفكارنا ومذاهبنا، لكن ما
حدث مع المسيحية حدث مع الماركسية،
دخلت بعض عناصر وثنية في المسيحية
وحل الفساد بشكل ما في الماركسية ذاتها
فانحرفت متأثرة بعبادات وتقاليد وقوالب
فكرية خاصة بالبلاد التي دخلتها، إننا لا
نخطئ حين نقول إن أوربا مسيحية لكننا
قمنا بتغيير المسيحية وجعلنا الكنائس
مؤسسات قائمة بذاتها بحيث لم تعد كما
كان من المقدر لها أن تظل.

• هل كان لديك دائماً إحساس
بأنك محاط بثقافة أوروبية؟ يبدو
أن الأمر على نقيض ذلك تبعاً لما
تقول؟

— كان لدى ذلك الإحساس منذ نحو
ثلاثين أو أربعين عاماً.. في ذلك العهد
كانت أوربا تقاوم التكنولوجيا الأمريكية،
لكن الوحدة اليوم مع كل تلك الرسوم
المنحركة الأمريكية، مع موسيقى الجاز
والثقافة السوداء، تبدو بعيدة المنال.

• ورد على لسانك في أحد
اللقاءات أن «الثقافة توحد بين
الناس والسياسة تفرق ما بينهم،
هل يعني ذلك أن الوحدة الأوروبية
بالتسوية لك يجب أن تتم على
المستوى الثقافي؟

— نعم، يجب أن تقوم الوحدة على
المستوى الثقافي وأن تركز على التراث
الثقافي الذي لا يزال حياً في فرنسا..
وفي فرنسا على وجه الخصوص كما في
تلك البلاد التي تتحدث الفرنسية، لأنه
في تلك التي تتحدث الألمانية تختلط
كثير من العناصر غير الأوروبية، خاصة
وأنا تجهل على وجه التحديد ماهية
أوربا حتى أننا لم نعد ندري إن كانت
أوربا موحدة أو مشتقة.

أوربا صغيرة جداً ومهددة من قوى
عظمى ومن إفراط تلك القوى في مجال

التصنيع. هل تكشفى أوروبا بالثرثرات
الأدبى الذى خلفه كورنى
وراسين Racine وموليير Molière ؟

● أليس لدى أوروبا تراث ثمين يمثل فى حقوق الإنسان ؟

— بلى، يمكننا أن نقرب أن أوروبا
ترتكز على مبادئ «الحرية، المساواة،
الإخاء، التى دعمتها الثورة الفرنسية،
ويمكننا أن نعتبر أن حقوق الإنسان
والاستقلال الوطنى مبادئ أوروبية. إنما
يحق لنا أن نتساءل عن معنى حقوق
الإنسان ومعنى الاستقلال الوطنى. لقد
رأينا أن الاستقلال الوطنى فى البلدان
التي كانت مستعمرة سابقاً لم يتبع مبدأ
الحرية لأن تلك البلدان أقسمت دولا
استبدادية تحت شعار الاستقلال الوطنى،
وحين تحررت بعض الدول التى كانت قد
إتجهت صوب الغرب فكرياً، أو بدأت فى
ذلك، انقلبت عاداتهم وديانهم عليهم ثم
علينا .. لكنا على أية حال لن نطبق الفكر
الشمولى فى أوروبا ولا النظام الاستبدادى
الذى يعيش فساداً فى دول أخرى .. على
أن هناك اضطراباً عاماً بين الشباب،
خاصة، أسأل نفسى إن كنا قادرين على
مقاومته.

● لكنا نحاول المقاومة رغم ذلك، مع مجلس المفكرين من أجل الحرىات فى أوروبا C.I.E.L. ؟

— نحن نفعل ما بوسعنا، وأعلى أنه
على الرغم من أن الموقف ميؤوس منه
تقريباً، إلا أن كل إنسان عليه أن يقوم
بدوره حين يستطيع، وحيث يستطيع.

● واليوم مع مجلس المفكرين هل تحاول إعادة خلق الاهتمام بالقيم الأوروبية، بالثقافة والعادات إلخ .. ؟

— نعم، من أجل الثقافة والتقاليد، من
أجل احترام حقوق الإنسان .. لكن ما هى



حقوق الإنسان تلك؟ من العسير أن
أفسرها، كما أنه من السخف أن أرد ما
هى، فالكلمة أصبحت تستخدم فى غير
موضعها، وهذا ما نفهمه نحن وحدنا ..
وأعلى أن الأوروبيين حين منحوا الدول
المستعمرة الاستقلال الوطنى، توهموا أن
فكرة الاستقلال وحرية الاختيار وحقوق
الإنسان تلائم العالم كله .. غير أن ذلك
ليس واقعاً، فالأفارقة لا يحفلون كثيراً
لذلك، بأنهم تطمين ما حدث فى أوغندا
ودول أخرى سواء فى شمال أفريقيا أو
أمريكا الجنوبية، إلخ.

إن حقوق الإنسان اختراع أوروبى
محض، وإن كنا لم نعد قادرين على
نشرها، وإن كانت هذه الحقوق لا تساوى
شيئاً للآخرين، فستحول إلى جزيرة
صغيرة تحيا عليها بعض القيم لكنها لا
تستطيع مقاومة الأعاصير طويلاً ..
فنحن محاصرون بشكل أو بآخر.

● هل يهتم المجلس فقط بحقوق الإنسان أم أن لديه مشروعات تشمل أوروبا ؟

— نحن ندافع ببساطة شديدة وخطوة
خطوة عن حقوق الإنسان فى أبسط
أشكالها .. وحتى نقيم حركة توحيد ثقافى
أوروبى يجب أن نتأكد من مشاركة عدد
كبير من مفكرى الدول الأوروبية وذلك
ما لا يتوفر لنا. إننا نعترض كلما

اغتصبت حقوق الإنسان واعتراضنا يبنى
شماره أحياناً لكنه يكون فعالاً فى أحيان
قليلة .. أنا أعلم أننا لا ننجز الكثير إذ إن
الوسائل تنقصنا .. يجب أن يتحول
الجلس إلى جامعة فكرية هائلة ونحن
نعرف مدى تأثير الجامعات الفكرى فى
الإعداد للثورة الفرنسية فى القرن الثامن
عشر .. لكن رجال السياسة لا يميلون
كثيراً لنشاطنا، ورجال المال لا يهتمهم
الدفاع عن حقوق الإنسان .. هكذا يمو
الإحساس بالآلة أوروبية وبالموجة
الأمريكية المتوقعة .. لا سيما أن هؤلاء
الصناعيين يتمتعون بذهن عملى أكثر
منه ثقافى أو روحانى، أمريكى أكثر منه
أوروبى.

● يساند بعض المفكرين مبدأ مقاومة «التحول إلى الأوروبية، فهل تعتقد أن مقاومة «التأروب، الثقافى يعد عاملاً إيجابياً وليس سلبياً تبعاً لما قلت من أننا، كلما أكثرنا الثقافة كلما أثرناها ؟

— حين قلت ذلك كنت أعلى الحقائق
الأدبية، أو تلك التى تخص تاريخ الأدب
فقط. كل مذهب جديد ينكر المذهب
السابق .. الرومانسية أنكرت الكلاسيكية،
والواقعية أنكرت الرمزية، وهكذا دواليك ..
لقد أنكر المدهون لغة أدبية بعينها وجاء
الشعراء المحدثون ليخترعوا لغة جديدة
قضت على اللغة السابقة .. لكنهم فى
الواقع لم يقضوا عليها وإنما أثروها .. هذه
الظاهرة ذات قيمة أدبية أكثر منها ثقافية.
حتى الفنانين التشكيليين الكعسبيين
والتجريديين انتهوا بالاندماج فيما نطق
عليه تاريخ الأدب الفرنسية والثقافة
الفرنسية .. وأعتقد أن الثقافة تستطيع أن
توجه كل دلائل السلبية إلى قنوات خاصة
لتخلق منها دلائل إيجابية .. للثقافة قاذرة
على هذا، لكنها فى خطر، وحين أقول إن
أوروبا فى خطر فإنما أعنى ثقافتها

الإنسانية .. إنهم يتقصون من شأنها يوماً بعد يوم .. وقد رأينا كيف تسير الرواية الجديدة في طريق مسدود وكيف كانت نهاية الفن التشكيلي الحديث إلى طريق مسدود أيضاً ولا بد من لا معارضين ينهى بهم الاعتراض إلى الاندماج .. ستكون حقا النهاية: نهاية أوروبا وفناء تلك الثقافة الإنسانية.

● إذن نحن نصل إلى النهاية لأنه ليس هناك حدائث ولا معارضة للقواعد والقوالب الثابتة ؟

.. نعم، لم يعد هناك من يقوم بدور المعارض .. والأمراض أصبح جد خطير حين نكتشف أن الشباب لم تعد به رغبة في الثقافة ... الرسوم المتحركة هي التي تجذب اهتمامه .. لقد كتبت مسرحية بعنوان «ماكبت» وهي محاكاة ساخرة لمسرحية شكسبير «ماكبت» .. وفي أحد معارض الكتاب رأيت شاباً يشتري مسرحيتي، وحين سأله لماذا اشترى هذا الكتاب ؟ أجابني «هكذا» فسألته إن كان نرا «ماكبت» لشكسبير. فقال «لا»، لم يسمع بها على الإطلاق .. لم يعد إذن

لذلك أي معنى .. لم تعد هناك استمرارية، لا موقف ولا معارضة، هناك فقط الجمود، الموت، أو نذير الموت .. لأن الثقافة الأوروبية ما هي إلا تنازع بين مواقف معينة ونقيضها .. هي تراث.

● من خلال حديثك تبدو متشائماً أمام العالم المعاصر وأمام المستقبل ؟

.. نعم .. أنا شديد التشاؤم وأفكر دائماً فيما قاله شبنجر Spengler «نحن ندخل عصرًا قيصريًا، عصر مدنية وليس عصر حضارة وثقافة»، المفكرون يغيرون اتجاهاتهم ليصبحوا رجال حضارة .. نهاية الثقافة هو ظهور القيصرية الاستبدادية ..

تلك هي الحركة المعادية لأوروبا على وجه الدقة، وأظن أننا مندفعون معها .. كل ما أراده الإنسان انقلب ضده في أوروبا .. نحن نعلم جميعاً أن الثورة الفرنسية أرادت تأكيد مبادئ الحرية، المساواة، الإخاء .. وقد أكدت اكتشاف الإنسان لأخيه الإنسان .. هناك ثورات أخرى في بلاد أخرى حاربت تلك

المبادئ وذلك الاكتشاف الذي لم يتواجد في روسيا بالشكل نفسه الذي تحقق به في فرنسا وإنجلترا .. كل المحاولات التي بذلها الداعون إلى العدالة لم تسفر إلا عن القصاص، وكل من أرادوا الحرية أو ادعوا ذلك لم يحققوا سوى المذابح والإبادة الجماعية .. هناك انطباع سائد منذ ما يقرب من قرن من الزمان بأن كل ما يقوم به الإنسان ينقلب ضده، وأن التاريخ ليس سوى تسلسل عمليات ناقصة. كثير من مفكرى أوروبا اعتقدوا أن علوم وفلسفة الشرق الأقصى في استطاعتها مد يد العون إلينا وتوجيهنا نحو الروحانية، إلا أنني لا أتمسك إلا نادراً باستمرار أوروبا في نطاق قيم الشرق الأقصى الروحية التي ارتوى منها الأوروبيون.

هذه القيم لم يعد لها وجود لأننا حولناها بأنفسنا، ومن ثم نجد أن أوروبا فقنت مواردها التي كانت تستمد من الشرق .. نصبت الموارد خاصة حين أخذ الشرق عامة أسوأ ما لدينا .. الآن تهددنا روسيا والصين بفرض القيم المشوهة علينا نحن .. نحن محاصرون. ■

أن تتعلم السير

أقصر نص مسرحي

فا

المنظر: في الطريق.

الشخصيات:

- رجل (شاب).
- امرأة عجوز.
- دكتور.
- ممرضة.

يدخل الرجل من اليسار. يتحرك نحو منتصف المسرح وعندئذ يسقط على الأرض بشدة. امرأة عجوز تأتي من اليمين. ترى الشاب الراقدة على الأرض. ترفع ذراعها إلى السماء، ثم تضع سلتها على الأرض وتقرب من الشاب. تهزه. تكلمه وتحاول أن تجعله يتحرك، ولكن وزنه ثقيل بالنسبة لها، تنادى دكتوراً فيأتى وهو يحمل حقيبة. للدكتور والمرأة والعجوز يحاولان إنهاض الشاب. تدخل ممرضة الدكتور.

(يتغير المنظر إلى حجرة في مستشفى). الدكتور والمرأة والعجوز والممرضة يجلسون في حبل الشاب ووضعه على مقعد.

المرأة العجوز والدكتور يخرجان. الممرضة تبقى وحدها مع الشاب المشلول، وتبدأ الآن تعلمه كيف يتحرك. الممرضة تعلم الشاب أن يحرك يده وأصابعه، ثم اليد الأخرى، ثم ذراعه، والذراع الأخرى، ثم تتحرك بعيداً عنه وتغنى له كي يلحق بها. الشاب يحاول دون أن ينجح. الممرضة التي يظهر عليها فجأة قوة غير مترقعة، ترفعه إلى أعلى حتى يقف على قدميه في منتصف المسرح بعيداً جداً عن المقعد. للممرضة

تنزع عن رأسها قبعتها البيضاء، ثم بالتدريج تتجرد من مريحتها، فستانها.. إلخ. إنها تتحول إلى راقصة تلبس بظلونا ضيقاً ملتصقاً تماماً بجسدها. (المنظر يتحول تدريجياً إلى حديقة مليئة بالأنوار). الفتاة الشابة (وهي الممرضة السابقة) سوف تجعله يرى كيف يحرك أولاً ساقيها واحدة.. ثم الأخرى.. إنها سوف تساعد حتى لا يسقط، ثم عندما يبدو أنه يتقدم إلى الأمام فإنها سوف تتحرك بعيداً عنه، ثم تعلمه، من بعيد، كيف ينفذ الحركات المتعلقة بالسير.. ويتحركان أولاً كما لو كانا جزءاً واحداً ثم يجريان سوياً.. بيطه.. بيطه.. أكثر.. بسرعة.. بسرعة أكثر. الشاب من ناحية يتحول إلى راقص: إنهما يتحركان حركات راقصة.. خطوات باليه راح يتعلمها. الشاب الآن يرقص بإعجاز! إنه ينفذ الحركات بطريقة أرفع من الراقصة نفسها. إنه حتى يدور حول نفسه. (سلم يظهر في الخلف، وقد سقطت عليه إضاءة شديدة لا حد لها) ثم بمجرد أن تمتد الراقصة ذراعها للشاب، وبدلاً من أن يجرى نحوها، فإنه يغمض في أضواء السلم ويأخذ طريقه إلى القمة راقصاً.

في هذه اللحظة، الدكتور والمرأة والعجوز يصلان... في الوقت ذاته، ليريا، لدهشتها البالغة أن الشاب يختفى وراء أعلى قطعة ظاهرة من السلم.

وإنساناً من الممرضة، التي يراها الدكتور في لباسها الملتصق بجسدها، فإنه يمد يده بمريحتها ويثبتها البيضاء.. بما المرأة العجوز تخرج وهي تكلم نفسها في صمت. ■

سيناريو فيلم الضب

أعتقد أن كثيرين لا يعرفون أن يونسكو قد أسهم في المجال السينمائي ، ولكنني أسارع بالقول بأن دوره لم يكن مؤثراً أبداً. ولقد تجلّى دوره السينمائي في كتابة بعض السيناريوهات التي لم تر كلها النور . ولكن الملفت للنظر أن يونسكو أخرج فيلماً ، وكتبه طبعاً ، وأكثر من هذا أنه كان بطل هذا الفيلم . كان ذلك في السبعينيات وكان الفيلم عبارة عن استعراض لحياته نفسها ويمكن أن نطلق عليه يونسكو كما يرى نفسه) .

والفيلم لم يتكلف شيئاً تقريباً فنحن نرى في البداية شارعاً ثم مباشرة إلى الحجرة أو المكان الذي يعيش فيه يونسكو بعد أن أحيل إلى المعاش . إنه في الواقع فيسلم عن يونسكو وهو يموت . أو بمعنى أصح إنه أراد أن يقول كلمة أخيرة . ولكن نقاد السينما أعربوا بصدق عن أن الفيلم كان مملاً إلى حد بعيد وكان أيضاً عبارة عن ترجمة شديدة . إنه قصة حياة رجل يموت قطعة قطعة . يتمشى .. ثم يتوقف .. ثم يتمشى ويتوقف تماماً .. تصله منات الخطابات يومياً إعجاباً بمسرحه يرد عليها كلها ثم بالتدريج يرد على نصفها ثم ربعها .. حتى يأتي الوقت الذي لا يرد فيه أبداً . أنه ينسحب من الحياة .

انسحاب آخر ليؤكد وجهة نظره : لا يخلق .. لا يأكل إلا القليل . بدل أن يضع قطعة الخبز في فمجان الشاي في الصباح ، لا يعد شاي الصباح .. ويبتل الخبز في الماء .. وأكثر من هذا يبلل الخبز

في ماء الحوض الملوث . لا يريد أن يفعل شيئاً .. لا يريد أن يسهم أي إسهام حياتي . وكل هذا الكلام سبق أن قاله يونسكو في مسرحيته الرائعة : الملك يموت . إنه بالفعل هذا الملك الذي يموت .. وقد قال كلمته منذ سنين ولم يكن هناك أي داع لتكرارها ..

ولقد عرض هذا الفيلم في إحدى دور عرض أفلام الدرجة الثانية في باريس وعرض لمدة أسبوع واحد فقط ثم بعد ذلك أسدل عليه الستار نهائياً ، ولا أحد يصرف السبب في ذلك . هل لأن الفيلم لم يكن له أي صدق على أي مستوى ، ويونسكو هو ذلك الفنان الذي كانت تهتز الأحداث الثقافية الفرنسية إذا ما كتب مسرحية ؟ .. هل فطن يونسكو إلى أن هذا الملعب ليس ملعبه وخصوصاً أن الفشل كان ذريعاً ؟ .. هل اقترح المنتج ذلك ؟ .. كل هذا جائز ، إنما الثابت أن هذا الفيلم مسح من ذاكرة السينما لدرجة أن كل الصحف والمجلات التي كتبت عن يونسكو بعد وفاته لم تذكر هذا الفيلم أبداً .

وغير هذا وكما سبق أن ذكرت أن يونسكو كتب بعض السيناريوهات وقام بنشرها إلا أن واحداً منها اختاره أحد المخرجين ليكون (استكشافاً) من (استكشافات) هذا الفيلم . الفيلم اسمه : الخطايا السبع المميتة (١٩٥٢) إنتاج فرنسي إيطالي وقد أخرجه سبعة من المخرجين الكبار .

وهذا السيناريو الذي تحول إلى (استكشاف) في هذا الفيلم هو الذي نترجمه على الصفحات التالية ...

ويأخذ وضع الاسترخاء . القطة تقوس ظهرها ويصدر عنها مواء خفيف . الكلب والقطة مظهرهما مؤثر حساس ، وأسبادهما في غاية الانشراح .

السيدة صاحبة الكلب : ألساني غاية الجمال ؟ .. حتى القطة أكثر رقة من كلي .

السيد صاحب القطة : إنها لم تحاول أن تخدش أحدًا .

السيدة صاحبة الكلب : إنه لم يعض أحدًا أبدًا .

السيد صاحب القطة : أوه ..! هذه الحيوانات الصغيرة .. أنت تعرفين!

السيدة صاحبة الكلب : إنهم يستطيعون عمل أي شيء ما عدا الكلام .

السيد صاحب القطة : هذا صحيح تمامًا .

السيدة صاحبة الكلب : إنهم يفهمون كل شيء .

مناظر أخرى سعيدة تتوالى : القسيس يأخذ طريقه خارج الكنيسة .

رجل ما يستوقفه : يوم طيب أيتها الأب .

القسيس يجيب : يوم طيب أيتها اللاطر .

الشحاذ الذي ظهر من قبل بجني الشرطي الذي يرد تحيته بصداقة ويقول :

- كيف حالك يا عزيزي ؟ هل وجدت مكانا لتقيم فيه ؟

الشحاذ : إنني بخير . شكرًا . هناك روح طيبة تستضيفني .

الشرطي : هناك أرواح طيبة تحيط هذا المكان .

الشحاذ : كثير منهم ، إنني سعيد ببقائي هنا .

الشرطي : كثير منهم . إنني سعيد لأن أسمع هذا . إذا شعرت بالملل تعال إلى قسم الشرطة .



أكبر من الميدان يتم كشفها ونرى مقهى صغيراً . رجل ريفي محترم يجلس في الشرفة إلى إحدى الموائد ومعه زوجته . زوجان آخران وفي السن نفسها يجلسان إلى منضدة ثانية .

الرجل الأول يقول للثاني : أنت تعرف أنني أشرب مياه معدنية فقط في أيام الأحد أما الكحول فإنني أشره في أيام الأسبوع الأخرى .

الرجل الثاني : بالنسبة لي العكس تمامًا .

ولد صغير يمشي هناك مع جنته ويتم الطبطة على رأسه وتقدم له الحلوى .
- أشكرك يا سيدتي .

هذا ما قالته الجدة للسيدة التي قدمت الحلوى للصبي .

الصبي : لقد حصلت على وشاح الشرف .

الصبي يكشف عن وشاحه بينما للكار يلتفون حوله .

- إن حفيدي ذكي جداً . إنه يريد أن يذهب إلى مدرسة اللغات .

أحد الرجال : أي مدرسة لغات ؟

واحد من أربعة من الممثلين الذين يلعبون أدوار الأزواج يمكن أن يكون بجانبه كلب وقطة صغيرة . الكلب يجلس

القطة الأولى هي لقطة لسماء ريفية ، حيث جلجلة أجراس تنبعث من كنيسة صغيرة تدخل إلى الصورة والكاميرا تنقطع صورا لها من القمة إلى الأرض . الساعة تملأ منتصف النهار .. الثانية عشرة . بجانب الكنيسة يمكن أن نرى الميدان الصغير كما في أي بلدة ريفية . توجد لحظة هادئة بين كل صوت جرس وآخر ، وكبدائية فإن كل شيء يتجلبور بشكل هادئ جداً . الناس يخرجون من الكنيسة . كلهم هادئون ومبتسمون ويحيي كل منهم الآخر بإيماءة من رأسه ، ويتبادلون جميعاً تلك المجاملات الرسمية بأدب شديد . النساء الطاعنات في السن يخرجن من الكنيسة . واحدة منهن تسيير مستخطية شحاذاً مستديماً وتعطيه عملة معدنية :

- هذه مناسبة يوم الأحد أيتها الرجل الطيب . ويجب الشحاذ بابتسامة عريضة : بارك الله قلبك الرحيم يا سيدتي . السيدة تسيير يديها الشحاذ يقول بابتسامة جميلة : الشحاذ وظيفة سارة عندما يكون حركتك هذا الجمهور المتعاطف .

سيدة أخرى تكلم أخرى : أهلاً يا حبيبتي كيف حال زوجك المسكين ؟ فتجيب : إنه الآن سعيد لقد تعود أن يكون مشلولاً .

مازال الناس يسيرون الهويلي في الميدان ويحيين بعضهم البعض بالأيدى أو برقع القبعات . بعض الأشجار يمكن رؤيتها . سطوح المنازل تلمع في ضوء أشعة الشمس ، والنوافذ التي تعكس الضوء . في إحدى النوافذ نرى امرأة وقد ارتدت أجمل ملابس الأحد وهي تتأذى صدياً ، شاباً تحت نافذتها وكان قد خرج نوا من المنزل . تقول : لا تنسى شراء بعض الأزهار لخالكتك . ويجب الصبي : لا يا أمي لن أنسى وسوف أقدم إليها منكبك .

إذا أردت فإنه يمكن إضافة منظرين أو ثلاثة على المستوى نفسه . مساحة

الزوجين الشابين يكون قد انتشر بالشكل نفسه في جميع شقق المبني : فيحدث أنه بعد أن قال الزوج الشاب لزوجته : يا حمامتى ، نرى فى اللحظة نفسها زوجة القسيس نرى للحية نقول لزوجها : ياكنزى . وبعد كلمة : يا حمامتى .. نرى رجلا عجوزا ونستمع إليه وهو يقول لزوجته السمينة : يا صغيرتى الطائفة .. وهكذا .. وهكذا ..

الزوجة الشابة : سوف نستمع بقية أخرى فيما بعد .. إن هذا هو وقت الطعام .

الزوج الشاب : نعم .. إننى جائع . تخلع مرياتها وتذهب لتعلقها . يتبعها . يتعانقان . يذهب إلى المائدة ويجلس على مقعده ثم ينهض مرات أخرى كثيرة ليقلها .

الزوجة الشابة : الآن يجب أن تتأدب . إننى لا أريدك أن تموت من الجوع .

هذه اللحظة والمعرضة نفسها تتكرر فى شقتى أو ثلاث مع أزواج وزوجات آخرين .

الزوجة الشابة : لقد أحضرت لك أيضا هدية !

تقدم له رباط علق . الزوج الشاب : أوه .. كم هى جميلة !

يمسح رباط العلق حول رقبته .

الزوجة الشابة : ستكون ملائمة جدا لسترك .

يرتدى ستريته . يتعانقان وكلمات تعبر عن الإعزاز . يذهب إلى المرأة ويتعلق إلى صورته باهتمام .

يقول : إنها تناسبنى تماما . يقبلها .

الزوجة الشابة : الطعام جاهز يا حبيبى .



لقطة سريعة لرؤساء الدول وهم يتعانقون ، ثم وهم يقولون لبعضهم البعض : لقد وافقنا على كل شيء طلبتموه .

الزوج الشاب : رائع ! .. كل يوم ولعدة ثلاث سنوات كانوا يتكلمون دائما عن التسوية .

منظر غرامى قصير بين الزوجين الشابين . إنهما يقبلان بعضهما البعض بينما يتمتان لبعضهما البعض : يا حبيبى .. يا حمامتى .. يا أرنبى .. يا حلى .. يا قلى الصغيرة .. يا دجاجتى .. يا زهرتى ..

فور أن عاد للزوج الشاب إلى منزله ، نرى بعض اللقطات القصيرة ونرى رجلا كبير السن ، وأيضا يحمل بعض الأزهار . نأهبنا إلى شقة أخرى فى مجمع الشقق نفسه . عندما يكون الزوج الشاب قد خلع سترته يمكن أن تكون هناك لقطة لرجل آخر فى شقة أخرى ، يخلع سترته ويسلمها لزوجته ، كذلك زوجان آخران : قسيس يونانى أرثوذكس ذو لحية يقبل زوجته فى النهاية ..

فى شقة زوجين آخرين . الرجل يسأل : ما الأخبار ؟

واضح أن هذا السؤال يجب أن يوجه فوراً بعد أن يكون الزوج الشاب قد سأل السؤال نفسه . والمنظر الغرامى الذى بين

الكاميرا تتحرك إلى داخل محل حلويات . زوج شاب يحمل فى إحدى يديه صندوقاً صغيراً من الكعك كان قد اشتره منذ لحظة ، وفى اليد الأخرى يحمل بعض الأزهار .

الزوج الشاب للسيدة التى خلف (الكاونتر) : زوجتى تحب الكعك .. إنها تشوق فطيرة الفراولة .

السيدة : إنك زوج يقظ . لا بد أن كلا منكما مولع بالأخر .. لا بد ألا أجهلها نتنظر .

يخرج من المحل . وفى الميدان يلوح لزوجته التى تقف وراء نافذة فى المبني المقابل . يرسل كل منهما للآخر قبلا . بسعادة يحجى إلى البيت . يمكن أن يكون هناك آخرون يحملون الكعك ويتجهون إلى بيوت مختلفة . الزوج الشاب يدخل إلى بيته . زوجته تفتح الباب .

الزوج الشاب : أهلا حبيبتى .

الزوجة الشابة : أهلا حبيبى . ماذا .. مفاجأة أخرى !

يقدم لها الأزهار . تقبله . ثم يقدم الكعك . تقبله . الزوجة الشابة تضع الكعك على المنضدة المهيأة لطعام الغداء وتضع الأزهار فى (فازة) . يخلع معطفه ويعطينها إياه ، يتعانقان

نرى داخل المنزل بشكل واضح . إنه بسيط ، مريح ومليئ : الأثاث وورق الحائط واضح اللون ويوجد تليفزيون حيث نذاع نشرة الأخبار .

يسأل : ما الأخبار ؟

هى : طيبة بالطبع .. كما هى العادة .

المذيعة تعلن : إن تجمع كل رؤساء الدول قد بلغ الدرجة القصوى حول مائدة الاجتماع وذلك من أجل التسوية العامة . وبعد الكلمات المناسبة تمانق الرؤساء .

كل يوم أحد ، وحتى الآن ، ولمدة خمس وعشرين سنة ..

تعود مرة أخرى إلى شقة الزوجين الشابين :

الزوجة : يا لها من ضجة حول ذبابة ..! إنك علي أي حال لم تتشأ في قصر .. إني أعرف من هما والذاك .

الزوج : ماذا كانا ؟

الزوجة : تاجران في الروبايكي واللاهليل .

الزوج : لقد تركا العمل الآن . إنها على المعاش .. بجانب ذلك مفروض ألا تتظري باحتقار لأي عمل .. لا تحذني عن أبوى .

الزوجة : ما الذي فعلته ضدكما ..

الزوج : إني أقصّل أن أصعل في تجارتهما بدلا من أن أكون قوادا .

الزوجة : ومن الذي تعليه بكلمة قواد من فضلك ؟

الزوج : أبوك . كل الناس تعرف ذلك . تجارة الروبايكي عمل مرق وجاد وهو عمل مرق لأنه عمل يتم بمنتهى الأمانة .

الزوجة : يجب أن تحصن بالعمار لأنك تتكلم بوقاحة عن أبوى ، بينما كان الواجب أن تكون ممثلا لهما ، ما الذي كان يمكن أن يحدث لك وأنت لم تكن شيئا .. بعد المهر الكبير الذي حصلت عليه .

الزوج : ما أعطوني إياه كانت أوراق مالية مزيفة اضطررت لبيعها بـ نصف ثمنها .

الزوجة : بالرغم من هذا فقد كان مبلغا كبيرا .

الزوج : ليس هذا سببا على أي حال لأن تصفى الذباب في شوري كل يوم أحد .



الزوج : ما هذا إن لم تكن ذبابة ..؟

الزوجة : إنك وضعتها بنفسك لتضايقي .

الزوج : اسمعي .. يا عزيزتي .. إنك بالطبع لا تصدقين ذلك .. هذا سخف .

الزوجة : ليس هناك أي سبب لإمانتي .

الزوج : إني لا أهلك .

لقطات أخرى نرى خلالها أزواجاً آخرين يتحققون من أن هناك ذبابة في أطباق الشورية .

يصيحون : ذبابة ..! (أول من يصيح بذلك هو القسيس ذو اللحية) ثم زوجة أخرى تجيب على زوجها : أي ذبابة ..!

القسيس ذو اللحية : انظري ..! في شقة أخرى ، قاضٍ يجلس إلى المائدة : كل يوم أحد .. خلال ثلاثين سنة .. وأجد ...

لقطة أخرى للمدرس وهو يقول لزوجته : ذبابة في شوري ..!

القسيس الملحي يرى وهو يلتفت نظر خادمته : أصنى أن أقول ...

في شقة صاحبة الكلب ، للزوج يقول :

يذهب إلى المائدة ويجلسان .

الزوجة الشابة : إنك إن تجلس إلى المائدة ويقتك فرق رأسك .

الزوج الشاب : إني آسف .

يخلع قبعته ويعطيها إياها . تنهض لتذهب بها بعيداً . يخلع سترته ويعطيها إياها ، فتذهب بها بعيداً . يبدو عليه كما لو كان مقبلا على خلع رباط عنقه ولكنه يغير رأيه .

- لا . إنها جميلة جداً .. سوف أستيقظها حول عفتي . هذه الملحوظة الأخيرة يمكن أن تحدث أيضا من أزواج آخرين في المبنى .

أخيراً أصبح الزوجان الشابان على استعداد لتناول الطعام .

صورة مكبرة ليدى الزوجة وهي تقدم الشورية وتضعها على المائدة . الزوج الشاب يلوى وجهه وهو يقول : (شورية مرة أخرى) .

لقطات متقاطعة ومتشابكة لأسر أخرى في العمارة نفسها حيث تقدم لهم الشورية .

الزوجة الشابة : إنك لم تتناولها طوال الأسبوع وهذا هو السبب في أنني أعدتها لك أيام الأحد . إنها شورية الصيف .

الزوج الشاب : يا لاهتمام !

الزوج الشاب على وشك أن يتناول أول ملعقة عندما يرى ذبابة كبيرة في طبقه . الزوج الشاب يتراجع وللزوجة تنظر بقلق وتساءل :

- أهنأك خطأ ما ؟ ما الأمر ..؟

يظهر إليها بروح مرحلة : أبداً .. لا شيء غير عادي .. إني متعود على ذلك . ذبابة في الشورية .. تماما مثل كل يوم أحد .

الزوجة : ذبابة في الشورية ..؟ كذاب .

الزوجة : لقد حذرني .. وأنت تعرف .. لقد حذرني من الزواج بك لقد قالوا لي إنك مجنون مثل بائع القبعات . لقد كان صادقا . عمو كان صادقا . كان يجب أن أسمع إليه .

الزوج : هذا العجز الأبله .. لقد كان منقسما دائما .

الزوجة : ليس مثل خاتنتك التي كانت قوية بلهاء .

تتابع لقطات أخرى في شق أخرى :
زوجة القسيس الملتحي : أنت وخاتنتك !

القاضي لزوجته : جدك الأكبر
زوجة القاضي تجيب : أنت وأسرته الذين يستحقون الشق .

القسيس المحلى لخادمتة : أسرة من الكفرة .

في شقة أخرى ، الشحاذ يقول للسيدة المجوز : محتالون .. يا سيدتي .. هكذا أنت دائما .

في شقة صاحبة الكلب نرى السيدة وهي تشير إلى زوجها وتوجه الكلام إلى كلبها : اقضم رقبته يا بني ..

في شقة صاحب القطة .. نرى القطة تندفع بكل جسدها نحو الزوجة

نعود إلى شقة الزوجين الشابين حيث نرى الزوج وهو يصب الشورية على رأس زوجته . لقطات أخرى سريعة تتتابع في الشق الأخرى . وعندئذ نرى الشورية وهي تسيل من تحت أبواب الشق إلى أن تصل إلى السلم . ونتيجة حتمية لذلك تبدأ اللكمات وتسرع الزوجات بالحركة . نصف نمشة من الأيادي تسقط على وجوه الأزواج المحترمين .

في شقة الزوجين الشابين تتكلم الزوجة :

الزوجة : منجم !

في كل بيت يبدأ الناس بقذف ألواني المطبخ في كل مكان . واحد من الأطباق الذي قذف به واحد من الأزواج أو الزوجات يسقط عند قدم أحد ضباط الشرطة ، ولكن ما كاد يعرف من أين جاء ثم السقط حتى يسقط طبق آخر وآخر .. ثم يسقط واحد آخر فوق رأسه .

ينفخ في صفارته طالب المساعدة من زملائه . طلبة أخرى نرى فيها ممسحة تمسقط في طبق سلاخن وتبدأ في الاحتراق : وهذه بداية اشتعال النار في المبني .

ومن الآن وفيما بعد طلقات تتبع طلقات بطريقة سريعة . وفي دخل الشق نرى كل زوجين يتباريان في كسر الألواني الصينية .. إنخ بعضها يسقط بعنف من النوافذ إلى أرض الميدان . وكل شخص يبدأ في العراك مع أي شخص بينما الشورية مازالت تتسرب عبر السلم .

تصل للشرطة في عرباتها . بعض الأسر تنظر من النوافذ وترى عربات للشرطة . وفي إحدى النوافذ .. بين اللكمات والصراخ يصيح أحد الأزواج : الشرطة . ثم تصيح واحدة من الزوجات : الشرطة .

يخرج رجال الشرطة من العربات ويسرعون إلى الليوت ثم يعودون فوراً مرة أخرى وهم يجذبون بعض الأزواج الفسائرين الذين يدامنون للفساك ويصرخون : الشرطة . ساعدونا . المبني مشعل بالنيران . رجال الإطفاء يصلون هم الآخرون ورجال المدينة يسرعون للدفاع عن هؤلاء الذين تم القبض عليهم .

الشغب بين الشرطة وسكان المدينة ينتشر في الناحية كلها . وهنا يمكن الاستعانة بأرشف السيلما للطلقات من الشغب والمظاهرات : مثلاً العربات

المصفحة التي استخدمت في برلين ضد العمال ، أو الصراع بين السود والببيض في جنوب أفريقيا ، وهكذا . في شقة واحدة نرى الممسحة المشتعلة التي تسببت في إشعال النار في المبني . لقطات أخرى لرجال الإطفاء وهم يصلون إلى المكان ويحاولون إطفاء هذا الجحيم : يمكن الاستعانة أيضاً بالأرشف في هذا المجال . ثم تكون هناك صور للحرب : بواتركيه وكليمنسو يستعرضان القوات ، هتلر أو موسوليني يخضب في الجمهور ، قذف لندن بأوامبورج . ثم تفقد السيطرة على هذا الجحيم بفيزانات وزلازل ..

إنخ : تنتهي إلى صوت انفجار للقبلة الذرية . هذا الفيلم الصغير يكون هو المركز حول شخصيتين يظهران في اللقطات الصريحة من الحدث . للرجل الشاب والسيدة مذبة التليفزيون ، اللذان نراهما أو أيا منهما خلال استراحات منتظمة خلال الحدث ، الرجل يجلس إلى منصدة في مقهى . هانداً جداً ثم فجأة يتحول دودوم إلى غضب من لقاء نفسه . وعددها تسود الفوضى تماماً ، وبالتالي حالته النفسية . قبل أن ينفجر الكوكب ، نرى وجهه هو الآخر وقد تحول إلى لون أحمر دلكن . الشخصية الأخرى ، أي السيدة مذبة التليفزيون تظهر من وقت لآخر وهي مبتسمة على شاشة التليفزيون ثم على شاشة السينما بأجمعها لتعان خبراً ليست له أية علاقة بالأحداث الجارية ، إنها تتكلم عن الربيع وعن الجداول والأزهار والمروج . عندما تنفجر رأس الرجل ونلك قبل انفجار الكوكب فإنها تعان وهي مبتسمة ابتسامة واضحة تظهر أسنانها الجميلة : سيداتي سادتي .. في اللحظات التالية يمكننا أن نشاهدوا نهاية العالم .

اللقطة الأخيرة : ينفجر كوكب

الأرض . ■

الأساء وأن

ترجمة: ع. س.
تولين بولسكو

ق في أحد الأيام النظرية منذ متولت جاءتني فكرة أن أكتب حواراً أربط فيه بين الجمل الشائعة التي تتكون من كلمات وكليشيهات لا معنى لها.

وكانت نتيجة مبادرتي هذه شيئاً عجيبيّاً: لقد سيطر عليّ تكاثر الكلمات التي تشبه الجمل، وأدركت أنني قد استسلمت تماماً إلى مفردات القرقف والابوس الشديد والعصبية المكشوبة.. ولكنني على أي حال وصلت بهذا الذي كبدته إلى نهايته العنمية. وبالمصادفة البحتة وقع هذا الكلام في يد أحد الشبان المخرجين الذين قرأه باعتباره كناية درامية، وحوله إلى عرض مسرحي. ولقد ألقنا على هذا العرض اسم المغنية الصلعاء.. وحقق العرض منحنكات كثيرة. ولقد دهشت تماماً لأنني كنت قد تصورت أنني قد كتبت تراجيدياً للغة.

وحتى أتفادى إمكانية أي تشويش كتبت مسرحية ثانية يستطيع المرء أن يرى خلالها مدرساً سادياً مفزعاً يقتل كل طلبته وهكذا وراء الآخر. وللعجب فإن الجمهور نظر إلى هذا العمل باعتباره عملاً مسلياً من الطراز الأول.

وعندئذٍ ومقتنماً ومصدقاً أنني قد اكتشفت خطأ في طريقتي في التفكير، اكتشفت في الوقت نفسه ودون أن أعى أنني مؤلف كوميدى، فكتبت بعض مسرحيات (الفارس): واحدة منها عن شخصيتين معمرتين وصل عمر كل منهما إلى حوالي مائة عام ينظمان أمسية لدعوة مجموعة كبيرة من الناس.. ولكن حدث أن لم يحضر أحد.. بالرغم من جمعهما لعدد لا حد له من الكراسي، إنها كانت مسرحية للموقف فيها كلاسيكي من نوع الفرديول: المتفرجون يعرفون أنه لا يوجد أحد من المدعوين، ولكن البطلين لا يدركان ذلك؛ إنهما يتعاملان مع الكراسي الخالية كما لو كانت حيوانات من لحم ودم فيفتحان لهم قلوبهما بإحسان كوميدى مؤلم. ولقد رأى

المتفرجون في هذا الموقف ما يشبه رقصة الموت.

وهكذا فإنني مرة أخرى أقدمت على ارتكاب خطأ. ودرغم هذا فكرت في إمكانية وجود حل يمكن أن أنجب به إمكانية عدم الفهم: ألا أكتب دراما من أي نوع مثل التراجيديا ولكن ببساطة نصاً شعرياً.. شيئاً (بعاش).

هسولت للمصريح شكوكي وبأسي العميق.. حولت كل ذلك إلى ديالوج؛ أعطيت لحما ودما لمصراعاتي الداخلية، كتبت بإخلاص شديد وكانت النتيجة: مسرحية «ضحايا الواجب». وقد اتهمت بأنني دجال ومهرج بطريقة عميلة.

حسناً هكذا قلت لنفسى وأنا ألق جرحي.. لماذا لا أكون مهرجاً؟

جلست إلى مكتبى وألفت سبع استكشافات قصيرة عرضت بعد ذلك في واحد من هذه المسارح التي يطلق عليها ذلك الاسم الغريب: طليعى.

في ذلك الوقت قال النقاد: إنني قد عملت محاولة جادة نحو الدراما التجريدية وأنني قدمت بعض المشاكل الجادة، ومع هذا، ودرغم أن في هذا القول بعض الجدية إلا أن ذلك لم يقننى إلى أي شيء.

لقد صنعت وخلقت لكي أفهم أن المسرح ليس تهريداً بل شيئاً محدداً.

ثم إنني أردت أن أكون متأكداً ما إذا كان يجب على أن أستمزم أم لا وفي أي اتجاه. من الذي يمكن أن أستشيريه؟ نقادى.. بالطبع كانوا هم الأشخاص الذين يمكن أن يصفوا طريقي. ولذلك فقد بدأت أعيد للقرأة والدراسة بكل انتباه وبكل الاحترام لكل ما كتبه النقاد عن مسرحياتي. وهنا تعلمت وأدركت أنني موهوب: في هذا الوقت.. وفي الوقت اللاحق.. وفي وقت مسأ.. مستحيل.. أن تكون هناك تكاملات في أعمالي.. وأنتى أستاذ في تلك المسائل التي تتصل بالمزاج النفسى والأسرار وأن مسرحياتي لها أبعاد تختص بالفلسفة

آخرين.

هل يمكن أن أصدق عندما أقول إنني ضائع تماماً؟.. إنني أقوى قراءة واحدة من حكايات لافونتين: «صاحب الطاحونة وابنه والحمار، ربما خلال هذه القراءة أستطيع أن أحصل على بعض الرضا عن النفس في النهاية»..

علامات

- ولد يوجين يونسكو في بلدة سلاكيما (رومانيا) في ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٢.

- من أب روماني وأم فرنسية وكان تلميذاً في فرنسا حتى بلغ الثالثة عشرة من عمره، فعاد إلى رومانيا وعاش هناك إلى سنة ١٩٣٨ حيث أنهى دراسته، فعاد إلى فرنسا حيث حصل على الجنسية الفرنسية وعاش هناك.

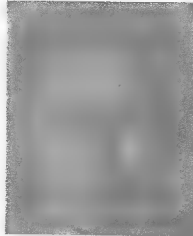
كتب ٣٢ مسرحية، على الأقل، ست منها تعتبر من الكلاسيكيات الحديثة لقيمتها الفنية العالية. ولعل أشهر هذه المسرحيات هي مسرحية «الخرائيت» التي قدمها المخرج الفرنسي العظيم «جان إري بارو» في باريس وقدمها بعد ذلك في لندن «لورانس أوليفيه» ثم قدمها «زيرو موسثيل» في نيويورك وكان ذلك كله في سنة ١٩٦٢.

بالإضافة إلى أنه بدأ يكتب الشعر فإنه في لخرايت أيام حياته بدأ يرسم وله لوحات فنية على قدر عال داخل نطاق للفن التشكيلي.. وقد دخل هذا الحقل الفني الجديد بعد أن توقف تماماً عن الكتابة للمسرح سنة ١٩٧٩.

عضو من الأربعين عضواً الخالدون في الأكاديمية الفرنسية - French Academy.

بعد انتقاعه عن المسرح سنة ١٩٧٩ بدأ يتبنى على المستوى العالمي حقوق الإنسان.

- في يوم وفاته في ٢٨ مارس سنة ١٩٩٤ كانت مسرحياته (الغنية للصلاء والدرس) قد عرضت ١١٩٤٤ عرضاً بصفة مستمرة في باريس، وما زالتا تعرضان حتى اليوم.



يونيسكو

معترضاً على مسرحياتي باعتبار أنها محملة بـرموز جادة غامضة وتمتد إلى شخص يستطيع أن يفهم ما الذي كنت أرمي إليه.

قلت للنفس: دعنا نقرأ ما يقوله ناقد آخر. هذا الناقد الثاني دأب كبريائي: فهمت من كلامه أنني قد كسرت كل التقاليد المسرحية وأنني أكتب مسرحيات جديدة تماماً، جريئة، وأصلية، وأنني مبتدع وفوري. ومع الأسف فإن هذا الناقد الثاني رجح في كل ما سرده من أفكار وأعلن أنني لم أكتب إلا مسرحيات لا تتفق مع العصر وكرر ما قيل قبل ذلك مراراً وألف مرة. لقد أكد لي أنني كنت متأثراً جداً بالكاتب السويدي أوجست سترندبيرج وقد دفعني هذا لأن أقرأ أعمال هذا الكاتب السويدي: واكتشفت أن ذلك صحيح تماماً، وآخرون قالوا: ليس سترندبيرج بل لفريد جاري وأن هذا شيء طيب لأنني أيضاً كان لدى شيء خاص أستطيع أن أقدمه.. وأن هذا ليس شيئاً طيباً لأنه لم يكن لدى شيء شخصي أقدمه.. وغير ذلك قالوا بل إنني تأثرت بهؤلاء للكاتب: تفيكوف - ريموندروسيل - بيراندالو - كورتاين - القونس الأس - كفاكا - لوي كارول - كتاب العصر الإليزابيثي، الطليعيين، واللغريبيين، وللكاتب الأيرلندي ستج، وأرتو، وأيضاً لوتريمو، رامبو، دوميه، نابليون، ريشليو، مازولين وكتاب كثيرين

العقلية، وأن هذا - طبقاً لبعضهم - أننى بالأساس روح حقيقية، عالم نفسي، ملاحظ جيد للقلب الإنساني وأننى يجب أن أستخدم قدراتي في الخلق الفنى نحو هذا الاتجاه.. وأننى بشكل ما غير واضح.. وأننى كنت بوضوح وبالصبط.. وأن موهبتي اللغوية فقيرة.. وأنها غنية.. وأننى كنت ناقداً عنيفاً لمجمعي المعاصر.. وأن سر العيب في الدراما التي أكتبها يتجلى في فشلي لإنتكار قوانين الظلم في المجتمع.. للقوضى الثابتة أو المقتلة.

لقد وجه إلى اللوم بشدة باعتبارى اجتماعياً: لقد تعلمت أيضاً أنني كنت بلا جدال شاعري وأننى يجب أن أكون كذلك لأنه لا يوجد مسرح دون شعر.. وأننى كنت شاعراً وأن هذا بالصبط مالا يجب أن أكون لأنه بعد ذلك كله ماذا يعنى الشعر؟ وأن مسرحياتي التي تعبر عن خجلي أو تهيبى.. باردة، وبخفية أو على العكس بدائية، بسيطة، وأولية، وأننى أفقد الخيال تماماً.. جافاً.. ويمكن الإحاطة بها بنظرة واحدة.. وأننى ليس لدى أى فكرة لأنظم خيالي المبالغ فيه وغير المنظم وأننى.. بدلا من أن أكون جافاً ومقتصد كما يجب أن أكون - فإننى كنت كثير الكلام كثير الحشو.. هذا وذلك كان نقطة مهمة لصالحى.. وأننى يمكن أن أكون واحداً من خالقي دراما الأشياء: «يجب ألا يكون في المسرح أى مواظ، إنه ليس شيئاً حسناً.. لا أهمية لها في النص.. نعم لماذا.. وعظ.. نعم.. إنه مهم جداً.. انه يحدد مسار المسرحية ويجعلها أكثر صلاحية للزوء.. أكثر مسرحية.. أوه.. لا.. نعم.. لا.. نعم لا.. قبضت على رأسي بيدى، وقلت لنفسى إنه من الأحسن أن أنصت لناقد واحد فقط. واخترت واحداً بطريقة جزافية وقرأت كل ما نشره عن أعمالى: لقد وجه اللوم إلى مسرحياتي باعتبارها مسرحيات سهلة وبخفة جداً لأنه لا سر فيها. وبعد شهرين كتب الناقد نفسه..

أعمال يونسكو

المسرحيات

- المغنية الصلحاء.
- الدرس.
- الكراسى.
- ياله من سرك مخيف.
- الساكن الجديد.
- أميديه.
- صحايا الولجب.
- الخرائيت.
- النقائد.
- المستقبل فى البيضة.
- القائل.
- ارتجال.
- خلقت للزواج.
- الملك يموت.



- الصورة.
- نحيات.
- ماكيت.
- الوحل.
- أن تتعلم السير.
- هذا هو الساطور.
- فوق النظر.
- أقدام الجدار.

سيناريو أفلام

- البيضة المملوكة.
- الغضب.

كتيب آخره

- ملاحظات وملاحظات مضادة
- (مقالات وحوارات عن المسرح).
- الحاضر الماضى، الماضى الحاضر
- (للكار وذكريات)

- معرض الميارات.

- مجموعة الأربعة.

- تجول فى الهواء المطلق.

- جلون الاثنيين.

- للجوع والعطش.

الإيقاعات والروكا

١٩٨ البحث عن ماء الأفة اللزج (١)، طارق ليل الظلمات (٢)، قستان: محمد
حافظ رجب. (٣) رسالة الحائط الرطيب، قصة، خيرى شلبى. (٤) هدايا بابا
نويل (١)، ولكننا حرسنا مسيحتنا (٢)، قستان: فريدة الشوباشى.

البحث عن ماء اللذة اللزج (١)



محمد حافظ رجب

.. لكنه رآه: خرج من أحشائها يحمل سرورالها.. بصق في داخله أول بصقاته.. يتعلم في جسده.. وأنت وحدك.. يغرده.. منذ أول اليوم حتى نهاية الليل: انصمت مع الجدران الوحشة يأتي بالخليل .. شكله بشع.. هرم هو، وهو يعود إلى ماوأهم في آخر الليل.. وهذا هو مرافق رليق في شكل فتاة يقتحم عريته قبائنه فتيكه.. امتدت يدك إليه.. عانفته:

تلقى طعم تجرسته الأولى معك وهو يرتعد.. يجب أن أشر على الماء اللزج المنسكب في إناء الحرام تحت طيات ملايمته.. دلهلى لكى أفترس رقتك..

.. يدام امتدنا في جسدها.. فى العاهات الخفية.. تبحث عن لون شكوكه.. امتدنا فى أدق مكان.. تساوته من الألم: مفترس هو: كل شيء .. ضاع.. انتهى الأمر: الخليل يريض فى قاع الطرق: يبحث عن اللزوجة ليسرى شكل من ستجهه.

.. من كان معك

.. لا أهد.. لا أهد..

.. إذن سألك

.. جارتى مرتت.. دعوتها.. دخلت.. انصرفت بعد قليل.

.. تلك التى تستقبل عييقها فى الصنف اللانى من مخاضات السطح المتوارية: هل هو عشيقك

الصصى للنفث.. ابن الأرملة.. ساكنة الصنف الآخر من السطح: شبح آخر غامض.. ملف برده أسود مظلم لا يعرف حقيقته ولا معناه.. للغموض مرعب هناك.. تصلحه أرملة السطح الآخر.. هى وابنتها الماهرة.. صديقة نصفه التى تعيش معه...

.. امرأته تعرف مجاله الأحرار الرابعة فوق السطح الآخر.. كما تعرف أحرارهم .. هو لا يعرف السطح الآخر ولا سطحهم..

.. أين كان الصصى: يخفى بين نخذيها ولم يطلها.. عياه فوق حجرات السطح،

منقطة كلها بالصنبة والفتاح: حظيرة وحدها مفتوحة الباب نطن: هنا كان أحدهم لقمع عريته فى غياهب الذى يطول: تبول فى الشيء الكامن .. خلف ستر الملابس.. .. محابات عمية فاقمة للسواد تمر لدخل روحه: اكتسبه الضمب اكتسحها.. اكتسح المعجرة: النار والدخان والغضب والحريق: سقطت مقدمة الكلمات سقط مشربى العلق والبصر والبسيرة.. صار أعمق.. سألها:

.. من كان معك..

.. وقع الخطأ السريع.. قال الكلمة للبهمة..

.. لو قالت..

.. لم تقل.

.. هالها شكل الغضب.. أنكرت...

.. لا أهد.. لا أهد..

.. قال لروحها المتأججة بالنار والدخان: لقد انتهت..

.. لا ينتظر ساعات أخرى قادمة تضاف إلى حصيلة عمره...

.. شاهد بنفسه عقله يتحرج فوق درجات السلم العالي.. إلى الطريق العام

.. حيث يهرول البشر بلا حيز ترى.. لم يحاول أن يلتقطه.. ففقد..

.. فمن شاريه.. أصبح مكفه.. مثل النساء.. أمس.. نعم:

.. أنا امرأة فى العيزان مثلها...

.. بصق سملا

.. انتهى مستقبل شاريه وسعال الرجل فى داخله: أنا هذه لتكلم المرأة.. نصمت الأم: الرجل موجود ببيكم.

.. خرج إلى السطح.. أتى بشبابه من فوق السور.. سقط صريحا لا فائدة منه...

.. منذ قليل عاد إلى حظيرة...

.. قطعة جمر مختلة.. تحطف درجات السلم.. درجة درجة.. تصهبر الحديد.. نقرقه.. يطاير منها الشر والحداد بطرق الحديد ساخنا... الطابق الأخير القريب.. السطح.. يصعد إلى الأعلى بجراحين مزقزين: طائر الرخ متعب وهزين..

.. يضع درجات.. يكون فوق الدرجة الأخيرة.. مذعورا الشبح يجرى: من وقع خطواته الأخيرة على السلم.. تخرج العين خلفه.. ماذا يرى:

طارق ليل الظلمات (٢)

قا .. قادمون إلينا ..
... غدا حائل ..

... مسرات القلب تسرى حارة ... تنفث
راحة .. فوق وجهينا راقدة .. ليلة
الليالي: السهر ساهر حتى الصباح:
عريض النور والضوضاء ..

.. الفد عيد...

... وحدنا نحن....

.. مهندس أنا (٢٩ سنة): على زيور...

... موقوفة زوجتي (٢٥ سنة): أحلام
متصور

.. حرب (التوبارية) مكاننا ..

... بيتنا حائل: اللهم والشهيات فوق
المائدة .. بالوات العيد .. تتدلى: عناقيد
عنب: الكرم ناضج ..

.. قادمون إلينا في القيد: ضيوفنا:
الأصدقاء: الأهل .. أعددنا البيت: بالورد
فرشنا ... والشوق ..

... العيد جاء ..

عصف صاحب فوق الباب: طرقات وحشية
تعريد...

... دوى الطرقات جنون...

... وجومنا نصنت مأخوذاً من الرهبة ..

... ولتنا بعد منتصف الليل بقليل ..

... من طارق ليل الظلمات: هذا العنيد:
يقحم مكاننا بالهلفة الملحة العاجلة ..

.. صديقه يلعب بكل عمره .. شبابه وأصماه
وجسده وويل لمن يغالبه! .. من اضطرابه داس
فوق جسد قطعة اللحم ابنة .. قطعة لحمه دهمها
وضمها تحت الحذاء .. ألت .. لم يستجب لأنبيها ..
.. حول شرارات غمشيه إلى امرأته صديقة
المراق المذخور الفار من جانب السر ..
... نائمة على الأرض تعلم به ..

مذد الأمن للفرقا .. تنام مع السفير .. يفرق بينهما
زمان ومكان وصحارى وأهوار وحرار ..
هو وحده

... رفع القدم .. ركها بلا شفقة .. القسوة تنفث
دخاناً سوداً .. تنفث سحراً

... نهض من ركبته .. أمرها بحمل الطفل ...
نفثت الأمر في صوبية موقفة ...
وهي سامنة ..

.. صوت تحبيبها وصل إلى أذنه فحبح أفاع
جالسة .. غلبه اللوم: رأفا عارية .. مكذبة
بالإغراء .. يضاجعها طفل رضيع .. صرخ فيها:

.. كفى عن تكاح الطفل .. سأنتك .. وأنته ..

... فبرت من أمامه .. تحمل قميص نومها
والنورول مبتلا .. تبعا الطفل صارخا ..
... لم يملك نفسه .. تبول على نفسه وهو
يبكى ...

● ● ●

في الصباح لم يجدها .. تحسس ملايحه وجدها
مبتلة .. قام وغربها ... لنصرف إلى حال سيئه ■

الرباض في الظلمة .. يعمد التفكير المتزن أثناء
البحث عن الحقيقة ..

حنط على مسمار الانفجار .. انفجر .. دوى
الوهج .. تثارث الأشلاء في أنهاء السجرة ..
قامت نجمها .. مصويين ملها بعد قليل .. أن
أجلك تجمين البقايا ..

.. من كان معك؟ الصبي المخط .. رأيت جسده
يترنح من النشوة وهو خارج من هنا ..

.. إنه ابن الأرملة ..

.. تعترفين إذن أنه هو .. تقوليلها بلا حرج .. هل
كننا لنجان الاستعمارية والسفير .. تصنع مندبلا
فوق عينيته وهو يبحث حكما في كل مكان وأنت
وهو تختبئ تحت السرير ..

.. ربما أتى من عند أمه ليسألني عن شيء ..

.. هل سلح أمه انتقل إلى سلطان ..

.. ربما ينتقل السلح كلما لمع نور القمر ..

.. من رأسه انبثقت الدماء ساخنة .. ألقى بها
الغراب من السلح إلى عرض الطريق ..
.. رجع يده .. سددها ..

.. يده الأخرى رفعها .. لعلم الوجه .. سال الدم
من أنفها: الدماء والخيانة والوحشية .. والسلح
والزهرير يقرض البدن ..

.. يجب أن تشرى بالخشجل من نفسك .. ألت
زوجة وأم .. وإن كنت ترغبين في تذوق اللحم ..
فلأكلني لحم رجل .. لا لحم سبي ..

● ● ●

بدأ يتحتم صفوف البخر .. يسكن علاها الصدا ..
لعب الدومينو بحملى ملهيب .. مع صديقه بالغ
الحلو .. دون أن يصرب من تحت إبطه السر ..

.. اسرع يا على.. انظر من طارق الليل
المقحم يسكون عشنا ..
.. فتحت الباب ..
.. قبضة نار اخترقتني: إلى القاع ألق
...
.. دخلوا ...
.. رياح شريرة هم: المدي في الأيادي ..
... ثلاثة هم ..
.. بشاعة فوق الوجوه تتمدد ..
.. زيور، مين دول؟
.. صرخت (أحلام) ..
.. قبضتي المذعورة .. ارتطمت بأول
الداخلين ..
.. فوق رأسي هبط الجمجم: أشعل النار
فيه: من أنفي خرج دخان الحريق ..
.. على الأرض هبطت ..
.. بين المزارع والحقول سرت مترنحا ..
هاتما أبكي،
.. أوثقني بالحبال ..
.. انتهى أمرى معهم ..
.. كل ما عندكم هاتوه: الذهب والأموال ..
.. خلعوا أساور الذهب من يدها ..
.. أخرجوا أموالنا من الدوايب ..
.. انتهي الأسمر: كل ما كنا نملك
أخذوه ..
.. سرخون ..
.. هوما بالرحيل ..
.. أجهشت (أحلام) بالبكاء
.. في هذه اللحظة .. نظروا إليها ..
.. نظر كل واحد في عيني الآخر ..
.. ابتسموا ..
.. ارتطمت أنا ..
«سار في مجرى الأوردة صليح برد
التوبارية،
.. في لحظات شدا وثاقها بالحبال ..
«تمتم وأنا مازلت أترج فوق خطواتي
بمحادثة (التوبارية):

ضاجعيني يا أحلام .. أنا لست مسئولا
عنه ما لم تفعل: على القور رأيتهم
يقتمحسون مضجع أمي وهي عارية:
صرخت: كفوا يا أوغاد عن مضاجعة
لحمي .. كيف تفعلون ذلك وأنا موجود
بينكم،
.. أقرب الأول منها ..
.. اخترقها ..
.. تتساقط السماوات فوقنا .. تقور
براكين الأرض والبحار .. اهتز البيت
المتكود .. تناثر كل ما فيه: زلزال عرييد
أطاح بي وبها .. بالرجال الثلاثة ..
.. صرخت (أحلام) وأنا راقد بجوار
(التوبارية) أهدى:
.. زيور يا حبيبي .. أتحق مراتك .. حبيبته
(أحلام) ضاعت خلاص ..
.. أغشى عليها ..
.. من بعيد لمحت ظابورا طويلا من النساء
يسرن عاريات .. والرجال الثلاثة
يقهقهون عاليا،
.. «أشرت إليهم: سأضعكم فوق الموقد
أشوى أكبادكم وأهويكم .. هيا يا زوجتي
كلي من لحم من ضاجعوك .. تركها
الأول ..
.. أفاق ..
.. راحت نكي ..
.. اتحن جانبها ..
.. بدأ الثاني يقبب اللحم ..
.. «نظرت إلى الطابور المسائر فوق مياه
التوبارية .. تتساقط الرجال والنساء
صرعى أمامي وهم يصرخون صرخات
الفرع العظم،
.. أمسك بها الثالث ..
.. أئت .. لم غابت عن وعيها ..
.. بغرس أسنانه .. كان .. في لحمها
«صعدت إلى أعلى برج: بلا غطاء من
ملابس: صمت من فوقه
على الناس المتجمعين وهم عرايا تحتى:
فقدت اليوم رجولتي أمامكم

.. لم يتدخل أحد لإنقاذي .. الآن أبصق
على جثمتك أجمعين ..
.. «تركت النبرج .. سبحت في
(التوبارية) .. سبقتني زوجتي إليها ..
حاولت الإمساك بها .. حاصرني أسماك
القرش .. هاجمت (عضوي) التهمته ..
قهقهت الأسماك الشرسة عاليا .. رفعت
سكني .. بقسرت بطوننا .. لم أجد
عضوي .. مضت اللحم ..
.. بصقته على الجانبين،
.. انتهى منها الثالث ..
.. قلزت بلا ملابس .. عاكنتي عارية ..
حولنا تجمع رجال ونساء .. عراة مثلا ..
ويعرخون ويبتكون .. صرخنا ملهم
ويكنا ..
● ● ●
.. فتحت أحلام عينيها ..
.. صرخت ..
.. مات العبد
.. مات جسد: جسدها ..
.. مات البيت .. ماتت (التوبارية) ..
.. ماتت (البجيرة) .. والأرض المروية ..
.. فاض النيل على الجانبين منكسر القلب
متعقا بالسواد .. المائدة حافلة أمامهم:
برقت عيونهم .. جلسوا حولها ..
.. مضفت أنيابهم .. ما فوقها .. اللعاب
يسيل .. تجشأوا .. بصقوا على
الأسطة .. نهض أحدهم يقول فوقها ..
...
.. قاهر: الألم الحزين ..
.. القويد مشدودة ..
.. ما أراه لم يره أحد ..
.. الجرح في رأسي ذهول ..
.. «أى طرقات منعونة .. لبّيت دعوتها ..
.. فتحت غطاء ماء النار .. أحرقتنا .. أحرقت
وجه العالم مطا .. ابنتي كنت أسم هي
وأنا .. لبنتي مقطوع المسافين .. سبت
الحركة حتى لا أفتح باب الرعب .. ■

رسالة الحائط الرطيب

قصة: خيرى شلبى

والانتظار فى حديقته الواسعة . إنه قد يجد الشخص المرجو فجأة جالسا بجواره أو قبائله يشرب فتجان قهوة . حينئذ يبدو على سميت وجيه أبو وهدان هدوه وثقة ، عدم رغبة فى المطاردة ، فبأمن له النجم المرجو يوأن أنه جالس مع رجل وقور منزه لن يطلب منه خدمة لن يلج عليه فى شيء أو يزعه بثرثرة فارغة . لا يجد النجم غضاضة فى أن يبادله الحديث والتعليقات حول ظواهر عامة ، وإذ يتأكد أن هذا الشخص غير متكالب عليه غير مراقب له فإنه يصير على سجيته يلتزم جانب اللطف مع جلوسه ، فالتجم دائما أبدا لا يهتم إلا بمن يظهر له عدم الإكتراث به .

لكن ، يلقى الحذر من مكمله كما يقول المثل . إذ إن وجيه أبو وهدان يكون قد دخل بالفعل من باب آخر لا يتوقعه أحد رغم أنه بات ظاهرة متكررة بالتسمية لتعظم لنجم الموسيقى والغناء ممن يرتادون حديقة معهد الموسيقى . يتسلل وجيه أبو وهدان بالحديث حول تسريحة شعر النجم ، وكيف أنها غير متسقة مع شكل وجهه الجميل ، وأن الصورة المناسبة له هى هذه ، ويريه صورة للتسريحة فى كتالوج مطبوع . ومهما كانت رغبة النجم فى تقليد الحديث قوية باترة فإنه سيفاجأ بعد دقائق أنه قد صار يتفرج على الكتالوج فى شغف . ويعد دقائق أخرى سيفاجأ

ثالث قميص وغيار داخلى . ومن طرائف هذه الحقيبة أنها حين تفتح على جيب معين فإنها تبدو كما لو كانت مجرد هذا الجيب وحده فقط . أما هو نفسه فإنه يجتهد فى أن يكون على الدوام نظيفا إلى حد مقبول ، فالبنطلون من صوف القائلة هو هو لكنه دائما مكنوى ، وكذلك القميص الأبيض ذو الكم المضمحل الأساور عن ساعة جوفياال عتيقة فى معصمه الأيمن متشابها مع تقاليد الشراذ للمخالفين للتقاليد من أهل الفن والمجتمع .

موهوب الملامح ، ما إن تلج عينه على وجهه حتى تراهى له تشفق عليه وعلى حماسه . لا تثبت حتى تتعاطف معه ، إذ هو على الأقل تعشق طريقا جميلا فى حين تعشق أمثاله المكاسب والظفارة .

بارع فى التعرف إلى كبار الملحنين والمطربين ، والتقاط أخبارهم من كل مصدر ، وتسقط أثناء زيارتهم المرتجلة للمكان الغلائى : سيعمل بروفة فى نادى نقابة الموسيقيين يوم كذا الساعة كذا ؛ سيكون فى المعهد بعد ساعتين من أجل كذا ؛ سيكون عند الترنزى يوم كذا .. هكذا يمكن أن يجيبه إذا سألته عن أخبار أى مطرب أو ملحن .

يرى أن حديقة معهد الموسيقى هى أنسب مكان للتلاقى ، فهى المكان الوحيد الذى يملك مديرا لافتحامه فى أى لحظة

تحذف الكوام مهزول البدن مرقق النفس على الدوام . يطل من عينيه شقاء ووجع زمندان ؛ فهما يبريق استهوال كأنه انحط فجأة بين عصاية من اللصوص الخطرين فتجمدت فى عينيه نظرة الاستهوال الميطن بدشة مع حقد مع حسد مع ظل من الهلابة الساكرة؛ نظرة من يريد ولو لحصة من السريقة جزاء سكوته على ما رأى .

ذلك هو وجيه أبو وهدان . أصله من مدينة المحلة الكهرى شغلته فى الأصل حلاق ؛ نه محل فى شارع السوق أهم شارع فى المدينة . لكنه يتمشق تأليف الأغاني . من أجلها دأب على هجر الدكان ومدينة المحلة . بات كلما توافر لديه مبلغ ركب إلى القاهرة ؛ فبجته مباشرة إلى حديقة معهد الموسيقى فى شارع الجلاء ، يمرض على الصحنبة أغنياته ؛ يتصيد المطربين والملحنين ليسمعهم هذه التأليف ، ولكن يصنعة نظافة .

حينلته فى ذلك سن أصعب ما يسكن ..

فلقد هجر الدكان أى نعم ، ولكن عدة الحلاقة دائما معه . حقيبة متفاح كانت أنيقة ذات يوم قبل أن يلقبها سوء حظها بين يديه وجر عدة الحلاقة كلها بقوطتها فى جيب منها ؛ وفى جيب آخر دقائق وأوراق مكثفة بالأغنيات ؛ وفى جيب

يأخذ كد جلس في الوضع المناسب والتفت فؤادته الحلاقة حول رقبعته صار تحت الماكينة والمقص والموسى بالفعل .

تقع الضحية في المصيدة فلوس أمامها ثمة من سفر ، فيشرع وجهه أبو وهذان في تسوية ضحيته على نار هادئة ، يلقي على سمعه كل ما تحتويه جعبته من أغنيات على درجة كبيرة من الطرافة . في تمسعين في المائة من هذه الحالات لن تشر الضحية بالضرر إلا إذا كانت مرتبطة بموعده عاجل . فيما عدا ذلك فإن الرجل سيجد أن تعديل جوهريا قد حدث بالفعل في تسريحة شعره بلمسات بسيطة سريعة مدبرة . سيجد كذلك أن الكلمات التي يستمع إليها لا تخلو من أفكار وجهية طازجة في كل الأحوال ، وبعض المعنى أحيانا ، ودربة على النظم الموزون ، وبراعة في استجلاب القوافي الغربية التي لا تخطر على البال لأول وهلة ، والتي لو سمعتها وحدها لا ستكتفى ويردها في أغنية . ثم إن أغنياته تختلف عن أغنيات معظم الهواة المترددين على حديقة المعهد ؛ إنها تدور حول فكرة أو لوحة أو موضوع يكون فيه منفذ لبرود الحب والكلام عنه بلهجة فيها جرأة وإفافية ؛ في معالجة فنية يلبس عليها السذاجة ، لكنها السذاجة اللطيفة المغرية بترديد الكلام .

لهذا كان من السهل أن تصل كلماته في بحر سنوات قليلة جدا إلى حناجر بعض مطربي الدرجة الأولى . اشتهرت له أغنية اشتغلت كثيرا في حفلات أضواء المدينة بصوت مطرب شعبي مرموق ؛ كانت الجماهير تطلبها منه . وبالإحاح - في كل حفل .

بعدها أصبح يزور حديقة المعهد كواحد من المشهورين الموموقين . تتنازل عن عدة الحلاقة مؤقتا . لم يتركها ، إنما أغلق الجيب الذي يحتويها فلم يعد يفتحته قط إلا في حالات نادرة حين يقع أحد النجوم في زينة موعده أو تصوير فيطلب إليه رفغ لحيته بسرعة . لكن مظهره بقى كما هو ؛ لم يطرأ على حالته الاجتماعية أدنى تغيير وإن قويت عينه وبات إذا جلس يضع ساقا على ساق .

لم يكن ذلك عن غطرسة أصيلة فيه ، إنما هو مندفوع إلى ذلك دفعا ، للدفاع عن نفسه ضد نبرة من الاستهزاء الخفى باتت تجاهبه من رهط ممن أطلقوا على أنفسهم شعراء العامية ؛ فارتبطت أشعارهم بشعارات الاشتراكية والنبرات الخطابية الزائفة ؛ شاعت فيها مفردات كـ «الخطاوى والغناوى والأخمسراى والأخضراى وما إلى ذلك . أحيانا كانوا يجاهرونه برأيهم في أن «المرحلة» لا يجب أن تمتع لأمثاله من الذين يكتبون شعبيات لا فكر فيها ولا ثقافة وراءها فهي إذن ضد الفلسفة الاشتراكية التي تنتهجها البلاد فضلا عن أنها مدمرة للذوق العام . فبطاولهم برأيه في أن الاشتراكية يعنى أن تأخذ كلماته هذه وأمثالها طريقها إلى الأذان وفي أخذته بالفعل شاعوا ذلك أم أبوه . ولقد تلقى منهم صنوف الكبر والاستعلاء والعدوانية حتى لكأنه حشرة يتأفقون من منظرها يعملون على سحقها . نجحوا في الاستيلاء على الفرص الثمينة لأنهم كانوا بالفعل وقودا للمرحلة فأقلعوا أن يكونوا تمثيلا لها بأي شكل وعلى كل لون . المرحلة كانت في حاجة لأبواق ؛ ولأبواق ؛ احتياج للنشرة والمال والتجسسية ، فالصلة إذن متوازنة . بشكل أو بآخر سيطروا على مشاهير الملحنين الذين لهم نفوذ كبير على الأصوات والميكروفونات ، والذين هم بدورهم جزء لا يتجزأ من الصفة . امتلا الأثير بكلمات ذات نزعة شعارية ، أو عاطفية مجنسة ، أو فولكلورية بصياغة جديدة مسبوكة مائعة . أما هو .. وجهه أبو وهذان . فقد كان أقرب إلى الفولكلور من حب الوريد ، هو الفولكلور بكل عيله الجميل الصادق :

الخشونة والتفانية المفرطة في العرى من أى ترويق أو تمحوم أو إسقاط وإن كانت أضعافه من ذلك لها أبعادها العميقة ولكن في حدودها الإطارية ككيان مستقل قائم بذاته .

كان يضيق بزييف القاهرة وعدوانيتها الشديدة ، فيهرب إلى المطة الكبرى يتكتم فيها أمنا ورزقا من صنعه . فما يلبث حتى يضيق بالمطة الكبرى وعالمها المحدود ، يشعر بمعنى الاغتراب ، فيشد

الرجال إلى القاهرة . كان بالفعل منبت الجنود حفا ، ولظله مجتمع الصلة العملى الصرف ، المنغمس في ماكينة العمل بلهات لا ينقطع ؛ ويستطلى عليه مجتمع القاهرة الزائف بطاويسه المديبن على شغل الحواة ولاعى ثلاث الورقات ودهن الوجوه بالمساحيق والبيوتات ، حيث يعيش كل واحد بشخصيتين وربما أكثر .

كثيرا ما اختفى تماما ، لأوقات طويلة لا يظهر في أى مكان . لأنه لم يعد المحبين والمتطفلين فإن الشعور بغيابه يكون دائما قويا ، لدى الجميع في غالب الأحيان . فمستطلفوه بشفتهم الاطمئنان على أحواله ، ورفضوه بشفتهم الاطمئنان على اختلافه التهنائي كأنه النعقة الكأداء في طريقهم .

هو أيضا من الذكاء واللماحة على قدر كبير ، يعرف جيدا ما يستطفه فيسقط عليه فجأة ليكثت معه وقتا طويلا يعطيه تقديرا مفسلا - فهو مفرد بالتقارير المفصلة - عن أخباره وأحواله ؛ ويعرف كذلك من يرفضه فيمر عليه مرور الكرام لا لشيء إلا ليؤكد له بإشعاره أنه موجود على قلبه لم يمت بعد بل يوت حتى وإن لفظ أنفاسه . هكذا كان يقول لرافضيه ، ويضيف قائلا إنهم مؤثنون لأنهم أبناء مرحلة أما هو فباق لأنه ابن الذوق الشعبي الأصل . وربما يذكره أحدهم فيصبح فجأة : «هو الولد وجهه أبو وهذان متى باين ليه بقى له مد؟» ؛ فإذا به يكشف بمد برهة قصيرة أن وجهها يجلس خلفه مع مجموعة أخرى أو ربما وحده . لقد كان في الواقع لا يخلو من إشعاع وشفافية كبيرين .

وبالنسبة لى شخصيا كنت أحبه ، وأقتضه ، وأطرب لكلماته ، أعذب لأفكاره الجنوبية المحملة لكل الأعراف والتقاليد الكتابية ، تسخر منها ، تسفها ، تحاول إقامة بنيان جديد مختلف ، يستنكره الذوق المستنكر لكنه بعد التفكير فيه يكتشف أن له متلفة الخاص الذي لا يخلو من وجهة فنية . فإذا كانت الأغنيات الدارجة تجعل من القلب بينا يسكنه الحبيب ؛ فما المانع أن يجعله هو

شوارع وحارات يسكنها الحيارى فى دنيا الحب والغرام ؟! .. إلخ إلخ .

كثيرا ما تذكرته خلال الغياب فإذا هو يطب على فجأة فى مكتبى فى الجرنان كأنه سقط من خاطرى مجسدا . وأحيانا أخرى يفتلى حتى من الذاكرة فلا يظفو عليها إلا عندما أستمع لأغنيته الشهيرة فى الراديو فى لحظة عابرة .

ثم مضت سنوات طويلة لم أره وإن تذكرته كثيرا ؛ فاشتقت إليه بالفعل . سأنت عنه فى جميع مظانه فلم أقدر بباطل ، حتى يست من ملاقاته . إلى أن وجدتني ذات يوم فى الملحة الكبرى أجمع مادة موضوع أكتبه للجريدة عن ليل من أدياء الملحة الشبان من أبناء المجتمع العمالي الصرف .

لم أجد عطاء فى الوصول إلى صالونه الشهير فى شارع السوق الحافل ليل نهار بحركة لا تطف ولا تهدم . يقع الصالون بين محلين ، أحدهما بقال وآخر معرض للأحذية مغلق بباب زجاجى . تحت الوصفى تمتد على الجانبين عربيات الفخر والطمعية والفول وأدوات التنظيف والأدوات المنزلية . كاي صالون حلاقة عتيق فى أى مدينة صغيرة كان هناك ستارة من الفرز فى حبال طويلة تتقاطب فى بعضها من شدة اهتزاز الأرض تحت عجلات السيارات والقذام الوافدين والزاحلين . منظر الصالون يبدو أنه مدهون حديثا باللون السماوى الفاتح فى الداخل ، ويدرجةاته الفسائسة على الوجاهة . ثمة لافتة كبيرة على الباب : «صالون الحرية» . نظرت فى الداخل ؛ يوجد ثلاثة كراسى شينة متجاورة تلمع بمساتن شامخة ومقاعد وثيرة . خلفها - لصق الحائط - صف من الكراسى الجلدية الريحية . الحوائط كلها مكدسة بالمرابيا حتى ما فوق القامة . كراسى الحلاقة وكراسى الانتظار كلها مشغولة .

دفعت رأسى بين حبال الفرز . قلت : «السلام عليكم .. نعيما مقدما» . ردوا : «نعم الله عليكم» . قلت : «هذا» . فيما أظن صالون وجهه أبو وهدان . مرت لحظة صمت مشوب بالترقب الشامض . كان من الواضح أن الأسطى

الواقف على الكرسي المهادى للباب هو الأسطى هاهنا . تهقر عن قفا الزبون ؛ حاذاني قائلا : حضرتك تطلبه فى شىء؟ . قلت فى شىء من المرح تاركا حبال الفرز تثال على كئلى : إنه صديقى وأنا صديق من القاهرة جئت فى مهمة فأحببت أن أراه . اختلى التوبس من ملاحه ، صاح : أهلا وسهلا ! هو سيكون هنا بين السادسة والسابعة ! إنه الآن فى السوق له زبائن خصوصيون يمر عليهم فى محلاتهم ويبيعونهم ؛ ثم استأنف الحلاقة للزبون بالمص والمشط . شكرته وخرجت . ملت على البقال أشتري عليه سيجار . كان وحده مرتكنا برفقيه على البنت . رأيت فيه شابا بشوشا طفولى الوجه إلى حد كبير ، وله عينان بارزتان فى وجهه الأبيض المصمر ، مليتان بالخبرة والعداوب والتجربة لقلت إنه طفل متضخم الجسد . فلما اعتدل واستدار ليأتى بعفلة السجائر رأيت جسده القصير مثل رأس الفجلة ، رقيقا من أعلى تخينا من أسفل . وإذا اتحنى على درج الفكة ليمع لى بقية الجنية وحدثنى أقول له : «أستطيع أن أرى وجهه أبو وهدان أو أترك له رسالة؟» . فرقع وجهه عن درج الفكة تأقرا فى وجهه باهتمام وتلقيق شديدين ؛ مد ذراعه المسمية إلى جواره فرقعها بكبرى دائرى صغير بدون مسند ؛ قمه لى : «تفضل القاء» . فقامت خنرا وجست بجوار البنت . سلمنى بقية الجنية ، ثم فتح الثلاثية الثلجية الحمراء وأخرج زجاجة إسبائس خضراء متففة ؛ فتحتها ، قدمها لى : أهلا وسهلا .

قدمت له نفسى ؛ فساد الترحيب بى ؛ قال إنه خداسى فتحنى السلى ، من هوة الشعر والجزل ؛ جاءت الهواية من الورق الذى كان يشتريه بالطزانه لبيع فيه ، فلما جذبه الورق تصفحه ، فلما تصفحه عرف فيه الشعر ، فأحبه ، جاء عليه وقت لم يكن يتكلم فيه مع الزبائن إلا بالشر ؛ هم يظنون بالشر وهو يرد عليهم بالشر ؛ وكان سريع البديهة ؛ لكنه اضطر لى إبطال هذه العادة بعد أن اتضح له أن معظم الزبائن يتضايقون من قفشاتة الشعرية . إذ يفهمونها خطأ . قلت له :

«هل أنت واثق أن وجهه أبو وهدان سوف يأتى ؟!» .

قال فى برادة :

«على كل حال هو ابن حلال مصفى ! إنه غريب الأطوار ؛ أحيانا يكون على موعد معى ويتصافد أبى بجرى قبله من يسأل عنه قاصدا به أى ؛ فإذا به بقدره قادر لا يحضر فى موعدة بل ربما يتأخر أياما ؛ وأحيانا أخرى يطب فجأة بدون موعد ليجد فى انتظاره من يبحث عنه لمصلحة !! إنه جدد غريب وبأس لكنه طيب القلب فنان» .

مدفوعا بتوع من الفضول قلت :

«الصالون المجاور لك ؟ صالونه فعلا ؟» .

تردد لبرهة ثم قال :

«قلت لحضرتك إنه باليس الأريام لطشت محه كل التلطيض ؛ كله من قَرَّ الناس عليه من يوم ما اشتهر كمكلف غنائى ؛ بدأ يهمل الصالون بقل طول الليل يدخل الحشيش يسرح فى دنيا الخيال يصطاد الأفكار التى لا بد أن تكون كما يكون حديثه غير مبسوطة ؛ زوجه المسكونة صبرت عليه كثيرا ؛ الأهل والبحرمان اعتقدوا أنها أصبحت زوجه النجم المشهور الذى لا يكف الراديو عن إذاعة اسمه فأى عذ وبغفة ؛ فى حين أن المسكونة لا تجد قوت يومها إلا بصعوبة !!» .

رأسها ؛ هو الآخر ركب رأسه أكثر وأكثر ؛ قام بتأجير الصالون للصناعى الواقف بجوار الباب ؛ صاحبنا عمل إصلاحات وجدد العلف واستوطن فى العمل ؛ عاد وجهه يلف بالعادة مثلما كان يفعل أبوه قبل أن يشتري هذا العمل منذ خمسين عاما ؛ اليوم هو لا يستطيع إجداء صاحبنا هذا عن العمل ؛ إذ هو ولد لبسط وخربوش ؛ وطريق الفن حتى الآن غير مضمون لوجهه أبو وهدان ؛ يعنى لا طال

عذب الشام ولا تلحاح اليمين ! إنه بائس والله يا أستاذ ويستحق عيون الصحافة!! .. كتبت ضحكتي : صرت أحتين الفرصة لإنهاء الكلام والانصراف ؛ حيث صار من الواضح لي الآن أن وجهه أبور وهذا ليس في حالة تليق باستضافة أحد . نظرت في ساعتى :

- على كل حال إذا ..

فإذا بالبكال يهتف فى فرجة طاعنة :
- وصل ! كلا كما ابن حلال ! تعال يا عم !

استدريت ناظرا إلى الباب . كان وجهه أبور وهذا مقبولا فى خطر بطيء ، نأجل الجسد ، ليس فيه سوى عيني تيرقان فى ترقيب وتعد شديدان ؛ يحمل طوية العدة ، الحقيبة نفسها التى يجرى بها إلى القاهرة . وضعها على البلك وعانقتى ؛ أمن فى الترحيب بى . غمزت له بعيني غمزة يفهمها : صاح :

- وماله ! عن إذنك يا فتى

بلاينا ،

- نهاركم أبيض !

هكذا قال فتى البكال ..

عبرنا الشارع فى ثلث ، ومنه إلى شارع جانبى أقل زحاما ، ومنه إلى الخلاء ، فالمزارع الشاسعة . هناك فى سفح طريق زراعى هبطنا إلى عشة صغيرة كالخص منية بالبونس والحصائر جلسنا على دكة خشبية . كان فى استقبالاتنا رجل مصموص الدم شاحب الوجه منتفخ العينين . جهز لنا الشاي الأسود الثقيل ، وحجارة التبع المعسل ؛ أقمى أمامنا بالجوزة وراح يسقينا أنفاس الصبر فى شغل وهموم أعصاب . قرص الشمس كان فى مواجهتنا قد صار كرة من الذهب الأحمر ويتأثر منه فئات على حجارة التبع تلمع تطفلق تحت أنفاسنا . حلوت المسائل كلها . أسعيت وجهه حوالى عشرين قصيدة غنائية فى خيط واحد ؛ فى إلقاء كاتيل وتلهدج . أعجبته ، إذ لاحظت أنه لأول مرة يلقى شعرًا لغيره من الشعراء كلها بتجديد فى الثورة الاشتراكية ، وتحميد للحلم الشعبى

الإنسانى فى غد مزهر ؛ كلماتها مليحة بالمداخن والسآن والمشربيات والحقول الخضراء .

من فرط استماعى وشغلى أهر رأسى طريا : الله الله الله ! يا سلام .. ذلك أنه قد وقر فى ذهنى لحظتها أن وجهه أبور وهذا قد اتسع منه وصدره وتذوقه فأصبح يلقى شعرا لغيره يستحسنه ؛ واندهشت كيف أنته هذه القصائد الجديدة الطازجة التى لم أقرأها من قبل . قلت مبدئا إعجابى :

- نظارة طيبة أن تحتفظ شعرا لغيرك وتردده !

لمع فى عينيه احتجاج كبير :

- «غيرى من ياعم ؟! هذه كلماتى أنا ! شعري أنا !»

قلت فى غير تصديق :

- «هذا اللون جديد عليك !»

قال فى وعى حسدته عليه :

- «المهم أن يكون لونا أصيلا وليس طلاء متفقا !» تفكرت لبرهة طويلة . استعدته بعض مقاطع ؛ شعرتها جيدا وجدت اختلافا كبيرا بالفعل بينه وبين شعراء العامة الذين حظوا بشهرة عريضة فى القاهرة ؛ فى الأسلوب ، المفردات ، زوايا الرؤية ، الأشكال الموسيقية . هنا مفردات المدينة الإقليمية ، الصمالية الفلاحية مما . هنا خيال ساذج رافع السذاجة ، غفل من الحشو الثقافى التقليدى ، وبالأخص الثقافة الاشتراكية ؛ كما أن الكلمات تخلو تماما من الشعارات المصنوعة التى شاعت فى منتصف عقد الستينيات الذى يقتصر فى أنماطها بالهزيمة .

رحت أضحك فى عينيه كأننى أحاول التعرف عليه لأول مرة :

- «أنت إذن مؤلف هذه الأشعار ؟ الغريب أن أغنياتك المايكة كانت خفيفة جدا ! وجانب الطرافة فيها هو الأقوى ! فما سر هذا التحول المفاجئ ؟»

ضحك ضحكة مكدودة مرهقة ؛ باتت لها سن ذهبية كامنة فى جانب من الفك السفلى الأيمن . قال بصوت متودج :

- «أنا فى الأصل هكذا ! هذه هى أغنياتى الأصلية !» كتبتها قبل الأغنيات الخفيفة التى أذيعت واشتهرت !» هفت مقاطعا :

- «وماذا لم تقدمها هى يامجنون ؟! لو قدمتها كان لك الآن شأن آخر ! كانت كبرتك مليون مرة !» فإذا به يكور شفتيه ، ثم يطلق ضراطا بذنيا ، تعقبه ضخرة أشد بذاعة ؛ ثم استردك فى جدية أسيرة مريرة :

- «هذه الأغنيات كلها رفضتها لجنة النصوص فى الإذاعة بحجة أنها سوية !» وكلما أسمعها لواحد من المطربين أبوى إعجابه وقال : أنا عايز حاجة غريبة تتعلق مع الناس ..

جمدتنى الدهشة ؛ لأن الكلمات التى استمعت إليها لا يمكن رفضها بأى حال من الأحوال . وإذا به يستطرد :

- «كان فى استطاعتى أن أصر على تقديمها بالإلحاح لكن ظروف النكسة وقعت ضدها وضد كل شيء جميل ! الناس شبعت من هذا الكلام ولم تعد تصدقه ! الناس الآن فى حاجة إلى من يداوى جراحهم ! بكتة بفحشة بصورة هزلية ! الفن الزائف الهيف ضل الناس ولفخ رجال الشورة صلع منهم أباطرة يتحكم كل واحد فى مكان كالأبديات فضاعت البلاد بين الرؤساء كذلك انطمست وطفية الرئيس عبد الناصر تحت أقدام الرئاسات الزائفة ! فلما اكتف المتصور إذا بكل الأشياء شائبة ! الذين غفلوا للشورة حتى وهى تضربنا بالأحذية الثقيلة التى يحققوا الشهرة والمال والجاه خلقوا صدى . صرت أكتب كلمات هزلية أقصد بها الهزء بكل شيء فى الدنيا حتى بالشعر نفسه ! صرت أكتب أشياء أهدر بها قيمة الشعر عامدا متعمدا ! أهيلة أرى بكل أهدافه الإنسانية اللبيلة ! كنت أتوقع أن يصيرنى كل مستمتع بالحذاء لكنى فوجئت بأن الجميع معجب بما أكتب إلى حد الجنون ! الناس أصبحوا يعشقون الهزل بصورة مخيفة !»

لاحظت أنه مرور حتى مما يقول .
سألته عن حياته الزوجية فقال إنها
فُشلت هي الأخرى كما فُشلت الثروة في
تحرير البلاد . ثم زفر ، وأضلع سيجارة ؛
أسند رأسه المكندو على كفه وجعل يدخن
بشراهة فائقة . أخيرا رفع وجهه بهينين
حمرائين كالماء ؛ طلب عشرة حجارة على
سبيل الختام . ثم البهج فجأة وهتف :
« دعي فكرة ! جئت في وقتك ! كنت
أتوَّى أن أمر عليك وعلى بعض الأصدقاء
في الصحف لأكلعكم في موضوع شديد
الخطورة !! »

« دعه خير . هذه المرة ؟! »
« هو موضوع أحب أن أتوّه عنه في
الصف !! »
« ما هو يا ترى ؟! »

« ذلك بدأت السماء تراسلني !! »
« نعم ؟! »

« أقول لقد بدأت السماء تراسلني
!! »
« وكيف بحق الله ؟! يتنقّى أستطيع
أن أعرف ؟! »
أشدت حماسه . لمع في عينيه
بريق شديد اللغاف :

« «سأريك كل الوثائق ! سترأها رأي
العين ! وما أنك صديق قديم وعزيز
فرأني سأكشف لك السر الذي لا يصح أن
أكشفه لأحد ! إن الأسرار في هذه الحياة
لا يجب أن تقال لكل من هب ودب ولا
كانت السماء قد راسلت كل الناس !!
وما أن السماء قد اختارتني أنا بالذات
لتبكتني بالرسالة فرأني سأخبر بعض
الصقوة لأبلغهم مضمون ما وصلني فلربما
تعاونوا جميعا في حل لغز الحياة وفُض
مغاليلها !! »

« من فضلك ! أريد أن أعرف كيف
تمت هذه الرسالة ؟! وهل تقسم أنت
بالرد على كل رسالة أم تقتفي بالتلقي
فصعب ؟! »

« إنها لا تنتظر مني رد ! إنها تنتظر
منى أن أقوم فحصب : أقوم وأستفيد بما
فهمت !! »

« أقول كيف ؟! »

« «سترى كل شيء بعينك ! سأعطيك
تصاؤل القراءة بنفسك ! لقد كنت على
وشك الانتصار قبل أن توافيني هذه
الرسالة فطلعت أنى على شيء كبير من
الأهمية وأنتى ربما ألعب دورا في حياة
الناس على نطاق واسع أوسع من نطاق
الشعر والأغاني والإذاعة ! كل مالى
الأمر أنى أريد أن تصاعدي أنت وكل
من يستطيع ! لا أقصد التثوية في
الصف فصب ! بل أن تعاونتى أنت مثلا
في قراءة مضمون هذه الرسالة
وتصاعدي على تفسير بعض غموضها !!
وعلى كل حال فرأني ماض في قراءتها
وفك رموزها يوما بعد يوم ! ونحن أنتمى
منها سأضع لها صيغة نهائية يمكن لأى
واحد أن يقرأها ويفهمها !! »

« دهل هي رسالة خاصة بالدين
متلا ؟! أو بالعالم ؟! »

« «بالأثنين معا ! هناك نبوءة يتحول
جذرى في حياتنا ! إذا انتهينا إليها من
الآن يكون من حسن حظنا قبل أن تضع
منا الفرصة في تداركه الأمور .. » وفد
التفلس من الجوزة بشراهة تاركا سح
الدخان تتكاثف من منخريه في غزارة .

صرت أنا في حالة هي مزيج من
الإثارة والخوف الغامض القابض للقلب .
رحت أفكر في طريقة أنسحب بها إلى
مسوق السيارات . إلا أنه نهض ،
فنهضت . صار يحث في جويوه بحثا عن
لقد ، فصارت إلى حافظتى وحاسيت
الرجل صاحب المطرح ؛ ومضيت بخادم
وجوه أبوه وهدان عائدين إلى المدينة التي
بدت رغم أضوائها كتلة من الغموض
الباهت على القلق .

بعد مسيرة طويلة صرنا في شارع
السوق . كانت الحركة قد هدأت فيه
بشكل ملحوظ . أنوار خافتة تنبعث من
لمبات داخل فوانيس قديمة الطراز معلقة
في عواميد طويلة . الأرض زائفة موحلة
من أثر باعة الخضراوات وعربات الرثى
والقمامة . السيارات الملأى والأجرة تمر
مسرعة فتلقى علينا بطين الأرض . قفظة
العربات الكارو تجدد سكوت الشارع .

حدونا إلى حارة جانبية . مضينا فيها
مسافة طويلة في خط مستقيم ؛ ثم
التويانا معها لخطوات طويلة ؛ ثم سألنا
حتى دخلنا حارة متفرعة منها ، وسط
بيوت كالحة مسودة بالقيار والدخان ، ما
بين أربعة وخمسة وستة طوابق على
الأكثر . بعض الشقق في الأدوار العليا
معدولة حديثا باللون الأزرق والأخضر
والوردي الساذج ؛ كل البلكونات تتدلى
منها حبال الغسيل المتخمة بأشباح
مصلوبة . بعض البلكونات مقللة
بالبلاتش والملك الشبيكة كحظائر للنداج
والأراب . رائحة التقلية والقمامة
وصاويون الغسيل والرياح تتصاعد
متمازجة في رائحة واحدة لغادة تبعث
الأنس في الأعطاف .

أخيرا توقفنا عند بيت لا بأس به ،
من خمسة طوابق على الطراز الفرنسى
القديم ، عمره لا يقل عن ثيف ومائة
عام ، له بواك بارزة وشرفات وشبابيك
طويلة القامة مثقلة الصنع . باب مفتوح
وضفاته غالمتان في الأرض بين اللطاف
المتآكل المتفلز ، بعد العتبة بخطوتين فتحة
بالوعة تشير إلى أن البيت كله يصرف
فضلاته في طرئ واحد يتم كسحه من
هذه الفتحة .

باب الشقة مجاور لباب الشارع
شاما ؛ لها شباك مطل على الشارع لصق
فتحة باب الشارع . مد وجه أبوه وهدان
يده بالمفتاح ؛ فتح الباب . سرب يده من
وراء الضلفة ضباغها على زر الثور ،
فانبعث الضوء في مواجهتنا . لتدمنى
قالا : ادخل . أغلق الباب ورائى
بالترياس الداخلي .

كنا في صالة مربعة تخلو تماما من
أثاث ، بلاطها لامع ليس فوقه سوى
الظلال . الحوائط تستمخ في الرطوبة
والملمح اللزج يتخثر ويسرح في خطوط
عشوائية قبيحة الشكل مفزعة ؛ ثمة
خراط وجبال وأحراش ومستنقعات
رسمتها الرطوبة على الحوائط وفي
السقف يتماثل الجير عن الحارة ..

وقلت مذهولا وقد بدأ الشك يساورنى
في كل شيء . أما هو فقد رلق أمامى
واضعا يديه في خصرتيه ، ناظرا تحوى

وتحو الحوائط في زهو شديد ، كأن لسان حاله يقول : رأيت بشائر صدق قولي ..؟ فلما رأي غير مستوعب للموقف برمته

رفع حاجبيه قائلا : تشرب شاي ؟ ثم مضى نحو ما توقعت أن يكون مطبخا . فمضيت وراءه ؛ فإذا بنا بالفعل في مطبخ ، لكنه مجرد حوائط وحوض غسيل ورخامة مستطيلة ؛ وليس ثمة من موقد أو طبق أو حلة أو ملعقة أو كوب أو كتنة أو حتى كوز من النصفوح . وكانت الحوائط تزدان بالخرايط نفسها ، فتشككت في أنني سمعته يقول : تشرب شاي . ثم أضاف أن أسأله ، استبدت خارجا من المطبخ ؛ رأيت بحذائه دورة مياه تلج من حولها ريح كريهة ؛ شددت بابها أغلقته . أمامي الآن حورتان مفتوحتان ، دخلت الأولى فلم أجِد بها أي شيء على الإطلاق ؛ اللهم إلا ما رسمته الرطوبة على الصوانط من غشايات وخسائب وأذغال . اندهشت كيف ينام فيها ؟ وعلى أي شيء ينام ؟ دخلت الحجرة الثانية فإذا الفراغ بملأ كل بقعة فيها . رأيت أن من التمثيل أن أوجه إليه أي أستفسر . إلا أنه كرر على مسمعي : تشرب شاي ؟ وجدنتي أرد مصعبية شديدة : إفرض أئني طلبت فأين هو الشاي ؟ .. قال : حالا ؛ ثم تركني ففتح باب الحقة بسرعة ووقف في وسط مدخل البيت صامتا في اتجاها سلم مسايح في بحر من الظلام كديناصور أسود ؛ يا مرمر ! مرمر ! إعملي لنا كياتين شاي لو سمحتي .. فلم أسمع أي رد عليه ، إلا أنه عاد فأغلق الباب بالترهاس . ثم قال فجأة :

- وعلى فكرة ؛ لك عندي حنكة ممتازة تليق بوجهك وبشعرك الخفيف هذا ؛ ثم إني اشتريت شفرة جديدة من أعظم الصابكات أطلقها ستعمل ذلك هذه الحنكة أنعم وأطير من الحشير اللس ! اجلس أمامي لأريك فن الحلاقة على أصوله !.

وضع الحقيبة على حافة الشباك ، فلتها بسرعة . صحت فيه بغيظ وضيق :

- أنت قلت إنه مستريري وثائق ورسائل السماء إليك فأين هي أولا وقيل كل شيء ؟

ترك الحقيبة مفتوحة وأشار بابتسامة ضجيرة إلى القرائط المرسومة على الحوائط قائلا :

- هذه هي !! ألم فككت كل هذا ؟ سأقرأها لك الآن علي قدر ما فهمته منها ؛ ولكني كنت أحب أن أفعل ذلك وأنا مندمج في الحلاقة لك ؛ إن الحلاقة تجعلني أتراجع ؛ تستحضر ذهني ولو كان في بلاد بعيدة ؛

- دعك من الحلاقة الآن ؛

- ستشكرني لو خلقت لك ؛

صحت بغيظ شديد :

- يا أخي وكيف تحلق لي بحق الأبالسة ؟ هل أتربع على الأرض وتقرص أنت أمامي ؟

- وما الداعي ؟ اجلس على أرضية الشباك وأظن أنا وأقفا ! سمك الحائط عريض كما ترى .

أصغني من الحلاقة أرجوك ولا دعني أتصرف ؛

- برأحتك ! والآن سأقرأ لك بعض سطور هذه الرسائل المقدسة !!

أشار بقلم من الرصاص لزحمة من جيبه قائلا وهو يضع من القلم على الحائط :

- وما هذا الذي تراه ؟

- جدير تساقط بفعل الرطوبة لا أريد ولا أقل ؛

رسمني في استخفاف ثم الفجر ضاحكا :

- هذا ما توقعت أن تقولوه ؛ ولكن لا ؛ ليس هذا هو الأمر ؛ إنما الحقيقة هي أن هذه الخطوط التي أمامك لم تحدث هكذا عبثا ولا مصادفة ؛ أقصد أن حركتها هذه ليست عشوائية ؛ فلا شيء يخصها للمصادفة والعشوائية أبداً في هذه الحياة ؛ كل شيء له حكمة ومعنى يتجلى في حركته الذاتية ؛ كل خط موجود هاهنا بمعنى لهدف معين ؛ ما الذي يجعل هذا الخط مثلا يرتفع إلى أعلى هكذا متعرجا متواظبا ؟ وما الذي يجعله يتحد إلى أسفل

ثانية ؟ هذا ؟ لا ليس مصادفة ؛ ليس عشوائية ؛ بل تتحرك هكذا ليصنع هذه الدائرة ؛ وتصنع الدائرة مع هذا الخط الآخر هذه الربوة ؛ وهذه المنافر المتعددة إنما هي في حقيقة أمرها كلمات ذات معنى ومنطق !! إن الله سبحانه باختصار - وهو قادر على كل شيء - يرسم لي العبر والمواعظ ؛ يشخص لي أزمنة سوف تهجر وأحداثا سوف تلغ !! يجديني رموزا عميقة !! لم لا تكون هذه آية من الآيات الكونية البهيات نهني وهي من الله إلى محاولة قراءتها وأخذ الموعظة منها والدرس والتنبيه !! لا تتصورني مجنونا فأنا في كامل قواي العقلية بل لم أكن في حياتي أعقل مني الآن !! وأنت بعد قليل سترى تفاصيل الرسوم بدقة ؛ وحينئذ ستسرى ماوارم هذه الرسوم والأشكال !! على كل حال ألترب على وركل بصرك على حركة هذا القلم أينما سار أو توقف ؛ وإني لوائق أنك سوف تتقنع وترى نفس ما أرى !! ..

- أرى ماذا وأتقنع بماذا يا هذا ؟ إما أنك مهتل عقليا أو أنك تستخف بعقلي ،

- من فضلك ؛ نحن أصدقاء قدامى ؛ من حقه أن تهاجمني ولكن بلطف ؛ وليس من حقه اتهامي بالجنون فأنت منذ قليل كنت لي المديح بالكيفية ؛ فعلى الأقل أنت واثق من صحة عقلي الذي كتبته الأشعار التي أطريتك !!

- يا أستاذ أنت الآن تخلف ؛ هذا الجدير وقع عن الحائط بفعل الرطوبة لا أزيد ولا أقل ؛ وكل بيوت الناس القديمة يحدث لها هذا ؛

- وماذا لم يسقط الجير مرة واحدة ؟ !؟ الحكمة هي أنه يسقط بطريقة ترسم هذه الرسوم وتخط هذه الخطوط كأنما بمن القلم ؟

- أقباسا على هذا فإن كل البيوت المجاورة لك تجيبها رسائل من السماء ؛ فليست أنت وحدها المصطفى ؛

- دك البيوت قد يحدث لها شيء هكذا أو نعم ، ولكن الله لم يوح لأحد من أصحابها بقراءة الخطوط التي تنتج عن التساقط الجوي !! الله سبحانه لا يوح

للأنبياء فحسب ! بل يوحى للناس كافة !
للطير ! للحجر ! للشجر ! للأرض ! لكل
شيء ! الحياة نفسها وحى من الله !
الروح التى فيها وحى من الله ! الطفل
الوليد يرضع ثدى أمه بوحى من الله !
يسرف أمه وأباه بوحى من الله ! وأما
بوحى من الله رأيت أنه من الممكن
قراءة هذه الخطوط على حوائط منزلى !
إنها موجهة لى أنا شخصيا !! وعلى
فكرة ! إنك لو تأملت فى مسئلة هذه
الخطوط فى كل بيت فستجد أنها تختلف
من بيت لآخر اختلاف البصمات ! لقد
تأملت هذا بنفسى فى كل البيوت التى
دخلتها فوجدت أن كل حائط عليه بقع
عابرة أما على هذه الخطوط مرسومة لها
معنى ومنطق ! الأهمنى الله تقصيرها فما
الذى يقضيك فى هذا ؟ خلك مع الكذاب
لحد باب الفار كما يقول المثل ،

« قل إن من ما بين لك »

أشار بالعلم الرصاص نحو التشكيلات
الغريبة قائلا فى جدية شديدة التجه :

« ماهذا الشكل كله ؟ أنيس يأخذ
منظر مدينة كبيرة متهمة بعصا الخراب
فى القلب مع أن الأسباب والمآذن
والمداخل وأعمدة الدور وأسلاك التليفونات
والهوائيات توحى بأنها عامرة ؟ »

تأملت الشكل جيدا ، فإذا هو بالفعل
كما يقول ! بل إن الصورة التى رسمها
فى خيالى راحت تتضح شيئا فشيئا
وتتطبع على الشكل المرسوم على الحائط
بشكل جلى ، وبدرجة شكتنى فى سلامة
عقلى نفسه فخلعت أن تكون عدوا قد
سرت لى .

قال : « جميل ؟ »

قلت : « جميل ! »

أشار لى شكل هلامي مطلق على
أعلى قمة فيما اعتبرته حطام مدينة ؟
وكان يعمل برأسه نحو متحدر صيق .
قال :

« هم تذكر هذا الشكل ؟ هذا الرأس
المحطو بشال من الضعر ! وهذا البدن
المرن القوى ! وهذه المؤخرة العارية مع
الذيل والأقدام الأربعة أنيس هذا سحبا ؟

أندا بمعنى أصح ؟ »

قلت بكل الاقتناع :

« نعم هو كذلك سبع ولاكل السباع !
هو فحلا لا يمكن أن يكون إلا سحبا »

قال كان هذا شيء مفروغ منه :
« جميل ! » ثم أشار لى شكل آخر يطع
من جوف الخراب مستطعا نحو السماء
وأخذا سمته نحو القمة المرتبة :

« وهذا الشكل أنيس يوحى لك بأنه
كلب ؟ »

هزأت رأسى فى تأييد قاطع :

« نعم هو كلب واين كلب أوضا بلا
جدال ! »

رفع ذراعيه فى انتصار وهتف :

« الحمد لله ! هذا إذن : سبع يسقط
وكلب يصعد ! » ولمع فى عينيه بريق
مخيف فيما أخذت أردت لنفسى فى
اندھاش وانجذاب : سبع يسقط وكلب
يصعد : قول يدعو للتأمل حقا . فإذا هو
بضيق :

« لقد كان السبع حارسا للخراب
وحاميا لهذه البقية الباقية من المعمار !
ولسوف يصعد الكلب ليعيش فوق قمة
الخراب ! وسوف يأكل الجيف التى خلفها
السبع فيسمن وينظف المكان منها ويبقى
فى انتظار سيد يلقى إليه بالفتات ويملك
المدينة يوصلها إلى مشروع خاص !!
لسوف يكثر عدد الأسود الغرياء ويكثر
فضلاتهم بعد التخمّة !! سيكثر أيضا عدد
الكلاب بكثرة الجيف والفضلات المتبقية
من الأسود » .

ثم تراجع عن الحائط فى رشاقة
ومرونة فصار يحذاء الحائط المقابل .
جذبني من كتفى بقبضته ليجيء لى لى
جواره . ضغط بأصبعيه على كتفى
صالحا :

« والآن انظر لى الصورة من بعد !
أنت ترى أن تحت أقدام السبع ما يشبه
الرقم الصابى الطويل ؟ »

بالفعل كان منظر ما اعتبرته قباها

ومآذن ومداخل وأعمدة وأبراج قد صار
من بعد على هيئة أرقام . قال :

« هذه الدائرة السوداء هى فى حقيقة
أمراها صبرا ! ويجواره رقم سبعة !
بجواره رقم تسعة وهو نفسه عمود فوقه
فائوس ! وهذا رقم واحد وهو نفسه عمود
أضبا ولكن بلافائوس فلو أننا قرأنا الرقم
من اليسار إلى اليمين فيكون نطقه ألف
وتسعمائة وسبعين !! أى أن لعبة الزمن
قد دخلت فى الموضوع كما ترى ! فلابد
أن هذه الألف وتسعمائة هى عدد السنين
كما تدونها فى التقويم الميلادى الذى
نستخدمه فى بلادنا قبل وبعد التكوين
الهجرى ! وما بعد الألف وتسعمائة يعنى
استمرار الأعمار ! والسبعون هى وعاء
زمنى يحدث فيه حدث جلى ربما كان
بداية الخراب الشام ! ربما يكون عاصم
فصاسلا بين زمن وزمن ربما تقوم
القيامة !! »

صمت برهة قصيرة ليرى وقع كلماته
على . ثم استطرد كأنه يشد خيط الأمل
فيما هو يكتب بى من الحائط ثانية :

« ولكن ! فلنكن أبعد نظرا ! هذا
المتحدر الذى سيسقط فيه السبع ! انظر
تحت ! تجد ما يشبه الحديقة القراء
الجافة الموصفة ! تلك هى الحفرة
الأسطورية التى سيلعب السبع فى جوفها
إلى الأبد ! والآن انظر إلى خلف الحطام
من الناحية الأخرى تجد ما يشبه البحيرة
الضيقة ذلك هو مستنقع القدم الذى يلقى
فيه بكل من لا ينفع كلب هراسة ! غالبا
سيستع كل أبناء هذه المدينة الضمنية
بواجب الدفاع عنها !! سيسقط عليهم
السادة الغرياء كلاب حراستهم تنهشهم
فيترجعون إلى الخلف حيث تجذبهم
الهواية !! »

وأستاد كالجندى المدرب على : خلفا
در . أدارنى معه موجه بصرى بإشارة
من قلعه إلى الحائط المقابل :

« انظر الآن فى هذه الصورة تأملها
جيدا لا يولت شيئا فيها .. »

كانت صورة كرنقالية كأنها مرسومة .
برشة فنان سورياي كبير ذات حركة
مدروسة جيدا : عشرات الأشكال

المتناقضة المتألفة معا: سوق ريفية ،
مولد السيد البدوي ، طراطير ، زعابيط ،
طرابيش ، كيبغات ، طواقي ، صنام ،
قلنسوات ، أجساد متباعدة ، أخرى
كائنات لا يعرف فيها الذكر
من الأنثى ..

رفع عليه صالحا :

أظنها واضحة وغير محتاجة لشرح !
ذلك هو عالم المهرجين والمحتالين
والأنواع وأرباب المتع والفنون المسلية
والقساوين !! هانتذا تراهم يواجهون
العظام ولا يحفلون بشيء ! ذلك أن
البقاء لهم في النهاية !! إن أي شريف
حقوقي إن يكون له أي مكان في مدينة
الكلاب والأسبأاد أصحاب المشاريع
المدبرة ! إذ لا بضاعة لهم في هذه
السوق الصاخبة سوق المهرجين الكهازين
مصاصي الدماء فهم أنلسهم بضاعة
للمهرجين !! ..

أشعل سيجارة قدمها لي بود عميق
داقري ، وأشعل لنفسه أخرى ، جذب
منها الأنفاس بعمق :

« أأست ترى إذن - تبع لهذه الرؤية
الواضحة - أن الجادين والشرفاء
والوطنيين مقضى عليهم بالفشل الذريع لا
محالة وأن شاعر الأغنية الشعبية
الشهيرة لم يكن يمزج فحصب عندما طالب
بالتفكير على كل المواضيع إذ إن الجو
يبيع والدنيا ربيع ؟! أأشعر أني قد دويست
رأسك ! أأأصد إذن لأخلق لك ! أأخلق
لنفسك أمنية كان يجب أن تتمناها منذ
سنوات طويلة : أن أأخلق لك مثل اللجوم
الذين أأخلق لهم ! أأريد أن أأفكك لمرتبة
اللجوم وهذا هائل طوبى ! يمكنك أن تجلس
على حافة الشباك ! هيا ... »

تركته ومضت نحو إحدى الحجرتين
المواجهتين :

« ددع الحلاقة الآن ! أأريد أن أقرا
لي بقية ماأفي هاتين الحجرتين من
رسائل موجهة إليك من السماء ! »

مضى خلى :

« إنها في مسائل أخرى كثيرة
وعسيفة ! سوف لن تصدقها بالطبع !
ستوجع لي دماغي على الفاضي ! لكن لا
بأس من أن أأظفك على شيء مهم !! »

تقدم في حماسة شديدة نحو الحجرة
القرريبية ، دخلها مضيت وراءه ، لكني
توقفت على بابها ، فلاحظت أن في
الباب مفتاحا ! فانبثقت في رأسي فكرة
شيطانية أنجو بها من هذه الورطة
الشخيفة التي ليس من ورائها طائل .
أعطاني ظهري وشرع يتأمل الحائط
المواجه تهيدا للشرح . فبكك بساطة
ودود جذبت باب الحجرة بسرعة
خاطفة ، أغلقته ، أدبت المفتاح : تكه
.. تكه . هروا في اأريفة كظلم عايت ،
ففتحت باب الشقة وخرجت لأهنا فأنفلق
الباب خلى من تلقائه . تلتفتني الحارة
، لفتفتني إلى الشارع الفرصى ، تتسارع
دقات قلبي تسبق خطواتي ..

في الشارع الصومعي الذي يشق
المدينة لفضي الهواء ففترت كأن دماغي
قد رة إلى بقعة . السحب الطنين فانبثقت
الصغير في أنثى . عاد صوت وجهه أبو
وهذان يهدد في رأسي صافيا ناعما
ناضحا بالمرارة ، بلهجة حكماة المصور
الغسامرة . تمثلت لي صورة الفُراف
تهززياس في المأسى الإغريقية القديمة
يلقى النبوءة حاسمة قاطعة جليلة الثبرات
موجزة العبارة . دهمني تساؤل مفاجئ :
من أين يستمد مثل هذا العراف نبوءته ؟
من ذا الذي يطلعه على الغيب ؟ أمي
قدرة على استكراء ماوراء الأفق ؟
مايتبهنه التفويس والمشاير والأحداث ؟ ..
لكنني شعرت أن ما قاله وجهه أبو وهذان
- وأن اصطبغ برؤية هزلية قائمة على
الوهم والتخليط - يحمل قدرا كبيرا من
النفاذ والاستشراف ..

كانت أضواء الشارع ضاربة مخففة ،
ميتة في بفاق كثيرة لاضوء فيها .
يضمحل الضوء كلما اقترب الشارع من
الخلاء العريض المتصل بأراض راعية
فاسعة ؛ حيث تتباعد المساكن بين

العبايى فقتيد نهاية الشارع كنيل الفأر .
قمر ضليل جدا وكابد ويناضل جحافل
سحب سوداء تلطرح فوقه بقرارة فيلقبها
ثقبيا صغيرا كعسمة صغيرة مدورة .
تذكرت أن مافعلته منذ لحظات قليلة
بوجهه أبو وهذان شيء في غاية الجن
والخسة . تذكرت أشعاره البديعة التي
أأستعنتي بحق ، وبطريقة إلقائه لها
موسيقية مشحونة بالانفعال والصدق
والعانة . شعرت - لأمر ما - أنني قد
صرت الآن مفتنعا شام الاقتناع برؤية
هذه الهزلية الجملوية . رأيتني أستدير
عائدا إلى بيتي لأفتح الباب بأى شكل
وأخرج عنه ..

فلطعت الشارع والحواري في دفاقي
معدودة . أشعلت القلادة داريت نهجها
الواهن براحة يدى اليسرى حتى تهبث
في ظلام العتبية موضع شرارة الباب .
دفعتها فأنفثت ، ففترت بفجرة طافية ،
سمرت أصاصي من خلل الشبقة
الحديدية ، أزحت لسان الكانون من
مخيلته ، أنفلق باب الشقة ، الزبعة كما
هى ، غارقة في الصمت والظلمة
كالمقبرة ، حقبية عدة الحلاقة موضوعة
على أرضية الشباك ، للمفتاح في باب
الحجرة كما تركته ، مددت يدا مرتفعة ،
أدركته : تكه .. تكه .. تكه . دخلت متعملا
ضخكات حاولت جهدي أن تكون مرحة
تضى بالمازح والشقاوة . كانت الحجرة
خالية تماما .

أقشعر بدنى ، صرت أنتفض ملابا
البصر في كل ركن متوقفا أن تنشق
الأرض عن عفريت يلتهمنى أو يطبق
على قفاى . بصوت راجف مضطرب
رحت أتأدى : وجهه ! وجهه . اقتضمت
الحجرة الثانية ، فأنمطخ ، فدورة المياه ،
ثم أعدت الكرة ثانية فثالفة فراهمة
وبصوت ندائي يعلو يرتفع يقترب من
الصراخ الفاجع ، ولكن ليس ثمة من أحد
على الإطلاق . ■

هدية بابا نويل (١)

إلى ذراع زوجها فى خطوات بطيئة..
متشاكلة... توقفت فجأة لتطلق صرخة
مكتومة، وزوجها بأل:
- قسم الولادة من فضلك..

تماسكت بجهد خارق حتى لا تفر
الدموع من عينيها.. وألم حاد يفوس فى
صدرها ويجرح معه شكاً كاد يعصف بما
تبقى من قواها...
مضت لحظات ثقيلة.. ثقيلة قبل أن
يظهر الطبيب... تسارعت دقات قلبها..
جف حلقها، ورجلة خفيفة تسرع، رغم
القيظ الشديد، فى بدنها كله.. ونظرات
الرجاء واليأس تتأرجح فى عينيها
المرهقتين.. عادت تطلق صرخة مكتومة
لتقطع الشك باليقين.. وهمس الطبيب فى
نبرة إشفاق:

- خلجى تحت الملاحظة..

تجلرت همسة الطبيب المشفقة قنبلة
فى جوانحها... تراقص أمامها كل شيء
وكانها ضايت عن الوعي بعينين
مفتوحتين... وكان صوت الطبيب وهو
يردد «المجهود... التوتر... يأتيتها من
عالم آخر...»

جذبها إلى واقع عالمها ألم سافر..
خلع قناع الشك، فأطلقت لصرختها
العنان، وكان سوطاً ألهب ظهرها..
أغمضت عينيها المكدودتين...

فأبداً

فريدة الشوباشى

تركت له باب حجرتهم الوحيدة مفتوحاً
على مصراعيه ليسهل عليه التسلل...
كانت تنظر ساهرة إلى أن يقهرها سلطان
النوم، ويفقد عليها عشرات الهدايا فى
عالمه الخاص الذى يولى مع خيوط الحجر
الأولى... عندما تفتح عينيها على يدين
خاويتى الوافاض، فتدب إلى الكنيسة
لتضمم إلى فريق الصغار الذين انطلقوا
بريق ثيابهم منذ أمد بعيد، فى أعينهم
أمانى وفى قلوبهم رجاء، وأثار احمرار لا
تزال عاقلة يعينها..

قلت رحلة المذاب تتكرر سنوياً، إلى
أن أهداها اليوم أحوها أول ثوب جديد
ترديه فى عمرها... اعتصر الألم قلب
فايزة وهى تراقب همس الطفلة إلى
المسيح الصغير... خرجت من بين
صفوف المصلين متجهة نحو الصغيرة
بخطوات ثابتة.. وهمسة إشفاق تتراقص
فى عينيها وهى تتسامح: م

هل أقول لها... هل أقول لها إن
بابا نويل، لا يزور الفقراء...؟

ولكننا مررنا [٢]
مسيحنا..

تطلع كل الواقفين ببهو المستشفى إلى
القادمة التى يتقلص وجهها أما، بينما
تتسابق حبات العرق إلى النزول من
جبينها... اختزلت صف الميرون مستعدة

طفت فرحتها بشوباشى الجديد
على الفرحة المعتادة بهذه
الليلة الكبيرة.. ليلة الخامس والعشرين
من ديسمبر التى مرت بها فائزة ستة
عشر عاماً من قبل... بثياب جاد بها
عليها آخرون.. ليس هناك ما يمنع إذن
من الاحتفال بالحدثين: ثوبها الجديد... و
... مولد المسيح.

رقص قلبها طريا وهى تحاول التستر
وراء مظهر الخشوع الذى يتلقى وجلال
الذكرى.. لكنها ما تلبث أن تدور بعينيها
فى رحلة مقارنة بين ثوبها وما ترديه
الأخريات... وانتهت إلى قرار حاسم..
إنها «عروس، الليلة...»

توقفت عنيناها فى رحلة «المقارنة»،
أمام طفلة صغيرة، يشبه ثوبها رداء
المسيح الصغير الذى يتوسط مزود البقر...
كانت الصغيرة ترتعد برذا مثله... سرت
رجلة فى جسد فائزة ونفذ برده، الصغيرة
إلى قلبها فبدأ عاريا من الثوب الجديد..
لأبد أن الصغيرة التى تصعد فى خشوع
أمام «المسيح الطفل» تهمس بالدهاء
لنفسه الذى همست به فائزة وهى فى مثل
سنها... فكم ركبت أمام مزود البقر
تتوسل للمسيح الصغير أن «يتوسط لدى
مبعوث السماء حتى يتذكرها فى جولة
توزيع الهدايا التى يفرم بها الصغار...
فإننا لها إنه ينفذ من ثقب الباب...»

ولكن حررنا مسيحنا (٢)

يهودا القاتل.. يهوذا القرن
العشرين... يهوذا قاتل كل الأطفال...
موجات آلام كطعنات السيف تشتد..
خول إليها أن صرختها تستغيث بالعالم
بأسره... تهذى...

لكننا حررنا مسيحنا...

قالت للعالم عبر صرختها...

.. يهوذا قاتل كل الأطفال.. الذين رفضوا
أن يسلّموا المسيح..

ودوت صرخة فاصلة.. ثم.. كفت كل
الصراخات.. والضريات..

مرت لحظات كل منها دهر آلام...
كان جسدها المتهك مسجى لا ينبض فيه
غير إحماسها الصارم بالترقب لمودة
الطبيب... انحبست أنفاسها لحظة وعينا
الطبيب تظان بلش المحاولة.. محاولة
إنقاذ الوليد...

تحدثت دمة ساخنة حارة... وهى
تتطلع إلى الطفل وقد خنكه يهوذا...
أظافره تترك آثارا مقبنة مخيلة... لكنها
تبينت فى ملامحه الصفرة شبح ابتسامة
التصاغر وكأنه يمسح بها حبات الحزن
والعرق ويهيمس معها...

ولكننا حررنا مسيحنا... ■

فى ذلك المساء.. كانت أجمادنا
شحنات من طاقة لا تنضب.. تمضى..
وتمضى.. تطوف بكل شارع.. تصق فى
طريقها كل العقبات... مضيا طوال الليل
نحس «مسيحنا» الذى انتظر يهوذا
تسليمه.. بقينا نحرسه... غسلنا بدموعنا
خطايا العالم.. ويزغ فجر صنعته تلك
الدموع... لم نفلت عنه لحظة.. صنعنا
بقلوبنا سياجا منها... بإصرارنا سلاحا
ورعب يهوذا العصر.. وارتفعت أغصان
الزيتون.. ويهوذا مهزوم.. مسخور..
تحرقه قطع الغضة...

عاد سول دموعها ينهمر من جديد..
تذكرت كلمات الطبيب.. «بس المجهود ده
فيه تهديد للطفل»

عادت تصرخ بكل قواها وضريات
الوسط تتلاحق.. تسبق أنفاسها...

اقترب منها الطبيب، ثم ربت على
كتفها...

.. خلاص.. هانت..

سأنته ويهر العرق يفرقها..

.. ممكن يعيش؟

سارع الطبيب بقوله..

.. هدى نفسك... إن شاء الله حايحش...

عادت دموعها المختلطة بحبات العرق
تسابق إلى النزول..

فى ذلك المساء... سمعت صراخه...
سمعته وهو لا يزال مجهولا بعد فى
أحشائي.. يستحلفنى بكل شيء..
يا أهلى شيء.. به هو، طفلى الذى لم
يولد بعد.. أن أفلز كل الدرجات... كان
ندائه أقرب وأقوى نداء.. «اصرخى
يا أمه.. اصرخى من أجلي طالبة منه
البقاء».

عاد الألم يقطع خواطرها... تشبثت
بظهر سريرها.. جف حلقها وموجة من
المشاعر المتضاربة تعرد فى كيانها..

فى ذلك المساء.. كان الشارع كله
يصرخ باسم طفلى الذى لم يولد بعد..
يستحلفه أن يبقى من أجله.. من أجل كل
الأطفال... الأطفال الممتلئين بهم
الشارع... تمتلئ بهم المدينة... تمتلئ
بهم وطفلى كله، عيونهم مذعورة.. تتجدد
فى مآقيها الدموع.. دموع الضايغ..
يهتفون بنشيد الرجاء.. ومسكون بجلباب
الأب.. وسألوته فى ملح..

.. إلى أين؟ بل تبقى يا أبتاه...

فى ذلك المساء... غسلت دموعنا
خطايا العالم.. وكأننا حملنا صليب
البشرية... هنا.. تحت هذه السماء التى
ألقي عليها يهوذا بوابل نيرانه... أطفأت
بصقاتنا نيران القاتل... يهوذا..

أطلقت صرخة جديدة وهى تتمتم..

يا إلهي... لكل عصر يهوذا.. ولكل
عصر مسيح.. وصليب..

قصة

الكشاف السنوي الكتاب

إعداد: حسن سرور

(١)

ق

إبراهيم البيهقي بغلتم: الغرب في رؤية الحركة الإسلامية المصرية (المراجعات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٥٨ - ٦٩، المصادر الفكرية للإمام حسن لينا (المراجعات) - ع ١٣٣ ديسمبر / ص ٢٠ - ٥٧، إبراهيم العريس: السيماء والمجتمع في لبنان (المراجعات) - ع ١٣٦ مارس / ص ٥٧ - ٢٠، إبراهيم العريس: السيماء والمجتمع في لبنان (المراجعات) - ع ١٣٦ مارس / ص ١١٧ - ١٢٧، إبراهيم دلود: الأسئلة (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٤٣ - ١٤٩، إبراهيم شكر الله: المورثات الغربية والإسلامية - ع ١٣٨ مايو / ص ١٨ - ٢١، عن مصارع العشاق - ع ١٣٨ مايو / ص ٢٢ - ٤٣، مقدمة الديوان - ع ١٣٨ مايو / ص ٤٤ - ٤٧، قصيدتان (أبو العلاء في محبته، وموعظة على الجبل) - ع ١٣٨ مايو / ص ٤٨ - ٥٠، رحلة السندباد الأخيرة (مسرحة شعرية) - ع ١٣٨ مايو / ص ٥٧ - ٥٨، إبراهيم عبد الفتاح: آخر قصيدة (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣٣ ديسمبر / ص ٢١١، إبراهيم فهمي: طبول العودة (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢١٨ - ٢٢٤، إبراهيم نصر الله: امتدادات (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣٥ فبراير / ص ١٠٠ - ١٠٣، أبو شادي الروبي: تعريب الطب (المراجعات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ١٢٥ - ١٣٠، أحلام مستغانمي: الزمن المصاد (الإيقاعات والرؤى / شهادة) - ع ١٣٧ أبريل / ص ١١٥ - ١١٨، أحمد المسغري: شعراء الموجة الثالثة (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٨ يولييه / ص ٢٨٦ - ٢٨٧، مجمع الأدب الإيطالي (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ٢١٤، أحمد زرزور: ماء غارق في لهب الأولاد (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢٠٩ - ٢١١، أحمد زغلزل التشيبي: ثلاث عصفافير خضراء (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ١٩٢ - ١٩٤، أحمد شفيق أبو عوف: بالغ حمدي... شويان الموسيقي العربية (١٩٩٣ - ١٩٩٣) (المحاورات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ٢٠٤ - ٢٠٧، رؤية جديدة لتعليم الموسيقي (المحاورات) - ع ١٣٤ يناير / ص ١٢٧ - ١٢٨، أحمد صبحي منصور: محاضرة التكفير في الصحف المصرية حوار مع صديق عزيز (المحاورات) - ع ١٢٨ يولييه / ص ٢١٤ - ٢٢٥، رؤية تاريخية أمومية (المراجعات) - ع ١٣٨ مايو / ص ٨٥ - ٩٢، أحمد طه: أرابيسك (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٣٩ - ١٤٠، أحمد عبد الله: عمل الأطفال وفجاجة الاستغلال الاجتماعي (الفصول والتأنيات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٨٠ - ٨٥، رباعية الحرب والحياة في الشرق الأوسط (المراجعات) - ع ١٢٩ يولييه / ص ١٤ - ٢١، أحمد عثمان: حوار مع فوزية أسعد وجان ديدرال (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٨ يولييه / ص ٢٨٧ - ٢٨٨، نص حوار مع المخرج المغربي مؤمن السمحى (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٢١٢ - ٢١٥، أحمد عمر شاهين: نظرة الأدب الصبغوني إلى العربي القبطاني (المراجعات) - ع ١٢٩ يولييه / ص ٤٠ - ٤٩، سيماء الهلاك - تأصيل المنهجية المعرفية في التعامل مع السيماء المصيرية (المراجعات) - ع ١٢٩ يولييه / ص ٦٨ - ٧٠، أحمد يمانى: 2000 (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٥٦ - ١٥٧، اندجان سموران وآخرون: نهاية الأمل (المراجعات) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٢٤ - ٢٩، إدريس المسماري: شرق الغرب على خلفية - ألف ليلة وليلة (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٨ يولييه / ص ٢٣٤ - ٢٤٢، برجات فيسحة خضراء (الفصول والتأنيات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ٤٤ - ٤٥، صوفية محفلة أم كتابة سريّة (المراجعات) - ع ١٣٧ أبريل / ص ٩٦ - ١٠٤، الدين مستنصر ترجمة أحمد صليحة: بول كينيدي وصناعة المستقبل (المراجعات) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٤٠ - ٤٦، أرومبير ترجمة وائل غالي: لوب هناك معالة يهودية (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢٦٧ - ٢٦٥، ترجمة كاميليا صبحي: حوار مع فيليب سولبريس (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ٣٣٠ - ٣٣٥، أزمة الاتصال في العالم الغربي (المراجعات) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ١٦٤ - ١٧٢، ترجمة كاميليا صبحي: بعض العذلة حوار مع مفكر مسيحي ماركسي (المراجعات) - ع ١٣٤ يناير / ص ٣٩ - ٤٢، ترجمة كاميليا صبحي: أولوجية الكنيسة

الجديدة (المراجعات). - ع ١٣٧ إيريل / من ١٦ - ٢٠، إريك فيل ترجمة كاميليا صبحي: عودة أخرى إلى نهاية التاريخ (المواجهات). - ع ١٣٢ نوفمبر / من ٤٨ - ٥٣، أسامة الغزولي: ثلاث قصائد (الإيقاعات والرؤى / شعر). - ع ١٣٢ نوفمبر / من ٢٠٠ - ٢٠١، نافذة (شهادة). - ع ١٣٦ مارس / من ٢٦ - ٢٧، أسامة خليل: صوفي يبحث عن هاربة (الإشارات والتنبهات). - ع ١٢٨ يوليه / من ٢٦٠ - ٢٦٣، العبد إلى الضفة الأخرى (الإشارات والتنبهات). - ع ١٣٠ سبتمبر / من ٢٥٦ - ٢٥٨، أسد خير الله: فؤاد رقيقة ونبرة الشعر (الإشارات والتنبهات). - ع ١٣٧ إيريل / من ١٧٢ - ١٧٤، كيون أندريه: المجتمع وتطور الإمكانيات الرمزية (الفصول والغايات). - ع ١٣٦ مارس / من ٩٩ - ١٠١، آلان دي لوبيرا ترجمة ريشار جاكسون: الأصول الثقافية للعصيرة الأوروبية (المراجعات). - ع ١٣٢ نوفمبر / من ١٢٨ - ١٣٢، البشير بن سلامة: لا حرية للمبدع إلا مع وجود سلطة رابطة حقيقية (المعارف). - ع ١٣٧ إيريل / من ١٥٨ - ١٦٠، السماح عبد الله: مواصلة غناء الشغاليين (الإشارات والتنبهات). - ع ١٢٨ يوليه / من ٢٦٣ - ٢٦٦، خطوات جانبية (الإشارات والتنبهات). - ع ١٢٩ أغسطس / من ٢٠٩ - ٢١١، أكتوبر.. السيد المشرع على عرش السنة (الإشارات والتنبهات). - ع ١٣١ أكتوبر / من ٢١٧ - ٢٢١، السيد فاروق رزق: صناعة الوشم وكتابة الذائكة (الإشارات والتنبهات). - ع ١٢٨ يوليه / من ٢٤٧ - ٢٥٠، السيد نصر الدين السيد: المراجعات الكبرى والاستجابات المتقوصة (الفصول والغايات). - ع ١٣٦ مارس / من ٧٥ - ٨٣، السيد ياسين: حوار الحضارات في عالم متغير (الفصول والغايات). - ع ١٢٩ أغسطس / من ٣٠ - ٥١، مقدمة لسيرة ذاتية (المراجعات). - ع ١٣٦ مارس / من ١٠٤ - ١١٠، الشقاات المضادة بين الإدانة والتكفير (المواجهات). - ع ١٣٨ مايو / من ٨١ - ٨٤، ألفريد جميل حبيب: تعدد التصويت في الموسيقى العربية (المعارف). - ع ١٣٤ يناير / من ١٤٥ - ١٤٧، ألفن توفلر ترجمة نبيل الريدي: المعرفة.. صناعة الرموز (المواجهات). - ع ١٣٢ نوفمبر / من ٦٦ - ٧٢، المحمود إبراهيم: معرض الفن السيمائي الدولي الـ ٥٠ بالبنديقية (الإشارات والتنبهات). - ع ١٣١ أكتوبر / من ٢٤٢ - ٢٤٨، آخر أحلام الماسترو (فيليب). - ع ١٣٣ ديسمبر / من ٢٢٢ - ٢٤٨، إيطاليا ليلة رحيل فيليب (المعارف). - ع ١٣٣ ديسمبر / من ٢٥٠ - ٢٥٥، مهرجان السيماء النصبولية في فلورنسا (الإشارات والتنبهات). - ع ١٣٥ فبراير / من ١٥٥ - ١٥٧، إعادة كتابة تاريخ هذا القرن (الإشارات والتنبهات). - ع ١٣٦ مارس / من ١٢٧ - ١٢٨، إيلينا كونا لوني ترجمة للمحمود إبراهيم: عطايا الغرب المسمومة.. مقابلة مع سرج لارتوش (الإشارات والتنبهات). - ع ١٣٥ فبراير / من ١٥٧ - ١٦٠، اليسون براوننج ترجمة مي التلمساني: يوجين يونسكو: أوروبا... تسلسل عمليات ناقصة (المراجعات). - ع ١٣٤ يونيو / من ١٨٥ - ١٨٧، إليكس كاليديكوس ترجمة خليل كلفت: خفيايات التغيير في موقف الحزب للماكم في جنوب أفريقيا (الفصول والغايات). - ع ١٣٩ يونيو / من ٩٢ - ٩٥، أمجدريان: فاندازيا للأعالي (الإيقاعات والرؤى / شعر). - ع ١٣٦ مارس / من ١٤٥ - ١٤٦، أمل دنقل (أول قصيدة): أوجيني: النشيد الأول (شعر). - ع ١٣٦ مارس / من ٢٨ - ٣٨، أمير العمري: طفل ماكون ليبيتر جرينا واي (الإشارات والتنبهات). - ع ١٣٦ مارس / من ١٦٩ - ١٧٢، أمية ماسك عبد الله: الجسد... والسلطة (المواجهات). - ع ١٢٨ يوليه / من ١١ - ٤٧، أنطونيو جرامشي: المتفكرون (المراجعات). - ع ١٣٤ يناير / من ١٠٦ - ١١٧، العام كج جي: التفولات (الإيقاعات والرؤى / قصة). - ع ١٢٨ يوليه / من ١٧٨ - ١٨١، أمين بكر: حرية الفكر والإبداع في مجمع الفنون (الإشارات والتنبهات). - ع ١٣١ أكتوبر / من ٢٢١ - ٢٢٣، إيناس ريفت: مختارات النثي الشعرية (الإشارات والتنبهات). - ع ١٣١ أكتوبر / من ٣٦٣ - ٣٦٤، الكسحاب

مسلوك الأستاذ الدكتور
وعسوى زكسي

(ب)

باسكال بيان ترجمة: كاميليا صبحي: الواحد الآخر من أعماق المغارات (المواجهات). - ع ١٣١ أكتوبر / من ٢٢ - ٢٣، بنية الناصري: ميلاد (الإيقاعات والرؤى / قصة). - ع ١٣٠ سبتمبر / من ٢٢٥ - ٢٢٦، بنية رشدي: الإسلام في الهند (المواجهات). - ع ١٢٩ أغسطس / من ٢٥ - ٢٨، الشر في كل قلب (الإشارات والتنبهات). - ع ١٣٢ نوفمبر / من ٢٧٥ - ٢٧٦، جاك بيرك مفكرًا سياسيًا (المعارف). - ع ١٣٧ إيريل / من ١٦٠ - ١٦٢، الكتابة والشك (الإشارات والتنبهات). - ع ١٣٨ مايو / من ١٨١ - ١٨٢، بدر الدفاعي: تساؤلات علي هامش المستقبل (المواجهات). - ع ١٣٩ يونيو / من ٢٢ - ٢٥، بشير السباعي: الماركسية ولاهوت الدولة (المعارف). - ع ١٣١ أكتوبر / من ٢٠٨ - ٢٠٩، بهاء طاهر: من حكايات عرمان الكبير (الإيقاعات والرؤى / قصة). - ع ١٣٢ نوفمبر / من ١٧٤ - ١٧٨، بهوج إسماعيل: هم (الإيقاعات والرؤى / شعر). - ع ١٣١ أكتوبر / من ١٧٠ - ١٧٢، بول بلان ترجمة: كاميليا صبحي: إعادة خلق البحر الأبيض المتوسط (المواجهات). - ع ١٣٥ فبراير / من ٤٣ - ٤٦، بيانريس دوروب: ترجمة: كاميليا صبحي (المواجهات). - ع ١٣١ أكتوبر / من ١٨ - ٢٠، بيير برنارد: هذه الترجمة لماذا؟ (المواجهات). - ع ١٢٩ أغسطس / من ١٣ - ١٤، الأمل الذي تحقق (المواجهات). - ع ١٢٩ أغسطس / من ١٩، بيير كاكيا ترجمة: محمد عيد إبراهيم، مراجعة إدوار الخراط: التحرر من السيطرة التكنولوجية.. صبرة رجال الدين في الأدب العربي الحديث (الفصول والغايات). - ع ١٣١ أكتوبر / من ٤٦ - ٥٣.

(ت)

التحرير: محمد فريد أبو حديد.. مائة عام على مولده (المراجعات). - ع ١٢٨ يوليه / من ١٢٦، جاك بيرك (محاولة لترجمة معاني القرآن الكريم) (المواجهات). - ع ١٢٩ أغسطس / من ١٢، صلاح أحمد إبراهيم: رحيل عصافير أم درمان (المواجهات). - ع ١٢٩ أغسطس / من ٨٠ - ٨١،

أطفال مصر والمستقبل الغامض (الفصول والغايات) - ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ٧٢ - ٧٣، الفكر والإبداع والوجود (المواجهات) - ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٨ - ٩، البحث عن الحرية في الأدب العربي (الفصول والغايات) - ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٤٣، في الرد على أندريه ميكل (المحاورات) - ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٢٠٩، نهاية الأمل وصدمة المستقبل (المواجهات) - ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ١٨ - ١٩، زكى نجيب محمود وخرافة الخرافة (الفصول والغايات) - ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ٧٤، مله حسين - بيلوجرافيا (١٨٨٩ - ١٩٧٣) (المواجهات) - ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ١٢٠ - ١٢٣، حسن البنا والحركات الإسلامية الجديدة (المواجهات) - ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ١٩، الإسلام بين أزمة الواقع ومطلبات العصر (ندوة/ المواجهات) - ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ٧٥ - ٩٦، رسائل محمد مندور إلى مله حسين (هذه الرسائل) (الفصول والغايات) - ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ١٠٠، فيد بريكو قوبائلي... الرحيل إلى الصباح (المحاورات) - ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ٢٢٥، الإسلام السياسي من السودان إلى الجزائر (الفصول والغايات) - ع ١٣٤ يناير/ ص ٤٤ - ٤٥، الإسلاميون.. رؤية غربية عن الإكسبيرس للفرنسية (الفصول والغايات) - ع ١٣٤ يناير/ ص ٧٨ - ٨٥، للتواصل... أنا والآخر (المواجهات) - ع ١٣٥ فبراير/ ص ١٠ - ١١، عبد الفتاح الجمل.. عباد الشمس، لانتقول والمؤتمر الوطني الأفريقي من السجن إلى البرلمان وداعاً، في سطور (شهادة) - ع ١٣٦ مارس/ ص ٤ - ٧، للحضرة في الغرب (المواجهات) - ع ١٣٦ مارس/ ص ٤٣، الهوية والعالم في عصر الانقلابات الكبرى (الفصول والغايات) - ع ١٣٦ مارس/ ص ٧٢ - ٧٣، خصوصية المرأة أم خصوصية الكتابة؟ (الإيقاعات والرؤى) - ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٠٦، الفكر أقوى من السلاح.. شهادة عادل عبد الباقي (المواجهات) - ع ١٣٨ مايو/ ص ٧٠ - ٨٠، نشارلي كيبر: المؤتمر الوطني الأفريقي.. من السجن إلى البرلمان ترجمة خليل كلفت (الفصول والغايات) - ع ١٣٩ يونيو/ ص ٩٦ - ٩٩، توماس فيرأتري، ترجمة: كاميليا صبحي: ماذا بعد ماركس؟ (المواجهات) - ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ٢٠ - ٢٣.

(ج)

جار النبي الملو: البكاء الأخير (الإيقاعات والرؤى/ قصة) - ع ١٢٩ أغسطس/ ص ١٢٩ - ١٣١، جان روى، ترجمة: أحمد هشام: حول مفهوم السيفنا الاستعمارية (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٥ فبراير/ ص ١٤٩ - ١٥٠، جان مكن نوبية: إمبراطورية الاستراتيجية الشاملة (الفصول والغايات) - ع ١٣٦ مارس/ ص ٨٩ - ٩٨، جمال السماوي: حيلة للمجانين (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٢٩ أغسطس/ ص ٢٠٠ - ٢٠١، جميل حعل: الخيال ابن متى نصره (الإيقاعات والرؤى/ قصة) - ع ١٢٨ يوليو/ ص ٢٠١، جهاد عودة: تضخم الوبم حول الحركة الإسلامية في مصر (المواجهات) - ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ٤٦ - ٥٥، جهاد هبيب: صمان... كيف تبدو قبل الغناء الساخن؟ (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٧٦ - ١٨١، جورج قناتلي ترجمة: كاميليا صبحي: علم الكلام الإسلامي وعلم اللاهوت المسيحي (المواجهات) - ع ١٣٩ / ص ١٥٧ - ١٦١، ترجمة هاني لبيب: مدرسة الإسكندرية (المواجهات) - ع ١٣٩ / ص ١٦٢ - ١٦٦، للراب القياصوف الإسلامي (المواجهات) - ع ١٣٩ / ص ١٦٧ - ١٧٠، جوزيف سكاتولن: رجل الحوار بين الشرق والغرب وبين العقل والإيمان (المواجهات) - ع ١٣٩ / ص ١٥٢ - ١٥٤، جون كنغ، ترجمة: خليل كلفت: نظرة من محيط العالم (الإيقاعات والرؤى) - ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٢٨ - ١٣٤، جونوفيف كلانتي، ترجمة: كاميليا صبحي: الرأفة والجسارة (المواجهات) - ع ١٣١ أكتوبر/ ص ١٠ - ١١، جيل نورد جمان، ترجمة: كاميليا صبحي: آليات الرقابة.. حديث مع جيرا رينور جاردبوه (المواجهات) - ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٧٨ - ٣٠.

(ح)

حازم شعاعة: تاريخ جديد في مسرح جديد (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٢٩ أغسطس/ ص ١٩١ - ١٩٣، حازم هاشم: صلاح أحمد إبراهيم. مذكرة للإنقاذ (المواجهات) - ع ١٢٩ أغسطس/ ص ٨٢ - ٩٤، صلاح أحمد إبراهيم صورة من قريب.. حوار مع الطيب صالح (المواجهات) - ع ١٢٩ أغسطس/ ص ٩٦ - ٩٩، احتفال أصيلة القلاني (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ٢٥٨ - ٢٦٢، نجار السلام (الإيقاعات والرؤى/ صورة) - ع ١٣١ أكتوبر/ ص ١٨٥ - ١٨٩، لتقدس (الإيقاعات والرؤى/ صورة) - ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ٢١٨ - ٢٢١، العصاة النبوية (الإيقاعات والرؤى/ صورة) - ع ١٣٥ فبراير/ ص ١١٨ - ١١٩، حجاج حسن أدول: حول مصطلح الأدب الديني (المحاورات) - ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ٢٢٣ - ٢٢٥، حسن البنا: من حسن البنا إلى مله حسين (المواجهات) - ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ٥٨ - ٦٢، حسن حفي: جدل الأنا والآخر (الفصول والغايات) - ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ٧٦ - ٩٥، الشروق المحناري ع ١٢٨ يوليو/ ص ٦١ - ٨٥، تجديد الفكر العربي إشكال للترافيل والانقطاع (الفصول والغايات) - ع ١٣٣ نوفمبر/ ص ٧٦ - ١٨١، حسين أحمد أمين: وأسعت كلماني من به ع ٢٤٢ - ٢٤٥، للقيم تحقّق القصر (الإيقاعات والرؤى/ قصة) - ع ١٣١ أكتوبر/ ص ١٧٧ - ١٨١، حسين أحمد أمين: وأسعت كلماني من به صمم (المحاورات) - ع ١٢٨ يوليو/ ص ٢٢٦ - ٢٣١، حاجة المسلمين إلى أدب الحوار في الدين (المواجهات) - ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ٢٥ - ٣٠، حسين غفيف: الشعر الملتور (الفصول والغايات) - ع ١٣٥ فبراير/ ص ٧٠ - ٧٢، وراء اللصم، للشاعر إبراهيم ناجي (الفصول والغايات) - ع ١٣٥ فبراير/ ص ٧٣ - ٧٤، قصيدتان (الفصول والغايات) - ع ١٣٥ فبراير/ ص ٧٥، مختارات شعرية مترجمة (الفصول والغايات) - ع ١٣٥ فبراير/ ص

٧٦- ٧٨، حسين فهمي العمري: الإسلام وحرية الرأي (المحاورات) - ع ١٢٩ أغسطس/ ص ١٧٩ - ١٨٣، حكيم ميخائيل شحاته: إبراهيم فهمي..
 للعشق أوله القبري (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٦ مارس/ ص ١٥٨ - ١٦١، حمدة خميس: قصائد (الإيقاعات والرؤى/ شعر) - ع ١٧٨ يوليو/ ص
 ١٨٢ - ١٨٦، حنيف يوسف: أفقعة السهروردي ومذاهب هيلين (الإيقاعات والرؤى/ شعر) - ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ٢٠٢ - ٢٠٥.

(خ)

خالد النجار: امرأة من العراق وصاروخ من أمريكا (للمحاورات) - ع ١٢٨ يوليو/ ص ٢٠٩ - ٢١٣، خالد دلود: مشكلة أطفال الشوارع في مصر
 (الفصول والغايات) - ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ٨٦ - ٨٨، خزل الماجدى: أثر منهج ميشول فوكو على إدوارد سعيد في كتاب الاستشراق (المراجعات) - ع
 ١٣٧ إبريل/ ص ٦٢ - ٧١، خليل كلفت: خورخه لويس بورخيس.. نظرة من محيط العالم (الإيقاعات والرؤى) - ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٢٦ - ١٢٧،
 تسلسل زمنى (بيو- بيلوجرافى) ٢٤ أغسطس ١٩٩٩ - ١٤ يوليو ١٩٨٦ (الإيقاعات والرؤى) - ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٥٤ - ١٥٥، للتاريخ وتغير من
 جلوب أفريقيا (الفصول والغايات) - ع ١٣٩ يونيه / ص ٧٢ - ٨١، خ- ل- بورخيس ترجمة: خليل كلفت: نضج جديد للزمن (الإيقاعات والرؤى).
 ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٣٥ - ١٤٢، تولين، أو كيار، أرييس تيريتوس (الإيقاعات والرؤى/ قصة) - ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٤٣ - ١٥٠، الجحيم، ٣٢١
 (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣٧ إبريل / ص ١٥١، ليل الرد الأبدى (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣٧ إبريل / ص ١٥٢ - ١٥٣، خوروش
 أيار جنوبها ترجمة: محمد إبراهيم ميروك.. قانون ميرودس (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٣٦ - ١٣٩، خبرى شلى: عصر
 عبد الفتاح الجمل (شهادة) - ع ١٣٦ مارس / ص ١٧ - ٢٠، رسالة الحالط الترطيب (الإيقاعات والرؤى/ ع ١٣٩ يونيه / ص ٢٠٢ - ٢٠٨.

(د)

دوروى باركر: ترجمة نحمين أحمد أمين: مكاملة تليفونية (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٣٢ - ١٣٥، ديفيد لودج: ترجمة
 السيد إمام: التاريخ والتاريخ الأدبي.. رسم خريطة العصر الحديث (المراجعات) - ع ١٣٧ إبريل/ ص ٧٦ - ٨١.

(ر)

راؤول جيرارديه، ترجمة خليل كلفت: العصر الذهبي (الفصول والغايات) - ع ١٣٧ إبريل/ ص ٢٩ - ٤٨، رجاء عبد: تفكك الشخصية
 (المراجعات) - ع ١٣١ أكتوبر/ ص ١١٤ - ١٣٣، رجب أبو سريه: انكشاف الذات الساهرة في مزايا النار (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣١ أكتوبر/
 ص ٢٣٨ - ٢٤٠، رجب سعد السيد: نموذج غريب للقصص السياسي (المحاورات) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٨٤ - ١٨٦، رشاد عبد الله الشامي: إحسان عبد القدوس والأخر
 منظور السطح برؤية الأعماق (المحاورات) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٨٤ - ١٨٦، رشاد عبد الله الشامي: إحسان عبد القدوس والأخر
 الهودى (الفصول والغايات) - ع ١٢٨ يوليو/ ص ٩٦ - ١٠١، رضا البهات: على شاطئ البحر (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣١ أكتوبر / ص
 ١٧٤ - ١٧٦، رفعت السعيد: الفرق بين الفكر والمعرفة (المراجعات) - ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ٦٤ - ٦٦، الإزهاب في التسلم السياسي.. مفروض أو
 مفترض؟ (المراجعات) - ع ١٢٨ مايو/ ص ٦٢ - ٦٨، وإن يكون الأخير (المراجعات) - ع ١٢٨ مايو / ص ٩٣ - ٩٤، رفعت السيد: تزييف التاريخ
 - عصور في فوضى (المراجعات) - ع ١٣٩ يونيه / ص ٨ - ١٣، رفعت بهجت: اسكندرية كفاي (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٩ أغسطس/ ص
 ١٩٦ - ١٩٩، مهرجان الإسكندرية السينمائي الدولي التاسع (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٢١٤ - ٢١٧، سيما الشاطي: الآخر المتوسط
 (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ٢٥٧ - ٢٥٩، ذلك للخال للردى الطوبى (المراجعات) - ع ١٣٨ مايو / ص ١١١ - ١١٤، رمسيس
 حوض: إم. فورستر والعبادة الجنسية عند الإغريق (المراجعات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ٢٢ - ٤٠، روجر آين ترجمة: محمد عيد إبراهيم، مراجعة
 إدوار الفراط: الرواية العربية والبحث عن الحرية (الفصول والغايات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ٥٤ - ٦٤، رولف إرنهائم ترجمة وتقديم وتمقيت عادل
 السورى: الرؤى والتفكير ورسم الأطفال (الفصول والغايات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٩٤ - ١٠٣، ريتو إيجور ترجمة كاميليا سبى: الإباحية
 والقانون (المراجعات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٦ - ١٧، ريم سعد: معاني الرقى والهبوط في تركيا ومصر (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٨ مايو/ ص
 ١٨٢ - ١٨٤.

(ز)

زكريا علانى: يوسف يعقوب: الاستشراق الفرنسى (المراجعات) - ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ١٥٤ - ١٦٣، زيلب لخصنيرى.. الأب قراتى ودور همزة
 الوصل (المراجعات) - ع ١٣٩ يونيه / ص ١٥٥ - ١٥٦.

(س)

سيفان وايلد، ترجمة أحمد صليحة: نزار قباني الجنس والموت والشعر (الفصول والغايات) - ع ١٢٨ يوليو/ ص ١٠٢ - ١٠٩، سعد القرني: لويس
 عوض ذلك للفرعون (المحاورات) - ع ١٢٩ أغسطس/ ص ١٦٢ - ١٦٦، عن الفرعونية والعروبة وأشياء أخرى سخيفة (المحاورات) - ع ١٣٢

نوفمبر/ من ٢٢٥ - ٢٢٧، سعد لبيب: السياسة الثقافية في ضوء تطور التقنيات في مجال الاتصال (المراجعات) - ع ١٢٣ ديسمبر/ من ١٧٦ - ١٩٠، سعدى يوسف: دائرة المثلث (الإيقاعات والرؤى/ شعر) - ع ١٢٣ ديسمبر/ من ٢٠٠ - ٢٠٤، سلمى خضراء الجبوشى: الحرية والقسر في شعر الصيديات (القصص والغايات) - ع ١٣١ أكتوبر/ من ٦٦ - ٧٧، سليم صواب: الموسيقى العربية ... للهارموني (المحاورات) - ع ١٣٤/ من ١٢٨ - ١٣٢، سليمان الحكيم: لويس عوض هذا الفرعون نقد على نقد (المحاورات) - ع ١٢٠ سبتمبر/ من ٢٢٤ - ٢٣٦، سمير حنا صادق: تراكم السمطرات والظنور (المراجعات) - ع ١٣١ أكتوبر/ من ١٢٤ - ١٢٧، العلم في الثقافة المصرية (المراجعات) - ع ١٢٣ ديسمبر/ من ١٧٠ - ١٧٥، سمير مرقس: تجربة لاهوت التحرير (المراجعات) - ع ١٢٤ يناير/ من ٢٢ - ٢٧، سهام عبد السلام: حتى إشعار آخر (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٥ فبراير/ من ١٤٣ - ١٤٥، سهير عبد الفتاح: بلغ حمدى .. السهرية وحدها لا تكفى (المحاورات) - ع ١٢٢ نوفمبر/ من ٢٣٦ - ٢٣٨، الموسيقى العربية المعاصرة والمستقبل (المحاورات) - ع ١٢٤ يناير/ من ١٢٠ - ١٢٢، سيد محمود حسن: موت المؤلف المسرحي (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢١ أكتوبر/ من ٢٢٨ - ٢٣٠.

(ش)

شارل بوكوفسكى ترجمة: بشير السباعي: سجلات الصيف (الإيقاعات والرؤى/ شعر) - ع ١٢١ أكتوبر/ من ١٤٦ - ١٤٩، شاكر خصبالك: لقهقة (الإيقاعات والرؤى/ مسرحية) - ع ١٣٠ سبتمبر/ من ١٩٢ - ٢٠١، شاكر نوري: صلاح أحمد إبراهيم .. تعال نمرح في غابة الأبنوس أينما الصوت (المراجعات) - ع ١٢٩ أغسطس/ من ١٠٠ - ١٠٤، شريف الشرباشي: للشيخ عبد الله (الإيقاعات والرؤى/ قصة) - ع ١٣٦ مارس/ من ١٣٤ - ١٤٠، شريف رزق: فضاء راعى النباه (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٠ سبتمبر/ من ٢٤١ - ٢٤٥، شوقي عبد الحكيم: الأعشاب والعطارة والخرافات (المحاورات) - ع ١٣٧ إبريل/ من ١٦٢ - ١٦٣.

(ص)

صافياناز كاظم: محمد فريد أبو حديد والظلم التقدي (المراجعات) - ع ١٢٨ يوليو/ من ١٢٨ - ١٢٩، محمد فريد أبو حديد... سيرة الحياة (المراجعات) - ع ١٢٨ يوليو/ من ١٧٤ - ١٧٦، تأمل في الشخصية الأدبية (المراجعات) - ع ١٢٠ سبتمبر/ من ١٦٠ - ١٦٣، صالح السنوسي: أحلام ليلة أندلسية (الإيقاعات والرؤى/ قصة) - ع ١٢٨ يوليو/ من ١٩٢ - ١٩٤، عودة رحمانى (الإيقاعات والرؤى/ قصة) - ع ١٢٨ مايو/ من ١٦٨ - ١٧٠، صادق نور الدين: الحى الخلقى: سؤال الرواية (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٨ يوليو/ من ٢٧٧ - ٢٨٢، صلاح أحمد إبراهيم: أسرة مصرية من طراز رفيع (المراجعات) - ع ١٢٩ أغسطس/ من ١٠٥ - ١٠٧، نحن والرؤى (المراجعات/ شعر) - ع ١٢٩ أغسطس/ من ١٠٧ - ١١١، صلاح الدين محسن: تعقيب على: لويس عوض هذا الفرعون (المحاورات) - ع ١٢٢ نوفمبر/ من ٢٢٨ - ٢٣٠، صلاح هاشم: هل بريطانيا مجتمع عرصرى؟ (المحاورات) - ع ١٣٦ مارس/ من ٤٤ - ٤٨.

(ض)

منياه وثران: العنف بين الدين والسياسة (المراجعات) - ع ١٣٠ سبتمبر/ من ٣٣ - ٣٧، مفاهيم العنف: حدود الخطأ والتمايز (المراجعات) - ع ١٣٠ سبتمبر/ من ٢٨ - ٤٢.

(ط)

طارق الطيب: مجنونة (الإيقاعات والرؤى/ قصة) - ع ١٢٨ يوليو/ من ١٨٧ - ١٨٨.

(ع)

عادل أبو زهرة: ازدهار الإسكندرية... وتدهورها (المراجعات) - ع ١٢٢ نوفمبر/ من ١٢٤ - ١٢٧، عادل حلمى بدر: العيد الثالث لمهرجان كافاقس (١٢ - ١٥ نوفمبر) (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٣ ديسمبر/ من ٢٧٥ - ٢٧٦، عادل غنيم: فلماذا جراسى؟ (المراجعات) - ع ١٢٤ يناير/ من ١٠٠ - ١٠٤، عاطف أحمد: حسن البنا .. فقه الاختلاف (المراجعات) - ع ١٢٣ ديسمبر/ من ٦٨ - ٧٣، عالية مندرح: فراض الهوى (الإيقاعات والرؤى/ شهادة) - ع ١٢٧ إبريل/ من ١٠٧ - ١١١، عبد الرحمن أبو عوف: لغة الفرض وفقه اللغة (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٨ يوليو/ من ٢٦٦ - ٢٧١، آليات... الواقع والرمز في العالم الشعري لمحسن طاب (المراجعات) - ع ١٣٠ سبتمبر/ من ١٤٢ - ١٤٨، مأسى المهملين (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٣ ديسمبر/ من ٢٢٦ - ٢٢٨، التثوير يواجه النظام (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٥ فبراير/ من ١٣٠ - ١٣٦، رحيل الأب الروحي لجعل التنبهات... وأحزان محب (شهادة) - ع ١٣٦ مارس/ من ٢٨ - ٣١، جدلية الرعى والتذكارة والتخيل في الخطاب الشعري لدى وليد منير (المراجعات) - ع ١٢٨ مايو/ من ١٥٧ - ١٦٢، عبد الرحمن الأبندي (أول قصيدة) - ع ١٣٦ مارس/ من ٢٩، عبدالعال الحامصى :

أطفال الله (الإيقاعات، والرؤى / قصة) - ع ١٣٦ مارس / من ١٤١ - ١٤٤، عبدالعزيز موفى، بيوت وراء الأضفار والبحث عن الزمن المفقود (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٠ سبتمبر / من ١٣٨ - ٢٤١، مدن مربية (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣١ أكتوبر / من ١٦٤ - ١٦٨، حسين عفيف.. سيرة الحياة ومغامرة الشعر تقديم الملف (الفصول والغايات) - ع ١٣٥ فبراير / من ٥٧ - ٥٨، الإطوار النظري للشعر المنثور عند حسين عفيف (الفصول والغايات) - ع ١٣٥ فبراير / من ٦٤ - ٦٩، شربة النص وشروط المحادثة (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٥ فبراير / من ١٤١ - ١٤٨، مصورة شخصية، لذاكرة شعرية أخرى (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٧ إبريل / من ١٦٩ - ١٧١، الإطوار النظري للشعر عند إبراهيم شكر الله. ع ١٣٨ مايو / من ١٤ - ١٧، إبراهيم شكر الله (بطلاقة) - ع ١٣٨ مايو / من ٥٩، عبدالمعظم محمد: تعميق الانبساط (المواجهات) - ع ١٣٠ سبتمبر / من ٤٢ - ٤٥، عبدالفتاح للجمال: مختارات من كتابات نصية - ع ١٣٦ مارس / من ٣٢ - ٣٦، عبدالفتاح جلال: القرينة والتفرد الخلفة (الفصول والغايات) - ع ١٣٦ مارس / من ٨٤ - ٨٨، عبدالله السطى: على زجاج مهضم (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣١ أكتوبر / من ١٧٠ - ١٧٢، عبدالله باخشوين: الفباير (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣٢ نوفمبر / من ١٨٤ - ١٨٦، عبد المنعم رمضان: في الليل (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣٢ نوفمبر / من ١٨٠ - ١٨٣، عبدالمعظم سعيد: تحطيم الوهم حول الحركة الإسلامية (المواجهات) - ع ١٣٠ سبتمبر / من ٥٦ - ٥٧، عبدالمعظم سليم: شكسبير الجديد (المواجهات) - ع ١٣٨ مايو / من ١٥٣ - ١٥٦، ووجين يونسكو (المواجهات) ع ١٣٩ / من ١٧١ - ١٧٤، عبدالمعظم عواد يوسف: جولي عبدالرحمن.. الجود والسيف العكس (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٨ يوليو / من ٢٧٢ - ٢٧٤، عبدالوهاب الأسواني: أرتجال الظل (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣٠ سبتمبر / من ٢٠٦ - ٢٠٨، عبدالوهاب تلود: احتفالية أمل دنقل ومراقبة التاريخ (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٠ سبتمبر / من ٢٥١ - ٢٥٢، في ذكرى على فندول (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣١ أكتوبر / من ٢٢٦ - ٢٢٨، عبده جبير: قراءة في أخبار الأدب (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٩ أغسطس / من ١٩٠، جلجلة (شهادة) - ع ١٣٦ مارس / من ٢٣ - ٢٥، عبلة الربويي: د. نصر أبو زيد (المعارات) - ع ١٣٢ نوفمبر / من ٢٢٩ - ٢٤٨، عثمان حسن عبدالله: محمد فريد أبو حديد.. في ذكرى رائد عظيم (المواجهات) - ع ١٢٨ يوليو / من ١٣٠ - ١٣١، عرفة عبده علي: مغالطات نعيم تكللا (المعارات) - ع ١٢٨ يوليو / من ٢٠٤ - ٢٠٨، إشاعة الوهم - نجيب محفوظ في الدراسات الإسرائيلية (المواجهات) - ع ١٣٩ يونيو / من ٦٢ - ٦٧، عرفة محمد عبد الجواد: بليغ حمدي: مفتاح الليل (المعارات) - ع ١٣٢ أكتوبر / من ٢٠٠ - ٢٠٢، عروسية اللؤلؤ: البراق الهاربة (الإيقاعات والرؤى / شهادة) - ع ١٣٧ أبريل / من ١١٩ - ١٢٠، عز الدين أسامة: ورود سامة لصقر (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٦ مارس / من ١٦١ - ١٦٤، عز الدين بدوي: تساؤلات حول مهرجان المسرح التجريبي (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣١ أكتوبر / من ٢٢٤ - ٢٢٦، عزت عامر: هندسة المستقبل (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٨ يوليو / من ٢٤٥ - ٢٤٦، يوهنا السعمنان الذي هو يحيى بن زكريا (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣٥ فبراير / من ١٠٧ - ١١٣، عصام الزهريري: مشروع النهضة وأزواجها الفكر والمياسة (المعارات) - ع ١٣٧ أبريل / من ١٦٣ - ١٦٤، عطيات الأبنودي: النص الكامل لمحاكمة وإعدام زعيم إسلامي في السودان (الفصول والغايات) - ع ١٢٤ يناير / من ٤٦ - ٤٧، الدفعة الثالثة (شهادة) - ع ١٣٦ مارس / من ١٥ - ١٦، علاء الدوب: دروس الأستاذ عبدالفتاح للجمال (شهادة) - ع ١٣٦ مارس / من ٣٧، علاء غنام: حقوق للفظ وصحته النفسية (الفصول والغايات) - ع ١٣٠ سبتمبر / من ٧٤ - ٧٩، على أحمد: الكتانية (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٥ فبراير / من ١٥٣ - ١٥٤، على الشوباشي: تأملات حول مسألة المعارضة في مصر (بدايات) - ع ١٣٥ فبراير / من ٨٤، الإرهابي الطالب تحية له وللإعلام (المواجهات) - ع ١٣٨ مايو / من ١٠١ - ١٠٣، على زين العابدين فرح: عن أدب الحوار والتكفير (المعارات) - ع ١٣١ أكتوبر / من ٢١٠ - ٢١١، على عفيفي: الخنادق (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣٢ نوفمبر / من ٢٠٨ - ٢١٠، تنذاري.. الصوت والتأليل والشور (المواجهات) - ع ١٣٣ ديسمبر / من ١٩٢ - ١٩٨، على عوض الله كراي: قبيل: والآخر، والسؤال الجوال بحثا عن تكاملية أولى (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٢ نوفمبر / من ٢٦٩ - ٢٧٢، على فهمي: العوام والأندى (الفصول والغايات) - ع ١٢٨ يوليو / من ٨٦ - ٩٥، حول التوبة التليفزيونية: ملاحظات في المنهج وفي الموضوع (المواجهات) - ع ١٣٨ مايو / من ٩٥ - ١٠٠، على منصور: قصيدتان (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣١ أكتوبر / من ١٥٨ - ١٥٩، صبر الفاروق: تلخيص للمصر في شخصية مصر (١) (الفصول والغايات) - ع ١٣٨ مايو / من ١١٦ - ١٤٦، تلخيص المصغر في شخصية مصر (٢) (الفصول والغايات) - ع ١٣٩ يونيو / من ١٠٠ - ١٤٢، صمو على يركات: قراءة على قراءة لرسائل جمال حمداني (المعارات) - ع ١٣٦ مارس / من ١٥٣ - ١٥٥.

(غ)

غالي شكري: من المصحور - ع ١٢٨ يوليو / من ٣، من لا يخاف الشيخ الغزالي (بدايات) - ع ١٢٨ يوليو / من ٤ - ٨، من المصحور - ع ١٢٩ أغسطس / من ٣، بين أفتة الاعتدال، وجوه التطرف (بدايات) - ع ١٢٩ أغسطس / من ٤ - ٩، الثقافة العربية والمغفريات العالمية (الفصول والغايات) - ع ١٢٩ أغسطس / من ٥٢ - ٧٧، من المصحور - ع ١٣٠ سبتمبر / من ٣، الخطاب غير الوطني (بدايات) - ع ١٣٠ سبتمبر / من ٤ - ٢٢،

من المحرر - ع ١٣١ أكتوبر / ص ٣، أكتوبر... وللخيال الأدبي (بدايات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ٤ - ٦، من المحرر - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٣، الخطاب الاستهلاكي (١) (بدايات) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ١٥٤، من المحرر، ودعا... ميشيل كامل - ع ١٣٢ ديسمبر / ص ٣، الخطاب الاستهلاكي (٢) (بدايات) - ع ١٣٣ ديسمبر / ص ١٦٠، من المحرر - إلى - كل قارئ - ع ١٣٤ يناير / ص ٣، الخطاب الاستهلاكي (٣) (بدايات) - ع ١٣٤ يناير / ص ١٣٤، من المحرر - ع ١٣٥ فبراير / ص ٣، من المحرر ثقافة الإبادة العنصرية - ع ١٣٦ مارس / ص ٣، من المحرر... حتى لا تفقد نازك الملاكمة - ع ١٣٧ إبريل / ص ٣، من المحرر - ع ١٣٨ مايو / ص ٣، من المحرر - نحو ميثاق ضد التطبيع الثقافي - ع ١٣٩ / ص ٣.

(ف)

ف. ف. ناومكين، س. ١. بانارين، ترجمة: أنور محمد إبراهيم: الشرق السوفيتي باعتباره مشكلة استشرافية (المراجعات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ١١٨ - ١٢٤، فاروق يسوي: البراق الشعبي في الفن المصري (المراجعات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ١٦٤ - ١٧٨، فاضل الأسود: أبرز نقاشين يعود بقوة للدرجات الحديثة (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢٧٢ - ٢٧٧، فايز محمود: الهدير المستمر (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٢٨ يولييه / ص ١٩٩ - ٢٠٠، فتحى أبو العيول: صورة للذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي (الفصول والغايات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ٩٢ - ١٠٨، فتحى إمامي: بشر (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣٥ فبراير / ص ١٠٤ - ١٠٦، فتحى صالح: نحو مفهوم موحد للمقامات (المحاورات) - ع ١٣٤ يناير / ص ١٣٣ - ١٤٤، فتحى عامر: التداخل المعاصر والاستقلال الفكرى (المواضيعات) - ع ١٣٥ فبراير / ص ٢١ - ٢٦، فتحى عبدالله: قصائد للرصيف وللشحات الجميل (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٨ يولييه / ص ٢٧٤ - ٢٧٧، اللغة وكيفية البناء عند ناصر العلوى (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ٢١٥ - ٢١٦، سلطة المعرفة والدلالة الشعرية (المراجعات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٢٨ - ١٣٠، طه حسين وشهد العصر (المراجعات) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ١١٦ - ١١٩، لطفي السيد بين الذات والمجتمع (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٣ ديسمبر / ص ٢٦٩ - ٢٧١، هل فرنسا عصرية؟ (المواضيعات) - ع ١٣٦ مارس / ص ٦٧ - ٧٠، الأداء الشعرى في ديوان مروت المائلة (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٧ إبريل / ص ١٧٥ - ١٧٦، إنسانية النص واختفاء خصوصية المكان (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٨ مايو / ص ١٨٠ - ١٨١، فتحى فرغلى: صفحة النساء (شهادة) - ع ١٣٦ مارس / ص ٨ - ١٢، فخرى صالح: الاستغراب في مواجهة الاستشراق (المراجعات) - ع ١٣٧ إبريل / ص ٧٥،٧٢، فريدة الشراشبي: هدايا بابا نويل (١) (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣٩ يونيو / ص ٢٠٩ - ٢١٠، فرج العربي: بين يدك لعبة قيس في عامه الثاني (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣٥ فبراير / ص ١١٤، فوزى سليمان: السليما للصينية الجديدة في مهرجان ميونخ (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢٦٢ - ٢٦٤، سيماء شابة في عالم متغير (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ٢٣٦ - ٢٣٨، مهرجان فالنسيا لدرل البحر المتوسط (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٢٧٢ - ٢٧٥، السليما واللمرح بين مصر والهند (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٦ مارس / ص ١٦٤ - ١٦٦، فوزية رشيد: ذلك الألق (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٢٨ يولييه / ص ١٩٥ - ١٩٨، فيديريكو فيغليتي ترجمة المحمود إبراهيم: فن السليما (المحاورات) - ع ١٣٣ ديسمبر / ص ٢٥٦ - ٢٦١، ترجمة على نبوي عبدالعزيز: انجمان برجمان (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٧ أبريل / ص ١٨٤، فيليب تانسولين، ترجمة كاميليا صحبي: لواقع السياسى والإباحية (المراجعات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٢ - ١٤، فيليب عطية: بدايات الطب الحديث في مصر (المراجعات) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ١٣٤ - ١٣٩.

(ك)

كريستينا بوتنيسكا ترجمة بلقينة رشدى: الحب والجيش فى الرواية وللشعر العربى فى تونس (الفصول والغايات) - ع ١٢٨ يولييه / ص ١١٠ - ١١٦، كريستيان فان نيسين: قضية الإنسان عند الأب جورج شحاته قنراتى الدومنيكانى (المراجعات) - ع ١٢٩ / ص ١٤٤ - ١٤٦، كريستين عبد الكريم ويلان ترجمة خليل كلفت: مهمة منخعة فى انتظار إعادة البناء للوطنية (الفصول والغايات) - ع ١٢٩ يولييه / ص ٨٨ - ٩١، كريم عبدالسلام: فلسفة الجسد (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٨ يولييه / ص ٢٨٣ - ٢٨٤، محمود درويش فى أحد عشر كركبا (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢٥٢ - ٢٥٦، قلمع أيام بوضاء (الإيقاعات للرؤى / شعر) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٢٠٢ - ٢٠٥، على مبارك رلك التحديث فى مصر (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٣ ديسمبر / ص ٢٢٤ - ٢٢٥، كمال الجوىلى: ست للحسن والجمال تغل من صندوق الدنيا فى لوحات حلمى الدرنى (المراجعات) - ع ١٣٨ مايو / ص ١٤٨ - ١٥٢، كمال مرسى: المخاض (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٨٢ - ١٨٤.

(ل)

إيلي الزبيدي : ألفن وتوفرت وتعمل السلطنة (المواهبات) - ع ١٣٢ نوفمبر / من ٥٤ - ٦٤ ، لطفي عبدالوهاب يحيى : التواصل الحضارى وأزمة الهوية (المواهبات) - ع ١٣٥ فبراير / من ١٢ - ٢٠ ، لوث جاريا كاسيتوف : اكتشاف نص مجهول (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٩ أغسطس / من ٢١٧ - ٢٢١ ، صورة المسم في حكايات الأطفال الأسبانية (الفصول والغايات) - ع ١٣٠ سبتمبر / من ١٠٤ - ١١٥ ، مانولو كاراكول أمير الفلامنكو (المواهبات) - ع ١٣٦ مارس / من ١٢٨ - ١٣١ ، لورنس هاريس ترجمة خليل كلفت : تأمين الفصل الحضري للسلطة الاقتصادية في جنوب أفريقيا (الفصول والغايات) - ع ١٣٩ يونيو / من ٨٢ - ٨٧ ، لوى ماكيس ترجمة ماهر شفيق فريد : الدقائق الساخنة (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣١ أكتوبر / من ١٤٠ - ١٤٥ ، ليانة بدر : انعكاس للتفاصيل في المرأة (الإيقاعات والرؤى / شهادة) - ع ١٣٧ أبريل / من ١١٢ - ١١٤ ، ليلى عبدالوهاب : المرأة والحضارة (المواهبات) - ع ١٢٨ يوليو / من ٤٨ - ٦٣ .

(م)

مارتن جرزلا ترجمة كاميليا صبحي : الجزائر .. من يريد الموت للمفكرين (الفصول والغايات) - ع ١٣٤ يناير / من ٨٧ - ٩٧ ، مارك لاشيز - رى ، جان بوير ليمنيه ترجمة عزت عامر : مولد الأكوام (المواهبات) - ع ١٢٩ أغسطس / من ١٢٠ - ١٢٥ ، ماجد يوسف : برايز الأنتي (٢) (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٢٩ أغسطس / من ١٥٥ - ١٦٠ ، ماشاندو أسيس ، ترجمة خليل كلفت : مارش جلاتزى (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٢٩ أغسطس / من ١٥٠ - ١٥٤ ، سر ألبونزو .. فصل غير منشور ، بقلم فرنون منديس بيترو (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣٣ ديسمبر / من ٢١٢ - ٢١٦ ، ماهر حسن فهمي : فنا السامح الحكى والآخر للصدى (المحاورات) - ع ١٣٠ سبتمبر / من ٢٢٩ - ٢٣٣ ، مايكل لوفى ترجمة بشير السباحي : الماركسية والدين (المواهبات) - ع ١٣٤ يناير / من ١٦ - ٢١ ، مجدى فرج : بناء العالم (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٩ أغسطس / من ٢٠٨ ، التمرد الخلاقي في تحولات نازلي مذكور (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٨ مايو / من ١٧٢ - ١٧٣ ، مجدى يوسف : العنصرية في ألمانيا (المواهبات) - ع ١٣٦ مارس / من ٦٢ - ٦٦ ، حول التداخل الحضارى والاستقلال الفكرى .. رد وتعقيب (المحاورات) - ع ١٣٦ مارس / من ١٥١ - ١٥٢ ، محروس سليمان : حول نقد كتاب الجذور الإسلامية (المحاورات) - ع ١٢٩ أغسطس / من ١٨٧ - ١٨٨ ، محسن خضر : صورة إسرائيل ومستقبلها لدى الشباب الجامعى المصرى (المواهبات) - ع ١٣٩ يونيو / من ٢٦ - ٢٩ ، محسن يونس : تعددية للفاعل القديم (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٢٩ أغسطس / من ١٣٥ - ١٣٨ ، محمد أبو الإسعاد : أوراق محمد فؤاد شكرى (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٧ إبريل / من ١٨١ - ١٨٣ ، محمد السياسى : للتحفظات الأخيرة (شهادة) - ع ١٣٦ مارس / من ١٣ - ١٤ ، محمد السيد إسماويل : الدولة الدينية (قراءة في عددي يوليو ويوليوس من مجلة القاهرة) (المحاورات) - ع ١٢٩ أغسطس / من ١٦٧ - ١٧٠ ، محمد القليوبى : البحث عن الجمال (شهادة) - ع ١٣٦ مارس / من ٢١ - ٢٢ ، محمد بدرى : عن فن جميل شفيق (الإشارات والتنبهات) - ع ١٣٠ سبتمبر / من ٢٤٥ - ٢٤٨ ، قصائد أخرى في مخبج السر (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣٢ نوفمبر / من ١٨٨ - ١٩١ ، محمد بروادة : الحداثة في الإبداع (المواهبات) - ع ١٢٩ أغسطس / من ١١٢ - ١١٨ ، محمد حافظ دياب : مرايا الذات والآخر نموذج ترفغان ترديروف (المواهبات) - ع ١٣٥ فبراير / من ٢٧ - ٢٧ ، محمد حافظ رجب : القلم يشهق .. نقاشة آثم (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣٣ ديسمبر / من ٢٠٦ - ٢٠٩ ، ليث عن ماه للذة اللزج (١) (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣٩ يونيو / من ١٩٨ - ٢٠١ ، محمد حمزة : للتجريدية وأثرها في الفن المصرى (المواهبات) - ع ١٣٧ أبريل / من ٨٢ - ٩٤ ، محمد جلال عبدالرازق : أولى صيحات التكريات المصرى (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٨ يوليو / من ٢٥٢ - ٢٥٥ ، محمد سليمان : أنابيش (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٢٩ أغسطس / من ١٣٢ - ١٣٤ ، محمد سكر : جاك بيرك .. الإسلام الممتد (المواهبات) - ع ١٢٩ أغسطس / من ١٥ - ١٨ ، محمد صالح : ١٩٩٣ (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٢٩ أغسطس / من ١٢٨ ، حالات الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣٥ فبراير / من ٩٨ - ٩٩ ، محمد منقى : وجهان للحقيقة (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣٠ سبتمبر / من ١٨٠ - ١٩٠ ، محمد عبدالصالح : مقعد ثابت في الرعب .. بين الانقطاع والتواصل (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٨ مايو / من ١٧٤ - ١٧٩ ، محمد عبدالمنعم خاطر نحاكية من وادى السلع (الإشارات والتنبهات) - ع ١٢٨ يوليو / من ٢٥٧ - ٢٥٩ ، محمد على أبو الرغاب : حول الجلس والفكر والوجود (المحاورات) - ع ١٣٢ نوفمبر / من ٢٢٠ - ٢٢٤ ، محمد غنيمي هلال : حسين عفوف .. الأرض (الفصول والغايات) - ع ١٣٥ فبراير / من ٥٩ - ٦٣ ، محمد فريد أبو حديد : مذكرات (المواهبات) - ع ١٢٨ يوليو / من ١٢٨ - ١٦٣ ، سؤال من نحن ؟ (المواهبات) - ع ١٢٨ يوليو / من ١٦٤ - ١٦٦ ، للدور الأول من حياة الأمة العربية (المواهبات) -

ع ١٢٨ يولية / ص ١٦٧ - ١٧٣، رسالة (المراجعات) - ع ١٢٨ يوليه / ص ١٧٦، محمد قطب : الزعيم بين التراث وعطاء العالم الغربي (المراجعات) - ع ١٢٧ نوفمبر / ص ١٤٠ - ١٥٢، محمد محمود حمدان : جمال حمدان رسائل طالب بعثة تقديم وتعليق (الفصول والغايات) - ع ١٣٥ فبراير / ص ٤٨ - ٥٤، محمد محمود عبدالرازق : ياقة ورد من النثر اللباس (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ٢٠٢ - ٢٠٧، ظاهرات لغوية ... في قصة النوبة (المراجعات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ١٥٠ - ١٥٩، القصص والتعليق (المواجبات) - ع ١٢٩ يوليه / ص ٥٠ - ٦١، محمد مندور : رسائل محمد مندور إلى طه حسين (الفصول والغايات) - ع ١٣٢ ديسمبر / ص ١٠٦ - ١١٨، محمد هشام : لحظات (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢١٥ - ٢١٧، محمود العشيري : إشكالية الزمان في (مطل الوقت) (المراجعات) - ع ١٣٩ / ص ١٤٧ - ١٥١، محمود قرني : ما يشبه العويل (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٥٤ - ١٥٥، الشعر الإساءة للشعر (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٧ إبريل / ص ١٦٦ - ١٦٨، منحت ميخائيل : المنصورة في أمريكا .. حديث مع ديفيد ديبوين (المواجبات / ترجمة) - ع ١٣٦ مارس / ص ٤٩ - ٥٥، حادثة رودني كيتج (المواجبات / ترجمة) - ع ١٣٦ مارس / ص ٥٩ - ٥٧، عصرية الولايات المتحدة في تصاعد (المواجبات) - ع ١٣٦ / ص ٦١٠ - ٦١٨، مريد البرغوثي : صمت الحرب (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٢٨ يوليه / ص ١٨٩ - ١٩١، مشهور فواز : قراءة في قصيدة «أسرار» لأحمد عبد المصطفى حجازي (المراجعات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١١٠ - ١١٣، مصباح قلب : رشدي سعيد ونهر النيل (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٢٢ نوفمبر / ص ٢٦٠ - ٢٦٢، مصطفى الحسيني : حيرة عربي .. حيرة يهودي (المواجبات) - ع ١٣٩ يوليه / ص ٣٠ - ٣٩، مصطفى الضمراني : بالغى حمدي قيادته للنعم (المواجبات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٩٦ - ١٩٩، مصطفى عبدالغني : المتقنون وعقده الذنب في الأدب العربي (النصير والغايات) - ع ١٢٨ يولية / ص ١١٨ - ١٢٤، مصطفى عبدالله : الحوار الأخير مع زكي نجيب محمود (المواجبات) - ع ١٢٥ فبراير / ص ١٢٢ - ١٢٧، مفرح كريم : إبراهيم شكر الله مواقف المشق وتحولات المودة - ع ١٣٨ مايو / ص ١٣٥، ملك عبدالعزيز : تعليق على رسائل مندور إلى طه حسين (المواجبات) - ع ١٣٦ مارس / ص ١٤٨ - ١٤٩، مهدي بندق : حارة نصر حامد أبو زيد وبلاد الواق واق. (المواجبات) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٧٧ - ١٧٨، عن الثقافة المضادة ومذبح التأويل المتعاكس (المواجبات) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٢١٢ - ٢١٩، مهدي مصطفى : الخط العربي ميراث الأسلاف (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ٢٢١ - ٢٢٤، الخزاف (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٥١ - ١٥٢، ميشيل أو نغريس، ترجمة كاميليا صبحي : الواحد في الآخر فلاسفة الإباحية (المواجبات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ٢٦٤ - ٢٦٥، ميلاد زكريا يوسف : حسن حنفي والمناصرة التفسيرية (المواجبات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢٢٨، مروة (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٢٥ فبراير / ص ١١٥ - ١١٧.

(ن)

نبيل فرج : رمعيون يونان من السريالية إلى التجريدية (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٢٨ يوليه / ص ٢٥٦ - ٢٥٧، فن فؤاد كامل .. المادة والطاقة الواقع والخيال (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٩٤ - ١٩٥، رسائل محمد مندور إلى طه حسين تقديم (الفصول والغايات) - ع ١٣٣ ديسمبر / ص ١٠١ - ١٠٥، نجدى سفير ترجمة كاميليا صبحي : تحديات البحر الأبيض (المواجبات) - ع ١٣٥ فبراير / ص ٣٨ - ٤٢، نعم وإلى : فان كوخ ويوترويا اليابان (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٢٥ فبراير / ص ١٥١ - ١٥٢، نجوى ريكات : التناقل (الإيقاعات والرؤى / شهادة) - ع ١٣٧ إبريل / ص ١٢١ - ١٢٢، نجوى يونس : نادين جرديمير في مصر (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ٢١٢ - ٢١٣، نزار محمود سمك : استحقاق الوطن والمواطن (المواجبات) - ع ١٣٨ مايو / ص ١٠٤ - ١١٠، نسيم مجلي : للتجربة الماسونية في مصر (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٢٥٠ - ٢٥٥، نعمات للبحري : أرغفة الطين (الإيقاعات والرؤى / شهادة) - ع ١٣٧ إبريل / ص ١٢٣ - ١٢٥.

(هـ)

هالة عصمت القاضي : جاك بيريك يقول : مبادئ القرآن الكريم تتفق مع المنهج العقلي للتفكير (المواجبات) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٤ - ١٥، القرآن الكريم في موضوع الدراسة والبحث (المواجبات) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ٢٠ - ٢٢، أندريه ميكل : لم أحببت الإسلام؟ (المواجبات) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ٢٣ - ٢٥، عودة إلى مشكلة نهاية التاريخ (المواجبات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٩٢ - ١٩٥، حوار مع نجيب محفوظ (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٢٦٦ - ٢٦٨، القرآن والإنجيل (المواجبات) - ع ١٢٧ إبريل / ص ٢١ - ٢٢، هاني المرعطي : لويس ألتوسير :

القراءة الكشفية للنص الماركسي (المراجعات) - ع ١٣٧ إبريل / ص ٥٠ - ٦٠، هيلاركيليتريك، ترجمة محمد عبد إبراهيم مراجعة: إدغار الخراط (الفصول والغايات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ٧٨ - ٩٠.

(و)

وائل غالى : خرافة (الفصول والغايات) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ١٠٠ - ١٠٧، احتفالية الوجود والعدم (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٣ ديسمبر / ص ٢٧٢ - ٢٧٤، بؤس العالم (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٦ مارس / ص ١٧٣ - ١٧٦، وطفاء حمادة: المسرح التيناني مشاكل وأفاق (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٢٨ يولييه / ص ٢٨٤ - ٢٨٦، وقاه إبراهيم : جالتي صافية والدير، قراءة وتفسير (المراجعات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ١٣٢ - ١٤١، مفهوم الذوق الأدبي عند طه حسين (المراجعات) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ١١١ - ١١٥، وقاه حامد كمالو تغريبة مصرية (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٢٨ يولييه / ص ٢٥٠ - ٢٥٢، وقاه وجدى: متواترات لحظية (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٢٠٦ - ٢٠٧، رسالة إلى سيدتي فى الخمسين (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣٨ مايو / ص ١٦٦ - ١٦٧، وافيح الفرماوى : اللصق (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢١٢ - ٢١٤، وليد الخشاب : مهرجان للتلفيزيون .. أم سوق للفيديو (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٢٥٦ - ٢٥٧، يونسكو: العيث والزجاجة والصهونية (المراجعات) - ع ١٣٩ يولييه / ص ١٧٥ - ١٨٠، وليد ملير: رقصات نيلية (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢٤٨ - ٢٥٠، لحظة ليقطة الحلم (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ١٩٦ - ١٩٩، السر والأجنة (المراجعات / شعر) - ع ١٣٨ مايو / ص ١٦٣، وليم سليمان قلادة : زكى نجيب محمود والعوار بين الأديان (الفصول والغايات) - ع ١٣٣ نوفمبر / ص ٩٦ - ٩٩، جدل التعدد والوحدة فى الواقع المصرى (المراجعات) - ع ١٣٥ فبراير / ص ٨٠ - ٩٥.

(ى)

معقرب للشارونى : ثقافة الطفل من خلال القصص والحكايات الشعبية (الفصول والغايات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٩٠ - ٩٢، وجين يونسكو ترجمة عبد القادر التمساني / : كل الركاب يسرعون إلى المقاعد الفردية (المراجعات) ع ١٣٩ يولييه / ص ١٨١ - ١٨٤، ترجمة عبد المنعم سليم: أن نتعلم السير (المراجعات) - ع ١٣٩ / ص ١٨٨ - ١٨٩، سيداريو فيلم الفئب (المراجعات) - ع ١٣٩ / ص ١٨٩ - ١٩٣، النقاد وأنا (المراجعات) - ع ١٣٩ / ص ١٩٤ - ١٩٦، يوسف أبوريه : مصباح الجاز (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٤١ - ١٤٢.

هَذَا الْكُتَابُ

ملك الأستاذ الدكتور

ومنزى زكى بطرس

اعتذار

سقط سهواً اسم الكاتبة ريم سعد من العدد

١٣٨٠ مايو ١٩٩٤ وذلك من مقال معاني

الرقى والهيوط الفنى فى تركيا ومصر ولذا

نعتذر للكاتبة وللقرء .

هذه الكتابة
ملك الأستاذ الدكتور
عيسى زكي طرس

